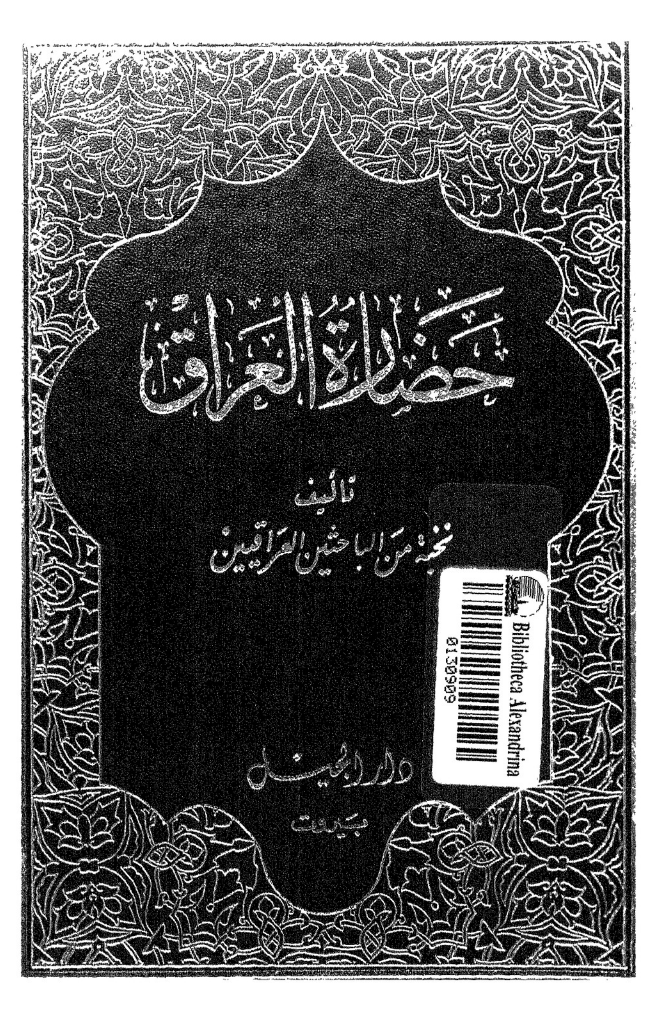


Bibliotheca Alexandrina
0130909


حضارة العراق



تأليف
نخبة من الباحثين العراقيين

الجزء الثالث عشر

بغداد ١٩٨٥

العراقُ المعاصرُ

(٢)

الفصل الأول

المجتمع والأنشطة الصحية والثقافية

المبحث الأول

تطور الحياة الاجتماعية

د. معن خليل عمر
كلية الاداب ـ جامعة بغداد

المقدمة

أيضاح : قبل الدخول في عرض وتوضيح تطور الحياة الاجتماعية بعد الاستقلال الوطني ولغاية ١٩٥٨ أرجو ان لا يفهم بأن ما سوف نعرضه من أحداث وتطورات اجتماعية تمثل الانماط المعاصرة لأن مفهوم المعاصرة في علم الاجتماع تعني الاحداث التي تعيش في الوقت الحاضر ولها ديمومتها وفاعليتها في الحياة الاجتماعية وما موجود من أحداث اجتماعية في هذا الفصل يعكس الحقبة الزمنية المحددة اعلاه ليس الا .

التركيب السكاني للمجتمع العراقي

يعني التركيب السكاني توزيع السكان في المجتمع بمقتضى فئات تتميز بصفات عمرية وجنسية واجتماعية وقومية ودينية وجميع الخصائص التي

يتسم بها المجتمع حيث ان معرفة هذا النوع من التوزيع السكاني يعطي مؤشراً ودلالات واضحة حول بعض الظواهر الاجتماعية الثابتة والمتطورة مثل دراسة العوامل الاجتماعية او الصحية التي تؤثر على معدل الولادات والوفيات والهجرة الداخلية والخارجية وما شابه . فعلى سبيل المثال لا الحصر كان تقسيم الجنس ذكوراً واناثاً في المجتمع العراقي في عام ١٩٤٧ (٢٫٢٥٧٫٣٤٥) من الذكور و (٢٫٥٥٨٫٨٤٠) من الأناث وكان تعداد الذكور في عام ١٩٥٧ يساوي (٣٫١٥٥٫٠٤٩) وكان تعداد الأناث يساوي (٣٫١٤٣٫٩٢٧) .

انماط الحياة الاجتماعية

لقد ذكرنا اهم عناصر مكونات التركيب السكاني للمجتمع العراقي بعد عام ١٩٢٢ أي بعد الاستقلال الوطني وفي هذا المقام نرى ضرورة ذكر الحجم السكاني للمجتمع العراقي في تلك الفترة الزمنية فقد سجلت دوائر النفوس العراقية خلال عام ١٩٣٥ (٣٫٢١٤٫١٨٣) الا ان هذا التسجيل بقى ناقصاً اذ انه لم يشمل الكثير من القبائل الرحل او من كانت مساكنهم بعيدة عن مراكز التسجيل والمتهربين من التسجيل وخمنت السلطات الحكومية في ١٩٤٢ ان نفوس العراق كان (٤٫١٤٦٫٠٠٠) نسمة .

ونعني بعبارة النمط هنا مجموعة عادات واعراف تمثل اسلوب عيش أفراد المجتمع ، وسوف نتناول ثلاثة انواع من الانماط التي سادت المجتمع العراقي في تلك الحقبة من الزمن وهي ما يلي :

١ ـ نمط الحياة البدوية

يقوم هذا النمط على الحس القبلي (العصبيه القبلية) الذي يؤكد على التضحية من أجل القبيلة وقيمها واعرافها ونسبها وعادات الايثار في حالة الجدب التي تمر بها المراعي الصحراوية .

لذلك تكون العلاقة الاجتماعية بين أفراد القبيلة الواحدة متضـــامنة ومتكافلة في وظائفها الاجتماعية ويكون الحس القبلي مبنياً على النسب الابوي حيث تكون تسمية ابناء المجتمع البدوي آخذه بنسب الاب وليس بنسب الام ولما كانت القبيلة عبارة عن مجموعة أسر ذات نسب واحد فان جميع أسر القبيلة تلتقي بأب مشترك ينتسبون اليه وازاء هذا الارتباط النسبي فأن المكانات الاجتماعية لافراد القبيلة تمثل هرماً متدرجاً يبدأ برئيس القبيلة ويقل شأن المكانات الاجتماعية كلما ابتعد المركز عن نسب رئيس القبيلة . أضافة الى ذلك فالبدوي يخضع في مناشطه اليومية للاعراف والسنن الاجتماعية والقضائية غير المكتوبة ويقوم بالاشراف على تنفيذ الاعراف والسنن القضائية أشخاص معروفون في القبيلة وعادة يكونون من كبار القبيلة سنا ومكانة ومروءة وأكثرهم حفظا لتراث القبيلة الشفوي .

ب ـ نمط الحياة الريفية

من أبرز ســـمات هذا النمط هو الغرس والزرع الذي كان الدافـع الاساسي في أرتباط ابناء الريف بأرضهم حيث كانوا يزرعون الحنطة والشعير والذرة والدخن والرز والقطن والسمسم والعديد من الخضر فالمغارسة جعلت من الفرد الريفي الصق بمكانه من غيره من أصحا بالاراضي حيث جعلت منه شخصا ذا علاقة بمغروساته وهذا بدوره ولد له علاقة بالملك والحكومة والتزامه بدفع ضرائب زراعية للدولة وخضوعه لتنظيم رســمي في حياتـه اليومية داخل القرية وهذه هي الخطوة الاولى لتحضر الفرد البدوي العرافي ، اضافة الى السمة الـسالفة الذكر التي ميزت حياة مجتمع الريف .

هناك سمة اخرى وهي الاستقرار في السكــن وانعــدام روح الغـــزو وتربية المواشي وخضوع افراده الى القوانين الرسمية المدونة اكثر من خضوعه للاعراف البدوية غير المدونة وأصبحت المكانة الاجتماعية للفرد (في الريف) مرتبطة بملكيتهم ودخلهم ، ومرد ذلك يرجع الى آتصال ابناء الريف بالمحيط

الخارجي (أي خارج منطقة القرية التي يسكنونها) والى الاساليب التجارية الجديدة التي ظهرت في السوق العراقية والى أرتباط القرية العراقية بالمدينة اكثر من أرتباطها بالبادية وهذا بدوره أدى الى وقوع القرية تحت تأثير الجذب لحاجات وطلبات المدينة العراقية مثل أحتياج أهل المدن الى منتجات القرية من منتجات زراعية وحيوانية وأيدى عاملة اكثر من تأثر القرية بمؤثرات البادية .

اما الجماعات التي يتألف منها مجتمع الريف العراقي فهي ما يلي :

١ ـ جماعة الملاكين : التي تشمل أصحاب الاراضي والاملاك والمواشي والاغنام وهذا ما يعطيهم نفوذا أجتماعيا عاليا للسيطرة على الفلاحين .

٢ ـ جماعة السراكيل والوكلاء : أي مساعدو الملاكين في ادارة أملاكهم وأيصال أوامرهم وتعليماتهم الادارية والزراعية الى الفلاحين والعمال الحرفيين وتمثيل سلطة الملاك أمامهم .

٣ ـ جماعة العمال الحرفيين : وهم الافراد الذين يمتهنون حرفا يدويه أو لديهم بعض المواد البسيطة ويكون عملهم وحرفهم داخل دورهم ويشتغل فيه جميع اعضاء اسرتهم الكبيرة لذلك تكون مهنهم موروثة عندهم .

٤ ـ جماعة الفلاحين : أي المستخدمون من قبل الملاك للقيام بزرع أرضهم لقاء نسبة معينة من أنتاجهم الزراعي او لقاء عمل لصالح الملاك لفترة زمنية معينة ودفع ضرائب لهم لقاء رعي مواشيهم وأغنامهم على أرضه .

ويكون نظام تقسيم العمل المعتمد في نمط الحياة الريفية مقاما على اساس الجنس أيضا (كما هو الحال في النمط البدوي) .

ان الحياة في القرية العراقية على انواع فهناك من يسكن الاكواخ المصنوعة من الطين وهم على الاكثر من القبائل نصف المتحضرة كما ان هناك من يسكن قرى كبيرة تقرب طرق معيشتها من المدن ويتراوح عدد سكان

القريه الواحدة بين (٥٠) نسمة الى (٥٠٠٠) أو أكثر وقد تكون القرية زراعية بحتة او قد تكون فيها بعض المرافق التجارية ومن القرى ما هي اسواق للعشائر يشترون منها حاجاتهم ويبيعون فيها حاصلاتهم فهي اشبه بمدن تجارية صغيرة منها بقرى زراعية .

ان انتشار الحضارة ساعدت على دفع القبائل البدوية الرحل الى تبديل في طريقة عيش النمط البدوي وتغيير في بعض وظائف انظمته البنائية فتقلصت سلطة رئيس القبيلة بسبب أمتداد سلطة الحكومة على كافة شرائح المجتمع العراقي بضمنها الشريحة البدوية واسهامهم في الانشطة الحكومية واستخدامهم البيوت المبنية من الطين بدلا من السكن في خيام سوداء واستخدامهم للسيارة بدل الجمل واستعمال المضخات في شق الترع والجداول والعمل باجور أو لقاء ثمن لابناء المدن المجاورة في اعمال يهتم بها البدوي نفسه كرعي مواشي يملكها ابناء المدن القريبة من منطقة سكنى البدوي هذه الممارسات الحياتية ما هي سوى مؤثرات أولية للتحضر التي طرأت على البدوي العراقي في أول الامر .

ج ـ نمط الحياة الحضرية

يتميز هذا النمط بضعف العلاقة القبلية بين افراد مجتمع المدن العراقية مما ادى الى بروز الاتجاه الرسمي في بعض أوجه حياته اليومية بحيث استخدم الفرد المديني ـ الحضري منطقا وتفكيرا بعيدا عن التعصب القبلي في حل مشكلاته المدينية أضافة الى انتمائه الى تنظيمات اجتماعية رسمية كالمدرسة والجامعة والحزب السياسي والنقابة العمالية والجمعيات الخيرية علاوة على انتمائه الى تنظيمات غير رسمية كالعائلة الممتدة والجماعة القرابية والجيرة وهذا راجع الى تقلص مهام ومسؤولية الاسرة الحضرية في تنشئتها الاجتماعية لافرادها حيث تدخل المدرسة والجامعة وبقية التنظيمات الرسمية في المساهمة في عملية التنشئة الاجتماعية الى جانب الاسرة فهي (اي الاسرة) لم تبق كما

كانت في المرحلة البدوية او الريفية محافظة على وظائفها الاجتماعية في تقديم كافة الخدمات والعون والمســـاعدة في جميع المجالات لابنائها بل ظهرت تنظيمات اجتماعية مساعدة في انجاز عملية التنشئة الاجتماعية .

اما نظام تقسيم العمل في المدن العراقية فلم يعد مبنيا على الجنس (رجالا ونساء) بل أصبح مبنيا على التخصص والانجاز (وليس في جميع أقســـام النظام) أي ان المعلم لا يستطيع ان يكون معلما ما لم يكن حاصلا على شهادة متخصصة في التعليم أو ان الطبيب لا يمكن ان يكون طبيبا ما لم يكن متخرجا من كلية الطب او ان الضابط لا يمكن ان يكون ضابطا ما لم يكن حاصلا على شهادة تخصصه من الكلية العسكرية وهكذا .

وكانت وظائف واعمال ابناء المدن العراقية منحصرة في التجارة والصناعة والوظائف الحكومية وبعض المهن الحرة وفي هذا الخصوص يقول الاستاذ متي عقراوي ان اكثر مدن العراق هي مراكــز تجارية لتوزيع البضـــائع على الاقسام المجاورة لها وهي في الوقت نفسه اسواق للمواد الزراعية والمصنوعات والحيوانات التي تأتي من القرى للبيع لسكان المدن أو لتصديرها الى الخارج فالمدن من هذه الوجهه مراكز للتجارة الخارجية للعراق .

ولكن على الرغم من اختلاف نمط الحياة الحضرية بصفات تختلف عن نمط الحياة البدوية والريفية الا ان هذا الاختلاف لم يكن خاصا بها بل احتضنت المدينة بعض الظواهر البدوية والريفية اكسبتها غلافا مدنياً مثل (الجيرة) والتي تعني (بيوت عديدة في حي واحد يعيشون فيها عوائل ذات صلة قرابية) في بعض الاحيان . او لا تكن هناك اي صلة قرابية سوى القرب المكاني في السكن وهذا يفرض على أبناء المنطقة زيارات مستمرة ولقاءات عديدة في مناسبات أجتماعية ودينية داخل الحي وهذا النوع من الارتباط يعني الشعور بـ (نحن) بين ابناء الحي عندما يواجهون مشاكل داخل الحي وخارجه او عندما يحتاج أحد ســـاكني الحي الى مساعدة مادية أو معنوية

(والذي يشير الى التضامن العائلي ويمثل قيم الشهامة والنجدة) يهب جميع أبناء الحي لمساعدته وتقديم العون له وهذا النوع من الشعور قد يكون امتداداً للشعور بنحن في القبيلة او لابناء الريف •

الهجرة من الريف الى المدينة

بعد ان قدمنا صورة لانماط الحياة الاجتماعية في العراق نعرض ظاهرة جديرة بالطرح والتحليل في هذا المقام وهي ظاهرة هجرة ابناء الريف الى المدن التي برزت بشكل واضح بعد الاستقلال الوطني فقد كان القروي معتزاً بأرضه ومستفيدا من منتجاتها الا ان هناك نوعين من العوامل أدت الى بلور ظاهرة هجرة ابناء الريف من القرية الى المدينة وهي عوامل دافعة من داخل القرية واخرى جاذبة من داخل المدينة والنوع الاول (الدافعة) تمثلت بالعوامل التالية :

أ ـ قلة ايراد الارض غير المناسب مع الحاجات المتطورة •

ب ـ تردي الحالة المعاشية وانحطاط الوضع الاقتصادي في الريف •

جـ ـ ظهور الملكيات الكبيرة بعد عام ١٩٣٢ وادارتها من قبل الاقطاعيين من شيوخ العشائر وغيرهم حيث أصبح الفلاح العراقي أجيراً في أرض لا ينتفع منها سوى الحصول على ما يسد رمقه ورمق افراد عائلته •

د ـ نمو عدد الفلاحين وزيادتهم بنسبة لا تتمشى مع زيادة الارض الزراعية بحيث ادى الى انخفاض الاجور وسهل على الاقطاعي التحكم بها •

هـ ـ الهبوط العام في اسعار الحبوب في العالم الذي كان جزءاً من الوضع الاقتصادي العالمي المتردي في نهاية العقد الثالث وفي بداية العقد الرابع من هذا القرن الذي استمر عدة سنوات •

و ـ رفع الضرائب الحكومية على المحاصيل الزراعية •

ز ـ ابتزاز الشيوخ للفلاحين والتضييق عليهم بحجة هذه الضرائب المرتفعة •

ح ـ استئجار الشيوخ وبعض المدنيين المتنفذين مقاطعات تابعة للدولة الى حد كبير وهذه الحالة خاصة في لواء العمارة •

اما العوامل الجاذبة من داخل المدينة فهي ما يلي :

أ ـ مغريات المدينة من فرص عمل ووسائل ترفيهية ومباهج الحياة المتمدنة •

ب ـ استعداد الحكومة العراقية في بداية العقد الثالث من هذا القرن لان تجند من الجيش والشرطة المؤسستين حديثا عددا كبيرا من المتطوعين الشباب لقد كان في الانضمام للجيش والشرطة فرصة حياة جديدة مملوءة بالامور المثيرة والمتعة والكسب اذا ما قورنت بالحياة البرمائية لرجال الهور •

جـ ـ ان النساء والرجال من أهل الاهوار وجدوا العمل في المدن كحمالين وحراس ليليين وعمال بناء وخدم عمل مريح للغاية •

اما بالنسبة لآثار هذه الظاهرة الاجتماعية على المجتمع العراقي في تلك الفترة الزمنية فهي ايضا تنقسم الى قسمين : الاولى اثار على المجتمع الريفي وهي ما يلي :

أ ـ فقدان المجتمع الريفي انشط عناصره ، حيث تميز المهاجرون من الريف الى المدن بأناس يمثلون مرحلة الشباب وقادرين على العمل مما ادى ذلك الى خلل في بناء المجتمع الريفي •

ب ـ هبوط في كمية الانتاج الزراعي •

بينما كانت آثار الهجرة على المجتمع الحضري ما يلي : ـ

أ ـ مزاحمة سكان المدن في اعمالهم لان المهاجرين من الريف الى المدن يشتغلون باجور زهيدة لا يقبل بها ابن المدينة نظراً للبون الشاسع بين حياة الاثنين •

ب ـ ان المدن العراقية لا تقوى على تحمل اكثر من طاقتها لانها ليست مدنا صناعية أو ان فيها مشـــاريع صناعية تقبل الالوف من النازحين من الريف .

جـ ـ مضاعفة وتعقيد مشكلة الفقر في المدينة كما انها تعقد المشكلة الصحية بالنسبة لازدحام السكان وسوء حالة (القسم الاعظم من المهاجرين) الاجتماعية وتعقد الهجرة .

بقي علينا ان نلخص على شكل نقاط ابرز مظاهر التمدن في نمط العيش الحضري وهي كما يلي :

١ ـ ازدياد استعمال الوسائل الكمالية كالسيارة والادوات الكهربائية والاثاث العصرية واواني المائدة الصينية والفضية واستعمال المجوهرات والراديو والتلفزيون .

٢ ـ تشييد فنادق عصرية واقتباس الطراز الغربي الحديث في بناء البيوت .

٣ ـ ازدياد المدارس واقبال البنين والبنات عليها .

٤ ـ انتشار الجرائد والازدياد المطرد في عدد قرائها وكثرة دخول المجلات والكتب الاجنبية الى العراق من الخارج وخاصة المصرية والســـورية وبدرجة اقل من الاوربية والامريكية .

٥ ـ تأسيس النوادى الاجتماعية والاقبال عليها من ابناء المدينة المتعلمين والمثقفين والمتحضرين .

٦ ـ بناء دور للسينما والاقبال عليها .

انشطة الحياة الاجتماعية

سوف نقوم بتقسيم انشطة الحياة الاجتماعية في المجتمع العراقي ما بعد الاستقلال الوطني الى قسمين رئيسيين هما انشـــطة غير رســـمية وأخرى رسمية . ومعرفة الانشطة الرســـمية وغير الرســـمية الموجودة في الانماط الاجتماعية الثلاثة التي ذكرناها في هذا المبحث (بدوي ريفي حضري) . وقبل ان ندخل في شرح هذه الانشطة نرى من الضروري توضيح المقصود بالانشطة الرسمية في هذا المقام فهي تعني قواعد سلوكية خاضعة لضوابط قانونية مدونة في ســجلات توضح اصـــول التصرف والتعبير داخـــل التنظيمات الثانوية (الرسمية) التي أوجدها المجتمع بسبب حاجته اليها من أجل تنظيم حياة افراده وسوف نجد مثل هذه الانشطة في نمط الحياة الحضرية فقط . بينما تعني الانشطة غير الرسمية قواعد سلوكية خاضعة لضوابط عرفية ـ قيمية غير مدونة في سجلات توضح للافراد أصول (قواعد) التصرف والتعامل مع الاخرين داخل التنظيمات الاولية التي تمد بأســـس التعامل اليومي في الحياة الاجتماعية ونجد مثل هذه الانشـــطة في الانماط الثلاثة في المجتمع العراقي : (البدوي الريفي الحضري) :

الانشطة غير الرسمية في المجتمع البدوي تظهر كما يلي :

١ ـ الدحة : التي تعني الرقص باوضاع خاصة واصول مألوفة تقوم بها بنات القبيلة تتقدم الواحدة تلو الاخرى وتلعب دورها وهي تمسك سيفا .

٢ ـ العراضة : اي اجتماع الخيل متعرضة تلعب ونساء القبيلة امامهن وفي هذه يكثر القصيد حسب الموضوع الذي لاجله احتفلوا فاذا كانت لفرح كثر فيها القصيد الذي فيه تشويق للشباب على الزواج ونعوت البنات الجميلات وتجري العراضة أيضا في الحروب والنفير .

٣ ـ الصيد والقنص : البدو لا يميلون كثيرا للصيد العادي ولا يقنصون الا في ايام الربيع بقصد اللعب والانس .

اما الضوابط العرفية ـ القيمية ، ففي المجتمع البدوي عند وفاة احدهم هناك اصول في مثل هذه الحالة فاذا قتل الرجل البدوي في معركة من المعارك قبر في المحل الذي قتل فيه بملابسه كما يقبر الشــــهيد في ميدان الجهاد في الشرع الاسلامي • واذا مات في بيته فيغسل ويكفن حسب الشريعة الاسلامية اما أهل القتيل او الميت فيولولون ساعة الموت فقط ولا تقيم النساء العزاء في بيوتهن كما ان الرجال لا يقيمون مجلس الفاتحة الا ان أصدقاء الميت واقاربه يأخذون الرجال من اسرة الفقيد ويشغلونهم بالاحاديث واما البكاء والعويل والندب فهو غير مألوف عنـــدهم وانما يعتبرون ذلك عادة مذمــومة واذا ولول أهل الميت قال لهم الاخرون معاتبين صاحب امانة استرجعها لا تعترضوا على امر الله وماذا تقدرون على عمله ؟

ضـــابط عرفي ـ قيمي آخــر يتمثـــل في ما يصـــوره مجلس العشيرة الذي يعتبر أهم محل يقضي فيه رجال العشائر أوقات فراغهم ويكون ذلك عادة في مضيف الشـيخ فيقضــون الوقت بشرب القهوة والتحدث عن شؤون العشيرة والمفاخرة بذكر اعمال ابطالها وبانتصاراتها واحداثها المشهورة وتحسم في المجلس ايضا بعض المنازعات القائمة بين افراد العشيرة •

ننتقل بعد ذلك الى عرض الانشطة غير الرسمية في المجتمع الريفي التي تمارس في الاعياد والحفلات والمناسبات الاخرى اذ ان نشاطهم لا يخرج عن الغناء والرقص الجماعي (الجوبية) للتعبير عن الفرح او المناسبات السعيدة •

ومثل هذه الانشطة يدخل فيها الغزل والامثال والحكم والمدح والثناء والهجاء أو بالصيد أو التذكر بوقائع سابقة لاثارة نخوة أو شهامة أو بطولة معينة والملاحظ في الريف العراقي ان الرجـال فيما بينهم ينتهزون فرصـــة الاحتفالات بالاعراس أو غيرها من مناسبات الفرح ليرقصوا رقصة الجوبي وقد تشاركهم النساء فيها أحيانا وكثيرا ما يقيمون مواسم للسباق على الخيول

أو للمبارزات بالسيوف أو العصي فتتفرج عليهم النساء ويزغردن لهم وهم يشعرون عندئذ بالنشوة والابتهاج .

اما الضوابط العرفية ـ القيمية في المجتمع الريفي فعند وفاة أحد افرادهم تقيم النساء العزاء في بيت الميت كما ان الرجال يقيمون مجلس الفاتحة حيث يتردد عليه أهل واصدقاء ومعارف الميت لمدة سبعة ايام تقدم فيه السجائر والقهوة ووجبتا الغذاء والعشـــاء للحاضرين وينقطع أهل الميت واسرته عن اعمالهم الاعتيادية ويقدم أصدقاء ومعارف الميت الهدايا المالية أو العينية لاهل الميت مثل الرز أو السمن أو السكر أو بعض المواشي أو مقداراً معيناً من المال وتحدد كمية ونوع الهدية حسب طبيعة العلاقة بين مقدم الهدية والميت أو أهله (اي أهل الميت) ومن الاماكن المتعارف عليها في المجتمع الريفي لقضاء وقت الفراغ في المجتمع الريفي هو المقهى حيث يلتقي فيها ابناء المجتمع الريفي لقضاء وقت من الراحة والالتقاء بابناء قريتهم هذا بالاضافة الى دواوين (مجالس) أهل القرية المعروفة عند وجهاء قريتهم .

نأتي أخيراً الى انشطة الحياة الحضرية التي تختلف الى حد ما عن الانشطة الاجتماعية في الريف والبادية فالملاهي والمسارح والسينما والملاعب الرياضية متوفرة فيها أضافة الى المقاهي المتعددة في كل حي وشارع هذه اماكن اللهو والتسلية يقضي فيها أبناء المدينة أوقات فراغهم ويتسلون فيها .

أما المقهى فربما كانت أهم الاماكن التي يرتادها الناس لقضاء أوقات الفراغ في المدن والقرى ولذا فهي كثيرة العدد ويبكر الناس للذهاب الى المقهى لتناول (استكان شاي) أو فنجان من قهوة وقد تكون المقاهي في وســط الاسواق فتصبح مركزا يضرب فيه أرباب المصـــالح المواعيد بعضهم لبعض فتجرى المساومات والمعاملات بينهم أثناء شرب الشـــاي أو القهوة وتزدحم المقاهي بعد الظهر وبعد العشاء لتمضية بقية اوقاتهم في احد المقاهي القريبة

واشـــهر الالعاب في المقـــاهي الطاولي والدومنة والورق في بعض المقاهي ولا يتأخر الناس عادة في الليل في المقاهي الا في ليالي رمضان اذ يقضون شطرا كبيرا من الليل فيها أو في المجالس الخصوصية .

ولكن هنالك نوعا آخر من المجالات يقضي فيها ابناء المدينة لتقديم خدمات جليلة وانسانية لابناء مجتمعهم مثل الجمعيات وهي أختيارية وليست أجبارية ونمثل انشـطة اجتماعية انما من النوع الرســمي (اي ان افراد الجمعيات لا تربطهم علاقة قرابية أو قبلية بل علاقة ذات هدف أنساني يقدمونه لابناء مجتمعهم تفرضه عليهم حياة المدينة) . وقد وجدنا مثل هذه الجمعيات في المجتمع العراقي بعد الاستقلال الوطني مثل :

١ ـ جمعية حماية الاطفال : ففي ٢٠/ مارت / ١٩٢٨ تأسست جمعية تهدف الى تقليل وفيات الاطفال عامة والسعي بكل الوسائل الفنية والاجتماعية لتربيتهم بصورة صحيحة ولتحسين النسل ومساعدة العائلات الفقيرة بنوزيع الحليب وسائر الاحتياجات اللازمة لتربية الطفل والارضاع الصـــناعي واجراء المداواة مجانا واعطاء الملابس للاطفال وكان لهذه الجمعية (١٩) فرعا في جميع انحـاء العـراق ولاغلبية هذه الفـروع مستوصفات خاصة بها .

٢ ـ جمعية الهلال الاحمر : تأسست عام ١٩٣٢ قامت هذه الجمعية بمساعدة المسلولين وارسال بعضهم الى المصحات واكساء الاطفال وتوزيع الاعانات على بعض المؤسسات الخ[illegible]بة كما ساهمت مساهمة فعالة في تخفيف آلام المنكوبين بالفيضانات أو الامطار .

٣ ـ جمعية بيوت الامة : تأسست في بغداد عام ١٩٣٥ فقد اسست ميتما لايواء البنات الفقيرات والمشردات وتعليمهن الخياطة والتطريز .

٤ ـ جمعية الطيران العراقية : تأسست في عام ١٩٣٣ من أجل نقل البريد داخل العراق وتدريب الشبان على الطيران باجور زهيدة •

٥ ـ جمعية الاتحاد النسائي العراقي : تأسست عام ١٩٤٤ التي أقتصر نشاطها على الاعمال الجليلة في ميدان الخدمة الاجتماعية والانسانية واظهرت نشاطا ملموسا في سني حياة الصغار •

٦ ـ جمعية مكافحة السل التي تأسست عام ١٩٤٤ وغايتها مكافحة السل بجميع الطرق الممكنة وفتح المستوصفات والمستشفيات والمصحات لتداوي السل من قبل الجمعية أو مطالبة الحكومة بفتحها وسن القوانين الاجتماعية اللازمة لمكافحة الفقر والجهل اللذين يعتبران اهم سبب لانتشار السل •

الاسرة

أ ـ انواع الأسر في المجتمع العراقي

يتضمن المجتمع العراقي ثلاثة انواع من الاسر وهي ما يلي :

١ ـ الاسرة الممتدة : التي تتكون من الرجل وزوجاته واولاده المتزوجين وزوجاتهم واطفالهم وابنائه غير المتزوجين وبناته غير المتزوجات وبناته المطلقات أو الارامل (ان وجدت) يسكنون في وحدة سكنية واحدة ويعيشون ويعملون معا كوحدة اقتصادية واحدة ، وينفرط عقد هذه الاسرة في بعض الحالات عند موت الاب نجد هذا النوع من الاسر في نمط العيش البدوي والريفي على السواء وفي المناطق التي هاجر اليها أهل الريف الى المدينة حيث ينتقل كافة افراد الاسرة دون تخلف أحدهم ويرجع وجود هذا النوع الى عاملين هو ان المكانة الاجتماعية للاسرة ترتفع كلما كبر حجمها (عددا) في نظر المجتمع البدوي والريفي بسبب

حصولها على عناصر جديدة تدافع عن الاسرة في السراء والضراء ، لا سيما ان المجتمع (البدوي والريفي) يخضعان لاعراف أجتماعية قبلية • والعامل الثاني لوجود هذا لنوع من الاسر هو زيادة الايدي العاملة فيها وهذا يعتبر (عامل من القوى العاملة ـ اقتصادي) فالرعي والزرع والحصاد وغير ذلك من ضروريات واحتياجات الحقول الزراعية يحتاج الى ايدي عاملة للحصول على عائد اقتصادي من المنتجات الحيوانية والزراعية لذا فأن الاسرة الزراعية تحتاج الى افراد عديدين فيها للحصول على مكانة اجتماعية مرموقة ودخل اقتصادي جيد •

٢ ـ النوع الثاني من الاسر هو الاسر المركبة الذي يتضمن الزوج وزوجاته واطفالهن فقط يسكنون في بيت واحد ويشتغلون كوحدة اجتماعية واقتصادية واحدة وهذا النوع من الاسر يوجد في نمط الحياة البدوية والريفية على السواء ويوجد أيضا بشكل قليل في نمط الحياة الحضرية •

٣ ـ النوع الثالث من الاسرة هو الاسرة الصغيرة التي تتكون من الزوج وزوجته وابنائهما يسكنون في بيت مستقل عن اسرة الزوجين وهذا النوع من الاسر يوجد في المدن بين المتعلمين والموظفين في اغلب الاحيان •

ب ـ الادوار والمراكز الاجتماعية في الاسرة العراقية

قبل أن ندخل في توضيح هذه المفاهيم في المجتمع العراقي نرى ان من الضرورة تعريف ما نعني بالدور الاجتماعي والذي نقصد به الشروط والمستلزمات والتوقعات التي وضعها المجتمع العراقي للدور الاجتماعي (كدور الزوج أو الزوجة أو الام أو الاب) •

اما المركز الاجتماعي فنقصد به درجة ممارسات الفرد الشروط ومستلزمات وتوقعات دور معين يطلبه منه المجتمع العراقي أي الى أية درجة يلتزم الاب بمسؤولياته الابوية تجاه ابنائه في التربية والتنشئة الاجتماعية •

فاذا كان التزاما عاليا فسوف يكون مركزه الاجتماعي كأب عاليا والعكس صحيح •

دور الزوج في الاسرة العراقية يتضمن المسؤولية الاسرية والاقتصادية والاجتماعية امامها وامام المجتمع العراقي ، اما دور الزوجة فيتضمن المسؤولية البيتية امام اسرتها وامام المجتمع • فمثلا في نمط الحياة البدوية تكون للنساء البدويات اعمال كثيرة تناط بهن اهمها ما يلي :

أحضار الماء والوقود (الحطب) وطبخ الطعام بانواعه ونصب بيوت الشعر أو الخيام واعداد حاجات الضيوف اذا لم يكن في البيت رجل يستقبلهم فتناول الضيف الحطب وتعطيه القهوة وما يقتضي لعملها واذا حان موعد الطعام فالنساء يقدمنه أيضا من وراء ستار وكثيرا ما تركب الفتيات الابل التي تمتح الماء من الآبار طول متحها وكثيرا ماترعى البنات الغنم •

بينما يكون دور الزوجة في نمط الحياة الريفية مشاركة زوجها في الزراعة والحصاد والدياسة وتنظيف الارض وتعشيبها وقلع الشوك وما أشبه وهي التي تنهض مبكرة فتحلب البقرة وتقدم لها العلف وتنظف الزريبة ثم تخرج للاحتطاب حاملة معها طفلها اذا كانت مرضعا وعند عودتها لكوخها تتولى العجن والخبز وتحضير ما قسم الله من القوت لزوجها أضف الى ذلك انها تسهر الليالي في طحن الحبوب محتالة على النوم بالغناء وقد يشتغل بعض النسوة بجرش الشلب في المحاريث العامة ليلا لقاء اجور زهيدة يتسلمها ازواجهن وكثير منهن يشترين حاجاتهن من ثمن الحطب أو البيض الذي يبعنه في البلدة أو المدينة •

بينما يكون دور الزوجة في نمط الحياة الحضرية مختلفا الى حد ما عما هو سائد في نمط الحياة البدوية والريفية حيث انها لا تخرج للحقل لعدم وجوده في المدينة أو السوق للتجارة بل تبقى في الدار تهتم بشؤونه وادارته وتربية

أبنائها ورعاية زوجها وفي بعض الحالات تكون الزوجة الحضرية تشتغل في التعليم أو في بعض المهن الحكومية كالتمريض أو الخدمات الاجتماعية وهذا يزيد من أعباء دورها في الاسرة • وفي ضوء هذه المسؤوليات والواجبات التي وضعتها البادية والريف والمدينة على عاتق الزوجة كلما التزمت الزوجة بهذه الواجبات والمسؤوليات علت مكانتها الاجتماعية امام زوجها واسرتها ومجتمعها والعكس صحيح •

اما دور الزوج في نمط الحياة البدوية فيتضمن تطمين الحاجيات الاقتصادية لاسرته وحمايتها من الاخطار الخارجية بينما تكون واجبات ومسؤولية دور الزوج في القرية غرس المزروعات وحرث الارض وحصاد الزرع ودياسته وجمع العلف للحيوانات ونقل المحاصيل من المزرعة الى السوق كلها من واجبات الزوج • اما في نمط الحياة الحضرية فواجبات الزوج هي العمل خارج الدار سواء كان في التجارة أو الصناعة أو الوظائف الحكومية من أجل تلبية حاجيات الاسرة الاقتصادية والاشراف على تربية الابناء بشكل بسيط •

جـ ـ التنشئة الاجتماعية

تعني التنشئة الاجتماعية غرس القواعد والعادات والقيم والتقاليد الاجتماعية من قبل الابوين في الابناء التي تنتقل من جيل الى آخر عن طريق المشافهة وقد أخذت هذه العملية مقطعا واحداً في الانماط الثلاثة في المجتمع العراقي (بدوي ريفي حضري) وهي منح امتيازات وافضليات للولد اكثر من البنت في الحقوق والواجبات والالتزام الاسري والاجتماعي فالولد يحمل اسم الاسرة طيلة حياته بينما البنت لا تحمل اسم اسرتها بعد زواجها وخروجها من بيت والدها (اي تسمى زوجة فلان اكثر مما تسمى بنت فلان أو ام فلان الذي هو أبنها اكثر مما تسمى بنت فلان) أضافة الى كون الولد يملك قدرة على الدفاع عن اسرة أبيه بينما البنت لا تستطيع ذلك لهذا تميزت تربية الابناء بتقسيم واضح بين الذكور والاناث ومفاضلة الأول على الثاني حيث نشأ الولد

على الاستقلال الذاتي والمسؤولية الاقتصادية والاجتماعية وتنشأ البنت على مساعدة والدتها في الشؤون البيتية ورعاية ابيها واخوانها فتولد نظام نقسيم عمل داخل الاسرة والمجتمع العراقي مقاما على تفضيل الذكر على الانثى ٠

د ـ الزواج

الزواج ضرورة طبيعية للمحافظة على النوع البشري واستمراره في المجتمع الانساني أضافة الى كونه يمثل وظيفة اجتماعية تؤدي الى تماسك الاسرة والمجتمع علاوة على كونه علاقة مقدسة بين الرجل والمرأة هدفها بناء كيان اسري مستقر في مجتمع يسوده الاستقرار والنظام ٠

طريقة الزواج في الحياة البدوية

من اكثر ما يلهج به البدوي أختيار الزوجة ومراعاة أصلها وطيب نجارها وعراقة نسبها وهي عونه في حياته أو شقائه ومذلته ويلهج البدوي دائما بقوله (العرق دساس) و (ثلثا الولد لخاله) و (دور على المنسب ترى الخال جرار)

وكلها تدعو الى الزوج الذي يبحث عن الزوجة اللائقة نراهم يتباعدون حذر ان يتورث عرق الخؤول وفي الوقت نفسه يحضون على أخذ النساء والاكثار منهن ليكون للمرء اولاد يقهر بهم منافسيه ٠ ويضاف الى ما تقدم ما قاله عبد الجبار الراوي في موضوع الخطبة « وتكون الخطبة عند البدوي عادة من ولي المخطوبة وان كان لابد من أخذ رأي المخطوبة نفسها ومن العادة ايضا عقد النكاح أو حصول الرضا بالخطبة ذلك لان الرضا يجعل كل مراسيم عقد النكاح منتهية عند البدو لخلو البادية من محاكم شرعية أو ما يقوم مقامها لاجراء عقود النكاح وليس من المألوف عندهم اجراء مراسيم الزواج لدى أهل الزوجة بل يعد ذلك عيبا حتى ان الفتيات انفسهن لا يقبلن ذلك ٠

ويضيف الراوي في كلامه حول الزواج في المجتمع البدوي فيقول يأخذ بعض الاجتماعيين من الغربيين ومقلديهم على العرب وعلى الدين الاسلامي ايضا عادة تعدد الزوجات الا ان الباحث المتغلغل في الجزيرة وفي شــؤونها الاجتماعية لا يرى محلا لانتقادهم هذا فان تعدد الزوجات ضرورة اجتماعية تتحتم في بعض المجتمعــات وترجح في بعض ولا تصــح في بعض والعارف لاجتماعيات البدو والبادية وحاجتها الى تكثير عدد الرجال وشد روابط الاسرة والجماعة للعزة والمنعة وللحماية في ذلك القفر الشاسع الاطراف والعارف بطهارة الجزيرة من الزنا وصرامة العقوبة الاخلاقية والقضائية على الزنا يعلم ان تعدد الزوجات ضرورة محتمة لمصلحة الرجل والمرأة وحاجة اجتماعية ماسة فيها الكمال والعدل والسلامة من النقص والجور . اما حقوق المرأة الاجتماعية فهي موقورة في البادية وغير منقوصة فلها الاحترام ولها حق التعرف على من يتقدم لخطبتها ولها الحرية في الموافقة والرفض وهي شريكة الرجل في الحياة واعمال الحياة .

اما تكاليف المهر فيكون كمقدار من الابل أو الغنم وقليل من الدراهم وكذلك نفقات العرس والزواج يقوم بها الزوج وحده ولا يتحمل اهل الزوجة سوى احتفالات بسيطة في الاعراس والزواج وتقتصر على الغناء والرقص من بنات الحي ودق الطبول والعزف على (المطبج) و (الربابة) اما طول مدة هذا الاحتفال وصغرها فيتبعان مكانة العريس الاجتماعية .

اما الطلاق في نمط الحياة البدوية فأنه ذو عقدين احدهما بيد الرجل والآخر بيد المرأة فاذا لم يعجب المرأة البدوية زوجها أو حصلت مشاكل بينهما ووصلت الى حالة الانفصال فأن المرأه البدوية تذهب الى أهلها فيجبر حينئذ الزوج على طلاقها .

بينما يكون اختيار الشريك والخطبة في نمط الحياة الريفية والحضرية من الامور العائلية يؤكد على المصلحة الجماعية العائلية ولهذا يكون التأكيد

عند أختيار الشريك على التكافؤ في المكانة الاجتماعية والاقتصـــادية . اما التفاهم والانسجام بين طرفي الزواج فلا أهميه له في البداية ، اذ يعتبر من الامور الحتمية التي تأتي بعد الزواج . وبناء على هذا فأن أختيار الشريك ضمن العوائل الريفية والحضرية يكون شيئا عائليا اي يبنى على اتفاق عائلتي الطرفين آخذين بنظر الاعتبار المصالح العائلية ويكون الاهتمام بالســمعة والشرف والمال والاخلاق . ويخضع الطرفان لقرار العائلة في الاختيار وسلطتها اولا لقوة حكم التقاليد وجهل الطرفين بحقوقهم الشرعية في الاختيار اضافة الى ان العائلة الممتدة هي التي تقوم بتوفير متطلبات الزواج المادية ـ الصداق وتكاليف الزواج والصرف على الزوجين واطفالهما من الاختيار طبيعيا واعتياديا وغالبــا ما يحــدث التكييف للزواج عند الطــرفين ذلك لقناعتهما بالواقع وخضوعهما الكلي لسيطرة العائلة وتقاليدها .

ويفيدنا في هذا المجال الاســتاذ متي عقراوي الذي قال « الزواج في العراق كما في بقية العالم الاســلامي عقد بين الرجل والمرأة قابل للفســخ بالطلاق فهو يتوقف اذن على رضا الطرفين » .

يمنع العريسان من مشاهدة احدهما للاخر قبل الزواج وانما يقوم بتمهيد الطرق للزواج اقرباء العريسين واغلب ما يكون ذلك بأن تذهب النساء من بيت العريس الى بيت العروس لمشاهدتها فأن راقت لهن ذهب والد العريس أو اكبر اقربائه من الذكور الى والد العروس أو الى وليها فيخطبها للشاب فأن حصل الرضا جرى الاتفاق على مقدار المهر .

ومن الواجب اخذ رضـــا الفتاة اذا كانت بالغة اي انهـــا تجـــاوزت الخامسة عشر من عمرها على ان هذه القاعدة الحكيمة تهمل ولا تطبق في كثير من الاحيان وتستعمل اساليب متعددة للتخلص منها ومن العادات ان ينوب عن العروس في اعطاء رضاها شخص ثالث وقت اجراء العقد . اما المهر فأن الغرض الاصلي منه حماية المرأه اذا مات زوجها أو طلقت الا انه يساء استعمال

هذه القاعدة في كثير من الاحيان اذ يسعى بعض الآباء الى الحصول على فائدة مادية فيطالبون بمهر عال فيكون عملهم هذا بمثابة بيع ابنتهم كالسلعة وكثيرا ما تؤدي هذه المساومة على المهر الى عدم الاتفاق فيفشل مشروع الزواج وكثيرا ما يضطر الرجل الى تأخير زواجه لعدم حصوله على المال الكافي لدفع المهر .

هـ ـ الطلاق

اما الطلاق في المجتمع القروي والحضري فيكون خاضعا للقانون العراقي الذي يقضي بأمر القاضي .

علاقة البادية والريف والمدينة

تسجل بعض الاتجاهات الاجتماعية الجديدة التي برزت على سطح بناء المجتمع العراقي الجديد (بعد الاستقلال الوطني) ما يلي :

١ ـ المشاركة الوجدانية من قبل المواطنين العراقيين في الاحداث السياسية التي برزت في المؤسسة السياسية والاعلامية اي ان ابناء المجتمع العراقي بمختلف مواقعهم الاجتماعية ووظائفهم المهنية والحرفية بدأوا يهتمون ويمارسون الانشطة السياسية الوطنية ويحللونها كل حسب ثقافته وهذا راجع الى ادراك المواطن العراقي بمسؤوليته الوطنية تجاه بلده ويعني ايضا بان وعيه السياسي قد ارتفع الى مستوى الافصاح عنه والتعبير بحرية والى تعرفه على الثقافة السياسية الاجنبية .

٢ ـ بروز محفزات جديدة (طموحه في اهدافها) متناسبة مع مرحلة استقلاله الوطني وانفتاحه على العالم الخارجي وهي اندفاع ابناء الحضر نحو المثابرة والعمل الجاد وخدمة مجتمعهم من خلال تبوء مواقع مسؤولة في الدولة بعد ما كان المواطن العراقي سلبيا أمام فرص العمل الحكومية (قبل الاستقلال الوطني) وغير مهتم بها الا انه بعد استقلال العراق

أدرك اهمية المســـؤولية الحكوميه ودرجه فاعليتها في ادارة مجتمعه وانمائه ، اي ظهر محفز اسهامي الى اندفاع المواطن العراقي نحو الاسهام في خدمة مجتمعه بسبب شعوره بالمسؤولية الوطنية الجديدة بعد ما كان خاضعا لاتجاه قدري اي تفســير كل احداثه الاجتماعية بالقســـمة والنصيب •

٣ ـ برز نحول جديد في احدى عناصر التنشئة الاجتماعية وهي ان الاب العراقي كان ينشيء ابناءه على تدريبهم لاكتساب مهنته او حرفته كيلا تفتقد من اسمه أو اسم عائلته بعد وفاته (فعلى سبيل المثال لا الحصر) اذا كان الاب نجارا فانه يعلم ابنه مهنة النجارة وفنونها لكي يكون ابنه مثله في المستقبل كما دربه على ذلك • وان تبقى عائلته محافظة على مهنة آبائه واجـــداده وهذا يعني في المنطق الاجتماعي ان مهنة الفرد العراقي ومكانته الاجتماعية (قبل الاســـتقلال) كانت تنتقل افقياً في المجتمع العراقي اي ان ابن النجار يكون نجارا وابن الحداد يصبح حدادا هذه النقلة الاجتماعية الافقية كانت تخضع للتدرج الاجتماعي الجامد في المجتمع العراقي قبل الاستقلال الا ان بعد الاستقلال أصبح بناء المجتمع العراقي مرنا بسبب اعتماد افراده على الانجاز والاداء فاصبحت النقلة الاجتماعية لابنائه عموديا اي انه قد يصبح ابن النجار معلما او مهندسا او طبيبا بسبب ارتفاع الوعي الاجتماعي العراقي (آباء وابناء) فتطور المجتمع العراقي وحاجته لاســـــهام ابنائه في تنميته وتطويره ومشاركتهم في مواجهة المشاكل التي تواجه التطور الثقافي وتحمل المسؤولية الوطنية وخلاصة القول بانه بعد الاستقلال الوطني تحولت النقلة الاجتماعية للمواطن العراقي من الافقية الى العمودية وهذا مؤشر تطوري في الحياة الاجتماعية لا يمكن أهماله أو أغفاله •

٤ ـ زيادة فاعلية الرأي العام العـراقي في مراقبه ومحاســبنه للاحداث الاجتماعية والسياسيه والاقتصاديه وتاثيره على اجهزه الدوله في اتخاذ قراراتها وفي الحصول على مراكز وظيفيه في الجهاز الحكومي • ولهذا أصبحت القرارات الحكومية غير خاضعه للقيم القبليه والعشائريه بل اصبحت (بعد الاستقلال) خاضعة الى مؤثرات الراي العام العراقي وذلك راجع الى الوعي الاجتماعي عند المواطن العراقي ونقلته الاجتماعية من الافقية الى العمودية •

٥ ـ التغير البنائي فقد حصل تحول واسع وعميق في الانشطه الاجتماعيه السائدة في نمط الحياة الحضرية وهذا ما شاهدناه في ظهور انشطه رسمية في المدن العراقية كظهور جمعيات خيريه واجتماعيه وصحيه (مثل جمعية حماية الاطفال وجمعيه الهلال الاحمر وجمعيه بيوت الامه وجمعية الطيران وغيرها) هدفها خدمة المواطن العراقي ونقديم العون له في مجتمع كبير او هجرة الفلاحين من المناطق الريفية الى المدن ادى الى تغيير بنائي كذلك استيطان البدو في المناطق الزراعيه ايضا ادى ذلك الى تغيير في بناء المجتمع العراقي لانه جعل تبدلاً في العلاقات الاساسية بين ابناء البادية وابناء الريف بسبب تبدل نمط العيش وظهور متغيرات جديدة تؤثر على حياتهم الجديدة اما عوامل التطور الاجتماعية الاســاسية الاخرى فهي استقلال العراق من السيطرة الاجنبية واســتلام افراد المجتمع مقاليد السلطة في الحكم والانفتاح على العالم الخارجي من اجل أستجلاب التكنولوجي والمعرفة العلمية الى مجتمع حديث الاستقلال وهجرة ابناء الريف الىالمدينة واستيطان بعض عشائر البدو• جميع هذه العوامل دفعت بالمجتمع العراقي بجميع شرائحه الى التحول من نمط عيشي تقليدي الى الميل نحو التحديث وهذا التحول يعتبر من أعقد المشاكل التي يواجهها المجتمع لانه يخضع لعملية التخلي عن الوسائل

والابتكارات القديمة التي كان يألفها وهذا مطلب ليس بالهين لانه الفه المواطن لعـــادة معينة او نظام اجتماعي معين خاص أو قيمة اجتماعية معينة يصعب عليه تركها وتبني بديل لها وهذا يعني ايضـــا ان هناك صعوبات في تقبل الافراد للاساليب والابتكارات الجديدة الواردة الى المجتمع العراقي ومن جملة هذه الصعوبات هي اكتساب الافراد مهارات جديدة وهذا يتطلب جهدا وتكيفا جديدا قد لا يروق ذلــك للكثير من الناس بسبب تعودهم على ما مارسوه والفوه لذلك واجه ابن المدينة العراقي العديد من المشاكل والصعوبات الناجمة عن التحديث والتغير مما قنن سرعة التطور الاجتماعي لحصـــول تعارض زمني بين وقت ارسائه الركائز الاساسية في الاحتفاظ الثقافي بعد استقلاله وطنيا مع انفتاحه على العالم الخارجي من أجل التحديث مما أوجد تعارضا بين ما الفه من قيم واعراف ونظم اجتمـــاعية وبين ما ورد اليه من خارج المجتمع الذي يتطلب منه تكيفا جـــديدا له والتخلي عن ما الفه وهذا يســـبب له اعاقة في سرعة التطور الاجتماعي وليس في منع التطور الاجتماعي يوضح هذا التعارض (بين التخلي عن المألوف والتكييف لنمط جديد) علم الاجتماع الذي قال « ان النقلة القيمية تحدث حين يغير بعض اعضاء المجتمع سلوكهم من النمط القديم المقر اجتماعيا » فان ذلك كثيرا ما يستتبع ظهور رد فعل قوي عند بقية اعضاء المجتمع ويتخذ ذلك اشكالا عديدة تتراوح بين المقاومة والمحاكاة ولكنها تهدف كلها في النهاية الى محاولة اصلاح الصدع الذي طرأ على انماط حياتهم وسلوكهم التقليدي وكثيراً ما يؤدي ذلك بهم الى العمل على تعديل سلوكهم انفسهم بما يتفق والظروف الجديدة الطارئة .

وهذا ما وجدناه عند بداية دخول البنات الى المدارس في المدينة العراقية والتوظف في دوائر الحكومة والسفور عند النساء حيث صاحب هذا التبني

الجديد من ابناء المجتمع الحضري في العراق تغييراً في نمط سلوكهم القديم الذي كان مقدرا اجتماعيا فالافراد الذين تبنوا هذه الاستحداثات الاجتماعية الجديدة حصل رد فعل قوي عند بقية افراد مجتمع المدينة العراقيه الذين لم يتبنوا تلك الاستحداثات الجديدة منها خوفهم من بعض وسـائل الضبط الاجتماعية (القيل والقال والعيب والنميمة) اضافة الى تعودهم على نمط العيش القديم لا يدفعهم الى التكييف لنمط العيش الجديد مما أدى ذلك الى مقاومتهم وبالتالي الى محاكاتهم لكي يتكيفوا للمؤثرات الاجتماعية الجديدة .

والنقطة الجـديرة بالذكر في نهـايه مطاف حديثنا حول التطورات الاجتماعيه في المجتمع العراقي بعد الاستقلال الوطني هو ان الافراد الذين تبنوا في البداية مظاهر التطورات الاجتماعية ما هم الا رواد التطور في المجتمع العراقي لان ذلك يتطلب منهم الجرأة الادبية والاجتماعيه وملكه ثقة فيه محترمة وثقة بالنفس بشكل متزن لكي يتخلوا عن ما القوه وتبني طرز عيش جديدة لم يألفها المجتمع العراقي اضافة الى كون هذا التبني عند هؤلاء الناس واجهة ردود فعل سلبية من قبل غير المتبنين والخائفين من كل تبدل .



المصــادر

١ ـ المجموعة الاحصائية للجهاز المركزي للاحصاء ١٩٦٨ جدول رقم ٣١
٢ ـ الحسني ، عبدالرزاق « العراق قديما وحديثا » مطبعة العرفان ـ صيدا ١٩٥٨
٣ ـ جواد ، هاشم « مقدمة في كيان العراق الاجتماعي » مطبعة المعارف بغداد ، ١٩٤٦
٤ ـ الهلالي ، عبدالرزاق « معجم العراق » الجزء الاول ـ مطبعة النجاح ـ بغداد ١٩٥٣
٥ ـ عقراوي ، متي « العراق الحديث » الجزء الاول ـ مطبعة العهد ـ بغداد ، ١٩٣٦
٦ ـ نجم الدين ، احمد « احوال السكان في العراق » معهد البحوث والدراسات العربية ـ مصر ، ١٩٧٠
٧ ـ سليم ، شاكر مصطفى « الجبايش » الجزء الاول
٨ ـ الخياط ، جعفر ، « القرية العراقية » مطابع دار الكشاف ـ بيروت ـ ١٩٥٠
٩ ـ العزاوي ، عباس « عشائر العراق » الجزء الاول ـ مطبعة بغداد ، ١٩٣٧
١٠ـ الراوي ، عبدالجبار « البادية » دار دجلة للطباعة والنشر ـ بغداد ، ١٩٤٧
١١ـ الوردي ، علي « دراسة في طبيعة المجتمع العراقي » مطبعة العاني ، ١٩٦٥
١٢ـ الهلالي ، عبدالرزاق « معجم العراق » الجزء الثاني
١٣ـ عمر ، معن خليل ومليحة عوني « المدخل الى علم الاجتماع » مطبعة جامعة بغداد ـ ١٩٨٠
١٤ـ ابو زيد ، احمد « البناء الاجتماعي » الجزء الاول الهيئة المصرية العامة للتاليف والنشر ـ مصر ١٩٧٠

البحث الثاني

التراث الشعبي

عبد الحميد العلوجي

مدير عام دائرة المكتبة الوطنية ـ بغداد

في مطلع القرن العشرين ، وقبل نشـــوب الحرب العالميـة الأولى .. نهض المؤلفون العراقيون بعملية التجميع الفولكلوري على صفحات المجلات والجرائد البغدادية ، وتعاونوا على تدوين تاريخنا الاجتماعي ما ثلاً في إرث الحياة الشعبية المضمومة على الخاطرة الساذجة والارتسامة العذراء دون التزامٍ بمنهج أو احتكامٍ الى قواعدَ وضوابط . انهم خلّدوا مألوف الناس أدباً وفنّـاً وتقاليدَ وأساطير وطقوساً وعاداتٍ وهـم لا يـدرون انهم اقتحموا الفولكلور من بابه العريض . وقد أطلق الباحثون الأوائل على ذلك التيّـار ، وفي أوقات متفاوتة ، مصطلح « الأوابد » أو « العوائد » أحياناً ، ومصطلح « الخَلْقيّات » ـ نسـبة الى الخَلْق ، وهم النـاس ـ أحيـانـاً أخرى .. غير ان الأب أنستاس ماري الكرملي ـ بعد عودته من أوربا الى بغـداد في أواخر القرن التاسع عشر ـ إنفرد عن هؤلاء جميعاً بمعرفته الدقيقة لمصـطلح « الفولكلور » ، بل كان يعلم بأنّ الباحث الانكليزي وليم تومز هو صاحب ذلك المصطلح ، وانه وضعه عام ١٨٤٦ . ومن الطريف ان الأب الكرملي كتب

بخطه في صدر مخطوطته « ديوان الفناف » ـ المحفوظة برقم ٩٣٧ في قسم المخطوطات بالمؤسسة العامة للآثار والتراث ـ ما يفيد بأنه نسخ هذا الديوان في سنة ١٩١٤ ، وان الحكايات التي يشتمل عليها تنمّ عن أخلاق البغداديين وعاداتهم ، وان هذا الفن يُعـرف عنـد الافرنج بالكلمة (Folklore) ومعنى Folk قوم ، ومعنى Lore علم ، فيكون محصّـل اللفظ علم القوميـات •

وأنا أعتقد إن الأب الكرملي لم يكن موفقاً في هـذه الترجمة وحتى المعاجم والقواميس العربية تعجز عن الإسعاف بما يقابل كلمـة « فولكلور » الأجنبية ، ولذلك شاع استعمالها في العراق ـ كما في بقية الأقطار العربية ـ بصيغتها الراهنة دون أن تثير إشمئزازاً أو غثياناً •

وقد استوعب الفولكلور (أو : التراث الشعبي) : الأزيـاء والأمثال والحكايات والقصائد والأوهام والأساطير وأدوات المنزل والسحر ومقومـات الزينة ، والمهن اليدوية والفنون البدائية والألغاز والموسيقى والغناء والغيبيات والمآكل والعادات والتقاليد والمصنوعات •• وغيرها • انه استوعب هـذا التراث الهائل ولكن على صعيده الشعبي •

ويستهدف التراث الشعبي العراقي ، كعلم زاحف جديد ، اسـتكناه حضارتنا الشعبية ، وقسماتها العامة بشعائرها وطقوسها ومواضعاتها •• ضمن اطار شامل يهيىء للباحث أسباب الوقوف على تراثية الفكر الشعبي الخالق ، ومدى ارتباطها بمواقف الانسان الفطرية من أدبياته المترعة بالقيم الجماليـة الآسرة •

والتراث الشعبي . كعلمٍ من العلوم الانسانية ، قـد استغرق حياتنـا الشعبية خيالاً وواقعاً ، وخلّد جميع الإلتماعات التي انقدحت في الضـمير العراقي عبر الأجيال •

إنني ، في هذا البحث ، لن أتصدّى لجميع الآفاق التي ارتمى فوقها تراثنا الوطني خلال الفترة الممتدة بين أوائل هذا القرن وخمسينياته وإنما سأعقد حديثي على تخطيط عاجل وقادر على تشخيص معطيات الانسان العراقي في حياته الاجتماعية ، مؤكداً على خصائص كل طور من أطوار تلك الحياة ، متناولاً ـ فوق ذلك ـ بالاشارة الواعية جميع الأصداء الملوّنة التي تمخّض عنها الواقع الشعبي في حياتنا العقلية المشدودة بالمفاهيم ، وفي أدبنا النابع من الملحمة والخرافة والشعر ، وفي معتقداتنا بقواها الغيبية والطبيعية ، وفي علومنا التي استوعبت السحر والطب ، وفي عاداتنا بمواسمها الدينية ومناسباتها الاجتماعية ، وفي فنوننا وصناعاتنا .

ان تكاليف الحياة اليومية ، وظروف العيش القواهر ، وأعباء العقل والعاطفة .. قد تناصرت ـ كلاً أو بعضاً ـ على تشخيص أبعاد التراث الشعبي العراقي ، وتحديد مسالكه الفنية خلال المناسبات التي استقامت مع وثباته لغةً انفعالية يتناقلها أبناء الحياة حفيداً .. عن جدّ .. عن جيل .

إنهم تناقلوها أدباً شعبياً ترامت أصداؤه على النثر والشعر . واستأثر النثر بالامثال والادعية والالغاز والكنايات والنداءات وترانيم الامّهات بين ترفيص وتهشيش . وتألّقت في الأمثال تجاربُ العراقيين وملامحهم الاجتماعية.واستطاع المثل العراقي أن يستقطر محتواه الموجزَ ثورةً ايجابية: « إلدَمْ مَيْصيرْ مَيْ » و « آني وابن عمّي عالغريب » و « باب التِجيكْ منها ريح سِدْها واستريح » و « الحركة بركة » و « التدبير نصّ المعيشة » . أما الكنايات فقد عبّرت بذكاءٍ عمّا كان يساور العراقيين من هواجسَ وخواطر ، فأطلقوا كلمة « پِرْتكيشي » كنايةً عن الظالم الذي لا يرتدع عن ارتكاب الشرّ . والپرتكيشي تعني البرتغالي الذي اقتحم ، قبل أكثر من ثلاثة قرون ، المعاقل الخليجية العربية ، وقتل أهلها ، ونهب أموالهم . واطلقوا كلمة « مِسْقوفي » على الرجل القاسي الذي لم تجد الرحمة سبيلاً الى قلبه ، وقد انتشرت هذه الكناية خلال الحرب العالمية الأولى يوم احتلت

القوات القيصرية الروسية جزءاً من حدودنا الشرقية المترامية بين خانقين وراوندوز ، وعاملت أبناء شعبنا بقسوة متناهية • كما أطلقوا عبارة « من أبناء السقوط » ـ بعد الاحتلال الانكليزي وسقوط بغداد ـ كنايةً عن الشبّان المتمردين على مألوفهم الأخلاقي وشاعت هذه الكناية في الثلاثينات • وأطلقوا أيضاً كلمة « فَرْمَسوني » كناية عن المستخف بالدين والأخلاقيات السائدة • وهي لفظة فرنسية بمعنى « ماسوني » نسبة الى الماسونية •

وكان للأدب الشعبي ، بين الصحفيين العراقيين ، أنصار دعموه ببعض الزوايا والأركان ـ وربما بعدّة صفحات ـ من مجلاتهم وجرائدهم ، وكان ذلك بارزاً في المجلات : لغة العرب ، والناقد ، وأبو حمد ، وقرندل •• وفي الجرائد : خان جغان ، وخان الذهب ، والبلبل ، والأسرار ، ودونبله ، والمضحكات ، والقسطاس ، والعندليب ، وكنّاس الشوارع ، وحبزبوز ، والكرخ •

وتناقل شعبناأيضاً تلك اللغة الانفعالية « مقاماتٍ » و « قوريات » في شمال العراق وغربه ، وفي أغلب مقاهي بغداد المشهورة : كمقهى المميّز بجوار المدرسة المستنصرية على نهر دجلة ، ومقاهي : عزاوي وحمدي النهر ومجيد گرگر وسبع ، وچايخانة أمين دايي في « الميدان » •• كما تناقلوها « پَسْتات » بهيجةً في منابت الباقلاء ، وجزرة بغداد « الگاوريّة » • وشجون هذه الجزرة تستدعي وقفة قصيرة على المصايف الشعبية ، والكَسْلات والمواقع الترفيهية في تراثنا الحافل • فلقد تعوّد البغداديون على اتخاذ شارع أبي نواس منتجعاً صيفياً ، وكانوا ينصبون على امتداده ـ بمحاذاة الشاطىء ـ جراديغ من البواري والاعمدة الخشبية ، كما تعوّدوا على استغلال الجزَيْرات المتناثرة في دجلة للغرض نفسه إلتماساً للراحة والسكينة وفراراً من العذاب والهموم • وسخّروا ـ اتماماً للمتعة ـ عدداً من الزوارق في سفراتهم النهرية بين الباب الشرقي والگاورية وهم يصغون لطربهم المفضّل • ولم تكن المصايف البغدادية حتى سنة ١٩٢٠ تغادر حدود

الجادرية ، ثم كانت العاقبة للگاورية التي زوِّدَتْ بمياهٍ صالحة للشرب ، وأضيئت باللوكسات (وهي مصابيح معدنية تتوهج فنائلها بالنفط المضغوط) لتكون بعد ذلك جديرة باسم « جزيرة البغداد » . وفي هذه المتنجعات شاعت أغنية « على شواطي دجلَه مُرْ [illegible] يبوعَ أغنية [illegible] تعجبني كَعْدَه أويالك بالگاوريه » . وقد لوحظ ، أيامئذ ، ان هذا الاصطياف كان لا يخلو من حوادث تسيء الى الآداب العامة . وهذه الملاحظة حملت بعض الناس على تفضيل الكَسْلات ، وهي زيارات موقعية هدفها الترفيه ، وكانت تبدأ مع الربيع ضمن أسبوع واحد : اختص سَبْتُه بزيارة مرقد الامام موسى الكاظم ، والأحدُ بزيارة مريم ابنة عمران في كرادة الكرخ ، والاثنين بزيارة مرقدي الشيخ عمر السهروردي والسيد ابراهيم في الرصافة ، والثلاثاء بزيارة الباز الأشهب الشيخ عبدالقادر الگيلاني ، والأربعاء بزيارة مرقد (أبو رابعة) في الاعظمية ، ومرقد الشيخ جُنَيْد البغدادي في الكرخ ، والخميس بزيارة مرقد السيد ادريس في الكرادة الشرقية ، والجمعة بزيارة مرقد الامام الاعظم أبي حنيفة . وكان لكل زيارة أطعمتها المفضّلة التي تحيط بقوري جميل ينتصب فوق سماور أجمل على أرض معشوشبة اتخذت مجلساً للعائلة وضيوفها . وفي خارج بغداد انتشرت المزارات والمقامات والمراقد ، فكان العراقيون يمارسون فيها بعض ما كان يُمارَسُ في الكسلات البغدادية ، ومن هذه الأماكن المحترمة : مقام زين العابدين وقبور بنات الحسن ، وأولاد السيد أحمد الرفاعي ، ونجم الدين ، والزبير ، والشيخ حديد ومراقد الأئمة والصالحين .

وبمرور الأيام تطور هذا الانتجاع ، ووجد الرجال في المقاهي ما يعوّضهم عن الچراديغ والكسلات على صعيد الترفيه المنشود . وكانت مقاهي بغداد كثيرة ، فقد أشار عام ١٩٣٤ الى وجود (٦٠٠) مقهى . وقبل ذلك كان من بين شهيراتها قهوة السيد بكر (أو قهوة القلعة) ، وقهوة البلابل

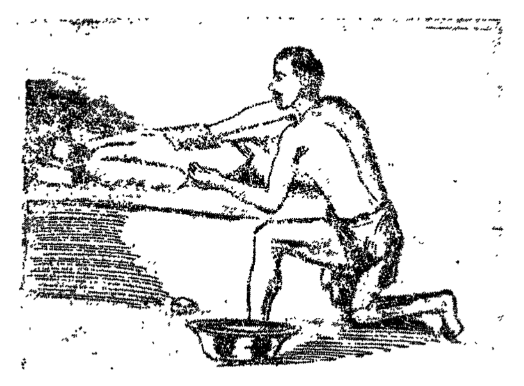


قهوة بكـر
والشخص الواقف هو النجار الاخرس رشيد ملا شكر

في محلة البارودية ، وقهوة گل وزير في الميدان ، وقهوة الأورفهلية في الباب الشـرقي ، وقهوة البيروتي في الكرخ ، وقهوة القلوب (وكانت تسمّى النعشخانة) في الجعيفر .. وهذه القهوة كانت منتجع أهل الرصافة والكرخ لدماثة أخلاق صاحبها (أحمد العيشة) . ولم تكن المقهى في تاريخها مكاناً للعبث أو مصرفاً للفراغ ، بل استخدمها العراقيون وسيلة للترفيه والراحة ، ولازمةً اجتماعية ، وساحة للمطارحات وتبادل الآراء . والمقهى حين تذْكر بخيرٍ ، ينبغي أن يُذْكَرَ معها أيضاً : نومي البصرة والسماور والدلّةُ والنرگيلة ، والشاي والفونغراف أبو البوري والطاولي ، والدولكةُ والتخت والطاسة والأوجاغ ، والگهوچي وبيده كيس النقود ، والصنّاعُ وهم يرطّبون الوجوهَ بماء الورد طمعاً في العيدية ، ونشاطُ باعة التكّة والمعلاق واللوبياء ، وضوضاءُ الدومْنَة والمَنْقَلَة ، وما عُلّقَ من لوحاتٍ على الجدران تَعِظُ الجالسين بالآية والمَثَل والحكمة وتمنع الدَّيْنَ والبصاق .

ولقد أدّى الحمّام جانباً من رسالة المقهى بقدرته على تحقيق نظافة الجسم ومماحكة العقل في شؤون الحياة ، ولذلك كان الحمّام منتجعاً للترفيه ، يتيح للمستحمّين رفع العقيرة بالغناء ، ومبادلة الرأي ، والاسترخاء دونما تنغيص . واذا كانت المقاهي حَكْراً على الرجال ، فأن بين الحمّامات ما كان خاصاً بالرجال كحمّام يونس في الميدان ، وحمّام القاضي بجوار المحكمة الشرعية ، وحمّام الجسر في الكرخ ، وما كان يشتمل على حمّامَيْن متجاورين أحدهما للرجال ، والآخر للنساء كحمّام حيدر وحمّام السيّد .. ثم ما كان مشتركاً كحمّام الجعيفر الذي أباح نهارَهُ للنساء ، وليلَهُ للرجال . وقد ازدانت الحمّامات بالقَيّم والناطور والدلاك وبائع الشاي (أو الدارسين) ، والوقّاد والزبّال والسقّاء والآوكير (وهو الذي يحمل المناشف والوَزْرات الى المستحم) .

هذا الاستطراد النافع كان لا بدّ منه حيال لغتنا الانفعالية .. التي تراشق بها العراقيون « أذاناً » في أحواض المنائر ، و « منقبةً » في باحات المساجد وحدائق البيوت ، و « تجويداً » في مواطن العبادة والبيت والمقبرة ، و «نشيدا» وقوراً يمزق صمت الكنيسة على انغام الارغن ، و «تعليقا»هازلا في فصل اخباري ، (ومن المعروف ان الحفلة البغدادية ، خاصة أو عامة ، التي تقام في البيت أو الملهى أو السينما ، كانت تنتهي بفصل اخباري قوامه تعليق ساخر على خبر شائع أو عادة ذميمة ، وكان جعفر أغا لقلق زاده محوراً كوميدياً للفصول الاخبارية ، وقبيل الحرب العالمية الأولى تمتع البغداديون بما كان يصاحب عروض راشد أفندي القرهقوزية من نقد لاذع ، ومما يجب أن يذكر هنا ، ان سلمان پهلوان عَبّأ تهكمه بالمواضعات الاجتماعية في اسطوانات استهوت العراقيين . ولا شك ان الفصل الاخباري هو عند غير العراقيين يشابه الفصل المضحك . وكلاهما شكل مسرحي يعتمد على النثر العامي الماجن في النيل من العادات والتقاليد والسلوك السياسي بالتجريح



المدلكچي في حمام بغدادي

والتسفيه ، وهو ما يعرف أيضاً بالكوميديا الساتيرية التي شاعت في القرن التاسع عشر) .

وتناقل بعضهم تلك اللغة « ملحمةً » و « حكايةً » في المقهى ، و « أوراداً » في التكية والزورخانة ، و « دعاء » فوق السطوح وفي صميم الأضرحة المقدسة .

ولم تقف هذه اللغة ، بصوتها الشعبي ، عند هذا الحد ، وانما اندلعت « نداء » من حناجر الباعة المتجولين وخيّاطي الفَرْفوري ، وفتّاحي الفأل وتجار الملابس البالية والمتسولين وسُواق السيارات ، والصائحين على ضائع أو فقيد ، والدلالين في مزادهم العلني .



خيـاط فرفـوري

وقد ارتدى الصوت الشعبي صيغاً أخرى تفاوتت هدفاً ومرمى ، فكانت أحياناً « ترنيمةً » تؤانس بها الأمُّ مَهْدَ طفلها ، أو « أنيناً » تذوّبه غادةُ الريف على مجرشتها ، او « شَكوى » بطلقها الريفيّ مع أشجان النواعير ، أو « نواحاً » تلهب به العدّادة (أي : النائحة) محافلَ الجناز . وكانت أيضاً « حَوْقلَة » [أي : لا حول ولا قوة إلا بالله] يلوذ بها المبتلى بخطر داهم ، أو « استرجاعاً » [أي : انا لله وانا إليه راجعون] يتسلح به المؤمن

في معرض المحنة ، أو « استغاثة » يفجّرها مَنْ يكاد أن يغرق في النهـر ، أو « لعنة » تثلج صدر الحاقد ، أو « عويلا » يلتمس النجدة لبيت تأكله النيران ، أو « صرخة » تهدر من فم (الشيخ) لطرد شيطانٍ تقمّص انسـاناً سويّا ، أو « تلقيناً » متداركاً يصبّه الملاّ على الميت قبل أن يُهالَ التراب فوقه ، أو « مثلاً » يتناغم ومقتضى الحال ، أو « هتافاً » تصفع بـه مظاهرة شعبية وجهَ سلطةٍ حمقاء .. وغير ذلك من الأغراض التي نزع إليها صوتنا الشعبي في شتى مناسباته الحياتية .

ان هذا الصوت الخالد ، كأيّ كائن حي ، يبزغ ، ويقتات تجربتـه ، ثم يهرم ويموت . فاذا علمنا انه انحدر الينا عن طريق الرواية أو التلقين أو التلقّي .. فان ذلك يُلهمنا أنه لا يستطيع ، دائماً ، أن يكون في عصـمة من الانطفاء ، وهو لكي يحقق وجوده ويؤكد واقعه وينجو من هول الاحتضار سيعانق مَنْ يفتح له النوافذ لينعشه بنسيم جديد .

ان اللذة والألم هما المحركان الرئيسان للصوت الشعبي العراقي . ومن هنا أصبح الصوت الغنائي سيّد جميع المواقف التي صقلها الألم ، وهذبتها اللذة حيال مشكلات الناس في مطارح الحياة .

والحديث عن الصوت الغنائي ذو أبعاد تضرب أصـولها في مستويات اجتماعية متفاوتة بتفاوت المناسبات الفولكلورية ومداها التاريخي ، ولـذلك يكون عبثاً أن نحنط الصوت الغنائي الذي انفجر منذ العهد السومري أو أن نعيد اليه الحياة بشهقة من الأوكسجين المصنوع . فما مات مات ولا سـبيل الى احيائه . والعبرة بما كان يومض ـ قبل اليوم ـ في حياتنا الشعبية ، أو بما كاد يختنق نتيجة الاهمال .

لقد عرف صوتنا الغنائي هواة ومحترفين خلّدهم تراثنا الشعبي رواداً من الطراز الأمثل ، فبعد أن جاد القرن السابع الهجري بالاستاذ ممدود بن عبدالله الواسطي ليغنّي مباهج الحياة على ربابته .. شَمَخَ القرنُ الماضـي بالبكائيّ الأول سعيد عكّار . ومن محافل المنقبة النبويـة ، حيث الكورس

الديني يؤدي الأدوار ألحاناً ، انطلق الى « تخت » الغناء ، في المقاهي ، رعيل" جديد من ذوي الحناجر الذهبية ، يبكون عراقهم المُمْتَحَنَ بأهواء أصفهان والاستانة ، ويتماوجون بالمقام العراقي وهم يلعنون الحظ العاثر ، ويؤاسون القلب المفتون ، ويعذلون الدهر اللئيم ، ويصاولون الاجنبي الدخيل .. فكان شلناغ مهوى الأفئدة في ليالي بغداد ، وكان الحاج خضير بن گصب يبعث كبرياء الجراح من مزماره ، وكان أحمد زيدان يقيم الدنيا في مقهى المميز ، وكان نجم الشيخلي يتألق في مقهى عزاوي بالميدان ، وكان غير هؤلاء كحسن شكرجي وخليل رباز ورشيد القندرجي ومهدي العيسى ومحمد العبانچي يواجهون تكاليف الحياة بالنغم الشجي" واللحن الطروب .

لقد استغرق الصوت التعبي العراقي فيما استغرق ثمانية وعشرين مقاماً : ومَهَرَ في أداء أصولها السبعة ، كما مَهَرَ في أداء فروعها الاحدى والعشرين .. فكان الچالغي البغدادي ، بسنطوره وكمانه ودقّه ودربكته ، يصاحب الأصول ، النوى والحسيني والعراق والأوج والپنجگاه والنشگاه



الچالغي البغدادي



شيخ المقام العراقي محمد القبانجي في الثلاثينات

والهفتگاه ، وجميع الفروع دونما استثناء بما يتبعها من تحرير وتسليم وميانات وپردات •• وحتى اليسته الختامية ، وهو يتناغم مع همسات المغنّي وصيحاته عبر المقام ، فيعانق الجوّ التعبيري الذي تصوغه احدى اللوازم الفنية كأفندم (سيدي) ، وفريادمَنْ (يا ويلتاه) ، ودل مَنْ (قلبي) ، ويا دوست (يا صاحبي) ، وايكي گوزم (يا عيني) ، وجان مَنْ (روحي)، ودني ياندم (متّ) •• وغيرها •

وفي بعض مناطق محافظة التأميم سيطر التفاؤل (وأحياناً الحزن) على عشرين مقاماً في غناء القوريات ، منها : قاره باغلي ويتيمي وكسوك • وبين هذه المقامات والمقام البغدادي قواسم منتركة في اللحن والمضمون •

لقد استخدم أقطابُ المقام الشعرَ الفصيح والموال الشـــعبي في أداء اللحن وباتوا قادرين على استهواء الشعب العراقي بالصبا والرســـت والعجم والأوج والنوى والحسيني والحجاز ، فكانوا يغنّون القصـــيد الفصيح في البيات والطاهر والسيگاه وحجاز ديوان وعريبون عجم والرســـت والنوى والمنصوري والخنابات والعجم والصبا والحسيني والدشـــت والأرواح والپنجگاه • ويغنون الموال في الســـيگاه والمحمودي والمخالف والحليلاوي والقوريات وعريبون عرب والابراهيمي والمسچين والراشدي والحكيمي •

أما صوتنا الشعبي في أغانيه القروية والريفية والبدوية ، فقد إتّســـع للحب والبطولة والكرم والشجاعة ، ففي جنوب العراق ـ حيث ســـكّان الفرات من أبناء الشرجية ـ تسامت الأبوذية ألحاناً مختلفة على لســـــان الحِسْچة فكان منها اللامي والصبّي والمشموم والعنيسي ، وقد ترامت على مضامين عاطفية كالعتاب والحماس والتوجع والمديح والغزل والهجاء والرثاء •

ومن غناء الجنوب العراقي المربّعُ الذي طغت عليه «چِلْمَة° ونَصْ°» وغنّاه الهاوي بنغم البيـــات في مجالس الطرب هناك •• حيث اســـتمرأت جماهيرنا الفلاحية أيضاً غناء « الشـــبَكْها » و « المجرشة » و « النعي » و « التوشيح » •

وللهوسة ، في هذه المنطقة ، تأثير مباشر وعميق ، ولا سيّما بعد أن هاجرت مع المهاجرين الى بغداد وبعض المدن المتناثرة في قلب العراق • ويزعم المستشرق الفرنسي ماسينيون انها ضرب من الغناء التهكمي • واذا كان فيما يزعمه بعض الحقّ ، فأن الحقّ كله في ان الهوسة تفجير عاطفي يثير الهمم الرواقد ، ويعلن الحرب ، ويقدّس الأمجاد المتوارثة ، ويسبّ العدوان• ولذلك كانت الهوسة أغنية ثورية مدعومة برقصة جماعية تلهب العزائم •

ونزع تراثنا الشعبي في شمال العراق وغربه ، بين القرى والأرياف ، الى مواجهة يومه وغده بضروب أخرى من الغناء كالتجلية « لَتجَلْبَنَّكْ يليلي بْأَلِفْ تَجْليبَة » ، والمُولَيّة « يا عين موليتين يا عين مولية » ، والهلابة « هَلَه بالواردة يَمّه هَلابه » ، والشوملي « علشوملي علشوملي نارك ولا جنّة هلي » ، والهلية « هله يانور عيني يا هلية » • وبرع المغني الشعبي في غناء النايل بأنواعه الثلاثة : الغرباوي والسويحلي والعراگي ، كما برع في أداء العتابة • وقد ظهرت نخبة من المغنّين ترود المقاهي – في المدن العراقية – مشنّفة الأسماع بالنايل والعتابة ، وكان الاعجاب معقوداً على السيد محمد العلگاوي الذي اعتاد أن يسلب الألباب ، في مضمار العتابة ، على ربابته •

وليس بكثير على الغناء العراقي أن يعبّر أبلغ تعبير عن هواجس جماهيرنا وقد سمعنا « البَسْتَة » في كل مكان وهي ترتدي الصيغة المُثْلى لذلك التعبير ، ومن المهمّ في هذه المناسبة أن أُسَجِّلَ ملاحظة عابرة حول البستة تصحيحاً لِوَهْمٍ قديم • ان البستة ليست كلمة فارسية ، لأنها في المعاجم الفارسية تؤدي معنى (مربوط) و (مقيّد) أو (شعر بأربعة



ابــو الربابــة

مصاريع) وكلها بعيدة عن معناها الغنائي • وأنا أحسب ان الكلمة محرفة عن كلمة (البسطي) التي ذكرها الكندي فيلسوف العرب في رسالته (خبــر صناعة التأليف) بمعنىً يستغرق معنى البستة خفّة وطرباً •

والعجيب جداً ـ فى أواخر الخمسينات وحتى اليوم ـ أن يحاول الكيان الصهيوني انتحال الفولكلور الغنائي العراقي وموسيقاه دونما سَــنَدٍ أو حجّة مقبولة ، وقد اعتاد أن يعرضه في دول أوربا الرأسمالية وفي الولايات

المتحدة بوصفه تراثاً اسرائيلياً • كما اعتاد في اذاعته العبرية تقديم ألوان من الغناء العراقي بوصفها أغنيـــات اسرائيلية ، وكـان هـــذا ديدنه في أغلب المهرجانات والندوات الفولكلورية التي يشارك فيها • ولكنه تمشياً مع نفاقه السياسي اعتاد أيضاً أن يقدم في اذاعته العربية تلك الألوان من الغناء بوصفها أغنيات عراقية •• بل كان يقدم بعضها بأصوات مغنيّات صهيونيات يجهلهن الشعب العراقي ، كالمغنية « نجاة » التي كانت ـ ذات ليلة ـ تغنّي (أنا بياحال وانت تلوم بيّه) • والمؤكد ان اذاعة العدو الصهيوني كانت ـ وما تـزال ـ تذيع عدداً من القطع الموسيقية القديمة والاغاني المشهورة والمقامات العراقية ، وتتشبث بها لتخدع الناس بأنها تراث اسرائيلي •

ان تاريخ العراق منذ الجاهلية وفي عهوده الأموية والعباسـية ، وحتى قبل الاحتلال الأجنبي ، لم يُشِرْ على الصعيد الفني ولو إشـــارة عابرة الى موسيقار يهودي أو مغنية يهودية ضمن الموروث العـــربي في العـــراق • ولم يكن أحد من يهود العراق في صدر القرن التاسع عشر معروفاً في دائـرة المقام العراقي ، كما يلاحظ أيضاً من واقع الموسيقيين والآلاتية في بغـــداد الذين اشتهروا بالچالغي البغدادي انهم كانوا من غير اليهـــود خـــلال ذلك القرن ، ثم شاركهم بعد ذلك عدد ضئيل من اليهود في هذا الفن • فقد عرف العراق عهدئذ والى نهاية عام ١٩٥٢ (الذي يمثل ذروة الهجرة اليهوديـــة من العراق الى الأرض العربية المحتلة) ٢١٧ فناناً من أهل الغناء والموسيقى ، من بينهم ٣٨ يهودياً • وبالرغم من ان هؤلاء اليهود كانوا مواطنين عراقيين عاشوا في العراق ومات أغلبهم في بغداد ، فأن العدو الصهيوني يحاول تشويه هذه الحقيقة ، بل يتجاهل انهم كانوا تلاميذ لأساتذة عراقيين من غير اليهود •

وهنا لا بد من التساؤل : على ماذا شيّد الكيان الصهيوني انتحالـــه للفولكلور الموسيقي العراقي ؟ •• أعلى نسبة الفنانين من يهود العراق التي بلغت ١٧٫٥٪ من مجموع الفنانين العراقيين ، أم على الثمانية والثلاثين فناناً

يهودياً الذين تلقوا الغناء والعزف والايقاع من أســـاتذتهم العراقيين غير اليهود ، أم على تجارة عبدالله الياهو (صاحب المقهى المعروفة بأسمه في بغداد) الذي سجل بعض أغاني أحمد زيدان المتوفى ســنة ١٩١٢ ، أم على جهود عزّوري العوّاد الذي كان مشرفاً على شركة غرامفون لتسجيل الأغاني ، ام على بعض المواخير التي صاغتها البرجوازية اليهودية صالات للرقص والغناء في بغداد كمقهى طويق وملهى الهلال وملهى أبي نؤاس وملهى صالح بطّاط ؟

واذا طاب للعدو الصهيوني أن ينتحل تراثنا الفني ويفاخر به المهرجانات الدولية بوصفه تراثاً اسرائيلياً ، فلا بد أن يعرف الرأي العام ان هذا التراث المزعوم يستمد مقوماته من (سليمة دجلة) التي غَوَت بعض الأفنديـة في ملهى الفارابي حتى سنة ١٩٤٠ برقصها الغنائي الخليع والتي تعيش اليـوم شيخوختها (وربما ماتت) في احدى المستعمرات الصهيونية في فلسـطين المحتلة ، كما يستمد برهانه من (نجية ابراهيم) التي سجلت أرذل المواقف في ملهى الجواهري ســنة ١٩٤٥ ، والتي ماتت (أو ربما ما تزال تعيش) كسليمة دجلة في احدى تلك المستعمرات .

ولربما يريد الكيان الصهيوني ، وهو ينتحل تراثنا ، أن يؤكد هـذا الانتحال بأمجاد صالح الكويتي الذي جعله ألمع نجم في اذاعته العربية .. ولكن هذا « الكويتي » العازف والملحن لم يكن عراقياً ولا كويتياً ، وانما كان أجنبياً دخيلا ، فقد ولد أبوه عزرا يعقوب في ايران ثم هاجر الى بغداد حيث وُلِدَ صالح واخوانه ، وفي مطلع هذا القرن ســافروا جميعاً الى الكويت ، ثم عادوا الى بغداد مع الاحتلال الانكليزي . وفي ما ذكرت مايكفي لدحض الافتراء الصهيوني في مواجهة تراثنا الموسيقي الأصيل .

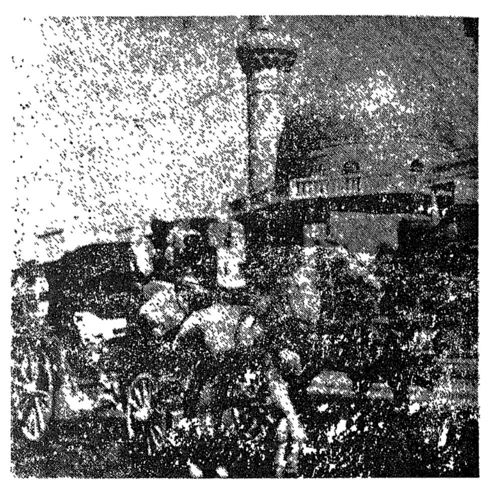
ذلك تعليق ، كان لا بد منه قبل العودة الى صميم هذا البحث ويبهجني أن أقول : ان تراثنا الشعبي البدوي قد تجسّد ، بين المضارب ، وفي مواطن الكلأ الضاحك ، وعلى ضفاف السواقي .. تحت سمائنا المعطاء ألحاناً تفيض

غناءً ورقصاً ، بلا عزف وبلا آلات •• وانما هي الحناجر تغنّي ، والأكف تصفّق ، والخصور النشوى تتمايل •

واذا طاب للجزيرة أن تباهي أرياف العراق بالدحّة البدوية ، فان المنتفك لا بد أن يتشامخ ، عندئذٍ ، بهجينه المسبّع الذي لا يقل حرارة وحماساً عن دحّة البدو •

لقد ارتبط تراثنا الشعبي بالحياة العامة ارتباطاً صقلته الأيام تعايشاً اجتماعياً متطوراً ، فانبسط مع النفوس المطمئنة ، في نوادي الطرب ، أنغاماً قوامها الصبا والرست والنهاوند والعجم ، وتجاوب مع عازف الربابة إبّان الأعياد وخلال المناسبات الفولكلورية ، في المقاهي والأسواق وأمام البيوت ، وهَدَرَ من فم القَصَّخَون (راوي السيرة الشعبية) حكايةً وملحمة ، واندلع من أعماق السَبّاح ـ وهو يثب الى ماء دجلة ـ نداءً مؤمناً « إلخِضِرْ يابو مْحِمَّدْ » وانطلق بجلال وخشية ، أثناء الولادة ، دعوة حارة لتسهيل المخاض •• واستحال همسة رخاء ، بين شفاه الأمهات والجدّات ، حول « كواريك » الأطفال ، وتصاعد عزّة قومية في هلاي (أي : زفّة أو هوسة) سلمان پاك ، وتلاشى أغنية مقتولة على لسان شقيّ مخمور يتواثب به « رَبَل » [وهو عربة سوداء معروفة] عجوز بين شوارع علاوي الحلة في كرخ بغداد •

وعلى هامش هذا السياق استطيع أن أزرع عدداً من المصابيح •• ربما تُعين البحث على استجلاء ما رقد في ذمة الذكرى • فمما لا شك فيه ان الحديث الشفهي هو ابن عم النص المدوّن ، وان فن الحكاية تراث عراقي أصيل • ولقد أدرك العراقيون بين الحربين العالميتين ان ذلك الفن أخذ



الربل يوم كان في شارع الرشيد ببغـداد

سبيله نحو الانطفاء بعد أن كان قبل الاحتلال الانكليزي حرفة نافعة رابحـة وانجازاً مقبولاً ، اذ كانت المقاهي والأسواق مواطن القصّـــاص الملائمة ، وهؤلاء بدورهم كانوا ينبسطون للهدايا التي تتراكم عليهم من كل صوب .. ولا سيما في حالة ارتجالهم القصة . ولا بد أن يشار الى ان الأميّـة كـانت سائدة بين المواطنين بشكل صارخ ، ولذلك أصبحت القصص سلواهم ، فكان القصّاخون يشنّفون الأسماع ببطولات عنترة أو أبي زيد الهلالي أو سيف بن ذي يزن بعد صلاة العشاء في مقاهي الجوبة والفضل وباب الشيخ والدهّانة في الرصافة ، ومقاهي الفحّامة وسوق العجيمي والمشاهدة والشيخ صندل في

الكرخ .. وحتى تكايا بغداد سنة ١٩٠٧ كانت تتحدث كثيراً عن مصـــرع الحسين بن منصور الحلاج . ولطالما شـــاهد البغـداديون في الثلاثينات القَصَّخون مثلاً فَرَج في مقهى حوري بمحلة خان لاوَنْدْ وعلى رأســه چَرّاوية ، وبيده سيف خشبي كسيف دون كيشوت .. ومثله كان القصخون نصيف العزاوي . ومما يجدر بالتنويه ان بَطَل السيرة الشعبية كان ذا صفات تنسجم مع مطامح المستمعين وتعكس أمانيهم ، وان تفاصـــيل السيرة كانت تستمد عجائبها من خزين الذاكرة الشعبية .



القصخون البغدادي

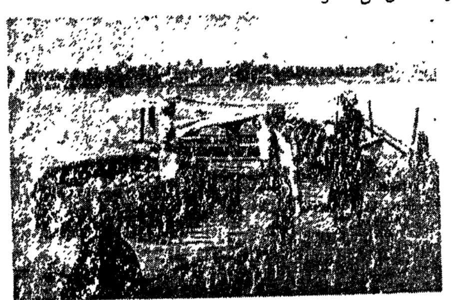
أما ما يتعلق بالهَلاي" (الذي يطلق عند بعض أهالي محافظة النواسيم على رقصة شعبية تؤدى في بيت العريس ليلة الدخلة) ، فالذي أعرفه أنه كان مهرجاناً ربيعياً يستعد" له البغداديون رجالاً ونساءً وأطفالاً قبيل شهر آذار ، ويتخذون له الأُهبة بتجهيز الخيام والأفرشة ومستلزمات الطبخ • وتبادر جماهير محلات : قنبر علي وصبابيغ الآل وباب الشيخ الى التجمع في جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني ، ومنه تنطلق الى المدائن على إيقاع موصول من دفوف المتصوفين ، بينما يختال بين صفوفها الفرسان وقد شهروا سيوفهم ومسدساتهم وخناجرهم • وهم جميعاً انتظموا في مواكب : موكباً إثر موكب مهزوزين بالهوسات دون هوادة ، وفي أعقابهم تسير البغال والحمير وعربات الحمل « البِرِشْقات » منقلة بالأمتعة • وهناك بين هذه المواكب من كان يقصد المدائن برحلة نهرية في دجلة على دَوَبٍ تجرّها الزوارق البخارية • وبعد وصولهم الى المدائن يزورون مرقد الصحابي حذيفة بن اليمان ، ثم ينطلقون بعد ذلك الى مشهد سلمان پاك لينتشروا فوق مرقده سارة خضراء • وفي ختام هذه الطقوس تتحرك المواكب في غمار الزغاريد نحو طاق كسرى • وهناك تنطلق مفاخرها :

واجِبْ عَالْعَرَبْ لِلْعَرِبْ توكَّفْ سُورْ
وِتْخَلّي البَنادِقْ بالظّلامِ تْنُورْ

لتعيد الى الأذهان أهازيج النصر التي أطلقها المقاتلون العرب في هذا المكان بعد معركة القادسية التي حررت العراق من الربقة الفارسية المجوسية • ومما لا بد من ذكره في هذا الصدد هو الدور البارز الذي كان الشاعر الشعبي محمد الحداد يؤديه بمربعاته المشهورة في هذا المهرجان السنوي •

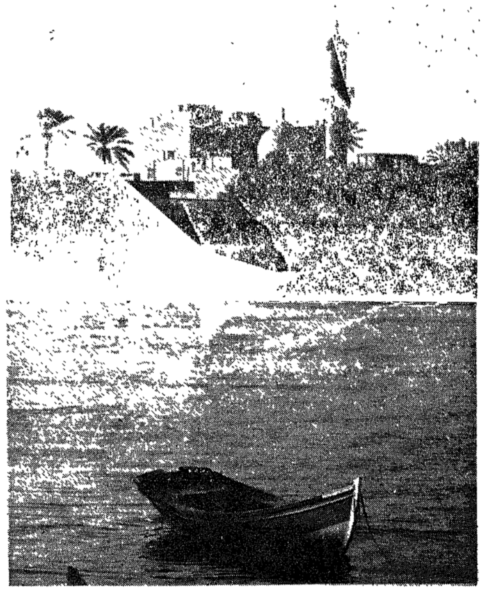
ولا بد بعد التنويه بالخيول والحمير والبغال والبِرِشْقات والدَّوَبِ النهرية التي أسهمت في هلاي سلمان پاك من جولة ماتعة بين وسائل النقل التي تبوّأت مركزاً مرموقاً في تراثنا الشعبي ، فقد عرف العراقيون وسائل

نقل أخرى موزعة بين البرّ والنهر كالقُفّة والشَّخْتور والفِلْكَة والمَشْحوف والمَهَيْلة والطبكّة والبَلَم والكَلَك (الرمث) في دجلة والفرات وغيرهما ، وسخّروا الشختور في نقل الرقّي والبطيخ والبضائع الخفيفة بين المدن والقرى الواقعة قرب الشواطىء والضفاف . وكانت القفّة تستعمل لعبور دجلة طيلة الثلث الأول من هذا القرن وهي زورق نصف كروي مفلطح ومقيّر الظاهر ويصنع من أغصان الحَلْفاء . والبَلَمُ أيضاً زورق نهري صغير ، ولكن شخصية البلّام طغت عليه ، اذ كان هذا الرجل يقف بزورقه والمجدافان في يديه عند احدى مشارع دجلة المنتشرة في جانبيه ليحمل الناس رجالاً ونساءً من مشرعة الى مشرعة في منافذ معروفة تفضي أما الى سوق وأما الى شارع . وقد أصبح البَلم وسيلة لصيد الأسماك ونقل الأمتعة وحمل الناس الى مواطن اللهو والاستجمام . وراجت مهنة البَلامة رواجاً كبيراً يوم كانت جسور بغداد محمولة على الجسّاريات العائمة : وكانت البِلام يومذاك تتهادى فوق دجلة مع غروب الشمس في نزهة نهرية . وكان بعضها يحمل (الستارة) الجميلة التي تعصم الازواج والعشّاق من النظرات المتطفلة .

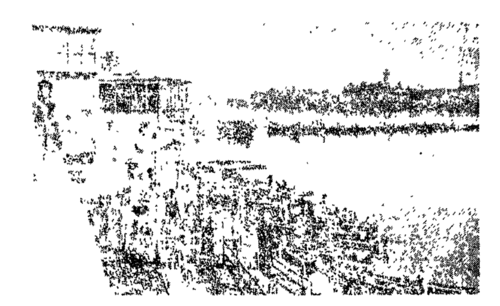


قفة تحمل الركي في شريعة خضر الياس ١٩٣٠

اما الكلك (الجلج أو الرمث) فكان من أشهر وســـائل النقـل في العراق . ينطلق من الموصل أو تكريت أو سامراء متفلاً بالمنوجات الزراعيـة لحلفه أو البضائع التجارية • وكان يتألف من عدد من القِرَب المنفوخـة وقد فوقها اعمدة خشبية مشدودة بالحبال ، وفي مؤخرته قفص كبير للديكة والدجاج • وكان اصحاب الكلك يستفيدون من صياح الديك في ضـــبط



بلم في دجله



شريعة باب السيف سنة ١٩١٧

مواعيد الصلاة . وفي الكلك أيضاً تنور يستخدمونه في تجهيز الخبز ، فاذا بلغ بهم بغداد وقف في احدى مشارعها لتفريغ الحمولة وتفكيك أجزائه .



الچلچ في نهر دجلة

وعندئذ تباع حباله وأعمدته وما في قفصه من دجاج ، ثم يترمى السور في قاع النهر ، ، كان البغداديون يشترون الجرْبان المنفوخة ليستعملوها في السباحة .

وأيا كان الامر فان النقل الشعبي كان يشمل ، في بعض معانيه ، على سفر الانسان ، وترحيل المتاع والبضاعة . وكان الانسان العراقي خلال السفر يقطع المسافات بين الأمكنة أما راجلاً – اذا كان فقيراً أو بخيلاً – وأما راكباً اذا كان ذا مال . وفي حالة الركوب شوهد يسافر وحده ضمن قافلة ، يمتطي الحصان أو الكديش أو البغل أو الحمار أو البعير أو السفينة أو الترامواي .



الترامواي عند مروره بمحلة الجعيفر

وفي حالة نقل البضاعة رأيناه يستخدم أخاه الانسان حمّالاً ، والحيوان واسطة .. ولا بد لكل ذلك من طريق وخانات ومحطات بريد . وجميع هذه العناصر دخلت . بين مدح وذمّ ، في أمثالنا الشعبية من باب عريض ، فكانت حصة الخيل والحمير أكثر من اثنين وثلاثين مثلاً ، وللجمل أكثر من ثمانية عشر مثلاً . واختص البغل والكديش والسفينة والخان والدرب والحمّال بعدد ضئيل من هذه الأمثال . فالحمّال ، مثلاً ، وهو انسان يعاني مشقة الحمل .. كان يتذلل خلال هذه المشقة ، ومن هنا قال البغداديون في أمثالهم « مِثْل الحَمّال ما يذكر الله إلاّ جَوّه الحِمِل° » .

أما الكديش فقد عرفه العراقيون أنشط حيوان في القافلة ، ولذلك قيل « الكديش° بَين° الزّمايِل° ركّاض° » .. بينما البغل أصبح عند الخبراء حيواناً اعتيادياً أضاع ذكاء الفرس وبلادة الحمار : « البغل گالوله° منو أبوك گال خالي الحصان » ، ومع ذلك فهو أصبر الحيوان والأقدر على الطرق الجبلية .

وظهر الحمار في أمثالنا الشعبية بشكل لا يُغْبَط عليه ، ولكنه رغم ذلك كان أجدر وسائط النقل بالتنويه . وفي تراثنا الشعبي ، على صعيد النقل ، ما يسمى اليوم بالخدمات السياحية ، وقد وجدت طائفة من أمثالنا الشعبية تشجّع على السفر ، كقولهم « يوم السفر نصف السفر » و « تلث الدرب عتبة الباب » و « تبديل هوا أحسن من حكيم ودوا » و « المَي° لو ظَلّ° بمكان° يخيس° » و « غيب تصير حبيب » . كما وجدت بعضها يوصي الفقير المسافر ماشياً على رجليه باجتناب المغامرة ، كقولهم « أمشي شهر ولا تْعْبُر° نهر » . وعلى رأس الخدمات السياحية يجيء اختيار رفيق السفر الذي يؤنس رفقته ، كقولهم « الرفيق قبل الطريق » . وحذرت بعض الأمثال الناس من السفر في شهر كانون .. خشية البرد والأمطار والثلوج والأوحال . كقولهم « اليسافر في كانون يكون مجنون » . وأوصى بعضها

جميع المسافرين - منذ حلولهم في البلدان الأخرى - بالتزام الحسـمة بالآداب العامة ومسايرة الناس ، كقولهم « يا عريبْ كُونْ أديبْ » و « لو خَنْتَيتْ لبلدْ كُلْ أهْلَه عوران .. سِدْ وحْدَه من عيونك » .
وهناك مثل واحد يؤكد ، ضمن الخدمات السياحية . حقيقة وقائية تنفع المسافر في البلدة التي قصدها ، وهو « كَبْلْ مَنوصَلْها أَكْلْ من بْصَلْها » . أما الحسولات وأجور النقل ، فلها رصيدها الخاص من أمثالنا الشعبية . وقد عرفنا ذلك في قولهم « الكَرْوَه خوشْ كروه .. إلاّ الدَرْبْ خَوفْ » .. أي الأجرة ملائمة ، ولكن الطريق مخيف ، حافل باللصوص . وقالوا « فوگْ الحِمِلْ عْلاوَةْ » للزيادة في التكليف .
وقد اختصت الحمولة الخفيفة بشيء من الامتياز ، فقيل عن صاحبها ، « وينْ ما غابَتْ شَمْسَهْ باتْ » و « المفلس بالقافلة أمين » . وللأحمال المطروحة أرضاً عدد من أمثالنا ، أتذكر منها « الله مَيْخَلّي حِمِلْ مطروح » و « واگعْ حِمْلَه بالداودي » .

واضافة الى ما تقدم فقد اشتهر الحمار الحساوي الذي اعتاد العراقيون الحصول عليه من أبوين حساويين ، وهو حمار أصيل كان هدفَ المكاري في جميع أنحاء العراق ، ويعدّ الحساوي الأبيض أجود نوع ، ويباع بسعر مرتفع . وبين الحمير نوع آخر يسمى « المْدَگْبَلْ » وهو دابّة اعتيادية تباع بثمن بخس . والمعروف ان هناك من لوازم القطارات والسيارات والطائرات والسفن كراجات وموتيلات ومحلات للغسل والتشحيم ومحطات وأماكن للأدوات الاحتياطية ومزاود للوقود ومطارات وموانيء وورشات لأصلاح الأجهزة المعطوبة .. ولكن لوازم الحمار لا تقل عن ذلك ، فأنه يحتاج الى مربط ومعلف (أي محطة وقود) كما يحتاج الى برذعة (جْلالْ) وإكاف (جصّانية) وخَلْطَة (قلادة من الأجراس) وسابل (يصنع من الگواني والخوص) وثفر (حزام خلفي) ورشمة (لجام) . وجميع هذه

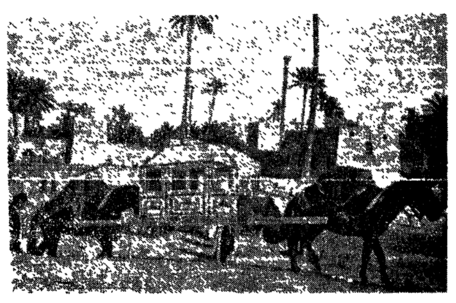
اللوازم بسامراء في اناجها الحداد والخيّاط والنجـار والحبّال . وكانت تتوفر في بعض الخانات المعروفه ، مثل خان الكعبولي في الكاظمية وسوق اليهود في سامراء .

والحمار بعد ذلك خضع لسنّة التطور عكسيا ، فهو بعد أن كان لازمة ضرورية من لوازم النقل البري ، يطيع كلمة القافلة ، ويطرب لأغاني الليل .. أصبح أعلوبة بين المكارين ينقلون عليه الجص والملح والأشنان والبصل والشوك ، ثم أصبح عبداً من عبيد العطار المتجول في القرى ، ومستعمرة متنقلة تخضع لسيادة (النكّاب) الذي يبيع التراب وينقل الحجارة من بين انقاض البيوت المهدومة .

وهكذا كتب على الحمار أن يكون منخلعاً جداً ، فأضحى يجتر ذكرياته الحلوة وهو لا يملك من أسبابها شيئاً . وينتشي بأحلامه البعيدة التي كانت تذكره بما كان له من موقع مرموق في حياتنا الاجتماعية .. ولكنه كان ينخرط في البكاء كلما إنمع في عقله الباطن انه كان ذات يوم يحمل الجاحظ على ظهره ، وانه كان يحمل الملح من سـامراء الى الخالص ليعـود مثقلاً بالفواكه .

ولقد كان المكارون (المچاريه) الذين انتشروا في رصافه بغـداد يجتمعون بحميرهم بالقرب من جامع الميدان .. ومن هناك تسعى حميرهم في مناكب بغداد وراء الرزق الحلال . وجدير بالاشارة ان المقاهي التي كانت مجمع المكارين في الكرخ والرصافة أصبحت أثراً بعد عين ، وتناثر المكارون على المقاهي العامة ولكن هناك مقهى صغيرة تقع بالقرب من حمّام شـامي في الكرخ كانت تجمع شملهم وتتيح لهم الفرصة لتبادل وجهات النظر .

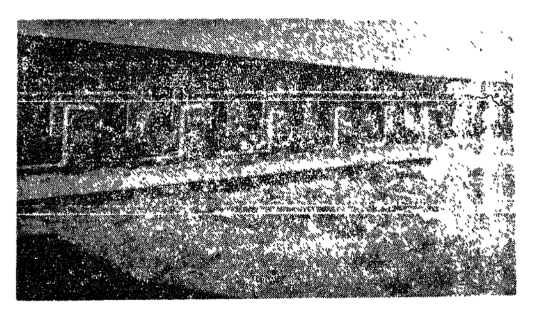
وكان الحمار زينه القوافل ، وأنيس الدرب الطويل .. يوم كـان اسكروان يحرك صفوفاً من البغال والخيل والحمير ، وهي تختال بالكچاوات



التختروان : زينة القافلة العراقية قبيل الحرب العالمية الاولى

والمحامل والتختروانات • وقد رأى الحمار على طريق القافلة ، خلال تاريخه البعيد ، مشاهد فاتنة بعثت في أعماقه التمرد على البرذعة ، فطرحها أرضـاً لينعم بمباهج الحرية ، وهو يرتع في رحاب خان آزاد وخان المحاويل وخان ضاري وخان الكعبولي وخان النخيلة وخان الحماد وخان الحصوة وخان المصلّى وخان بني سعد وخان العطيشي وخان المتاهدة وخان المحمودية وخان الضلوعية وخان الاسكندرية •

وكانت القافلة أحياناً تصحب عدداً من الكلاب خلال رحلتها الطويلة . وقد اعتادت هذه الكلاب أن تضـجر من السفر الموصـول ، ولذلك كانت ترجو من صميم القلب أن يموت حمار أو أكثر خلال الرحلة لتستـريح القافلة بعض الوقت التماساً لمناقلة الأحمال من ظهور الموتى الى ظهور الأحياء من الحمير ، ولذلك قال البغـدادبون « مـوتِ الحْمَـارْ يفَـرّحْ الچِلابْ » •



خـان ضـاري

وفي مستوى النكبة التي كان قطّاع الطرق ينقضون بها على القافلة كان الحمار يتحمل نصيبه من المحنة الطارئة والبلاء الهابط إما سرقةً أو قتلاً أو تشريداً أو عفواً .

وقلما كانت القافلة تمضي في طريقها وهي آمنة من مزعجات الليالي .. وكان هناك بين المجارية والكروانباشية من كان يصبّ الموت صبّاً على عصابات الليل . وكان حَنْدَوْ الجعيفري الكرخي ينقل البضائع التجارية الخفيفة والمسافرين على ظهور حميره خلال رحلاته العديدة الى ايران أو الشام أو الموصل ، وهو يتحدى لصوص الطريق الذين كانوا يولون فراراً عندما يعلمون بأن حَنْدَوْ على رأس القافلة .

وقد يبست حاجة الناس الى الحمار بعد احتلال القطار والسيارة جميع الطرق البرية التي كان يجتازها ذلك الحيوان .

وبعد هذا الاستطراد أعود لأقول ان روافد الصوت الشعبي العراقي قد جاوزت الحياة العامة الحافلة بالنقائض لتستقر في أعماق الشعب ، بين ميلاد أبنائه وموتهم ، أبجديةً متكاملة لفن التعبير على الصعيدين العاطفي والعقائدي .. إنه تألّب على العمل ـ في أثنائه وبعد انقضائه ـ ألحاناً تضجّ بالحنين والألم ، وتحمل العمال أو الفلاحين على انجاز الواجب اليومي .. وانه تقمّص غناء (البَكْرة) في موسم الحصاد ، وقد تساوفت أنغامه مع النشاط العملي ، فكان يغالب الجهد المبذول مع الفجر ، بذكرى حبيبته .

وكانت المرأة ، في المدينة والقرية ، تؤانس رحاها بغناء (الحيّاوي) والغافلي .. دامية القلب ، منهوكة الأطراف ـ وهي تبكي شهداء السَّفَرْبَرْ في الحرب الروسية ـ العثمانية ، وشهداء ثورة العشرين الخالدة .. وكان النداف يخمد جزعه بالأبوذية الدامعة ، وكان الدلاّل يجرّيء الناس على الشراء ، في دائرة المزاد العلني ، بنبراته المتدافعة ، وكان (الخِلْفَة) يشجّع « المرّار » ، خلال عملية البناء ، على الجود بقوة العمل .. وكان صنّاع المطاعم والمقاهي يماطلون الرغبات بنداءاتهم المحمومة .. وكان أبو الهريسة فحل الميدان في اغراء الأطفال وتجميعهم حول دكّانه .

والحديث ، هنا ، ذو شجون .. لأن الصنّاع والباعة الذين ذكرتهم يستلزمون شيئاً من الاستطراد حيال بعض المهن والحرف وبعض الصناعات الشعبية . فقد كانت صناعة الصفر رائجة في بغداد والموصل وكربلاء ، ومنذ سنة ١٩٤٨ وبمنافسة الفافون ، أخذت طريقها في كربلاء الى التقلص ، وتتيجة لذلك افتقد البيت العراقي ما كان يتباهى به من مشارب ومصالخ ومساعط ومباخر وسلبچات . وكان بعض الصفارين ينقشون تناجهم بالآيات القرآنية وصورة البراق وناقة صالح .



حـداد من الموصـل

وكانت صناعة النسيج تعتمد كلياً على تحضير الغزول والصبغ ، وهي تعكف على عمل الثياب الصوفية والقطنية والبُسُط والستائر والأغطية والعباءات الرجالية والنسائية • وقد اكتسبت بعض المدن العراقية شهرة ببعض صناعاتها كشهرة السماوة بالأُزُر الصوفية المطرزة (أو المشغولة) ، التي تنسجها الأيدي النسائية بألوان داكنة غامقة كالأحمر والبنفسجي والأصفر والأخضر ، ثم تطرزها بخيوط صوفية ملونة مربعاتٍ ومستطيلاتٍ ومثلثاتٍ • وفي منطقة علي الغربي تنسج بيوت الشَعَر والصوف وتخاط خياطة محكمة • وعُرِفَتْ ناحية المدحتية بالنسيج اليدوي ، وانفردت مدينة الحي بنوع من البُسُط أو السجّاد الصوفي المنقوش يسمى « السجّاد الحيّاوي » ، كما اشتهرت بعض المدن في شمال الوطن بحياكة المرعز حيث يصنعون منه السجاجيد الصغيرة والبطانيات • وكانت الأُزُر الحريرية تحاك في باب الشيخ ببغداد ، بينما كانت الأعظمية من أبرز محال الحياكة المعروفة •

اما صناعة الفخار فقد عنيت بانتاج الاقداح والأواني والأباريق والخوابي والحبوب والقلل ، واشتهرت بهذه الصناعة كركوك والعمادية والموصل وطوز خرماتو وقرەقوش والحلة وكربلاء وبغداد وقرية بني مالك في محافظة ميسان • وفي طوز خرماتو أكوار لصنع الفخار الممتاز بالدقة • وكانت المواد الفخارية غير مصبوغة ، باستثناء الحبوب والخوابي وبعض الأواني التي تطلى باللون الأخضر أو الأزرق •

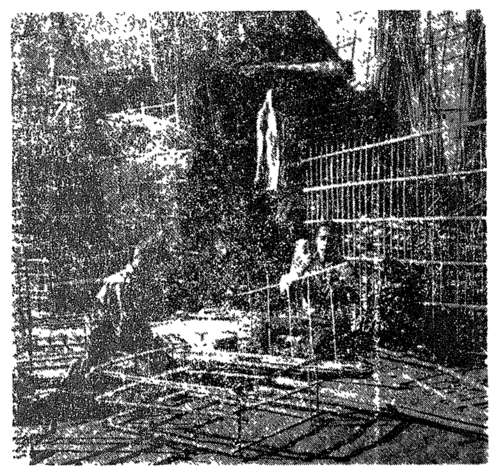
وكانت صناعة الأنسجة النباتية تستمد ازدهارها من النخيل والقصب ولذلك استغلت النخلة العراقية بمهارة في الصناعات الشعبية ، واستعملت أوراقها استعمالاً منوعاً حسب موقعها من النخلة ، فوريقات القلب للمهفات (المراوح) والسلال والحبال ، والأوراق الخضر للحصران والگواشر



الكواز خلال العمل

والمكانس . والجريد للأسرة والأقفاص والكراسي . واضافة الى ذلك امتدت الصناعات النخيلية الى العلاقات والشبابيك المحشاة بالعاقول . أما صناعات القصب فقد انتشرت في البصرة والناصرية حيث تكثر منابت القصب لتستقيم مادة أساسية في صناعة البواري والأكواخ والصرائف وحلات الطيور .

واقتصرت صناعة الحديد على انتاج بعض الأدوات المنزلية والزراعية



صناع الأسرة من جريد النخل

كالمحراث والمسحاة والمقص والمنجل والسلاسل والركاب واللجام والسكين والسيف والخنجر . وجادت صناعة التَنَك° ببعض المواد الضرورية اللازمة للبيت والشارع كالأباريق والكتالي والفوانيس واقماع النفط . وكانت هذه الصناعة تعتمد على ألواح التنك المستوردة من الخارج .

وهيمنت صناعة الجلود على انتاج الأحذية والنعال وبعض الأواني المستخدمة في آلات السقي البدائية كالدلاء ، وكذلك على السروج وأغلفة البنادق والمسدسات والخناجر وأحزمة الطلقات والحقائب وأغشية الدفوف والدنابك . واشتهرت مدينة الزبير بصنع الاخفاف شهرة الشطرة بصنع

النعال الشطري . وبعد الدبّاغ والسرّاج والرقّاع من اركان الصناعة الجلدية . والملاحظ ، بصورة عامة ، ان الصناعات العراقية الشعبية تميل الى تأكيد الجوانب الفنية بمعزل عن الجوانب العلمية .. لأنها عاشت مستقلة وتتوارثه ودون أن تتكل على أيّما تدريب أكاديمي أو منهجي .

أما أصحاب المهن والحرف ، فانهم في التراث الشعبي العراقي كثيرون، لا يستطاع حصرهم إلاّ بعد صبر جميل . وقد عرف العراقيون منهم : الصفّار الذي كان يتحكم في الحاجات اليومية وأمتعة البيت كالقِدْر والصينية والإبريق والماعون والجرّة والدلّة والفنجان والمبخرة والقنديل وغيرها . ويعتمد الصفّار في صناعته على المطرقة والسندان والكمّاشة والكورة . وقد مرّت ظروف قاهرة عزّ فيها الصفّار الماهر في سوق الصفارين لاختلال التوازن بين جهده المبذول وبين ثمن ما يبيع . وكانت سوق الصفارين من أزهى أسواقنا السياحية وأقدرها على امتصاص العملات الصعبة .



مشهد من سوق الصفارين في بغداد

ومنهم أيضاً التِتَنْچي الذي انتعش مزهواً في دكانه يعازل أكياس التتن التي كانت تنقل إليه من منطقة شهربان ومن حقول الحلة وكربلاء ؛ ثم رسخ تاجراً يقدم لزبائنه أنواع التبغ وأوراق السكائر ودفاتر اللف ، والتتن الهندي والشيرازي وأبو جلود والبرنوطي والسويكة . وقد اعتاد أن يطرح في مدخل دكانه تختة ليقطع عليها التتن بالثرّامة بعد رشّ الماء عليه ، ثم يقدّمه وجبة سائغة لمدخني النرگيله .



التتنچي وبيده الثرامة

ومنهم چرّاخ الخشب الذي دعم مهنته بما يملك من ذوق ومهـــارة دونما تبرّم أو شكوى مما كان يقاسي خلال عمله اليومي • لقد كان هـذا الرجل فناناً ، يخلق من الشرائح الخشبية وأغصان التوت والليمون مايستقيم حاجة أو لعبة أو متاعاً • وكان يعدّ صديقاً لجميع الأطفال والصبيان الذيـن استهوتهم لعبة المصاريع (الخذاريف) ، فهم زبائنه في موسم الربيع وهـم ـ دون سواهم ـ كانوا يحتملون مزاجه العصبي •



چراخ الخشـب

ومنهم أمّ الباقلاء التي عرفها العراقيون امرأة عجوزاً أو أرملة شابة اعتادت الجلوس في مدخل زقاق أمام قِدْرها المفعم بالباقلاء المســلوقة وكان أطفال المحلة ونساؤها يتداعون إليها يحملون الأرغفة اليابســة على صحونهم ، فتأخذها منهم ، وتدسها في القدر ، وبعد التأكد من طراوتهـا تخرجها وتوزعها في صحون أصحابها ، ثم تغطيها بقبضة من الباقلاء معطرة بمسحوق البُطْنج •

ومنهم أبو الفرّارات • والمعروف ان الفرّارة لعبه تشبه المروحـــــة الكهربائية كان الطفل العراقي يصنعها من الورق الملون ويثبتها في نهايـــة عودة نحيفة من جريد النخلة ، ويركض بها ليحركها الهواء • وقد انتشـــر باعة الفرارات في أنحاء العراق يتجولون في آزقه المحلات ليســـتدرجوا



بائـــع الفرارات

الاطفال الى شرائها بنداءاتهم الجميله . ولا شك ان الهرابات الملونه كانت تثبت وشائج المودة بين البائع المعنّي واطفالنا المأسورين .

ومنهم چرّاخ السكاكين الذي كان يُشاهَدُ كل صباح يغادر بيته حاملاً على ظهره دولاب الچراخه سعيا وراء الرزق . وكان على مدار دولابه قرص من حجر المسنّ يدور مع قايش جلدي مربوط بعجله يحركها الچرّاخ بقدمه اليمنى ، وعندما يدور القرص بالسرعة المطلوبة يضع الچرّاخ عليه الوجه القاطع من الساطور أو المقص أو السكين ، وعندئذ يتطاير الشرر متلاحقاً ليؤكد الثقة بعمليه الشحذ .



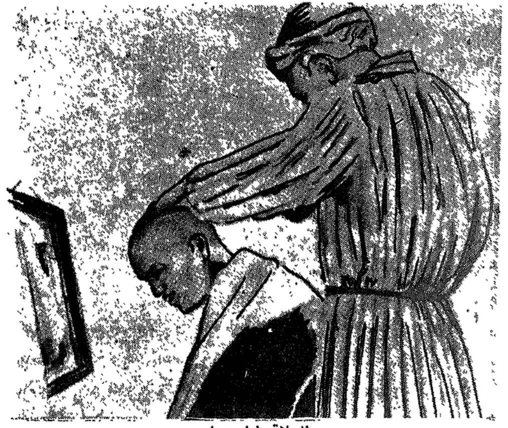
چراخ السچاچين

ومنهم النداف الذي عرفه العراقيون حلاجاً يضرب على القطن بآلة خشبية ذات وتر غليظ يقرعه بالچك . وبهذا يعود القطن القديم منفوشاً . وقد مهر النداف في خياطة المفارش والوسائد والألحفة وتزيينها بالنقوش والزخارف ، وللنداف دكان يمارس فيه عمله .. ولكنه اعتاد على التجوال في محلات المدن حاملاً قوسه وعصاه ، منادياً على خدماته ، فاذا دعي الى بيت لإصلاح مفارشه أُفرِدَ له مكان على السطح أو في باحة البيت ، وقد يقدم إليه طعام الغداء فضلاً عن الأجرة المتفق عليها .

ومنهم أبو الربابة الذي كان يؤدي رسالته بعيداً عن الاعتبارات المرذولة التي كانت تغذي دوافع التسول ، ولكن حين تدهور الذوق الفني في العراق نتيجةً للاحتلال والغزو سقطت الربابة وأصحابها ، وأضحت وسيلة رخيصة للاستجداء ، واستغلها أصحابها في الأعياد يطوفون بها على أبواب البيوت . واعتاد عازف الربابة ـ خلال أيام العيد ـ أن يجلس عند عتبة الدار .. وحوله جمهرة من الأطفال ، وبعد أن يحاول معرفة اسم رب الدار يضع قوسه على أوتار الربابة مسترسلاً في قصيدة حافلة بمآثر هذا الرجل وفضائله . ويستمر في الغناء والعزف الى أن يُطْبِقَ يديه على «العيديّة» ، التي يقدمها له أهل الدار، ثم ينتقل على هذه الوتيرة الى الدور المجاورة يحرك في قلوب اصحابها حوافز الكرم .

ومنهم الحلاق الذي لعب دوراً بارزاً في الحياة الاجتماعية ، ولكنه ، رغم ذلك ، اتهم بالحماقة والسخف والثرثرة أسوة بالنداف والحائك والملا ، ولذلك حبّذ حرمانه من التزوج ببنات الناس .. غير ان الحياة فنّدت هذه المنازع وأكّدت بمنطقها الصارم ان الحلاق ضرورة صحية وجمالية ، وانه جدير بالاحترام . وكان الحلاق البغدادي ينفرد في أسواق بغداد ومحلاتها بدكان خاص يحلق فيه الرؤوس والوجوه أمام مرآة كبيرة ، وقد اعتاد أن يضع على صدر زبونه فوطة من الخام الأبيض لتكون مهبطاً للشعر المقصوص ، فاذا فرغ من حلق لحيته أحاط رقبته بطاسة كبيرة مزخرفة

تمهيداً لغسل الرأس والوجه بالماء الدافيء والصابون ، وبعد ذلـك ينشفهما بالخاولي ويعطرهما بالأدهان والسوائل • ولم تكن أجرة الحلاق محكومـة بمبلغ معيّن من المال • وانما كانت هبة تتراوح بين الزيادة والنقصـان تجاوباً مع المركز الاجتماعي والاقتصادي لشخصية المحلوق • وكان الحلاق يمارس في دكانه الخاص أو في بيوت الناس مِهَناً أخرى لا علاقة لهـا بالحلاقة • منها الختان وقلع الأسنان • ومن الحلاقين من كان يمارس مهنته متجولاً أو مرتبطاً بالحمّامات • وفي أواخر العشرينات خضـع أغلب الحلاقين للتطور وغادروا مواقعهم التي عصمها تراثهم الشعبي قروناً عديدة ، فأصبح كلّ واحد منهم طاووساً منفوش الذيل في صالون أنيق • وقد عرفنا من هذه الصالونات : صالون حلاقة الحياة ، وصالون دار السلام ، وصالون الأحرار •



الحلاق ايام زمان

ومنهم الحفّافة صديقة البيت العراقي • وكان من لوازم الزواج عند العراقيين تجميل العروس وتزيينها لتبدو أشد فتنة وأطغى جمالاً في مواجهة زوجها ليلة الدخلة ، فهي تجلس بين يدي الحفّافة صـــابرةً خلال حفّ الشعر وتزويق الوجه بالعطور والمساحيق والأدهان • وكانت الحفّافة تستعمل الخيط والسِبْداج (كاربونات الرصاص ، وهو طلاء أبيض) عند ازالـــة الشعر • إنها تُدْعى الى بيت ذوي العروس قبل عقد القران أو في ليلة الزفة من يوم الأثنين أو الخميس ، وفي مواجهة العروس تضع طرف الخيط بين أسنانها وتجعل منه تشكيلة خاصة ذات فروع أربعة تسهم في اجتثاث الشعر بين الشدّ والارخاء • وهي تنهض بعد هذا العمل بين زغاريد الفرح تطلقها النسوة الحاضرات ، ثم يقدم الطعام في جوّ عائلي بهيج • وقد تقوم الحفّافة بتجميل العروس وتعطيرها • وفي الأربعينات عززت التجـــارةُ العراقيـــة أسواقَ بغداد بصنوف مختلفة من أدوات الزينة والعطور والأدهان والأصباغ والأمشاط والملاقط •• فلا غرو اذا رطّبت الحفّافة الوجوه الحِسان بدهن الياسمين أو البنفســـج ، وعطّــرت مواطن الفتنة من العروس بالقرنفل أو المسك ، لأن العطر عند العراقيين يدل على كمال المروءة •



الحفافـــة

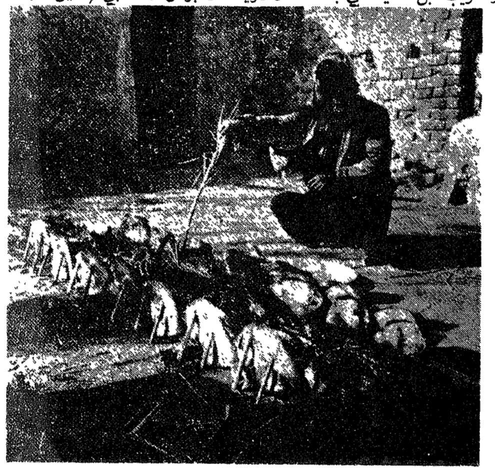
ومنهم السقّاء الذي شوهد في بغداد ـ أيام زمان ـ يزوّد البيوت أو يروي غليل الركّاب في تراموای بغداد ـ الكاظمية ، أو يرشّ الطرق الترابية في الأسواق ، أو يرطّب أفواه الزوّار ، في العتبات المقدسة والمقابر ، بالماء منقولاً إمّا بالقِرَب وامّا بالجِرار . وكان سقّاء البيوت يحاسب ، بمروءته المعروفة ، زبائنه أسبوعياً .. مستعيناً بالخطوط التي كان يثبتها على أحد جدران البيت بقطعة من الجصّ أو الفحم ليشير كل خط الى قِربَةٍ واحدة .

ومنهم الملّا .. وكان هذا المعلم إبّان الاحتلالين العثماني والانكليزي منزوياً في أركان المساجد أو في جحور مظلمة يعاني من الفقر . وكان يُعَلّم صبيانه مبادىء القراءة والكتابة والعمليات الأربع من الحساب وهم جالسون على حصران القصب . وكانت له صلاحيات واسعة في التأديب حرصاً على الواجب والهدوء ، وقد استخدم الفَلَقَة وسيلةً لذلك التأديب . وهي عصا غليظة ارتبط طرفاها بحبل ، فاذا أريد عقاب أحد التلاميذ طُرِحَ على ظهره أرضاً لترفع ساقاه ، وتُحْصَرَ قدماه بين العصا والحبل ثم يضرب بالخيزرانة على الأخمصين .

وهؤلاء جميعاً إنما هم غيض من فيض ، وكانوا قوام الحياة في تراثنا الشعبي الى جانب باعة الحطب والنفط والطرشي ومبيّض القدور وأبو الدوندرمة وأبو اللبلبي وأبو الناملیت وغيرهم .

ويبدو من معطيات تراثنا الشعبي أن أغلب نداءات الباعة الثابتين والمتجولين كانت اعلانات مباشرة ، هدفها توجيه الدعوة غير المجانية الى طعام أو شراب أو تدخين . ولقد استغرقت الأطعمة الشعبية أنواعاً مختلفة انفرد ببعضها عدد من المدن العراقية ، فليس في العراق أطيب من مسگوف بغداد ، وكبّة الموصل ، وكباب أربيل ، وفَسَنْجون النجف وكربلاء ، ومطبّگ العمارة ، وصبور البصرة (والمعروف ان المسگوف والمطبگ

والصبور أكلات سمكية شائعة) • وهناك بين جميع المدن والقرى اهتمام خاص بمآكل تكاد تكون يومية كپاچة ابن طوبان وطرشي حنانيش وتشريب ابن سمينة في بغداد ، والهريسة والبرغل والمحلبي (طين الجه ـ



السمك المسكوف

من الأرز والحليب والسكر) وخبز باب الآغا (أبيض وحار ورخيص) والخـمـيـعـة (دهن وحليب وخبز) والعصيدة (من الطحين) والمدگوگة (من التمر ولب الجوز او السمسم) وشيخ محشي وكبّة حلب والقنبت او المريس (دهن وسكر وخبز حار) والحنيني (تمر ودهن وبيض) والدولمة والقيسي وتشريب الحواصيد (اكلة فلاحية) وحامض الشلغم وحلاوة الدبس

ونشريب الباقلاء واللبلبي (حمص مطبوخ بالكركم) وشوربة الدخن واليخني (أكلة آدم من البصل والدهن . وقد يضاف اللحم والحمص اليهما في بعض المناطق العراقية) .

وتسويغاً لهذه الأطعمة وتنشيطاً للشهية تناول العراقيون أنواعاً من الأشربة ، عرفنا منها : شربت الزبيب وعرق السوس ، وماء اللبلبي ، والشنينة وماء الشلغم ، وشربت نومي بصرة ، والسكنجبيل ، وشربت ماء الورد ، والنامليت وشربت الرمان .

ومن بين المرفّهات كالتدخين والتشوق .. اعتمد العراقيون على التبغ الذي صيغت منه أنواع من السگائر المزبّنة واللفّ .. وقد اشتهرت في هذا الصدد جگاير العرب ولا سيما « نمرة ثلاثة » ودخّنها العراقيون كَسْكينَةً (حارة) وباردة وتَرّس الصدر . ومال الفلاحون الى سكائر اللفّ ، وكان مدخّنهم يُشاهَدُ غالباً وهو يحمل كيس التتن ودفتر البافرة وزناد أبو الفتيلة . وكان المدخن اذا افتقد الزناد يستعمل شخاطة من شخاط بلوكي (أو شخاط أبو النجمة فيما بعد) . وشوهد بين المدخّنين من كان يدخن التتن في أُمْزُكْ (مشرب) خشبي أو معدني ، أو في سبيل (غليون) من الطين . واختص بعضهم بتدخين التتن الهندي أو الشيرازي في احدى نوارگيل المقاهي . وفي هذا المضمار ينبغي التنويه بالبرنوطي الذي كان ينشق عن طريق الأنف ، وبما كان يُعْرَفُ بتتن سويكة (مسحوق التبغ) الذي يجود بمفعوله حين يوضع بين الشفة السفلى والأسنان .

وفضلاً عما تقدم تجول الصوت العراقي الشعبي في الدروب والأزقة وجاس خلال الأرياف وفوق الشطوط والأهوار وعلى الضفاف والسواحل .. ماشياً وراكباً ، يبيع حَبّ الرقّي بـ (لوز يا حَبْ) والصمّون بـ (أبيض يِچْوي « يكوي » ايدَك) والملابس البالية على لسان (ابن السبت ـ أي اليهودي بـ (عتيق للبيع) والبِلِچ والحنّاء مبادلةً بالصوف

مع عطّار القرية ، والقيمر ينساب من شفتي البائعة الجميلة « گيمَرْ •• يو » وبيض اللگلگ (حلوى منتفخة تتلاشى في الفم بمجرد امتزاجها باللعاب) يجرّ وراءه موكب الأطفال مفتوناً بـ (اللگلگ جانَـهْ طابـر ، فَـدْ راس للمنايـر » أي أتى اللقلق الينا طائراً نحو المنائر • وكان من أشهر الباعة المتجولين بائع بيض اللگلگ ذو السلة المخروطية الذي كانت نداءاته الساحرة تستهوي جميع أطفال الدربونة ، فهو قادر بنداء واحد أن يسحب وراءه موكبهم الطويل مخترقا به اكثر من زقاق • ولطالما سمعنا بقّال الشّواكة وابو سبفين او البائع المتجول في أزقة بغداد ينادي القثّاء بقوله « نِبَـعْ ياخيار •• تازَة ياخيار •• بَعْدَه بالوردةْ ياخيار •• قلم المَلاّ ياخيار » وينادي الشلغم « دُرْمان الصدر يا مايع » وينادي العنب « اسود ليل ، وحَبّـَك هيل يا عنب ، أو من يبات أصيح الويل يا عنب » •

وفي اطار العمل ، ايضاً ، اتخذ الصوت الشعبي الى الوان اخرى من التعبير •• حين تكشف القرداتي •• بسواله ودنبكه ، عن شحّاذ ماهر تنصاع له الجيوب •• ورفع الچرْخَچي (أي : الحارس الليلي) عقيرته بما يلطّف وحشة الليل ، وملأ سوّاق السيارات آذان المارة بالذهاب الى « حاج لفتة » و « سبع قصور » و « رخيتة » [وهي مناطق معروفة في بغداد] ، ومزّق المنادي هدوء الدربونة بصوته الجهوري ، « سامْعِين الصوت صلّوا عالنبي » يبحث عن طفل فقيد أو دجاجة ضالّة أو قلادة ضائعة ، واتتجع الصبيان أهل « الصدربيكو » يشاهدون في صناديق ولاياتهم ما لم يروا ، ويسمعون ما لم يسمعوا « شوف وانظر يا سلام » (ولا يخفى على أحد ان الصدربيكو صندوق يشرف منه الاطفال ، خلال ثقوب مزججة صغيرة ، على مشاهد غريبة) • ورَكَنَ مرشدو القوافل والجمّالون الى « الحداء » يحثّون به الخُطى ، ويفاجئون دفائن الليل ، ويرعبون قطّاع الطرق ، وتصدّى المتسولون للرائح والغادي ينشدون

. عبر الأسواق ـ قصائدهم في مدح النبي وآله ، وتصدّر المرشدُ الأجيرُ موكبَ الجنازة قاذفاً جلال الموت في نفوس الأحياء « الله أكبر » ورسف أبناء رمضان بدنابكهم ، خلال الدرابين ، يستمطرون بأغنية « ماجينة » الأكفَّ المحسنة وهم في غنىً عن الصدقات .. وترصّد فتّاح الفال صرعى الوهم وحلفاء الفاقة وضحايا الوسوسة بندائه الساحر « فوّال .. عدّاد نجم » فلا يُحجم عنهم إلاّ وفي جيبه ما كان في جيوبهم .. الى غير ذلك مما تلجلج في صدور الباعة المتجولين من نداءات بارعة ، مترعة بالاغراء والمتعة .



فتاح الفال

وولج الصوت الشعبي دنيا الطفل العراقي ، مع الأراجيح ، أغنيات حلوة ، وخلع على « الجوبة » [وهي الساحة الكبيرة المكشوفة يجتمع فيها الناس أيام الأعياد] حبور العيد .. وتعالى ترنيمة سعيدة بين شفتي الأمّ وهي تغسل طفلها أو تثقل اجفانه بهناءة النوم ليهجع قرير العين ، كما استقام ذلك الصوت ألفاظاً معجونة بالبسمة المشرقة ليثير في الطفل حبّ المغامرة أثناء ترويضه الأول على المشي ، أو أقدامه على اجتياز الخطوة البكر في حياته الخضراء .



اراجيح العيد في احدى جوبات بغداد

وفي مضمار الألعاب الشعبية حام صوت الطفل نشيداً جماعياً حول الضواحي المشمسة يبشر أولاد الدربونة بميلاد الصباح « طلعت الشمّيسة على گبر عيشة » ليتوافروا على القيام بلعبة « صندوگنا العالي » . وضمن ألعابنا الشعبية الغنائية ، مارس الطفل العراقي ، خلال أعمار مختلفة ، ومع الأنوثة أو الذكورة ، ما أشبعه رياضة وترفيهاً .. بعد أن أداها رقصاً وغناءً .. وأشهر هذه الألعاب الغنائية « بنت السقّة » و « الثعلب فات فات » و « كورة الزنبور » و « دير فنجانك » و « غزالي غزالي » و « شوف هذا طيري » وغيرها .

وتنطوي الألعاب الشعبية على خطورة فولكلورية ليس من السهل ألاّ يقام لها وزن في ميدان الدراسات الشعبية ، فهي تعكس بصدق وأمانة خصائص الترفيه البريء الطاهر في المجتمع المدني والريفي .. بل انها تضيء السبل المؤدية الى معرفة الأخلاق الشعبية . ولهذه الألعاب ضروب مختلفة موزّعة بين ألعاب خاصة بالصبيان ، وألعاب مشتركة بين الصغار والكبار ، وألعاب يؤديها الفتيان والكهول ، وألعاب خاصة بالرعاة ، وأخرى بالصبايا ، والأطفال ، وألعاب مشتركة بين الذكور والأناث . ومن تلك الألعاب ما يُؤَدّى في النهار ، وما يؤدى في الليل ، وما يؤدى نهاراً وليلاً .. فضلاً عن الألعاب الموسمية . فهي ـ على أية حال ـ من وسائل الترفيه التي ابتكرها العقل الشعبي تجديداً للقوى الضائعة في زحمة الكدّ والعمل . ومن أبرز الألعاب التي مارسها العراقيون خلال المدة التي ينعقد عليها هذا البحث : الدّمى والعرائس ، والحاح ، ويادست ، والكعاب ، وبيت حاشي ، وبزيزينة ، وسنبيلة السنبيلة ، وزعيب ، ويا حمصة ويا زبيبة ، وطمّة خريزة ، والمحيبس ، والمنقلة ، والتوكي ، والدعبل ، والدامة ، والمصاريع (الناعوري والبصراوي وأبو الچاك والوتّاني وأبو عگال) .. وغير ذلك .

وللطفل دعاء جميل ، يصافح به « عين الشمس » حين تسقط سنّه الأولى ، ملتمساً (سنّ الغزال) بديلاً .. حتى اذا اشتد ساعده ، واكتسب أهليته للختان ، وضعه أهله وذوو قرباه تحت رحمة « الزعِرْتي » (أي : الختّان) وبركات (صلّوا على محمد) وصخب (الشوباش) [أي المكافآت النقدية التكريمية] ليستلقي - بعد ذلك - هادئاً فوق (الفرشة) الوثيرة ، وهو يجتر ذكرياته القريبة عن زفّة (أم سلاح) التي طافت - قبل يوم - في طرق المحلّة ودروبها على ضجيج الدمّامات والمزامير والأهازيج وقد خفقت الرايات فوق الرؤوس ، وانعقد الغبار ، وتعالت الهلاهل عبر الأبواب ومن جميع الشبابيك .

وبعد أن يلتئم الجرح ينقلب طفلنا ، وهو الحَمَلُ الوديع ، الى شيطان يعكّر صفو الجيران .. فيجد أهله في هذا السلوك المبرر الشرعي الذي يسوّغ لهم ارتهانه في أحد الكتاتيب ، ليكون تحت رعاية « المُلاّ » الذي سيمنحه شهادة « الخَتْمَة » بعد أن يبحّ الصوت الناعم من « تهجّي » القرآن الكريم و « روانه » .(أي : قراءته باسترسال وفق ما يسمى بالطريقة الجملية) ، وقد يودع في مدرسة ابتدائية ينادم - بين جدرانها - قراءته الخلدونية ليتعلم « زيزه » و « زيره » وفق الأصول العامة للطريقتين الصوتية والجملية .

وفي عهد اليفاعة .. ينطلق الصوت الشعبي يفلسف الحياة ، بعد أن تفور موسيقاه عذاباً ملوّناً في إطار « العشّاق » و « الچهارگاه » .. أو أصداء ملوّثة بالمتعة الحرام ، أبطرها العيش الرفيه ، فجسّدها مقام (الحجاز) .. أو ملهاة دامعة تزيد ضراوتها كلما عزّ الأنيس فكانت أغنية « عَلَىْ رَوْزَنَة » هدية الحسناء الموصلية الى غيد بغداد .

وثمل الزواج ، في العراق ، بما ابتكره الصوت الشعبي من أغان ومحاورات جميلة ، فكانت صيغة العقد - بنبراتها المثقلة بالحكمة - تحنّ

الى كلمة « نعم » تخرج من فم العروس ليقترن الأيجاب بالقبول ، وتنصهر الآمال المشتركة رباطاً مقدساً يشد الذكر بأنثاه .

وكانت حفلات العرس نشوى بـ (البهرزاوي) و (المربّع) وأنغام (السيگاه) .. وكانت أغاني ليلة (الحنّة) تنشّط حياة العروس بالعزاء الدافيء والضوء الرفيق .. وكانت (البستات) العاقلة والمكشوفة نغسل العذراء أثناء تزويقها ، وخلال جلوسها على الكرسي تحلم بالسعادة المجهولة .



اعداد العروس لليلة الدخلة

وكانت زفّة العريس تتخطى حدود العرف المألوف بما يتفاوح حولها من أغان جريئة تتواطأ عليها الهوسة الشعبية والفوانيس (اللوكسات) والسراديج والطبل والمزمار والدمّام . وكانت الهلاهل تمزّق أحلام العروس وهي تختال في موكبها النسائي المنطلق نحو بيت العريس .

وتمهد الزفة للعريس طريقه الى ليلة الدخلة ، وهي تبدأ مساءً بعد الفراغ من وليمة العشاء التي يقيمها العريس لأصدقائه أو يقيمها هؤلاء له . وقد اعتاد الزفّافه أن ينطلقوا بعريسهم الى أحد المساجد لأداء الصلاة ، ويعودوا به الى بيته في مهرجان عامر بالهوسات والزغاريد والطلقات النارية . وحين يقتحم غرفة عروسه يكون بذلك قد كسب نصف الدّين . وللزفة تفاصيل رائعة يتمثل بعضها في العريس بملابسه النظيفة وبعباءته الفضفاضة ، وقد تهادى في مشيته بين صديقيه اللذين يماثلانه قواماً وهنداماً ، ويتمثل بعضها الآخر في الكثرة الكاثرة من أصدقائه وهم يمشون خلفه على ضربات الطبل والنقّارة ونغمات المزمار . ومن تقاليد هذه الزفة أن يكسر أحد أبناء المحلّة عدداً من الأباريق عند خروج العريس من باب المسجد ، وأن يتصايح الزفّافة « شايف خير ومستاهلها » .. وتنتهي الزفة لتبدأ مباهج الليلة الأولى التي يباركها الناس بالدعاء متفائلين : « منّك المال ومنها البنون » . وقد يحدث أحياناً أن يصاب العريس في ليلة الدخلة بعنّة مؤقتة تجعله زوجا مربوطا . فالمحاولات اليائسة التي يبذلها العريس ليلة الدخلة دون أن يصيب توفيقاً قد شجعت العقل الشعبي على تكوين فكرة مظلمة عن العنّة سواء كانت مؤقتة أم مزمنة . ومن هنا سادت فكرة الربط في أدب السحر . وللربط في تراثنا الشعبي دلالة خاصة تؤكد ان المربوط مسحور ، وحول هذه الدلالة حام اصطلاح (الگضبة) . أما (الچپسَة) فهي تشير الى ان ضحيتها مربوط ولكنه غير مسحور ، فاذا ما واجه موكب الزفة ـ صدفة ـ تشييع جنازة .. فهذا يعني ان العريس سيصاب بالچپسة ، ويخيب في إداء مهمة الليلة الأولى مع عروسه . أما الربط فهو عمل سحري يعمله (الشيخ) ويتلو عليه عزائم يزعم الناس انه يعوّق الرجل عن إتيان الأعمال الجنسية ، وفي بعض مناطق محافظة التأميم يعقد القران سراً ليكون الزواج معصوماً من خبث السحرة الذين اشتهروا بربط العريس أو

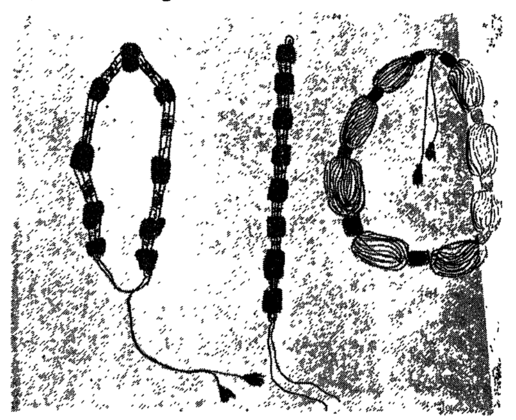
العروس . وفي المعتقد الشعبي ان الانسان يستطيع بالدعاء أو بالرقية أو سواها أن يسخر قوة غير منظورة في ربط أعدائه .

وللمربوط ، خلال الجدب الوقتي الطارىء ، أخيلة ينسجها الوهم تنفيذاً لأرادة القوى الماورائية .. فقد يشعر هذا الرجل التاعس أنه غريق في جحيم من الأهوال ، أو أنه يعيش على هامش الوصال الجنسي . واقتصر ربط الرجل ، بصورة شاملة ، على تجريده من مظاهر الرجولة أمام عروسه في ليله الدخلة . ودفعاً للأضرار الناجمة عنه اتخذ العقل الشعبي اجراءات وقائيه ضده ، فعاذ بالحرز ليؤدي وظيفة التأمين على الرجولة . واذا مضت الأيام على مباهج الزواج دونما ربط ، خمد الاندفاع : فأما سعادة غامرة وأما سقاء مقيم .. وعلى كليهما سكب الصوت الشعبي ابتساماته وتباريحه بلا حساب ، فغنّت المرأة المنكوبة بزوجها « أنا المسيچينة » وغنّى الرجل المرزى به آلام الاغتراب ، وهو يذوب حنيناً الى عشّه .

ان صوتنا الشعبي بمرونته وقابليته المدهشة للتكيّف مع النوازل الاجتماعية الطارئة .. قد سيطر تماماً على جميع الأجواء التي رتعت فيها بعض الوقائع التاريخية ، فالأعوام (٢٣ ــ ١٩٢٥) وضعت « السدارة » على رؤوس الأفندية وحرّضت أغانينا الشعبية على الغزل والعتاب والسخرية بالمتسدّرين ، فانطلقت تقضّ مضاجعهم ــ بلا هوادة ــ فوق المسارح وخلال الأزقة والشوارع .

وللأزياء الشعبية العراقية ساحة رحبة في تراثنا الذي عوصر خلال السنوات (١٤ ــ ١٩٥٤) . ويمكن أن نشير ، اضافة الى السدارة كلباسِ رأسٍ ، الى طائفة أخرى من هذه الألبسة التي شوهدت مع الرجال الأفندية في سدارة الچبن ، والبيرية ، والبرنيطة ، والفيصلية ، والفينة (الطربوش). وشوهدت مع رجال الدين في العمائم بيضاء وسوداء وخضراء . والكشايد ، والسيِّديّات .. كما شوهدت مع رجال الشارع عمّالاً وكَسَبَة ومزارعين ومتبطلين في العقال الذي يحيط باليَشْماغ أو الغَتْرَة أو

الجزّية • وكانت ألوان العقال مستمدة من ألوان الوبر، فكان منه «الديري» وأبو طيتين (الزبيري أو الشطفة) والمقصّب الرفيع واللف (المكنكر) •



العقـــال المقصـــب

واعتاد العراقيون ــ إضافة الى ذلك ــ أن يلبسوا الچرّاوية بلفّاتها المعروفة ــ ضمن اليشماغ الأسود ــ بالعصـــــــفورية ، وأبو جاسم لر ، والعَدام (أو القنبورية) والشبلاوية ، والفضلاوية ، والمهداوية • وجميع هذه اللفّات منسوبة الى محلات مشهورة في رصافة بغـــداد ، ما عدا « العَدام » التي كانت حِلـِّيَة للمهووسين بالتحدي والخصومات •

أما اليشماغ ، فكان منه الأســـود والأحمر ، وقد ابتكره الحـــائك البغدادي موسى گرادة في الربع الأول من هذا القرن • وانفــردت مناطق ميسان باليشماغ الحميدي الذي طغى اللون الأبيض على أرضيته •

ويجب أن نذكر ، في هذا الصدد ، بين البسة الرأس ، (الچرِّية) عند أهل الريف ، والعرقچين ، والچرّاويه (الحريريه أو القطنيه : البيضاء والصفراء والمعلسه) ، والكاوريه (عرقچين البيت) ، والكليته ذات الكركوشه التي كنا نشاهدها على رؤوس السيّديّه (الچبّاه) في سيارات الأجره • أما المرأة العراقية فقد أتخذت لرأسها بعصابات مختلفه ، منها الكيس ، والأيمي والعصابة النيلة المزخرفة [illegible] الاعتيادي (في المدن) ، والچرغد الكلاغي (في البادية وشمال الوطن) والبوشية السوداء • وشاء التراث الشعبي العراقي أن يضرب حول وجه المرأة حصاراً قاسيا بالپيچه السوداء والپوشي الحريري الاسود والابيض وان يحافظ على صحة الرضيع بالقماط والكاورية • وفي مواجهة الزي السائد للرجل الأفندي الذي كان يتباهى بالبجامه والفانيله والبلوز والقمصلة والبايينباغ (الرباط) والروب والوردة •• شوهد ابن الشعب قانعا بالدشداشة السنانيه والصيفية ، والفروة الكاملة (واحيانا نصف فروة) والصدري (مبطّناً وغير مبطن) والزخمة والصاية والزبون (خصوصا زبون الپتّة وزبون الزري) والبشت الصوفي ، والدميري ، والدشداشة ، والجُبّة ، والحياصة • وهو بهذه الملابس كان يعاضد المرأة في إزارها (الحريري أو القطني ، المنقوش بالكلبدون) ، والفوطه البيضاء (الكشاويه والچزّ) والأتك الرقيق الناعم ، واللبّادة ، والعباية البرّاقه ، والهاشمي (بألوانه الزاهية) والداريّة المشقوقه من الجانبين • وفي زحمة هذه الأزياء ظهرت العباءة ، وامتاز الأفندي والتاجر بعباءة النايين بينما استكفى الشباب بعباءة الجاسبي (أمّ الكلبدون) ، وقنع رجل الشارع بعباءة الدفّة الوبرية ، وتخثة ونخثة الصوفية •• ولكن الصبية العذراء استطاعت أن تكسب الرهان بعباءتها الچيناوية المثقلة بالودع والدهاشات والعقص • وحين امتعض الوسط الشعبي من الإسكاربيل والشحاطة والقبقلي والبوتين (اللاپچين) والچزمة •• قنع بالقبقاب والنعال

وباباجان والبابوج واليمني والصرايلي والمداس والكَيوة والچِدَك (الذي كان يلبسه النساء والرجال كالجوارب) .



الازيـاء العراقيـة

كما أن « بنت الحمولة » [أي : المرأة كريمة المنبت] في تلك السنين قد تمردت على بعض الاعتباراتِ السائدة ، فخلعت البرقع ، وهجرت الدارية والهاشمي ، وقصّرت نفنوفها وبَتَرَتْ جدائلها .. فأصبحت أمل العيون والقلوب بعد أن كانت محجوبة حتى عن نظرات السقّاء الذي يزوّد حِباب البيت بالماء . وقد أثارت هذه البدعة ، وقتئذ ، صوتنا الشعبي ، فأقلع عـن

نفسه . وانفض أعنياب جارحه .. ليوبّخ بها آباء المتمردات وأولياءهن الماحودين على الغره داعيا الى مناجزة هذه البدعه .. لأنها في معتقدهم — في تلك الأيام — وصمة اجتماعيه لا تقل خطرا عن الوصمات الكثيرة التي رعاها الاحتلال الاجنبي لتبقى في تراثنا الشعبي نقاطا سوداء . وعلى هذه



من حلى المرأة السرافية

الشاكلة حاول الغزاة الأجانب . من عثمانيين وبريطانيين ، ان يحافظوا على ممارسة الدّبكة ، والضّرْب بالمخاديد ، ومناطحة الكباش ، والمصافعة بقشور الرّقي ، كما حاولوا أن يبدعوا من المتسوّلين كائنات عجيبة تدب على الأرض لتزرع هوامها في تاريخنا الاجتماعي بأسلوب رخيص .

ولطالما شاهدت أسواق كربلاء أحد الدراويش المتسولين يترنح بكشكوله وهو يرتّل بَنْدَ ابنِ المُلاّ •

وشاء الاستعمار الانكليزي أن يغدّي الأحقاد بين العراقيين ويحرضهم على أن يُهين بعضهم بعضاً عن طريق رعايته لكنايات سحيقه مصدّعة لوحدة الصفّ الوطني • وهكذا أصبح الحلّيون « أهل الباگلّه » والموصليون « أهل البرعل » ، والكرخيون البغاددة « أهل الكروش » والبصريون « أهل الصبور » والرصافيون البغاددة (أهل شوربة الشيخ) والنجفيون (أهل المصيّع) ، والمصيّع عشبة صحراوية ستهوي الابل رغم حموضتها وكانت من مآكل النجفيين •

ولم يقف الاستعمار عند هذا الحد ، وانما حاول تمريغ بطولات الشباب وحماسهم في ما لا طائل وراءه •• ليكون بمنجى من المقاومة الوطنية ، وهذا ما وجده في صيغه التنازع بين المحلات البغدادية (أو الكسار) ، فكان شبّان كل محلة يخرجون الى شبّان المحلة المجاورة لهم ، ويكاسرونهم إظهاراً للشجاعة والشطارة ، ويعتركون بالعصي والمقاليع (المعاچيل) وأحياناً بالسكاكين والخناجر • وبلغ هذا الكسار ذروته سنة ١٩٢٠ بين محلة بني سعيد ومحلة الكرد وباب الشيخ • وقد شوهد آخر كسار ببغداد خلال ١٩٣٢ – ١٩٣٣ بين الجعيفر والجبور في الكرخ •

ومن النوازل التي كان الصوت العراقي يرتقبها ويتعاورها بالغناء ظاهرةُ الخسوف التي تصرع بشاشة الناس ، وتُلهب نقمتهم على (الحوتة) المتورّطة في تشويه وسامة القمر • ولا بد ، هنا ، من التنويه بخبر بسيط نشرته جريدة « العراق » البغدادية صباح ٢٣ آب ١٩٣٨ •• هزّ الضمير الشعبي ، وقذفه في دوّامة • فقد قرأ الناس إعلاناً لمثقف عراقي يُدعى « مُلاّ جاسم بن محمد » مفاده ان القمر سيخسف كلّياً ، بتمام القرص ، ليلة الثلاثاء ٨ تشرين الثاني ١٩٣٨ •• وذلك ببرج الثور ، بمنزلة الدَّبَران،

والطالع درجه ١٥ من برج السنبلة . وافتحم الخبر بيوت بغداد ومقاهيها ، وبات الناس خائفين يختشون كارثه ما برحت ترتع في مسارب الغد ، وظلّوا يسمدون الهدوء طيلة شهرين وخمسه عشر يوما . وفي الســـاعة التامنة والدقيقه الثالثه اختفى القمر وسخطت بغداد .. رجل أقام الدنيا بطبلـه ، وحلفه سرب من الصبيان يصايحون ، وجمهرة من الشبّان مزّقت درابين بغداد بالهوسات وصحب التَنَكات والچفاچير والصواني والقرَوانات .. وقد شخصت الأبصار نحو القمر المبلوع ، وهتفت الحناجر بالحـــوت تهـديـداً :

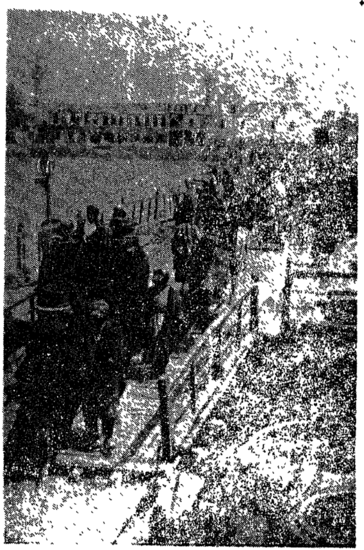
يَحُـونـَه" يـا مَنْحوتَةْ هِـدّي گُمَرْنـا العـالي
هـــذا گُمَرنا نريدَهْ هـــو علينـــا غـالي
وِنْ چـانْ مَتْهِدّيـَـةْ أدُگْ لِچْ بْصـــينيّةْ

ونسوة عجائز اجتمعن فوق السطوح يناجين الله خائفات :

يــا قـريـب الفَـرَج
يـا عـــالي بـلا دَرَج
عَبْـدَك بشـــدّة
نطلب منّــك الفرَج .

وعلى ضفاف دجلة ، وفي الرحاب المكشـــوفة .. وقفت الأمهـــات المرضعات والزوجات الحبالى .. بأتجاه القمر ، وبعضهن يمسك إما بخيوط قِصار تتدلى منها كُرات" من الطين ، وامّا بخرزتين بيضاوين من الخـرز المشهور بأسم « دُرْ نَجَفْ » . وكلا الفريقين يزعم ان الطين أو الخرز ينكر لونه الطبيعي في أثناء الخسوف ، ويميل الى زرقة غامقة .. تنفع الجنين في الرحم والرضيع في المهد والحضن ، وتقيه شـرّ الچِبْسَـة .. أي المفاجأة الخطرة التي تدهم الجنين أو الرضـــيع ، وهو آمن في عـالمـه ،

فَيَزْرَق" لها جلده وأظافره .. فاذا نعقت بوم فوق طفل عاطـل من ذلك الحرز فأنه ينچبس .. وعندئذ يجب أن يسير به البَلَمُ في الشط" مسافة سبع « جسّــاريات » واذا لم يكن هناك جسر مطروح فوق جســاريات ، فأن الأمهات يعمدن الى خضّ الذهب بالماء ليغمرن به المچبوس من الرأس الى الأخمص .



الجسر القديم سنة ١٩٠٠ (وهو جسر الشهداء اليوم)

وهكذا ظل البغادده . في ليلة صاخبه . يشاهدون القمر يعاني محنته تحت ساعتين وأربع وعشرين دقيقه . وحوالي الساعه العاشرة والنصف طلع القمر . وقال المشاهدون : لقد « زاعته الحوتة » بعد التنادي بالويل والثبور . وعادت الحياة منزعة بأنفاس الصعداء ، وان كانت على غير ما استشهاد الشاعر الشعبي الملا عبود الكرخي الذي ناوأ اسطورة القمر والحوت في احدى قصائده المعروفة .



الشاعر الشعبى ملا عبود الكرخى في سنة ١٩٢٤

وللخسوف ، في العقيدة الشعبية ، محتوى يفيض بالتشاؤم ، فهو يدل على غلاء الأسعار ، واعلان الحرب ، والتبدلات الخطيرة في الموقف الدولي .. فلا غرو بعد ذلك اذا انتاب العقل الشعبي هَلَع" من هذه الظاهرة .

ان العراقيين ، عموماً ، يحبّون القمر ، وهم سبقوا جميع الشعوب في احترامه وتمجيده ، فقد كانت له في أور وبابل مراكز عبادة . ومن هنا يرتفع العجب اذا أقاموا الدنيا وأقعدوها في أثناء خسوفه .

وتعليل ظاهرة الخسوف ، في العقل الشعبي العراقي ، يحتضن نظريتين ، أحداهما تذهب الى أن القمر يتيه بين الجبال أو في (الچول) .. وهذه نظرية الذين يحسبون انهم أرجح عقلاً ممن يقول بالنظرية الأخرى التي تحوم حول الابتلاع . وهناك قصة تافهة اختلقها الاخباريون عن حدوث الخسوف في عهد هولاكو ، وتحريض البغداديين على الخروج في الأزقة وهم يضربون آنية" بآنيةٍ لأيقاظ الجلاّد النائم . انها لا تدل على فزع موروث ، وانما على رغبة صبيانية في قيام رجل مُدَّثّر استعبده النوم ، ليشاهد ظاهرة الخسوف . وعندي ان الضرب بالأواني كان عادة" عراقية" صحبت الفزع منذ اندلاع معركة المصير بين الانسان والقَدَر .

تلك هي عقيدة العراقيين في الخسوف ، وهي واحدة من عقائد جَمّة يصعب احتواؤها ، ولعل التنويه ببعضها ، في هذا البحث ، يثير الذكرى ، ويغري الدارسين بالرجوع الى مصادر الفولكلور العراقي المعروفة للوقوف على ما لم يذكر هنا .

ان تراثنا الشعبي يشير الى طائفة غريبة من العقائد التي حملت بعض الناس على الاعتقاد بأن القمر أعور ، وان الشمس تريد أن تغسل رأسها عندما ينهمر المطر وتبرق السماء ، وان عظم الهدهد يعصم حامله من الطلقات النارية ، وانعظم« العزَيْزَة » نذير شؤم ، وانخيانة الخبز والملح تجهز على

الوفاء ، وان الزرزور (أو الغراب) رسول كوارث وان الشرّ ـ كلّ الشر ـ في كنس البيت بعد سفر ربّ العائلة ، وفي إراقة الماء المغلي على الأرض ، وإهانة الدليل عند مغيب الشمس ، وان خشّاف الليل (الخفاش) اذا التصق بوجه انسان ، فلا خلاص له منه إلاّ اذا نظر في مرآة من الذهب .

ويمكن أن نضاف الى النوازل التي استأثرت باهتمام تراثنا الشعبي ما كان يسمى بـ « دورة السنة » التي كانت ... المصاغر بحيوان مألوف (كالقرد أو الحيّة) يبشر أحياناً بالنعيم ، وينذر أحياناً بالويل والحرب والمجاعات . وعلى هذا النمط كان النفاق السياسي الذي اعتاد أن يدفن مصالح الجماهير تحت ركام المهرجانات ، فيثور الاحتجاج ، ويتزاحم الأحرار على نخوة المظاهرات بالشعار الدامغ والهتاف الزاجر ، والهوسة القاصمة .

أما في حومة الرقص ، فقد أسعف الموروث الشعبي العراقي حركات الراقص (أو الراقصة) بكلمات دلمّنة ذات أوزان كثيرة تتجاوب مع الدفّ أو الدنبك لتثير السواعد والأعطاف على التماوج والتمايل .

وفي مجالس الرقص البغدادية استقرت السيادة لنغم (البيات) .. وفي حواشي الريف انفرد الغجر ـ في زحمة رقصهم النسوي ـ بالعتابة والنايل على نحيب ربابانهم ، ولكن الصوفية ـ وهم روّاد الرقص الديني ـ وان ضويقوا في مراسيمهم التقليدية .. الا أنهم تفاوتوا رقصاً بتفاوت طرقهم وتكاياهم .

وحين انتشرت الزورخانات « النوادي الرياضية الشعبية » في محلات الفضل والدهّانة والعوينة والكاظمية والحيدرخانة والصدرية وباب الشيخ .. انتعش المستوى الرياضي ، وبرز الرسم السليم في المجتمع البغدادي فنوراً برسالة الزورخانة .. حيث كانت حركات اللاعبين تجري على نقرات « الزرب » ـ وهو الدنبك ـ منسجمة مع الاوراد والادعية ، وحيث كان المرشد يضبط الايقاع على دنبكه ، ويسوس المصارعة بما لهُ

من كفاية نظرية وتطبيقية على صعيدها . لقد مارس الرياضـي البغدادي في الزورخانة ، أيام مجدها وعزها ، مختلف التمرينات والألعاب ليؤهل جسمه للمصارعة،وكان يؤكد وجوده في الزورخانة عن طريق«الشناو»و«الميال»بتقوية عضلاته ، إضافة الى تمارين القفز واستعمال السلاسل الحديدية . وتفـرض



تمرين رياضي في الزورخانه

تقاليد الزورخانة على كل زورخنچي أن يتوضأ ويبالغ في النظافة دفعاً للطوارىء الكريهة ، وكان من عادة الزورخانات أن تتبادل الزيارات الودية وفق برنامج مرسوم • وقد تباهت الزورخانة البغدادية ببطولات المصارع الحاج عباس الديك ، والبهلوان الحاج محمد العزاوي • وكانت خلال تاريخها المكان المناسب للرقص الإيقاعي •

أما في بعض مناطق الريف العراقي ، فقد ساهم الصوت الشعبي متعاوناً مع الطبل آناً ، ومع المطبج آناً آخر في تقويم رقصة « حميّد » التي يؤديها راقص وراقصة (عليها عباءة كلبدون وثوب هاشمي) ، ورقصة « الچوبية » بأسلوبها الجماعي •

وهنالك •• بين مضارب البدو ، في صميم البادية •• حيث تشهد الرمال أفراح أبنائها في محافل العرس والختان ، يستأنف الرجال والنساء غبطتهم برقصة « الدحّة » موزّعين على دائرة •• تغني في وسطها غادة حسناء تمتشق حساماً ، لترقص حاسرة الوجه ، مكشوفة الرأس ، ولتهتزّ بعنف على ترجيع « دَحْ •• دَحْ » •

وللصوت الشعبي نبرات أخّاذة جاد بفخامتها وجزالتها ، وصبّ فحولتها على أغاني الغزو والصيد والكفاح السنياسي ، فكان لمقام الرست العزم والبطولة ، ولمقام الأوج اللهب الكاوي ، وللحدي (وخصوصاً الحوراب) قوة المضاء والزخم الثوري •

وأصغى ذلك الصوت الى ما يراود الطوائف الدينية من مقوّمات ولوازم تسند اليقين ، فتباشرَ لها ، ووَثَبَ على المنقبة النبوية يردد تحت المصابيح (أو القناديل أو الشموع) : « عطّر ، اللهم ، قبره الكريم بعرف شذا من صلاة وتسليم » ، وجعل من (البوسليك) و (الصبا) و (العجم) و (الچهارگاه) و (النهاوند) •• مقاماتٍ حزينةً ، تلائم الأجواء القدسية •• واشترك بما لهُ من طاقة فنية في (تلقين الميت)

و (وداع شهر رمضان واستقباله)و(ترتيل الاوراد والادعية)و(تلاوة المزامير)
و (تمجيد الأسحار) و (الابتهاج بعودة الحجّاج) و (صلاة الاستسقاء)
و (مدائح الشحّاذين) و (تسابيح الصائمين) و (تعويذات الخائفين)
و (أشجان الرَوْزَخونية) و (ترنيمات المطوفين في الأضرحة المقدسة)
و (دمدمة التسبيح بين حلقات الذِكْر في التكايا) .

وخرج صوتنا الشعبي في مواكب ليلة (المحية) بلا وقار .. بعد أن تخطّت أغانيه جميع الحواجز المحترمة . لقد كان العراقيون يتأهبون لاستقبال هذه الليلة المجيدة بـ (الطرَقات) و (الزنابير) و (شخّاط رَحلْو) و (عين الشمس) و (البوتاز) . والأصل في هذه الليلة يتشعب الى مذهبين ، يتوكأ أحدهما على أن ليلة النصف من شهر شعبان ليلة تتفتّح فيها أبواب السماء ، ويستجاب فيها الدعاء .. ولذلك يبادر الناس الى إحيائها بالدعاء والعبادة . بينما يستند الآخر الى جعل إحياء تلك الليلة امتداداً للاحتفال بميلاد السلطان عبدالحميد .. والمذهب الأول على حق ، ولكن المذهب الثاني يتشبث ببعض الصواب .. اذ قد كان من المألوف أن يسهر البغداديون صاخبين حتى مطلع الفجر إرضاءً لشهوة السراي العثماني في الاحتفال بميلاد السلطان عبدالحميد ليلة النصف من شعبان .. ولكن الاعتقاد بتفجير المفرقعات في تمثال الشيخ حسن الخيّون وجعل ذلك أحد مستلزمات ليلة المحية إنّما هو ضربٌ أخماسٍ لأسداسٍ ، فلو كان ذلك حقاً لاطّردت هذه العادة ، ورسخت في تراثنا الشعبي مدة معقولة تغرينا بالتصديق وتزوّدنا باليقين .. على إنني لا أنكر إن تمثال الشيخ حسن الخيون الذي كان يتألف من خشبتين متصالبتين يكسوهما زبون اليتة والعباءة والعقال واليشماغ .. قد لعب دوراً كبيراً في أفراح المجتمع البغدادي في المناسبات التقليدية الخاصة بالختان والزواج ، فقد كان هذا التمثال بمثابة الشعّار (الراقصة) الذي يستطيع أن يخلع على الحفلات

مزيداً من البهجة والحبور .. وفي ذلك ما فيه من إهانة بالغة للشيخ الثائر على السلطة العثمانية المرحوم حسن الخيّون ، لأن الشعّار كان وقتئذ مشدوداً بمهنةٍ داعرة .. وهكذا ظلّ الشيخ الخيون هدفاً للسخرية حتى أواخر سنة ١٩٣٤ ، وذلك بعد أن قيّض الشيطان للمجتمع البغدادي راقصاً يهودياً محترفاً عرفه الناس بأسم « موشي الشعّار » فكانت بدايةُ هذا الألعوبة نهايةً طبيعية لحسن الخيون .

لقد كان آباؤنا في الربع الأول من هذا القرن ينتظمون في مواكب والدنابك بين أيديهم ، والپوتاز في جيوبهم ، والأقنعة التي تمثّل وجوه بعض الحيوانات على وجوههم ، والكلاوات فوق رؤوسهم .. ولا تلبث بهم الحال حتى يخوضوا معاركهم الحاسمة بالپوتاز والزنابير مع أبناء المحلات المجاورة بعد أن يمهدوا لذلك بـ (تَعْزيل) المقاهي . إذن ، فليلة المحية كانت ميداناً للبطولة واحتمال الأذى والصبر على المكاره . أما المظاهر الرديئة التي كانت تلازم مواكب تلك الليلة ـ ولا سيما عند اقتحام المحلّة ومطاردة أبنائها بالمتفجرات القوية ـ فانها كانت تتسم بطابع الابتذال ، فلطالما سُمِعَ من أفواه رجال الموكب المنصور كلمات نابية كانوا يرشقون بها نساء المحلة المقهورة .

حقاً .. لقد زخر التراث الشعبي العراقي بالعجائب ، فقد رافق العذارى الى مزار الزاهد الصوفي حبيب العَجَمي في الكرخ يسألنه « المُراد » و « الزوج الصالح » وهن يهتفن :

شَمْعَة بْطولَكْ .. يا حبيب العَجَمي
جينا نْزورَكْ .. يا حبيب العَجَمي .

وكان هذا السلوك الهادف الى طلب (المُراد) يعبّر ـ في احدى صِيَغِه ـ عن النذور العراقية ، وإيجاب ما ليس بواجب على الناذر تبرعاً . ولهذه النذ ورتفاصيل لا يستطيع هذا البحث الموجز سيطرةً عليها ، ولذلك

سأقتصر على بعض نذور العراقيات • فالمرأة تتزوج لتحبل ، فاذا حبلت ولدت ، وعندئذ تقرّ عيناً بمن سيوطّد معها وشائج البعل على صعيد الحياة الزوجية • وهي اذ تلد بسهولة وبلا عسْر (بعون الأطباء ورعايتهم ونصْحهم) يعيش طفلها آمناً من جوعٍ ومرض • فاذا اكتحلت بهذه النعمة استطاعت أن تملأ بيتها أطفالاً دون أن تنذر للأولياء ما تقي به النسل شرّ العين أو شبح الموت أو غوائل الأيام •• وكهذه المرأة لا بد أن تكون سعيدة ، تقضي أيامها ـ حبلى وأمّاً ـ بلا أسرار ، ولكن اذا أرغمها ظرف قاهر على ولادة مُبْتَسَرَة أو وقعت تحت طائلة إجهاضٍ •• استبدّ بها عذاب أليم ، وتمنت لو أن الموت قطف روحها قبل أن يغيب وليدها في لحدٍ لا يقوى على حَمْلِ شاهدٍ من المرمر •

وهذه الحُبْلى اذا أرادت أن تصون جنينها عن ضاغوط الولادة العسرة ، وتنفخ فيه من روح الحياة •• فإنها تروّض نفسها على شرب نقيع الزهرة المشهورة باسم (كف مريم) وهي زهرة برية معروفة في الوسط النسائي البغدادي اعتادت النساء أن يشاهدنها على الغصن مفتّحة كأصابع اليد •• ولكنها عندما تُقْطَع تذبل وتنكمش على نفسها ، فيضعنها في الماء لتدركها الحياة من جديد وتتفتح كما لو أنها كانت في غصنها •• وبهذا الماء ترجو الحُبلى سهولة الولادة •

أما الإجهاض فهو المنذر بموت الجنين ، ولربما ماتت الحبلى أيضاً في احدى المراحل التي يمرّ بها الجنين •• وقد عرفته المرأة العراقية باسم (الطَّرح) • فالتي تخاف أن تطرح ما في الرحم في شهوره الأولى كان ينبغي لها أن تحمل (صيداً) •• والصيد هو عصفور ميت يخرجه « الشيخ » من فم الحيّة بعد أن تلتقمه ، ولكي يتأتى لهذا الشيخ الحصول على صيده •• يجب أن يترصد الحيّة أينما سارت ، فاذا وجدها تبلع فريستها مسكها من العنق ليضيّق الخناقَ عليه ، فعندئذ تقيء الحيّة ،

ويخرج العصفور جثة هامدة يستقبلها الشيخ بقطعة من قماش الخام قبل أن يستنغرفها الهواء ، ثم يكفّنها بعد ذلك بحجاب من الجلد ليبيعه بثمن محترم لأية حبلى تفتش عنه ، وحين تشتريه احداهن تحمله معها دائماً ، وتحرص عليه .. حتى اذا أشرفت على الولادة كتمته في مكان أمين بعيد عن الأنظار ، وعندئذ تلد دونما ألم أو صعوبة .

ومن الحبالى مَنْ إذا أملصت جنينها عاش يوماً أو أسبوعاً أو سنة ليموت بعدئذ تاركاً وراءه قلباً تمزّقه الحسرات ، ودرءاً لهذه الكارثة تعلّق الحبلى (التي لا يعيش لها طفل) جِرّية (وهي نوع معروف من السمك) في بداية الشهر السابع .. وبعد الولادة تُنَزّل الجرّية من مكانها ثم تكفّنها وتنطلق بها الى احدى المقابر لتدفنها تعويضاً عن طفلها .

ومن الأمّهات مَنْ توجب على القابلة أن تزور بمولودها الجديد في يومه السابع طوب أبو خزامة ـ ضمن برنامج الجولة التقليدية ـ لتدخله في فوهته ثلاث مرات تبركاً وتيمناً . وكان هذا الطوب مطروحاً في مدخل وزارة الدفاع ببغداد . ولا بد من إضاءة فولكلورية حول أسرار هذا المدفع الذي صنع المعجزات واسترجع بغداد من الفرس الغزاة . ففي سنة ١٦٣٧ أوصى السلطان العثماني مراد الرابع رئيس جنوده الذين يحرسون بابه ـ وكان يُدعى علياً ـ أن يصنع له مدفعاً لا يضاهيه مدفع في شكله وحجمه . وصنعه علي من النحاس جاعلاً طوله أكثر من أربعة أمتار ، وقطر فوهته نصف متر ، وقد أثقل كاهله بعروتين بارزتين ، وحفر على جانبيه عدداً من النجوم ورسم على ظهره تسع سمكات ، ثم جعله محمولاً على عجلتين . ان علياً رئيس الحرس السلطاني إنما رسم السمكات تفاؤلاً بما للسمك من خصائص معروفة لدى علماء الحيوان ، فقد ذكر هؤلاء انه مشهور بشراهته وكثرة أكله وشدّة حركته ونشاطه . وذكرت المؤلفات العربية في تفسير الأحلام ان السمك في الرؤيا يدل على الغنيمة . أما لماذا

جعل عليّ سمكات المدفع تسعاً ، فلأن التسعة تعادل حرف الطاء في حساب الجُمّل الكبير ، وهذا الحرف في علم السحر هو حرف التدمير والقتل . وما النجوم المرسومة في حواشي المدفع إلاّ من قبيل المثلثات السحرية التي اختصت بذلك الحرف الدموي .. فلا عجب اذا كانت هذه الرموز الغامضة تؤلف طلسماً سحرياً يحثّ المدفع على ابتلاع القذائف بشراهة ، وعلى الحركة الدائبة دون هوادة ، وعلى الفتك بأعداء السلطان بلا رحمة . ومن هنا جدارته بثقة الناذرين في نذورهم .

وبين الأمهات مَنْ يعصمن الطفل من موت أكيد بتطويق أرجلهن - خلال الشهر الأول من الحمل - بخصر (وهو سفيفة بعرض الابهام) حيك بنمنم (وهو خرز صغار ، دقيق ، ذو ألوان مختلفة جذابة) ويلازم هذا الخصر أرجلهن ما دمن على قيد الحياة ، فاذا أدركه العطب أو الهلاك بدّلنه بآخر . وقد تلظم من لا يعيش لها طفل زاكوراً (وهو خرزة زرقاء كبيرة كالتي تشاهد على رقاب الحمير) في طرف فوطتها السوداء وتعقدها عليه ، أو تعلقه بخيط على زلفها بالقرب من الأذن ، وتظل تحمل هذا الزاكور حتى يدركها الموت .

وبين الحبالى اللاتي يفقدن أطفالهن قسراً مَنْ يتناولن قطعة من الململ (قماش من الخام الشفاف) ويشققن لها زيقاً ثم ينقعنها بمزيج من الدباغ والعفص وقشور الرمان والحنّاء والزعفران بعد غَلْيِه في الماء ، ويجففنها في الهواء مع ما علق بها من هذا المزيج ، فاذا ولدن لف المولود بهذا القماش الرقيق الحافل بالأوساخ التي سدّت مسدّ « البودرة » ليواجهوا الحياة بقوة تتحدى الموت .

والتي اعتادت أن ترى أطفالها يموتون بعد ولادتهم ببرهة من الدهر .. تستنفد الوسع في الحصول على سبعة مسامير تقلعها من سبعة جسور ، ليصنع لها الحداد منها حِجْلاً تطوّق به رِجْلَها مدى الحياة .

والجدير بالتنويه ان بغداد لم تكن في وقت سيادة هذه العدة تملك سـبعة جسور ، فكانت الحبلى تغادر هذه المدينة الى مناطق عراقية أخرى على أنهارها جسور لتقلع ما ينقصها من مسامير •• ومن هنا خراب الجسور وتفككها وبوارها في العهد العثماني •

وقد تجمع الحبلى ثلاثمائة وثمانية أشياء من خيوط وأزرار وأعـواد ونقود وأقمشة وجلود وخرز وغير ذلك • وأيّ شيء من هذه المجموعـة يستقلّ بلونٍ خاص لا يشبه لون الشيء الآخر ، ثم تضعها في كيس تخيطه عليها كالحجاب وحين يطلّ الجنين على حياته الجديدة تضع أمه هذا الكيس في وسادة مدة لا تتجاوز أربعين يوماً ، ثم ترفعه بعد ذلك لتحفظه في حرز حريز • وهي بهذا السلوك انما تقي وليدها من الچَبْسة التي تنفث شؤمها عليه عينُ التي رَوَّجَتْ شفتيها بالأحمر أو الديرم ، أو التي صبغت شعرها بالوسمة أو بالحنّاء ، أو التي تحمل بين يديها شيئاً ذا لون ظاهر كالكركم • وقد تسخّر مَنْ تفْجَعُ بأطفالها صغاراً ــ عن طريق النذر ــ ما تعرف من قوى خفية خارقة في حماية طفلها • فقد تنذر لكائن غيبي أن تأكل خرء طفلها بلا اشمئزاز ولا غثيان • وقد تنذر حين يبلغ رضيعها من العمر ثلاثة أيـام أن ترتدي ملابس رثّة قذرة ، وتستجدي الناس من سبعة بيوت تطـرق أبوابها دونما حياء • وبما تحصل عليه من نقود تشتري من الطعام ما يستقيم عشاء لتأكله وتحمد الله • وقد تنذر أن ترتدي عباءة وملابس وجوارب بالية وسخة ، وتستجدي ثلاثة أشخاص من جُلاّس المقهى ، وبما يمنّون عليها به تشتري قطعة من القماش كسوة لطفلها ، فاذا كانت النقود لا تكفي لشراء القماش المأمول •• فأنها تشتري أما (گاورية) أو (عرقچين) أو غيرهما من ألبسة الرأس الخاصة بالأطفال •

ومن نذور المرأة العراقية صوم زكريا ، فقد اعتـادت أن تكون جذلى سعيدة بإحياء هذا الصوم ، والاحتفاء بهذه المناسبة الشعبية • ومن العجب

ان المرأة البغدادية كانت تعرف مواقيت الأعياد والأيام اللاهية ومواسم الزيارات الدينية ومواعيد الطقوس الموروثة إتّكالاً على ذاكرتها الناشطة وبدون أن ترجع الى تقويم أو روزنامة أو مفكّرة ، فهي ذات حاسة مدهشة تلهمها متى تبكي ، ومتى تضحك ، ومتى تصوم ، ومتى تتزلّف بالنذور ، ومتى تؤدي فروض الطاعة لمزارات الأئمة والأولياء • ومتى تتمتع بالكسلات بين المقابر وفي رحاب الأضرحة المقدسة وتحت أشجار البساتين • ومن هنا كانت سيّدة البيت البغدادي تعلم يقيناً وهي لا تدري لماذا ، بأن يوم الأحد الأول من شهر شعبان انما هو موعدها مع صوم زكريا • ولذلك نجد النساء البغداديات يتباشرن بهذه المناسبة الخالدة قبل حلولها بوقت طويل • ومن أفواههن يقف باعةُ الحلوى والچَرَزات على هذا السر الثمين ، فيعدّون للبيع في حوانيتهم قبل الصوم بأسبوعين على الأقل ما يستطيعون جَمْعَهُ من زبيب أشقر وأسود وحمص وسنون جوز ولوز وحَب رقّي وحب شِجَر وتين يابس وجوز هند وفستق وبندق وحبّة خَضْرة وحامض حلو وقمر الدين وچكليت وملبّس وحلقوم وچعب الغزال وقرص اللوزينة وأصابع العروس وجگارة المَلِك وساهون ومصقول ومَن" السِما وجلاتين وسمسمية وذرگ العصفور •

والعاقر العراقية أو مَنْ لم يرزقها الله غلاماً تتولى بنفسها اعداد صينية عامرة بالشَكَرات والزَرْدَة والحليب والكرفس والدولْمَة والخس" والحلاوة والكراث والسمك والبرتقال والنعناع والكليچة والبيض المسلوق بالماء وقشور البصل الحمراء ، وتتلألأ هذه الصينية بالشموع الصغار وشموع الكافور ، وأحياناً بشمعة العروس الذهبية المزخرفة بالورود بعد تثبيت قواعدها على الطين بين أغصان البرتقال والياس • وخلال هذه المآكل الشهية والأضواء المتألقة تنتصب الأكواز والتنك والأباريق الفخارية•وقد اعتادت الأمهات ان يرصدن الأباريق للذكور، والتنك للاناث بعد زرعها بالشعير•اما مراسيم هذا الصوم فهي تشبه ما يجري في شهر رمضان من

سحور وافطار . وفي صباح اليوم التالي توزع الأطعمة المنذورة على الجيران .

وهناك صيام آخر يسمى صوم البنات ، وهو صوم العذارى ، وكان يقع في آخر يوم أربعاء من شهر رجب بين الصباح والظهر ، وينتهي بالأفطار على خبز الشعير وماء البئر .

ومن النذور التي كانت شائعة في بغداد الألتزام بزيارة المشهد الكاظمي أربعين سبتاً ، واقامة مولود النبي على سبيل الوفاء بنذر حقق لصاحبه ما تمنّى .

ومن الجدير بالذكر ان العراقيين أيضاً جرّوا على إقامة حفلة المولد النبوي - وبمعزل عن النذر - في مناسبات شتّى كالعرس والختان وعودة الحاج من بيت الله . وتقتضي قراءة المولد النبوي في بيت أو مسجد أن يجلس « الملاّ » على كرسي ، وبجانبه على المفارش يجلس الحدّاية والرواديد صفّين متقابلين، وهؤلاء يؤلفون مايسمى بالكورس الديني الذي يؤدي الأدوار ألحاناً . ويكون لهم جميعاً رئيس يشرف على تنفيذ منهج الإنشاد وهم يبدأون عملهم بعد صلاة العشاء ، وقد يستمر الى ما بعد منتصف الليل ، ويختتم بتناول التمْتوعَة (عشاء الليل) واستلام أجور الحفلة . وقد يقيم البيت العراقي حفلة نسائية خاصة للمولد النبوي ، وفيها تؤدي الملاّيات ما ينبغي إنشاده في هذه المناسبة ، ويقرأن المولد على نقرات الدفوف .

ورغم هذه الفعاليات لم يكسل التراث الشعبي العراقي ، فقد دهب مع المتهم بالسرقة أو الكذب أو النميمة الى ضريح العباس « أبو راس الحار » أو الى مشهد الگيلاني (الباز الأشهب) ليترافع ، ويحلف اليمين هناك ، بجلال ، ملتمساً معجزة الإمام أو الشيخ : فإمّا إدانةٌ وامّا براءة . وهذه اليمين الشعبية لم تخرج في العراق عن الحلف بالله وبصفاته ومخلوقاته .

وقد لاذ الحالف العراقي بجميع الارتسامات المقدسة التي استغلها العقل الشعبي تأييداً للخبر الصادق الذي أراد تنزيهه من الظنون ، وتدعيماً للخبر الكاذب الذي رام تثبيته في نفس سامعه لمصلحةٍ ما .. فحلف بالله ، والقرآن الكريم وسُوَرِهِ ، وبالكعبة والمساجد ، والشعائر الدينية (المذهب ، الصلاة ، الصوم ، الأذان) وبالنبي (شفاعته ، شرفه ، شيباته ، منبره ، عَلَمه ، قبره ، تاجه) وبالأنبياء والرسل والأولياء والأوصياء والأئمة ، وبالموت والأيام والليالي (يوم الوگفة ، شهر الفضيل ، أيّام العياد ، ليلة الجمعة ، المغربية ، العصرية) وبالأبناء والأهل والأخوة ، وبالمآكل وجوارح الجسم ، وبالطلاق ، وببعض الأشياء والأدوات والأزياء .

واليمين الشعبية ، جادّةً أو عابثةً ، ورثها العراقيون على ألسنة الرجال والنساء والأطفال . ومن المؤكد ان هذه اليمين لا يمكن أن تُعامَلَ معاملة اليمين الشرعيّة التي حدّدها الفقهاء في دائرة الالتزامات الشخصية . لأن اليمين الشرعية لا تنعقد إلاّ اذا استوفت الصيغة والنيّة . وهذان الشرطان قلّ أن يجتمعا في يمين شعبية ما عدا الحلف بالله .

ومهم جداً أن أذكر أن التراث الشعبي العراقي ارتقى ، في ليالي الجمع ، مع المطرب أحمد زيدان منارة جامع الخاتون ببغداد .. ليناجي الله مستغفراً بأبيات من الشعر على نغم الحجاز ، ولعب أيضاً دوره البارز في الهِنْگيمة التي كان العبيد يؤدونها طقساً دينياً وفريضة واجبة .. حين كانوا يجتمعون ــ ليالي الجُمَعْ ــ في ميدان العبيد ببغداد يرتلون نشيد التوبة على نغم الطنبور ، وبمصاحبة الطبل .. خلال احدى الرقصات الزنجية ، التي ينجزها أحدهم بلباس تقليدي أُعدّ لهذه المناسبة وهو يترنح يميناً وشمالاً .. مهتزا على خشخشة أظلاف الغنم المربوطة على بطنه . وقد زالت الهنگيمة من الذاكرة البغدادية في الثلاثينات .

وللتراث الشعبي العراقي ، فوق ذلك ، أثره البالغ والعميق في ارضاء

الأوهام التي تحن ّ الى كرامة الولي .. لكي تتجسد غلاماً للحبلى ، وزوجاً للبكر ، وجنيناً للعاقر ، وبراءة للمتهم ، وفرجاً للغمّة ، ورواجاً للكاسد ، وصحة للعليل ، ورحمة للمنكوب ، وخلاصاً للمبتلى ، وستراً للمهتوك ، وإلهاماً للبليد ، وتوفيقاً للمجتهد ، وهداية للضالّ ، وحماية للشارد ، وملاذاً للغريب ، وتسهيلاً للمخاض ، وإقالةً للعاثر ، وأملاً لليائس ، وداهيةً للمنافق ، وآفةً للظالم ، وشرّاً للحاسد .

ان ذلك التراث استحال دمدمةً ، وتصاعد دعاءً وانتشر ترتيلاً .. أثناء تعليق « الخِرَق » على شبابيك الأضرحة المكرّمة ، وخلال زَجْر البوم في هدأة الليل ، وعند استخراج الجنّي أو طرد العين .. وانه استغرق الكهانة ، واستطلع الغيب بالطشّة والفأل ، وقراءة الكف وفنجان القهوة واستفتاح الخيرة ، واستنطاق الرمل .

ولا شك ان لهذه الظواهر وشائج عديدة بالخرافة العراقية ، وتأثير الكلمة السحرية في استمطار الخير ودفع الأذى ، وكذلك بمنظومات السحر ، والأولياء ، وذوي الكرامات ، والجنّ ، والعفاريت ، والطابع الوثني للطلسم الذي يسيطر على القوى الخفية .

وقد رُصِدَ السحرُ لقهر القوى غير المنظورة على دفع الضرر وجلب النفع أو العكس ، وهو يحدث عجائبه بفعل الملائكة والجنّ وأسرار بعض أسماء الله ووسائل أخرى خارقة للعادة كالأدعية التي تكفل تحقيق الرغبة .

والطلسم هو العمل الذي يقوم به الساحر بمساعدة الشيطان ، أو بناءً على أمره ، على الورق أو القماش أو المعدن أو الخشب أو الأحجار الكريمة أو المعجون (كالشمع والطين) بشكل مخصوص ، وبحجم وصورة معينة لضرر انسان في شخصه أو في ما يملكه . ويحوي الطلسم كلمات ورسوماً ونقوشاً مكتوبة أو محفورة أو بارزة ملونة وغير ملونة ، وكلها في غاية الدقة والصعوبة .

ويأمل السحر من « الكلمة » السحرية ان تداوىء وتقاوم كيد السحرة وتزهق الباطل .. أو يرجو منها النقيض . ان الأعمال السحرية النافعة التي تتشبث بالخير وتساجل الشرّ ، وهي ما تسمى بالسحر الأبيض قد استقامت مع الحسّ الديني المعتدل والمتزمت . ولذلك بات مألوفاً أن ينصرف الزُهّاد الى التكسّب بهذا الضرب من السحر ، والى ممارسته علناً . وهناك أعمال سحرية ضارة معقودة على الشر اشتهرت بأسم « السحر الأسْوَد » الذي يستخدم في أذى الناس . وكانت (الشعلة) من أمثلة السحر الأبيض، وقد اعتقد الساحر العراقي انها تنطوي على قوة تعيد الزوج الغائب الى زوجته . وكانت (البغضة) أبرز مثل من أمثلة السحر الأسود ، يحققها الساحر لتمكين العداوة بين الأصدقاء ، وتأكيد التباغض والقطيعة والتهاجر بين المتزوجين . وقد تبطل (البغضة) بكتابة بعض الأسماء الوهمية بمسك وزعفران على ورقة تُدْفَنُ في قبر يهودى أو مجوسي .. أو بالاستفادة من أدمغة الحمير والخيل ، ودماء العنز والهدهد وبعر الظبي ، أو بالاستعانة بأبي مُرّة (وهو إبليس) أو ما يدعونه (امهاكان) و (شهردون) . ولتحقيق البغضة كان الساحر العراقي يستخدم (النيرنجيات) المنسوبة الى الزهرة أو المريخ أو المشتري أو زحل أو عطارد .. مع استعمال دم الغراب الأسود ، وشحم القرد ، وعود اللبان ، وأنياب القط الأسود ، والعذرة الناشفة ، ومخاط الشيطان ، وشعر الخنزير . كما تتحقق البغضة بطلسم ، وفق وقت مخصوص ، ومع التبخير بالسندروس .

وأياً كان الأمر ، فهناك سلاح مضادّ للسحر يتمثل في « البَطْلة » وهي ذات مواصفات وطقوس لا مكان لها في هذا البحث ، كما يتمثل في عدد من الأدعية القادرة على استنفار القوى الخفية لدعم الخير .

وهذا العالَمُ العجيب في التراث الشعبي العراقي يؤكد الحاجة الى الوقوف والتأمل في الكائنات الغيبية التي عايشت الوهم العراقي . فالأرواح

ـ شريرة وخيّرة ـ كانت تشغل خواطر بعض العراقيين بين الحربين الأولى والثانية • وكان الروح المسالم يتمثل في بيوت بغـداد بـ (مَلَك صالح) ضمن محلات الكرخ ، وبـ (حاجي بكتاش) في بعض محلات الرصـافة ، كالفضل والمهدية • بينما الروح الشرير كان غامضـاً ورهيبـاً ، ويتمثـل ـ غالباً ـ في الجنّ • وفي مواجهة هذا العدو إعتاد العراقيـون أن يطردوا الجنّ من بيوتهم بأستعمال البخور في ليالي الجُمَع ، كما اعتـادت المرأة العراقية أن تغرز إبرة أو دبوساً في ملابسها ووسائدها دفعاً لذلك الروح • واعتقد بعض العراقيين ان الجنّ يسكنون الحمّامات ، وانهم يوجـدون أيضاً في مواضع القمامات والقاذورات كالمراحيض والمزابل ، وهم وان كان جبل قاف مسكنهم الرئيسي ، ولكن بعضهم فضّـل السكنى في هـذه المواطن •• وهؤلاء أو بعض هؤلاء أصبحوا خُدّاماً للقَسَـم المعـروف بـ (قسم العوالم الأرضية) الذي يقرأه الساحر لتحقيق مراده •

وكانت الكائنات الغيبية تعيش في حكايات المواطنين • ويكاد أدبنـا الشعبي يخلو من (الروح) الانساني •• فالبيت اذا كان (مسكوناً) فأنـه لا يُفْهَمُ من ذلك ان الموتى سكّانه ، وانما يفهم انّ الجان هم أربابـه • وفي التراث الشعبي العراقي من هذه الكائنـات ما أذهل الناس ردحاً من الزمن ، وكان من بينها « فْرَيْج الأكرع » الذي عايش أوهامنا ولعاً بالكيد لصيادي الأسماك والقاطنين قرب الضـفاف ، ولكنه ليس بالكائن الذي يُخْشَى خطره كالسِعْلْوّة ، وهو يشبه رجلاً هرماً ذا رأس أحمر أصلع ولحية خضراء • ومنها أيضاً « الطَنْطَل » ، وهو كائن خرافي ، يوصـف بطول القامة ، ويتشبّحُ للناس ليلاً في دروبهم ليسلب عقولهم •• ولكنـه يخاف من كلمة (مْخَيْط) اذا نَطَقَ بها ناطق" ، فلا يملك إلاّ الفرار •

ويتمتع الذئب بسمعة حميدة في الأدب الشـعبي العراقي ، فالجنّي (أو الجنّية) اذا رأى ذئباً ، فأنه يبقى حائراً فوق الأرض ، لا يستطيع أن

يغوص فيها ، ولذلك أسبغ أدبنا الشعبي عليه هذا البأس الذي ترتجف له الكائنات الميتافيزيقية الحاسبة للذئب حسابه حين تقع بين يديه ، فأنه آكلها لا محالة كما لو كانت بشراً ، وقد يحدث للجنّي ، وهو يجري أمام الذئب خائفاً ، أن يطلب النجدة من انسان عابر .. فاذا شاء هذا الانسان أن ينقذه بقتل الذئب فأنه سيثاب على جَميلِهِ بهدية خرافية . وقبل اليوم عاذت المرأة العراقية بالذئب من الأرواح الشريرة ، وصنعت الطلاسم الوقائية من برائنه وأنيابه وعينيه لمزاياها النافعة .

وعاشت السِعْلُوّة (السِّعْلاة) حيناً من الدهر تبثّ الرعب في الحياة الشعبية العراقية ، وتمسخ لياليها المواتع جحيماً . وقد شاخت سيادتها ، وأصابها العطب مع الغزو الكهربائي بعد أن تسنّمت تراثنا الشعبي أجيالاً ، وأتاح لها الظلام والجهل أسباب الجبروت والقهر . واننا حين نداعب ذكرى السعلوة ونفحص مركزها المرموق في الاسطورة العراقية ، فهذا لا يعني اننا نريد أن نبشّر بها كواقع معقول . ان السعلوة حيوان غريب تناوله التطور من جذوره ، فأصبح برمائياً يرتع في دجلة والفرات وبطائح الجنوب ، ويسكن المغاور والبساتين ، وقد كان قبل ذلك برّياً أليفَ صحارٍ ، وصديقَ مفازات .

لقد حفل العراق ، في العهد العثماني ، بأقاصيص شتّى تناولت حياة السعلوة الخاصة والعامة .. ولكن مما يؤسف عليه ان هذا التراث القصصي لم يدوّن ، وانما ظلّ حراً ، تصبه الأفواه في الآذان ، وينحدر من الأجداد ، وتتقاذفت به القرى والمدن والأرياف العرلقية بلا هوادة .

وتناقل الموصليون والبغاددة ، بصفة خاصة ، مغامرة الحِلاّج حسين النِمْنِم الذي تزوجته السعلوة ، راغم الأنف . وتذهب الحكاية الى أن السيّد النمنم ورفاقه انحدروا بالكلك مع دجلة وعندما ابتعدوا عن تكريت هبّت ريح جنوبية ، فأضطرب النهر ، ولم يعد الكلك قادراً على التقدم فأخذ

ملاحوه يجرونه جرا . وبعد أن مسّهم التعب جلسوا يتناولون الطعـــام ، وبينما هم كذلك اذا بالسعلوة تخرج من الماء وتنقضّ على حسـين النمنم ، فهرب رفاقه ، وانطلق بهم الكلك مع التيار .

أخذت السعلوة حسين النمنم ، فقادته الى عرينها في الشـاطيء حيث بادلته الغرام ، ولحست ساقيه .. حتى أضحى هزيلاً . نحيفاً ، وفقـــدت عظامه صلابتها ، وفي اليوم الرابع شعر الزوجان بالجوع ، فمضت السعلوة الى السوق لجلب الطعام .

وتحفل الحكاية ـ بعد ذلك ـ بتفاصيل تتعلق بكيفية خلاص حسـين النمنم من ربقة السعلوة ، وتشير الى أن السعلوة بعد أن يئست من عـودة الزوج الهارب منحته ، للذكرى ، هدية خارقة تجعل بصاقه وبصاق جميـع أحفاده من الذكور والأناث ذا قدرة علاجية في شـفاء جميع الالتهابات التي تصيب عيون الناس .

وقد شاع الاعتقاد في جهات تكريت بأن للسعلوة على شاطيء دجلة غابة معروفة بأسم (زور السعلوة) وهو الذي اعتقلت فيه زوجها البائس لقضاء شهر العسل معه ، وانها أيضاً أنجبت فيه طفلها الأول (دبيب الليل) .

أما في بغداد فقد نشر العدد (٩١) من جريدة (المفيد) البغدادية ، في صعيدنا الشعبي ، صبيحة اليوم الأول من آب ١٩٢٢ هذا الخبر الطريف : «روى لنا حضرة غريب أفندي مدير حديثة أنـه رأى قرب ناعور السـيد لطـّوفي الآلوسي حيواناً في نهر الفرات يشبه البعير بقوائمه وشـكله ، والانسان بكفيه ووجهه ، له شعر أخضر اللون ، ورأس مسـتطيل أحمر اللون ، وله ذنب يشبه ذنب السـمكة . وقـد قال الراوي ان كثيراً من الأهلين قد شاهدوه أيضاً ، وقد أطلقوا عليه الرصاص ، فلم يصيبوه ، وكان يبتسم عند اطلاق الرصاص عليه ، ويغوص في الماء على أثر الطلق وأصـبح هذا الحيوان حديث الخاص والعام في هاتيك الجهات » .

واحتدم جدل لاهب في البيوت والمقاهي حول طبيعة هذا الحيـــوان الغريب ، وتهاوت الآراء على السعلوة ، فباتت حديث القوم في أزقة بغـداد ذات الفوانيس الكئيبة .. فهناك في أعماق محلة التكارتة في كرخ بغداد ، وفي نهاية الدربونة المشهورة بأسم « جوّه الطاك » كانت الســيّدة ريمة تمضغ ذكرياتها القديمة النابعة من أيام الوالي العثماني محمد نامق باشـا ، وتقص على صويحباتها كيف كانت السعلوة تقف لدى باب دارها لتستعير قِـدْرا تطبخ فيه طعامها ، وكيف فتح محمود ــ ضيفهم تلك الليلة ــ نيران بندقيته عليها ، وصرعها .. فتناثرت قلادتها على الأرض وعرضت ريمة قلادة السعلوة على المستمعات ، فآمنّ بما قالت ، وحدّقن ــ بأمعان ــ في الألوان البهيجة المتألقة على أحجار تلك القلادة . وقد قيل ان حائكاً في محلة سوق حمادة ببغداد يدعى « علي المنصور » شاهد وفحص هذه القلادة ، وانتزع منها خرزتين سوداوين تميلان الى الزرقة ، واتلفهما تخلصـا من وبالهمـا الخرافي .

وفي هدأة من الليل .. كانت الجدّات يصـــفن لأحفادهن السعلوة ليدخلن في روعهم أنها امرأة طويلة سوداء ، ذات شـــعر كثيف وثديين عظيمين كل منهما أكبر من الزقّ ، وانها تسكن تحت الماء ، وتحوم حـول الأجراف لتخطف رجلاً تتخذه لها زوجاً .

وهكذا استقام للسعلوة ما يشبه الكيان الواقعي فيأواخر الاحتـلال العثماني ، فجثمت على العقل الشعبي العراقي كابوســاً .. ولكنه سرعان ما تبدّد هارباً من الذاكرة الشعبية .

ومن الممتع أن تستمر رحلة التراث الشعبي العراقي متوغلة في حيـاة الناس لنصحبها قاطفين ثمارها .. انه ــ بعد ذلك ــ داوى الأوصاب والعلل بـ « المَدْمي » و « الحكيمي » ، وهما اللذان امتازا بتنشـــيط الدورة الدموية ، وتعزيز المعنويات . وهذا يعني انه اقتحم ميدان الطب .

ولقد بزغ الحلاّق العراقي متطبباً شعبياً في فترات باهتة من تاريخ « العراق » حرَمَهُ واقعها الأسود من نعمة الدكتوراه . وكذلك استطاع هذا الحلاّق أن يساجل المرض ، ويعاضد الثقافية في دهره ، وأن يخدم انساننا العليل يوم لم يكن في دنيانا طبيب ذو شهادة جامعية . وهو من الحكماء الذين عرفهم العراق ، وقد اشتهر أمره بتربية الديدان (العَلَق) داخل كيزان مليئة بالماء . وكان لون هذا العلق أحمر غامقاً ، وحجمه بقدر اللوزة .. ولكنه يتمدد بحيث يكون بطول الاصبع ، ثم يتقلص من جديد ويوضع على الدمامل أو القروح أو الأورام ليمتص الدم أو القيح . وكان المريض يطلب علقاً غير مستعمل خوفاً من العدوى .

واشتهر الحلاق أيضاً بقلع الأسنان ، وممارسة الجراحة . وقد خلد تراثنا الشعبي ، في هذا الصدد ، عدداً من الحلاقين في بغداد ، منهم : عبدالعَنّون في الجعيفر ، وسيد عبود سيد علي في سوق الجديد ، وعباس أبو كسار في العباخانة ، ودرويش في العوينة ، ورشّودي في قنبر علي .. وفي خارج بغداد : أغا يعقوب في بعقوبة ، وابن سيفو في الموصل .

وكان أغلب الحلاقين ختّانين ، وقام المتجولون منهم في أهوار العراق بعملية الختان مقابل خمسة دراهم . وهؤلاء الختانون كانوا يمارسون أيضاً الحجامة ، ويعالجون بعض الأمراض الجلدية ، وقد عرفت بغدّاد منهم : ابن رحمين (في الشورجة ـ وكان يضرب بالنشتر ويداوي الجروح) ، وأسْطة عباس (في باب الشيخ) وأحمد الولي (في العوينة) . وفي خارج بغداد اشتهر نايف المزيّن (في عانة وكان يعالج الأكزيما ويختن ويحجم) والحاج صالح المطهّر (في سامراء) .

ولبعض العراقيين ، في تراثهم الشعبي ، مواقف عجيبة من الأسباب

المؤدية الى الاصابات المرضية ، فهم كانوا يظنّون ان إحصاء نجوم السماء في الليل يسبب ظهور الثآليل ، وان اللعب بالنار يسبب التبول في الفراش ، وان مضغ العلك يساعد على مسخ اللحية الاعتيادية لحية كوسة . ورغم ذلك سيطر الطب الشعبي على أمراض عديدة ، منها : رعاف الأنف ، وعضّة الكلب ، والسرّة (المشلوعة) وفقرات الظهر ، ومغص الأمعاء ، والحصبة والدوّار (الدوخة) وغير ذلك . واستطاع أن يقدم العلاج المناسب للمعلولين . فأوصى مثلاً بأكل الزبيب في مواجهة البلادة والنسيان ، كما أوصى بورد لسان الثور لمن يشكو مغصاً أو قلقاً ، وورد البابنّك للمزكوم والمصدور ، وورد البنفشة للمصاب بأمساك أو حصبة ، والغرغرة بورد الختمة لمن التهبت لثته وثارت أسنانه .

ويفخر التراث الشعبي العراقي بمساهمة المرأة في النشاط الطبي يومذاك ، وهو يذكر منهن في بغداد : رباب محمد علي (في محلة الشيخ بشار) وكانت تعالج العيون وأمراض الأطفال ، وعطية السمينة وريمة رجوبي (في محلة الجعيفر - وكانت الأولى تعالج أمراض الحنجرة ، والثانية تعالج القرع باللصقات) والعمّة (في سوق الصفافير - وكانت تعالج امراض العيون) وامونة الطبّو (في محلة سوق حمادة) ونشعة حسين الذيبو (في محلة التكارتة - بغداد ، وكانت تعالج التهابات العيون) . وفي خارج بغداد اشتهرت عدلة الحكيمة (في الموصل - تعالج التراخوما) وحمدة الحلوة (في راوة - تجبر العظام وتعالج الرضوض مجانا) .

والى جانب هؤلياء المتطببات الشعبيات يجب أن نذكر عدداً من المتطببين الذين أسعفوا الانسان العراقي بالصحة ، كان منهم في بغداد محمد أبو فينة (الذي اختص بالأمراض الباطنية) وحافظ الجدة (في سوق حمادة) والسيد أحمد (في الدهانة) وابراهيم موسى (في الكاظمية) ، وفي خارج بغداد : محمد الجراح (في بعقوبة) وبهنام بدرية والحكيم الأعور

وزوجته (في الموصل ـ يتعاطون التداوي بالاعشاب) وأبو القاسم (في كربلاء ـ يعالج مختلف الأمراض) وأحمد ربيع (في النجف ـ يعالج أمراض العيون) .

ويشير تراثنا الشعبي الى عدد من المتطببين اختصوا بتجبير العظام ومعالجة الرضوض ، وكان أشهرهم علي بابا (في سامراء) وابن الصفار (في بغداد) والحاج صادق (في محلة امام طه) وأحمد الكردي (الذي كان حمّال باشي في گمرگ بغداد) والحاج خليل الحويشاوي (في بغداد ـ باب المعظم) .



المجبرّ الحاج خليل الحويشاوي من منطقة باب المعظم ببغداد

ولم يفتقر تراثنا الشعبي الى مَنْ كان يهزم الأمراض بالعلاج النفسي . سواء بأستخدام الأدعيـــة والتعاويـذ والحجب وتفســـير الأحلام .. أم بأستخدام الموسيقى . وكان (ابن أبو الســـــعد) و (ابن ملا جواد) و (ابن شيخ گمر) أشهر من يمثّل الطائفة الأولى .. بينما كان عبدالباقي الحكيم يزاول الطبابة بالموسيقى والغناء ، وقد اســـتعمل مقام (المدمي) لبعض المرضى منشّطاً للدورة الدموية . وفي هـــذا المضمار كان الطفـــل المحموم يعالج بأشعال سعفة تحملها الأُم من البيت الى الشـطّ ، ويُعالَج الصداع بسعفة مشتعلة يُدارُ بها في ثلاثة أزقّة الى أن تخمد ، ويُعـالَج عقر المرأة بذهاب العاقر الى مقبرة لتطفر قبر أحد الغرباء ، ويعالج الأخرس بربطه عند باب أحد المساجد .

وللبادية العراقية طبّ شعبي مبنيّ ، في الغالب ، على تجارب شخصية متوارثة عن مشائخ الحي وعجائزه . وكان حكماء البدو يعالجون الجروح بمزيج من البارود والدبس . ومنهم الطائفـــة التي عرفهـــا النـــاس بأسم (الصلْبَة) فهؤلاء كانوا يتعاطون الكيّ بالنار ، ويعالجون بمستحضراتهم الخاصة الروماتزم والكبد وعرق النسا والصداع والاستسقاء .

وكان العطّارون يعاضدون أولئك المتطببين بما يقدمون لمرضـــاهم من أعشاب وبزور ومعاجين . وكان أغلبهم يصفون المواد العطاريـة للحمى والأمراض الباطنية ، مثل : أوكسيد الحديد ، والتوتيا ، والكحل لأمراض العيون ، وكانوا يحكّون الأجفان بقطعة من الترياق . وعرفت بغـــداد من هؤلاء الصيادلة الشعبيين : الحاج كاظم (في سوق الدجاج) ومحمد الدهري (بالقرب من جامع الخنيني في الكرخ) وراضـــي العطار (في العوينة) وسيد جمعة (خطيب وامام جامع الست نفيســـة) ومـُلاّطه (في جامـــع عطـا) .

وكان الطب الشعبي يتكل على ما كان عطارو بغداد يســـتوردونه من

أعشاب ومعاجين ومساحيق من أوربا وسوريا والهند وايران ومصـــــــر واستانبول وكانت بغداد تجهزهم باللـوز المر والحلو ، ودهـن الخـروع ، والحنظل والكزبرة والكمون وبزر الريحان . وتزودهم المنطقة الشـــمالية بالعفص والصمغ والعسل والكبريت . واستوردوا من أوربا الكحل وسمّ الفـار والقرمز وملح الطرطير ، ومن الهنـد : اللبـان والكافـور والهيـل والدارصيني والقرنفل ، ومن سورية : الأسارون ، ومن مصر : الخولنجان والصقمونيا ، ومن ايران : الخشخاش والمسك والزعفران ، ومن استانبول : المصطكي .

ورغم هذا التحوّط ـ على صعيد الوقاية والعـلاج ـ كـان الموت بالمرصاد .. اذ لا ينفع العطار ما أفسد الدهر . وأمام الموت خشع التراث الشعبي العراقي ، وأوصى الثاكل بالصبر الجميل ، وناح على لسان النائحات ، وواسى السعادة المعطوبة ، وألهب الچاينة جازعاً مع الجازعات ، صـــارخاً بحرارة « وَيهَوّه على العرّيس َويهوه » وبكى ـ مع الباكين ـ عـذراء البيت التي اخترمتها المنيّة ، والفتى الأعزب الذي رحل ـ بلا وداع ـ تاركـاً وراءه قحطاً عاطفياً لا تغالبه بكائيات الدنيا كلها .. وبكى أيضاً رب العائلة الذي هجر أطفاله قسراً ليرقد الى الأبد في حفرة باردة . انه ذاب ألماً مـــع الأبوذية ، وتسامى دامع النبرة مع نغم الأوج .

تلك هي معالم التراث الشعبي العراقي .. وقد غادرتها بحديث موجز ، ويسعدني أن أودعها بقلب مفتون ، وأملي وطيد على اهتمام دولـة الغــد العراقي برعايتها .. فلقد كانت والله ثدياً حلوباً لم يدرّ إلاّ بالعافية وحرارة الحيـــاة .

المراجـــع

ا ـ ذاكرة عبدالحميد العلوجي :

ما يزال خزينها يجود بما ينفع تراثنا الشعبي .

ب ـ المؤلفـــات :

(١) تاريخ الطب العراقي ـ تاليف عبدالحميد العلوجي ، بغداد ١٩٦٧ .

(٢) الزوج المربوط ـ تاليف عبدالحميد العلوجي ، بغداد ١٩٦٤ .

(٣) عطر وحبر ـ تاليف عبدالحميد العلوجي ، بغداد ١٩٦٧ .

(٤) المتحف البغدادي ـ تاليف عبدالحميد العلوجي (منشورات امانة العاصمة) ـ بغداد د. ت.

(٥) المدخل الى الفولكلور العـــراقي ـ تاليـف عبدالحميـد العلوجي (بالاشتراك مع نوري الراوي) ـ بغداد ١٩٦٢ .

(٦) من تراثنا الشعبي ـ تاليف عبدالحميد العلوجي ، بغداد ١٩٦٦ .

ج ـ المقـالات :

(١) انتحال اغانينا وموسيقانا : محاولة صهيونية (بقلم عبدالحميد العلوجي) مجلة « الف باء » ـ بغداد ، عدد ٣١ آب ، ١٩٧٧ .

(٢) تخطيط الصوت الشعبي (بقلم عبدالحميد العلوجي) ـ مجـــلة « بغـداد » بغداد ، العدد السابع ١٩٦٣ .

(٣) جولة تراثية بين المقاهي (بقلم عبدالحميد العلوجي) ـ مجـــلة « الف باء » بغـداد ، عدد ٢٥ كانون الثاني ١٩٧٨ .

(٤) حلم جماعي للحـلاقين (بقـلم عبدالحميد العلوجي) ـ مجـــلة « الف باء » بغـداد ، عدد ٢٨ حزيران ١٩٧٨ .

(٥) الحمّامـات العربيـــة (بقلم عبدالحميد العلوجي) ـ مجـــلة « الف باء » بغـداد ، عدد ١ تشرين الاول ١٩٧٨ .

(٦) طوب أبو خزامة (بقلم عبدالحميد العلوجي) – مجلة « العراق للتراث الشعبي » – بغداد ، العدد الأول ١٩٦٨ .

(٧) عندي ما يقال عن الغناء العراقي (بقلم عبدالحميد العلوجي – مجلة « الف باء) بغداد ، عدد ٢٢ آذار ١٩٧٨ .

(٨) مصنوعاتنا الشعبية (بقلم عبدالحميد العلوجي – بالاشتراك مع عامر السامرائي) – مجلة « العراق – للتراث الشعبي » العدد الثالث ١٩٦٨ .

(٩) النقل في تراثنا الشعبي (بقلم عبدالحميد العلوجي) – مجلة « رسالة النقل » بغداد ، عدد ٧ نيسان ١٩٧٨ .

د – مواد اخرى :

(١) مقدمة عبدالحميد العلوجي لكتاب « الايمان البغدادية » تأليف الشيخ جلال الحنفي – بغداد ١٩٦٤ .

(٢) تعليقات عبدالحميد العلوجي على كتاب « لهجة بغداد العربية » تأليف ماسينيون ، ترجمة الدكتور اكرم فاضل – بغداد ١٩٦٢ .

(٣) مقدمة عبدالحميد العلوجي لكتاب « الالعاب الشعبية لصبيان سامراء » تأليف يونس الشيخ ابراهيم السامرائي – بغداد ١٩٦٥.

(٤) مقابسة لغوية فنية ، حول هذا المبحث ، مدارها عبدالحميد العلوجي والاستاذان عزيز جاسم الحجية ، واياد عبدالله حسين وقد تمت ضحى ٨ آذار ١٩٨٥ .

البحث الثالث

الخدمات الصحيّة

طالب ابراهيم العقابي

وزارة التخطيط ـ بغداد

شـــهد العراق في اواخر القرن الثامن عشر الميلادي تخلفـــا كبيرا في الخدمات الصحية حيث كانت هذه المرافق في اسوأ حالة ، افتقرت الى الادوات والمعدات • وقد هيمن الاتراك على ادارتها وانعدمت فيها عناصر الثقة والولاء • ولم يعمد العثمانيون لاصلاحها الا بالنزر اليسير في بداية هذا القرن •

لقد كانت حالة البلاد وخصوصا مدنها الكبرى سيئة جدا وذلك لانعدام ابسط انواع الخدمات والمرافق وبالاخص بغداد وتعرضها المستمر لفيضانات نهر دجلة • تركت المجتمع بحالة ميئوس منهـــا من الفقر ، وتتيجة لذلك انتشرت الامراض وارتفعت نسب الوفيات لتتجاوز اعلى النسب في العالم وذلك لانعدام الوقاية الصحية وانعدام الرعاية الطبية والمرافق والخدمـــات التي تتطلبها ، وكانت مياه الشرب تنقل على الحمير بجلود الحيوانات من الانهار ومصادر المياه القريبة او من الآبار الملوثة التي تنتشر داخل البيوت • ولم تشمل خدمات المياه الا محلة واحدة في بغداد حيث تم ايصال الماء اليها عن

طريق شبكة من الانابيب ونتيجة للاهمال وعدم الاهتمام ظلت المدن تسبح ببرك من المستنقعات ، ونتيجة لهذه الحالة فقد اصبحت المناطق المدنية موبوءة بالامراض والتي استفحل الكثير منها فاصبح وباءً وانتشرت بين السكان امراض الملاريا ، والبلهـــارزيا ، والديزنتري ، والتيفوئيد ، والجـــدري ، والسل ، والتراخوما ، وامراض العيون الأخرى ، والكوليرا ، والامراض الزهرية .

وما ان جاء القرن التاسع عشر حتى شهد بعض التحسن في النواحي الصحية ففي بغداد ظهرت المستشفيات العسكرية اضافة الى المستوصفات التي انشأتها البلدية وعام ١٩١٠ افتتح مستشفى مير الياس واكملت البناية الـ C.M.S. في بغداد سنة ١٩١٣ وبدأت مستشفى الموصل بالعمل موسميا . وعلى الرغم من هذا التقدم الطفيف على المستوى الصحي فقد بقيت الخدمات الطبية بدائية وبقيت الكرنتينة (العزل) المفر الوحيد للموبوئين وظلت الامراض تنهش في جسم المجتمع وهكذا لم يبذل الحكم العثماني في العراق الا النزر القليل في مجال الخدمات الصحية في القطر حتى قيام الحرب العالمية الاولى ودخول العراق تحت نفوذ الانتداب الانكليزي .

احتلت القـــوات البريطـــانية البصرة في عام ١٩١٤ ، وتقدمت نحـــو مدينة بغـــداد حتى احتلتها في الحادي عشر من آذار ١٩١٧ . لقد حـــاول الانكليز القيام ببعض الاصلاحات الادارية السريعة وكان الهدف منها خلق الاستقرار السياسي دون الالتفات بصورة جدية الى تطوير الحالة الاجتماعية والاقتصادية في القطر وعندما وضعت الحرب العالمية الاولى اوزارها في عام ١٩١٨ كان الوضع الصحي في العراق في اسوأ حالته ، فالاطباء لا يتجاوزون اصابع اليد والمستشفيات لا تتجاوز اسرتها عن سبعين سريرا في المدن الكبيرة ، ولا اثر يذكر للمســـتوصفات او المختبرات او المعاهد العلمية ، والامراض منفشية ولما وضع العراق تحت السيطرة الانكليزية ، حاول الانكليز تشييد

هيكل للخدمات الصحية • وفي خلال عام ١٩١٨ تم تأسيس اول ادارة صحية في العراق سميت بادارة الصحة العامة المدنية يرأسها رئيس اداري يسمى الرئيس الاداري للقسم الصحي المدني ، وفي عام ١٩١٩ غيرت تسمية هذه الوظيفة لتسمى سكرتارية الصـــحة وغيرت بعد ذلك في عام ١٩٢١ لتسمى مديرية مصلحة الصحة العامة • وفتحت لها عدة فروع في اهم المدن وتوسعت الخدمات الصحية بعض الشيء ليصبح عدد الاسرة انذاك ١٥٠٠ سرير لمختلف الامراض وفتح حوالي ٧٠ مستوصفا يديرها ٤٥ طبيبا بريطانيا و ٨٠ موظفا صحيا هنديا •

ولما تشكل الحكم الوطني في العراق سنة ١٩٢١ بدأ الاهتمام بتحسين الاوضـاع الصحية في القطر على الرغم من عجز ميزانية الدولة • فشـملت الخدمات الوقائية بعض الاهتمام ، وبدأت دوائر البلديات بتنظيف الشوارع في المناطق الحضرية وتوسعت شبكات المياه الصالحة للشرب وشبكات ايصال القوة الكهربائية وتطورت المدن تطورا كبيرا وشهدت انشاء الكثير من الطرق والجسور والمباني العامة شملت مدينة بغداد والموصل والبصرة ، وتم انشاء اول مستشفى في البصرة سمى بمستشفى مود وشـــهد عام ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ اول ميزانية للصحة فكانت عندئذ تعادل (٢٠٠) الف دينار واصبحت هذه الميزانية عام ١٩٤٥ حوال مليوني دينار بالاضافة الى المؤسسات الصحية الاهلية والاجنبية الاخرى وبلغت الميزانية عام ١٩٥٨ حوالي (٣ر٥) مليون دينار •

وفي عام ١٩٢٠ بديء بكتابة التقارير السنوية المنظمة عن دائرة الصحة وقد كانت لهذه الدائرة مديرية تابعة الى وزارة المعارف والصحة وكان في هذه الوزارة مستشار يتولى شؤون المعارف والصحة • وفي حزيران ١٩٢١ عين في مديرية الصحة مستشارا خاصا للارشاد وكان في نفس الوقت مديرا عاما لمصلحة الصحة العامة •

وفي ١٢ ايلول ١٩٢١ تشكلت وزارة خاصة سميت وزارة الصحة كانت هذه المديرية نواتها • وتولى الدكتور حنا خياط من الموصل مهام الوزارة فبقى فيها حتى نهاية السنة المذكورة •

وفي ٨ حزيران ١٩٢٢ الغيت هذه الوزارة والحقت بوزارة الداخلية كمديرية عامة باسم (مديرية الصحة العامة) وعهدت ادارتها الى الدكتور حنا خياط ولبث الدكتور الخياط مديرا لها حتى تشرين الاول ١٩٣١ • وفي حزيران ١٩٢٢ احدثت مفتشية الصحة العامة ايضا • وانيطت ادارة المديريه العامة للخدمات الصحية بأشخاص عراقيين •

ومن الواضح ان عام ١٩٢٢ شهد تطورا في تقديم الخدمات الصحية في القطر وقد شملت واجبات المديرية العامة للخدمات الصحية ادامة وصيانة المستشفيات في المراكز الحضرية ودور الحجر الصحي (الكرنتينة) وتقديم الخدمات الى الزوار الدينيين ، والعناية بمراكز طبابة العيون والاشعة ، والباتولوجي ، والتحليلات الكيمياوية ، ومعالجة داء الكلب ، بالاضافة الى قيام هذه المديرية بفتح الدورات التدريبية في حقلي الصيدلة والتمريض •

ووضعت (مديرية الصحة العامة) خلال هذه السنة برنامجا لسياسة الصحة لمدة عشر سنوات وقد نفذ هذا البرنامج حتى نهاية عام ١٩٣٢ وتضمن الاسس التالية :

أ ـ وضع تشريع حديث خاص ملائم لمختلف المصالح الصحية والطبية •

ب ـ تأسيس تشكيلات صحية عصرية ثابتة تتماشى الى حد ما مع الادارة العامة وذلك تسهيلا لمعاملاتها مع الادارات الاخرى ذات المصالح المشتركة •

جـ ـ تزويد مصالح الصحة بملاك ثابت قدر الامكان •

د ـ تجهيز مصـالح الصحة بابنية ملائمة لمختلف اعمالها (المسـتشفيات والمستوصفات والمعاهد) لتحل محل الابنية المؤجرة •

هـ ـ تهيأة عناصر محلية لتحل محل المستخدمين الاجانب وذلك بتأسيس كلية طبية وملحقاتها (الصـيدلة ، القبـالة ، التمريض ، والموظفين الصحيين ... الخ) •

و ـ اتخاذ التدابير الفعالة لاعداد الكفاءات العرافية والتخصص بالفروع الطبية في المعاهد الاجنبية والاستمرار على اسـتقدام الاختصـاصيين والاطباء العموميين من الدول الاجنبية حتى يكتفى ذاتيا •

ز ـ تأسيس المختبرات والمعاهد الطبية المختلفة في العاصمة •

ح ـ وضع الاسس الوطيدة للوقاية وذلك بتأسيس مستشفيات العزل في بغداد والبصرة لمختلف اعمال الوقاية وحفظ الصحة ، ومستوصفات سيارة ومحاجر في اهم المواقع ذات خطر العدوى داخل القطر •

ط ـ تأمين الاشراف الصحي والاسعاف الطبي بشكل مباشر في دوائر السكك الحديد وميناء البصرة والموانيء الجوية والشرطة والسجون والمعارف والبلديات والقيام بسائر الامور التي تتطلبها الطبابة العدلية •

ى ـ اتخاذ التدابير الفعالة لتنفيذ احكام الاتفاقات الدولية •

ك ـ التعاون مع الادارة الداخلية والدوائر الاخرى ذات العلاقة لرفع المستوى الصحي في الارياف فيما يتعلق بقضايا المساكن ومياه الشرب ، وازالة المكاره ، وطرق الدفن ونقل الجنائز ، والامومة والطفولة ، ومكافحة البغاء ونتائجه ، والوقاية من عدوى الامراض ومساويء ذلك •

لقد شهدت فترة العشرينات في القطر اللبنات الاولى للخدمات الصحية حيث صدر الكثير من القوانين الصحية والتعليمات انسجاما مع البرنامج الذي وضعته وزارة الصحة ومن هذه القوانين قانون التلقيح عام ١٩٢٢ ، وقانون

الاعمال الصيدلانية عام ١٩٢٣ . وقانون بيع العقاقير الطبية بالجملة ، وقانون حماية المنطقة الصحية وقانون المنشآت الدينية عام ١٩٢٤ . بالاضـــافة الى صدور قانون ممارســة المهنة الطبية عام ١٩٢٥ ، وقانون الامراض المعدية عام ١٩٢٨ ، وقانون حماية الصحة العامة عام ١٩٢٩ والذي خول وزير الداخلية صلاحية اصدار كافة التعليمات المتعلقة بامور الصحة العامة .

وفي هذه الفترة نشط التشريع الطبي في العراق وكان من ثمراته اصدار ستة قوانين وتسعة انظمة وستة تعليمات وبيان واحد هو بيان تأليف المجلس الصحي العالمي رقم ٥٧٢ لسنة ١٩٣٤ لتنظيم الصحة . كما صدر ثلاثة عشر قانونا واتفاقية دولية لتنظيم امور الصحة الدولية ، وصدرت عشرة قوانين واثنان واربعون نظاما بالاضافة الى عشرة تعليمات واثنى عشر بيانا لتنظيم امور التأمين الصحي والرقابة الصحية ووقاية الصحة . اما المؤســسات الصحية الحكومية وغير الحكومية فقد نظم اعمالها قانون واحد هو قانون الاعتراف بجمعية الهلال الاحمر العراقية رقم ٤٠ لسنة ١٩٣٤ وثمانية وعشرون نظاما وعشرة بيانات وسبعة تعليمات وصدرت كذلك لتنظيم المهن الطبية ثلاثة عشر قانونا واربعة انظمة وتسعة بياناتوتسعوثلاثون من التعليمات اما تنظيم الادوية والعقاقير الطبية فقد صدر لتنظيمها ١٢ قانونا وعشرة انظمة واثنا عشر بيانا وتعليمان في سنة ١٩٣٧ و ١٩٤٩ . اما الصيدليات والمذاخر فقد صدر لتنظيمها خمسة قوانين وبيانان لسنة ١٩٥٦ و ١٩٥٧ الاول بيان بموجب قانون مزاولة مهنة الصيدلة والثاني بيان الى المذاخر الطبية الاهلية .

كما تم اصدار اثنى عشر بيانا واربعة تعليمات لتنظيم موضوع الفحص الطبي والشعاعي والمختبري واجوره .

وفي الشؤون البيطرية تم التوقيع على بروتوكول واحد هو بروتوكول بيطريي الشرق الاوسط ١٩٤٠ وتم التوقيع على ثلاث اتفاقيات واصدار تسعة

قوانين واربعـــة انظمة واربعة بيانات وتعليمات واحدة هي تعليمـات ادارة مستشفيات البيطرة سنة ١٩٣٥ .

كما تحققت انجازات كبيرة في ضوء البرنامج الذي اعدته وزارة الصحة في نهـــاية عام ١٩٣٢ ففي مجال توفير الكوادر بلغ عدد الاطباء ٢٤١ طبيبا و ٥٧ صيدلانيا و ١٢١ موظفا صحيا و ١١٤ قابلة ,و ٢٢٥ ممرضاً وممرضة و ٤١٧ موظفا اداريا .

وفي ١١ ايلول ١٩٣٤ تقلد الدكتور عبدالله الدملوجي منصب مديرية الصحة العامة ولازمه حتى ١٥ مارت ١٩٣٦ وتقلده بعده الدكتور ســـامي شوكت .

وكان مقر دائرة الصحة العامة في سنة ١٩٣٩ يتألف من الدكتور سامي شوكت مديرا عاما والدكتور حنا خياط مفتشا عاما والدكتور ابراهيم عاكف الالوسي مديرا للمعاهد الصحية .

ظلت مديرية الصحة العامة تابعة لوزارة الداخلية منذ سنة ١٩٢٢ حتى تشكيل وزارة الشؤون الاجتماعية ١٩٣٩ ... فبهذه الوزارة الحقت وفي سنة ١٩٤٢ الغيت هذه المديرية ودمجت بمديرية الشؤون الاجتماعية التي كانت تضم كلاً من مصـــلحة الصحة وادارة صحة الالوية ، ثم عمادة كلية الطب والمستشفى التعليمي ... وكانت المصلحة يومئذ تتكون من مدير الصحة العام ورؤساء صحة الالوية واطباء مستشفياتها واطباء مراكز الاقضية والنواحي ومستشفى الكرخ والحميات وحماية الاطفال . وفي نهاية ١٩٥٢ انفصلت عن وزارة الشؤون الاجتماعية لتســتقل بوزارة خاصة اطلق عليها (وزارة الصحة) وسرعان ما تطور هيكلها الاداري ليلائم واجباتها الجديدة على اساس فصل امور الوقاية من الامراض عن معالجة المرض واسست مديريتان عامتان لهذا الغرض هما مديرية الوقاية العامة ، ومديرية الخدمات الطبية العامة ، وقد ربطت بمديرية الوقاية احد عشر معهدا شملت معاهد التغذية والتدرن والبجل

والمصول واللقاحات والامراض المنوطه ومديريات لرعاية الامومه والطفوله والهندسة الصحية والصحة الخاصة والمدن والاوبئه والصحة العالميه وربطت بمديرية الخدمات الطبية جميع المؤسسات العلاجية من مستشفيات ومستوطنات وعيادات طبية مركزية ومعاهد تحري عن الامراض وتشخيصها كمعاهد الباكتريولوجي والباثولوجي ومعاهد الاشعة كما تشكل مجلس اعلى للصحة لتخطيط مناهج الادارة الصحية والعلاجية والوقائيه .

وقد اعيد النظر في النظام الذي كانت تعمل بموجبه وزارة الصحه فصدر النظام رقم ٧ لسنة ١٩٥٨

لقد شغل منصب وزير الصحة من تاريخ تأسيسها وحتى عام ١٩٥٨، ثلاثة عشر وزيرا عراقيا .

لقد توالت الانجازات خلال الفترة التي اعقبت عام ١٩٣٢ ووضعت برامج عمل عديدة لم تساعد الظروف آنذاك على تحقيقها وعلى الرغم من ذلك فقد حاولت وزارة الصحة جهدها للعمل على تنفيذ هذه البرامج وتحققت خلال الفترة موضوعة البحث الكثير من الانجازات التي عكست اثارها حتى يومنا هذا على المستوى الصحي في العراق . وان الطب العراقي في نهضته المعاصرة والحديثة قد سجل تقدما رائعا في مساهمته الفعالة التي يبذلها متعاونا مع الدول الاخرى في تعزيز الوقاية ومناهضة الامراض سواء عن طريق الاتفاقيات او الانضمام الى المكاتب الدولية . لقد شملت عناية العراق في مقاومة امراض الجدري والحمى النمشية (التيفوس) والحمى الراجعة والمثانة والحصبة والسعال الديكي والنكاف والحمى القرمزية ، والجذام ، والتدرن الرئوي وغير ذلك حيث كانت هناك نجاحات متكررة في منع انتشار الامراض والاوبئة والتي كانت نتيجة للحجر الصحي وشيوع استعمال اللقاحات اضـــافة الى الطرق الاخرى التي اثبتت كفاءتها في منع او القضاء على الكثير من الاوبئة فالحصبة والتيفوئيد قد تم السيطرة عليهما ؛ اما الكوليرا والطاعون فلم تحدث

منذ عام ١٩٣٠ اما الاوبئة المرضـــية الاخرى كالملاريا والبجل والبلهاريزيا والديدان وامراض السل فقد اصبحت في حكم الامراض التي قضي عليها • ومن الجدير بالذكر بانه تم تلقيح ٣٫٠٦١٫٩٥٥ مواطناً في عام ١٩٤٨ ضـد مرض الحصبة وتم تلقيح ٢٫٠٨٠٫٧٧٧ مواطناً ضد الحصبة ايضا في عام ١٩٤٩ •

شهد القطر بعض التحسينات في قطاع الخدمات عموما مما عكس اثارا كبيرة على تطور الحياة الصحية في القطر وقد تميزت هذه الفترة حتى نهاية ١٩٥٧ بالامور التالية :

- تأسيس مشاريع الماء والكهرباء •
- تأسيس مشاريع المجاري لتصريف المياه القذرة ومياه الامطار •
- اقامة الحدائق العامة وتشجير الطرق والمتنزهات •
- توسيع المدن وانشاء الاحياء السكنية الحديثة ونشوء القرى والمدن الجديدة وتضاعف رقعة المدن مرتين الى خمس مرات عن سابق عهدها •

وكان لهذا الاهتمام الاثر الكبير في تقدم الوعي الصحي في القطر ، فقد تقدمت المحلات العامة من مقاهي وفنادق وسينمات وصالونات حلاقة وحوانيت بيع اللحوم والاسماك تقدما كبيرا • وهذه الامور حدثت نتيجة متابعات الســلطات الصحية والبلدية من جهة ولتقدم الوعي الصحي لدى الجمهور ، اذ حمل الباعة على مزيد من الاعتناء بنظافة حوانيتهم •

تمثل الخدمات الصحية وخصائصها الاساسية بشكل عام واقع الاوضاع والظروف الاقتصادية والحالة السياسية السائدة في القطر ومن هـذا المنطلق فأن الصحة في العراق خلال الفترة موضوعة البحث ما هي الا انعكاس لواقع التغيرات الاجتماعية والاقتصادية •

أن الفترة التي اعقبت نهاية الحرب العالمية الاولى ولغاية ثورة ١٤ تموز

١٩٥٨ تمثلت في نشوء وتطور الخدمات الصحية وبدرجة متزايدة ، وسوف نستعرض بنوع من التفصيل اهم هذه الخدمات :

المختبرات والمعاهد الصحية

شهدت الفترة موضوع البحث تأسيس عدد من المعاهد الصحية المنيه لتغطية احتياجات القطر في خدماتها وتتضمن :

١ ـ المختبر المركزي : انشيء عام ١٩١٨ ويتألف هذا المختبر من فروع الكيمياء ، والبكتريولوجي ، والباثولوجي ، ووحدة فحص المياه . وقد كان هذا المختبر يخدم المستشفى المدني ودار التمريض ومستشفى الامراض الزهرية ومستشفى العزل .

٢ ـ المعهد الكيمياوي او المختبر الكيمياوي : انشيء عام ١٩١٩ ويفحص في هذا المختبر المواد المتعلقة بالطب العدلي والجرائيم والعقاقير وعيناب مياه الشرب ونماذج من الاطعمة والاشربة والمواد الغذائيه والكحول والمشروبات ، كما تقوم بفحص المواد الانشائية كمواد السمنت والاحجار وما ترسله مديرية السكك والكمارك من مواد .

٣ ـ معهد الاشعة : تأسس هذا المعهد في تشرين الثاني من عام ١٩١٩ في احدى الدور التابعة الى المستشفى الملكي ، وقد اهتمت به الحكومه الوطنيه يومئذ فأشترت له الالات والادوات اللازمة لتطوير خدماته . ولقد كانت نشاطات هذا المعهد تتضمن اربعه نشاطات مهمه وتشمل الناحية السريرية وتتكون من قسمي التطوير والمعالجة والمعمل ويتضمن ورشة لتصليح الالات والادوات التي تحتاجها شعبة الاشعة والنشاط التعليمي .

٤ ـ معهد باستور : وقد انشيء في عام ١٩٢٢ والحق اول الامر بالمختبر المركزي وقد كان نشاطه يتعلق بانتاج اللقاح المتعلق بعلاج داء الكلب .

٥ ـ معهد الطب العدلي : تأسس هذا المعهد عام ١٩٣٢ وتولى ادارته اول طبيب عين لرئاسة شعبة الطبابة العدلية هو الدكتور احمد عزت ولهذا المعهد اهمية كبيرة ويتألف من عدة شعب خاصة بالتشريح ، ومختبر لفحص المواد الدموية وشعبة لقضايا الشرطة وشعبتان للتصوير والمتحف . ويعتبر هذا المعهد المؤسسة المركزية الوحيدة في العراق يومئذ واليه يرجع رؤساء الصحة في الالوية .

٦ ـ مكافحة الامراض المتوطنة : تأسس عام ١٩٤٦ . وذلك بفتح شعبة لمكافحة الملاريا ، ويقوم هذا المعهد بالاشراف على جميع مشاريع الوقاية الخاصة بمكافحة الامراض المتوطنة . وقد افتتحت في هذا المعهد في نهاية عام ١٩٥٣ شعبة الحشرات الطبية لدراسة اطوار الذباب المنزلي وفي عام ١٩٥٤ تم نقل مختبر تربية البعوض الى معهد الامراض التناسلية والبجل التابع للمعهد . وانشىء في المعهد عام ١٩٥٤ مختبر للقيام بالتحليلات الكيماوية الخاصة بأعمال المكافحة لتحليل المياه والتربة . واصدر هذا المعهد نشره علمية هي : Bulletin of Endemic Diseases.

٧ ـ معهد الابحاث الطبية : تأسس هذا المعهد في سنة ١٩٤٨ وانشيء في المستشفى الملكي للقيام ببحث مختلف الامراض السريرية وكان اول من اشغل ادارته محمود الجلبي .

٨ ـ معهد مكافحة التدرن : تأسس في تشرين الثاني عام ١٩٥٣ ويعتبر مرجعا ابتشاريا لوزارة الصحة في جميع الامور المتعلقة بمكافحة التدرن والاشراف على كافة فعاليات المؤسسات التدرنية في العراق . وكان اول من اشغل ادارته الدكتور جهاد عبدالباقي شاهين الذي كان لجهوده الفضل الكبير في تطوير هذا المعهد وتجهيزه بأحدث الاساليب العلمية . ومن الجدير بالذكر ان اسلوب فحص الصدر بالاشعة الاجماعية ادخل لاول مرة في العراق في تشرين الأول ١٩٥٤

٩ ـ معهد التغذية الوطني : تأسس في بغداد اوائل سنة ١٩٥٥ وكانت الغاية من انشاء هذا المعهد هي وضع سياسة غذائية سليمة للمواطنين ، وكان هذا المعهد يتبع مديرية الوقاية الصحية ماليا وفنيا ويتبع وزارة الصحة اداريا •

المستشفيات في العراق

تعتبر المستشفى الملكي في العراق (المجيديه) في طليعة المستشفيات التي انيطت ادارتها بوزارة الصحة في عام ١٩٢٣ وكان يساعد في ادارتها الدكتور صائب شوكت • وفي سنة ١٩٢٤ التحق بهذا المستشفى ثلاثة اطباء عراقيين وهم الدكتور شاكر السويدي وابراهيم عاكف الالوسي والدكتور توفيق رشدي • وكان فيه ست ممرضات عراقيات ، وكان في هذا المستشفى وحدات لمختلف فروع الطب والجراحة ، والامراض الداخلية ، والتوليد والامراض النسائية ، وامراض العيون ، وامراض المناطق الحارة ، وامراض الانف والاذن والحنجرة ، وكان المستشفى يحوي كذلك دارا للتمريض وعيادات خارجية للامراض العصبية ، وطب الاسنان ، والامراض المتوطنة وطب العيون • ويرتبط كذلك به معهد الطب العدلي ومعهد الاشعة ومعهد باستور • وتبلغ اسرته ٥٠٠ سرير • وفي سنة ١٩٢٩ افتتحت فيه قاعات للعمليات •

كان في العراق وقبل المستشفى الملكي (المجيدية) مستشفيان من جملة التشكيلات الصحية ، واحد يقع خلف ثكنة باب المعظم يتكون من بيوت من اللبن اسس بعد الاحتلال وسمي المستشفى العام الجديد والثاني يقع في جانب الكرخ وسمي بالمستفى المدني • وقد بني هذا المستشفى على انقاض مستشفى الغرباء العثماني ، وقد افتتح في شهر اب ١٩١٧ ، وقد كان عدد اسرته مائة

جناح خاص للعيادة الخارجية ، وجهز بالكهرباء والمراوح واختص بمعالجة الامراض النسائية والجراحية والتوليد . وفي حزيران ١٩١٩ ادمج هذا المستشفى بالمستشفى العام الجديد .

وافتتح لاول مرة في تموز ١٩١٩ واقبل الناس يتطببون في العيادة الخارجية ودائرة الاسنان وتجمع المرضى في ردهات المستشفى الداخلية بالتدريج. وفي آب ١٩١٩ الحقت به دائرة خاصة بالعيون واسس معهد خاص بالاشعة ، وقد كان آنذاك يدار من قبل الاجانب وفي نهاية ١٩١٩ عهدت السلطات الصحية الى الاطباء العراقيين بمساعدة الاطباء الاجانب في بادىء الامر ثم قلدتهم الوظائف الرئيسية . شمل هذا المستشفى مختبرات فنية خاصة ومنها المختبر المركزي وفحص اول مادة فيه بتاريخ ١٥ حزيران ١٩٢٠ .

وكما بينا فقد تم ادماج هذا المستشفى بالمستشفى العام الجديد في ١٣ حزيران ١٩١٩ وانتقل الى المستشفى الملكي . وتم توحيد المعاهد الصحية واصبحت بنايته مقرا للمجلس التأسيسي ثم مجلسا للنواب ثم مدرسة للمعلمين ثم عادت الى مديرية الصحة العامة واصبحت مقرا لمستشفى الكرخ . وقد فتحت في هذا المستشفى شعب للجراحة والطب الداخلي وامراض الولادة ، والانف والحنجرة ، وبمرور الايام ادركه الخراب ، وقد انتقل الى مستشفى (مير الياس) في جانب الرصافة .

اما مستشفى العزل (الكرنتينه) فقد كانت بدايته خياما ضربت في باب المعظم خلف ثكنة الخيالة في الكرنتينة سنة ١٩١٨ . وقد فكر السلطات الصحية يومئذ ببناء مستشفى كامل ووضعت في نهاية سنة ١٩١٨ التصميمات اللازمة للمشروع وبوشر به فعلا في مضرب الخيام ولكن بعد ذلك بدل موقعه الى جانب الكرخ بالقرب من مقبرة الشيخ معروف وانجز في نهاية عام ١٩١٩ . وفي سنة ١٩٢١ كان عدد الذين عزلوا في بناية المستشفى الجديد ٧٨٨ من

رجال ونساء . وفي سنة ١٩٢٢ عهدت ادارته الى مديريه صحة بغداد المركزية . وكان هذا المستشفى يتألف من مائة سرير وارتفع هذا العدد سنة ١٩٢٦ الى ١٥٠ سريرا وسنة ١٩٣٩ الى ١٧٠ سريراً .

ومن الجدير بالذكر كان هناك مستشفى متخصص للمومسات بسعة ٤٠-٧٥ سريراً وكان مغروسا بالاشجار ، وفيه غرف كثيرة وانيطت ادارته بأمرأة ارمنية وقد خصصت احدى غرفه كصيدلية .

اقيمت في بغداد في سنة ١٩٢٠ بجوار المستشفى الملكي دار للشـــفاء لايواء المجانين . وكانت عبارة عن خان قديم . وفي نهاية سنة ١٩٥٣ افتتح مستشفى الامراض العقلية والعصبية في الشماعية وكان يحوي على اربعة اجنحة بسعة ٤٠٠ سرير . وقد تم حينئذ نقل حوالي ١٤٥٠ مريضا من دار الشفاء الى هذا المستشفى واصبح نزلاء هذا المستشفى يزيدون على ١٣٠٠ مريض سنة ١٩٥٨ .

لقد توسع بناء المستشفيات والمستوصفات الطبية في العراق خلال هذه الفترة حتى بلغ عددها في سنة ١٩٤٣ (٤٢) مستشفى حكوميا موزعة على كافه الوية العراق وبلغ عدد المستوصفات في تلك السنة ٢٣٥ مستوصفا لخدمة المواطنين في كافة ارجاء الوطن . وقد تضاعف عدد المستشـفيات بمرور الزمن فبلغ (٦١) مستشفى سنة ١٩٥٤ وبلغ عدد اسرتها ٤٢١٩ سريرا وبلغ عدد المستوصفات الطبية العاملة في تلك السنة ٣٥٤ مســـتوصفا وفي ســنة ١٩٥٦ ارتفع عدد المستشفيات ليصل الى ١١٧ مستشفى منها ٩٥ مستشفى تابعا لوزارة الصحة و (٣) لوزارات اخرى و ١٩ مستشفى اهلي . وبلغ عدد المستوصفات في تلك الســـنة ٤٥٣ مســـتوصفا و ٨٢ عيادة خارجية ملحقة بالمستشفيات وموزعة على كافة انحاء العراق . وهذه المستشفيات على قلتها كان فيها سرير واحد لكل ٥٠٠٠ نسمة .

ولقد اهتم كذلك بمستشفيات الامراض الصدريه وانتشرت في كافه انحاء القطر وبلغ عددها في سنة ١٩٥٨ حوالي ستة مستشفيات رئيسية اهمها مستشفى التويثة للامراض الصدرية التي افتتحت في عام ١٩٥١ وبلغ عدد اسرته ٤٥٠ سريرا سنة ١٩٥٥ ، ومستشفى الامراض الصدرية في الكرخ حيث افتتح في سنة ١٩٥٣ ، ومستشفى الامراض الصدرية في الديوانية افتتح سنة ١٩٥٢ ، ومستشفى مرجان في الحلة افتتح سنة ١٩٥٧ وغيرها من المستشفيات •

اما المستشفيات الخصوصية فقد نظمت لاول مرة بالنظام رقم (١) لسنة ١٩٣٧ • حيث اقدم الراغبون من الاطباء المأذونين على ممارسة مهنة الطب على تأسيس وادارة مستشفيات اهلية في بغداد وفي بعض المدن العراقية وذلك بعد ان توفرت لهذه المستشفيات اللوازم الطبية والفنية الكافية التي تساعد على ممارسة المهنة واصبح عدد المستشفيات الاهلية وحتى سنة ١٩٥٦ في القطر (١٩) مستشفى وبلغ عدد اسرتها ٤٥٥ سريرا •

لم يقتصر الاهتمام في العراق خلال الفترة موضوعة البحث على الطب الوقائي والطب العلاجي بل تعداه الى الاهتمام بالطب الاجتماعي ، وانصرف هذا الاهتمام على وجه التحديد الى رعاية الامومة والطفولة ، وكان في العهد الذي سبق ثورة تموز ١٩٥٨ لمبرة الملكة عالية دوريارز في هذا المجال • فقد وجهت العناية لتوسيع خدمات رعاية الامومة والطفولة وشجعت وزارة الصحة على مضاعفة عدد دوائر هذه الرعاية في جميع انحاء القطر • وبلغ مجموع الامهات الحوامل اللاتي استفدن من خدمات هذه المراكز في مدينة بغداد وحدها للفترة من ١٩٤٨ ولغاية ١٩٥٨ اكثر من ربع مليون ام" ، وبلغ عدد الاطفال الذين راجعوا المراكز اكثر من نصف مليون طفل ، وبلغ عدد الاطفال الذين لقحوا ضد الامراض الخطرة في بغداد اكثر من اربعين الف طفل • كما فتحت مستشفيات خاصة للامومة والاطفال وبلغ عددها حوالي ١٣ مستشفى ، وانتشرت في كافة ارجاء القطر ومنها على سبيل المثال لا الحصر :

مستسفى الاطفال في الكاظمية افتتح سنة ١٩٥١
مستشفى الامومة والطفولة في كربلاء افتتح سنة ١٩٥٣
مستشفى الامومة والطفولة في السليمانية افتتح سنة ١٩٥٣
مستشفى الامومة والطفولة في بعقوبة افتتح سنة ١٩٥٣
مستشفى الامومة والطفولة في السماوة افتتح سنة ١٩٥٣
مستشفى الولادة في الكرادة الشرقية في بغداد افتتح سنة ١٩٥٢

وغيرها من المستشفيات التي انتشرت هنا وهناك .

وهناك مستشفيات اخرى اختصت ببعض الامراض دون البعض الآخر كمستشفيات الحميات التي بلغ مجموعها (٦) سنة ١٩٥٦ . وكانت موزعة بين بغداد والبصرة والموصل وكركوك واربيل والناصرية والحلة وتستوعب ٢٥٠ سريرا ، وفي ذلك الوقت انفصل مستشفى الحميات ببغداد عن مستشفى الكرخ وخصص للامراض السارية .

وكان لمرض الزهري عدة مستشفيات ولكنها الغيت وانيطت مهمة مكافحة هذا المرض بالمستشفيات العامة . وقد اغلق مستشفى الزهري في البصرة سنة ١٩٥٢ .

وانصرفت مستشفيات اخرى لمعالجة امراض العيون وكان اشهرها مستشفى الرمد في كل من بغداد والحلة والبصرة .

الاطباء وذوو المهن الطبية في العراق

كان الرعيل الاول من الاطباء الذين تخرجوا في كلية حيدر باشا في تركيا وقد بلغ عددهم ستة عشر طبيبا حتى سنة ١٩٢٠ وغيرهم من الاطباء الذين تخرجوا من كلية دمشق الطبية ، والكلية الامريكية في بيروت وكلية القديس يوسف وكان عددهم سبعة .

واخذ عددهم يزداد حتى بلغ (١٦٠) طبيبا سنة ١٩٣٢ ثم صار عددهم في سنة ١٩٥٧ (١٠٢٤) طبيبا موزعين على الوية العراق •

اما اطباء الاسنان فقد تراوح عددهم بين ٧٢و٨٨ طبيبا خلال السنوات ١٩٥٠ - ١٩٥٧

وكان عدد الصيادلة ٨ سنة ١٩٢٢ و ٧٣ صيدلانيا ١٩٤٢ و ٣٤٠ سنة ١٩٥٧ • اما معاونو الصيادلة فقد تراوح عددهم بين ١٢ و ١١٦ خلال السنوات ١٩٥٠ - ١٩٥٧

اما الممرضات فكان عددهن ٦٤ ممرضة في سنة ١٩٢٢ وازداد هذا العدد خلال السنوات فاصبح ٨٣٣ ممرضة سنة ١٩٥٧

والموظفون الصحيون ازداد عددهم كذلك فقد كان عددهم ١١ موظفا صحيا فبلغ ٥١٢ موظفا صحيا سنة ١٩٥٧ موزعين في الوية القطر •

اما المضمدون فقد صار عددهم الى ١٠٠٢ في سنة ١٩٥٠ وارتفع هذا العدد الى ١٢٥٢ مضمداً في سنة ١٩٥٧ موزعين في الوية القطر •

وبلغ عدد المصورين الشعاعيين في سنة ١٩٥٠ (١٣) مصورا شعاعيا وارتفع هذا العدد الى ٦٧ في سنة ١٩٥٧ موزعين في كافة انحاء العراق •

وبلغ عدد المراقبين الصحيين ١٤٩ مراقباً في عام ١٩٥٠ فوصل الى ١١٦٠ مراقبا سنة ١٩٥٧ موزعين على كافة انحاء العراق •

اما مركبوا لاسنان فقد كان عددهم ١٣٥ مركبا للاسنان سنة ١٩٥٠ فوصل هذا لعدد الى ١٧٠ مركبا سنة ١٩٥٧ موزعين على كافة الوية القطر •

اما مساعدو المختبر فقد كان عددهم ٤٤ مساعدا سنة ١٩٥٠ واصبح اسنة ١٩٥٧ (١٢٩) مساعدا موزعين على كافة ألوية القطر •

اما القابلات فقد كان عددهن ٩٥ قابلة في سنة ١٩٢٢ فاصبح ٧٣٣ قابلة سنة ١٩٥٧ موزعات في كافة انحاء القطر •

التعليم الصحي

١ ـ الكلية الطبية العراقية

في سنة ١٩٢١ اختمرت فكرة تأسيس الكلية الطبية وتبنت هذه الفكرة الجمعية الطبية البغدادية والصحافة المحلية وانقسم الرأي بين مؤيد ومعارض . وفي هذا العام انعقدت جلسات الجمعية الطبية لدرس هذه القضية واعطاء القرار النهائي بشأنها وفي احد الاجتماعات التي عقدت في نفس السنة في مستشفى العزل حضره لفيف من الاطباء العراقيين واكد على حاجة العراق الى مثل هذه المدرسة (الكلية) وقدرت نفقات الانشاء والآلات يومئذ بـ ٤٠٠ الف روبية و ٣٠٠ الف روبية للمصاريف الادارية وكانت الروبية تعادل ٧٥ فلسا عراقيا . واتخذ القرار بالاجماع على طلب تأسيس المدرسة الطبية في بغداد وقررت الجمعية ان تتقدم الى الحكومة والشعب العراقي بهذا الاقتراح .

وقد نوقش هذا الموضوع من قبل الحكومة يومئذ وقرر الملك فيصل تأجيله لانه سابق لاوانه .

وفي سنة ١٩٢٤ اعلنت مديرية المعارف عن امكان القيام بتأسيس الكلية في العراق .

وفي نيسان ١٩٢٥ وجهت رئاسة مجلس الوزراء كتابا خاصا الى كل من وزارات الداخلية والاشغال والمعارف بلزوم تشكيل لجنة خاصة للبحث في تأسيس الكلية الطبية .

وبعد سنة ١٩٢٥ ايدت مصلحة الصحة ضرورة انشاء مدرسة طبية ووضع نظام خاص بها يفرض على الاطباء الذين يتخرجون منها خدمة الحكومة . كما ايد بعض اعضاء مجلس الامة ضرورة انشاء مدرسة طبية عراقية .

وعلى هذا اوفدت الحكومة عدداً من الاطباء العراقيين الى المعاهد الطبية في انكلترا لتقصي المعلومات عن الاساتذة الذين يقومون بمهمة التدريس في

الكلية الطبية ... فاوفدت الدكتور صائب شوكت مع الدكتور توفيق رشدي سنة ١٩٢٦ والدكتور شوكت الزهاري سنة ١٩٢٧ واعقبهم الدكتور هاشم الوتري والدكتور شاكر السويدي سنة ١٩٢٨ لهذا الغرض .

وفي ٢٩ تشرين الثاني سنة ١٩٢٧ فتحت الكلية أبوابها كفرع لجامعة آل البيت . وبدأ الطلاب يتلقون دروسهم في جناح خاص مؤقت من اجنحة المستشفى الملكي . وتقدم للانتساء ثمانون طالبا انتخبت لجنة القبول منهم عشرين طالبا وكلهم من الذكور وهو العدد الذي يستوعبه المكان المؤقت للطلبة . وكانت مدة الدراسة فيها خمس سنوات ومن شروط القبول فيها ان يكون الطالب حائزا على شهادة الدراسة الاعدادية للفرع العلمي .

وقد ارتبط هؤلاء الطلاب بعقد مع مديرية الصحة العامة تعهدوا فيه بخدمتها اربع سنوات بعد التخرج . وهذا هو الاساس الاول لقانون التدرج الطبي في القطر .

وفي سنة ١٩٣٠ انتقلت الكلية الى بنايتها الجديدة وقد قبلت في هذه الكلية اول فتاة عراقية في العام الدراسي ١٩٣٤/٣٣ وهي الانسة ملك غنام ، واصبحت الدراسة في الكلية ست سنوات اعتبارا من عام ١٩٣٥ . وارسلت البعثات من خريجيها الى الجامعات الاوربية والامريكية للدراسة فيها تدعيما لهيئتها التدريسية . وقد ارتفع خريجوها من ١٢ خريجا في عام ١٩٣٢/٣١ الى ٨٠ خريجا عام ١٩٥٩/٥٨ لاحظ الجدول رقم (١) .

يمنح المتخرج في هذه الكلية شهادة الليسانس في الطب والجراحة ، كما انها تمنح شهادة دكتوراه في الطب وماجستير في الجراحة (في المواضيع السريرية والدكتوراه في الفلسفة (في المواضيع غير السريرية) وفقا لشروط خاصة منصوص عليها في نظام الكلية .

٢ ـ مدرسة المرضات والقبالة

تأسست هذه المدرسة في بغداد سنة ١٩٣٣ وتهدف الى اعداد ممرضات للعمل في المستشفيات وترتبط بوزارة الصحة ، ومن شروط القبول فيها ان تكون الطالبة حائزة على شهادة الدراسة الابتدائية ومدة الدراسة فيها ثلاث سنوات تمنح المتخرجة من هذه المدرسة شهادة التمريض . وتمنح شهادة القبالة لحاملات شهادة التمريض بعد اكمالهن سنة دراســـية اضافية في فن القبالة .

وقد تأسست مدرسة للممرضات في الموصل سنة ١٩٥٧/٥٦ ومناهجها تماثل مناهج مدرسة المرضات في بغداد .

بلغ عدد المتخرجات في هذه المدرسة منذ تأسيسها وحتى سنة ١٩٥٨ (٧٥٠) ممرضة وقابلة وكما مبين بالجدول رقم (١) .

٣ ـ كلية الصيدلة

اسست في سنة ١٩٣٦ وباشرت تدريسها في ٣ تشرين الاول من نفس العام وجعلت مدة الدراسة فيها اربع سنوات تدرس خلالها مختلف الدروس النظرية والتطبيقية ، وقد كان عدد طلابها ١٤ طالبا . ومن شروط الالتحاق فيها ان يكون الطالب قد حصل على الشهادة الاعدادية (الفرع العلمي) وقد تخرجت اول دفعة عام ١٩٤٠ وكان عددهم ١٢ خريجا وفي عام ١٩٤٥ جعلت مدة الدراسة فيها خمس سنوات . وفي سنة ١٩٤٨ تأسس في الكلية فرع لدراسة الكيمياء ، وفرع لدراسة الصيدلة ان مدة الدراسة للحصـــول على درجة صيدلي كيمياوي هي خمس سنوات . واربع سنوات للحصول على درجة البكالوريوس في الكيمياء .. وظلت الكلية تمنح هذه الدرجات حتى سنة ١٩٥٨/٥٧ وفي سنة ١٩٥٨ غيرت الدرجة الممنوحة الى درجة البكالوريوس في الصيدلة . لقد بلغ عدد الصيادلة المتخرجين في هذه الكلية منذ تأسيسها حتى سنة ١٩٥٨ حوالي (٥٠٤) خريجا . لاحظ جدول رقم (١) .

٤ ـ كلية طب الاسنان

افتتحت في بغداد هذه الكلية سـنة ١٩٥٣ ، وكانت تابعة الى الكليه الطبية . وكانت شروط القبول فيها هي نفس شروط القبول في الكلية الطبيه او كلية الصيدلة • مدة الدراسة فيها اربع سنوات ويمنح الخريج فيها شهادة البكالوريوس في طب وجراحة الاسنان • بلغ عدد الاطباء الذين تخرجوا فيها من التأسيس ولغاية سنة ١٩٥٨ حوالي (٢٠) خريجا لاحظ جدول رقم (١) •

٥ ـ كلية طب الموصل

قررت وزارة الصحة في تموز ١٩٥٤ البدء بتأسيس كلية طب ثانية في مدينة الموصل وافتتحت في السنة الدراسيه ٥٩/١٩٦٠ وتم قبول ١٢٣ طالبا وطالبة فيها • وقد جعلت المستشفى القائمة يومئذ في الموصل مستشفى تعليميا يندرب فيه الطلبة وتمنح هذه الكلية بكالوريوس في الطب والجراحة •

٦ ـ مدرسة الموظفين الصحيين

تأسست سنة ١٩٣٠ . يلتحق بهذه المدرسة الطالب الحاصل على الشهاده المتوسطة ومدة الدراسة فيها ثلاث سنوات ويمنح المتخرج بعدها شهادة موظف صحي • بلغ عدد الخريجين في هذه المدرسة (٨٤٧) خريجا حتى سنة ١٩٥٨ • وكما مبين بالجدول رقم (١) •

٧ ـ كلية الطب البيطري

تأسست سنة ١٩٥٥ ومدة الدراسة فيها خمس سنوات ، وشروط القبول فيها هي نفس شروط القبول في الكلية الطبية العراقية ويحصل المتخرج فيها درجة البكالوريوس في الطب البيطري •

مساهمة العراق في المؤتمرات الطبية والصحية

اسهم العراق في مؤتمرات كثيرة وظل يواصل المشاركة فيما يقام منها مع الايام وقد اشـترك في ١٤ مؤتمرا محليا واقليما وعربيا ودوليا خلال الفترة ١٩٣٨ ولغاية ١٩٥٨/١١/٨

الجمعيات الطبية في العراق

قامت في العراق منذ صدور قانون تأليف الجمعيات المعدل رقم ٢٧ لسنة ١٩٢٢ بعض الجمعيات وفي سنة ١٩٥٤ اصدرت الحكومة العراقية قانون الجمعيات رقم ٦٣ لسنة ١٩٥٥ بموجبه حلت جميع الجمعيات وطلبت من اصحابها مجددا تقديم طلبات لتأسيس جمعيات ونقابات وعلى الاسس الجديدة التي جاء بها القانون ومن تلك الجمعيات والنقابات والتي بلغ عددها ١٦ جمعية ونقابة اهمها :

١ ـ الجمعية الطبية العراقية تأسست سنة ١٩٢٠
٢ ـ جمعية الصيادلة تأسست سنة ١٩٢٥
٣ ـ جمعية حماية الاطفال تأسست سنة ١٩٢٨
٤ ـ جمعية الهلال الاحمر العراقية تأسست سنة ١٩٣١
٥ ـ جمعية مكافحة التدرن تأسست سنة ١٩٤٤

صحة الطلاب

كانت وزارة المعارف تشرف اشرافا مباشرا على صحة الطلاب والمعلمين. وكان لمعهد صحة المعارف رئيس واطباء ومستشفى خاص في بغداد وعدد من المستشفيات في مراكز الالوية العراقية ٠ وفي سنة ١٩٥٣ قطعت هذه المؤسسات علاقتها بوزارة المعارف لترتبط بوزارة الصحة ... ومنذئذ اصبحت مديرية صحة الطلاب تحت اشراف وادارة وزارة الصحة ٠

أن مديرية صحة الطلاب قامت بمجهودات كبيرة في حماية الطلاب. واجراء الفحوصات الدورية عليهم واجراء التلقيحات الضرورية لحمايتهم ٠ ومحاولة السيطرة على سوء التغذية التي كان يتسم بها الغالبية من الطلاب آنذاك ويرجع اليها الفضل في تحقيق مشروع تغذية الطلاب ٠ وبدأ هذا المشروع عمليا في العام الدراسي ٥٠/١٩٥١

جدول رقم (١)

اعداد الطلبة المتخرجين من كليات الطب والصيدلة وطب الاسنان والتمريض من سنة التاسيس ولغاية عام ١٩٥٨/١٩٥٩

السنة	كلية الطب	كلية الصيدلة	كلية طب الاســـنان	مدارس التمريض		
				قابلات	ممرضات	موظفين صحيين
٣٢/٣١	١٢	—	—	—	—	—
٣٣/٣٢	٢٠	—	—	—	—	٦
٣٤/٣٣	٥	—	—	—	—	٢٠
٣٥/٣٤	١٢	—	—	—	—	٢٨
٣٦/٣٥	١٧					٢٦
٣٧/٣٦	٧					١٦
٣٨/٣٧	٣٢					١٧
٣٩/٣٨	٢٣					٤
٤٠/٣٩	٣١	١	—	١٧	٢٧	١٧
٤١/٤٠	٣٨	٢٥	—	٣٩	٣٣	٢٨
٤٢/٤١	٣٩	٢١	—	—	٢٤	٣٦
٤٣/٤٢	٣٢	٢٩	—	—	٢٢	٢٨
٤٤/٤٣	٤٧	٢٦	—	—	٣٧	٣٩
٤٥/٤٤	٤١	٢٥	—	٧	٣٢	—
٤٦/٤٥	٤١	٢٣	—	١٦	٢٧	٢٣
٤٧/٤٦	٤٣	٢٤	—	٥	٢٠	٢٣
٤٨/٤٧	٤٢	٢٠	—	١٠	٢٨	٢٧
٤٩/٤٨	٣٧	٢٠	—	—	٣٠	١٦
٥٠/٤٩	٢٣	١١	—	—	٣٥	٣٩
٥١/٥٠	٤٦	٢٥	—	—	٣٠	٢٤
٥٢/٥١	٤٠	٣٢	—	—	٣٥	٢٥
٥٣/٥٢	٤٤	٣٠	—	—	٤٢	٢٥
٥٤/٥٣	٥٠	٣٠	—	—	٣٥	٤٣
٥٥/٥٤	٦٧	٢٤	—	—	٤٢	٣٨
٥٦/٥٥	٧٨	٣٢	—	—	٣٩	٨٢
٥٧/٥٦	٥١	٣٣	—	—	٤٩	٧٠
٥٨/٥٧	٧٥	٢٩	—	—	٢٥	٧٩
٥٩/٥٨	٨٠	٣٣	٢٠	١٥	٢٩	٧٨
المجموع	١٠٧٣	٥٠٤	٢٠	١٠٩	٦٤١	٨٤٧

المصدر : وزارة التخطيط / مديرية الاحصاء العامة / التقرير السنوي عن سير المعارف لسنة ١٩٥٧/١٩٥٨ مطبعة الحكومة ـ بغداد ١٩٥٩ ، ص ٨٢ـ٨٣

المراجع

١ ـ الدكتور عدنان الجبوري والانسة هناء فرح فتوحي : تطور المشـاريع الخدمية في العراق ، (الواقع والافاق) وزارة التخطيط ، بغداد ١٩٨٣

٢ ـ عبد الرزاق الحسني : العراق قديما وحديثا ، مطبعة دار الكتب ، دار اليقظة العربية ، ١٩٨٢

٣ ـ الدكتور موسيس دير هاكوبيان : حالة العراق الصحية في نصف قرن ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ١٩٨١

٤ ـ عبد الحميد العلوجي : تاريخ الطب العراقي ، مطبعة اسعد ، بغداد ١٩٦٧ ، ص ١٥٧

٥ ـ الدكتور هاشم الوتري والدكتور معمر خالد الشابندر : تاريخ الطب في العراق ، مع نشوء وتقديم الكلية الطبية الملكية العراقية ، مطبعة الحكومة ، بغداد ١٩٣٩

٦ ـ ابو خلدون ساطع الحصري : مذكراتي في العراق ، منشورات دار الطليعة بيروت ، الطبعة الاولى ، ١٩٦٧

٧ ـ وزارة التخطيط : مديرية الاحصاء العامة ، التقرير السنوي عن سـير المعارف ، مطبعة الحكومة ، بغداد ١٩٥٩

المبحث الرابع

الجمعيات والنوادي الثقافية والاجتماعية

د. ابراهيم خليل احمد

كلية التربية ـ جامعة الموصل

ادت المتغيرات الجديدة التي شهدتها الحياة الاجتماعية في العراق منذ نهاية العصر العثماني وبدء عهد الدولة العراقية الى ظهور تنظيمات اجتماعية اكثر تمثيلا لظروف المرحلة التالية وحاجاتها ، فتشكلت عقب ارساء اولى اسس النظام الجديد ، مجموعة من النقابات والنوادي ذات الطابع الثقافي والاجتماعي ، كان من ابرزها نقابة للمحامين ذات فرعين ، احدهما في الموصل والاخر في البصرة ، وناد للمعلمين • كما تشكلت سنة ١٩٢١ (الجمعية الطبية العراقية) واصبح للصيادلة جمعية ايضا • وبادرت مجموعة من السيدات الى تأسيس اول ناد للعراقيات باسم « نادي النهضة النسائية » افتتح سنة ١٩٢٣، وفي عام ١٩٢٤ تأسست اول جمعية رياضية باسم « جمعية اتحاد كرة القدم » •

وشهدت نهاية العشرينات تأسيس عدد من الجمعيات الحرفية ، ففي عام ١٩٢٨ تقدم بعض العمال بطلب الى وزارة الداخليه للسماح لهم بتأسيس جمعيه بأسم (جمعية العمال) وتبعهم بعد ذلك مباشرة الحلاقون الذين اسسوا في شباط ١٩٢٩ جمعيــة بأسم « جمعية تعــاون الحلاقين » وفي الاول من تموز ١٩٢٩ تأسست جمعية اصحاب الصنايع التي كان لها دور مهم في حياة العمال العراقيين حيث ضمت لجانا لعمال النسيج والبناء والنجارة واصحاب المعامل الصغيرة وجمعية الحلاقين وجمعية البقالين وجمعيه المطابــع وجمعية اتحاد مقاهي ومطاعم وفنادق بغداد وجمعية عمال الميكانيك . وكان لجمعية اصحاب الصنايع ، وزن ملموس كذلك في احداث الحركة الوطنية . وقــد قامت الجمعية خلال عامين من عمرها بنشاطات واسعة اعتمدت بالاساس على جهود العمال والمثقفين . واولت الجمعية تنظيم المحاضرات لمنتسبيها جانبا كبيرا من اهتمامها . وكانت تلك المحاضرات تعالج مواضيع عمالية وثقافية . كما اهتمت الجمعية بمسألة مكافحة الامية بين العمال ، ففتحت دورات خاصة لهذا الغرض . وقدمت الجمعية بعض المساعدات المالية لعدد من اعضائهــا المعوزين واتفقت مع احد الاطباء على معالجة العمال مجانا ، ومع عدد مــن المحامين لتعقيب دعاوى الفقراء منهم بدون مقابل .

واصدرت الجمعية مجلة نصف شهرية باسم الصنائع في اوائل خريف سنة ١٩٣٠ حفلت بالكثير من المواضيع المهنية والاجتماعية . وخطت الجمعية خطوات تقدمية حين اهتمت بالعمال العاطلين عن العمل فقدمت لهم ما بامكانها من مساعدات نقدية ، وطلبت اليهم تسجيل اسمائهم في مقرها وتمكنت من ايجاد العمل لعدد منهم .

ان نشاط الجمعية وازدياد شعبيتها لم يرق للسلطات الحكومية انذاك فعملت على وضع العقبات في طريقها بهدف شل اعمالها واثر قيام الجمعيــة بأضراب سنة ١٩٣١ اقدمت الحكومة على حلها .

لكن العمال سرعان ما عادوا الى ممارسة نشاطهم التنظيمي من جديد ومن خلال (اتحاد نقابة عمال العراق) الذي تأسس في ايار ١٩٣٣ ، وضم الاتحاد ممثلين عن الجمعيات الحرفية • وقد اتضح ذلك من خلال البيان الموحد الذي أصدرته جمعيات العمال والاصناف والمهن والحرف في ١٠ تشرين الثاني ١٩٣٣ واعلنت فيه مشروعية النقابة اولا وتمثيلها لهم ثانيا • ومن الموقعين على البيان رؤساء اصناف البزازين، الخياطين، الحدادين، الكوازين، القصابين ، الصفارين ، الحلاقين ، البياضين ، سواق السيارات ، عمال الاحذية ، الاطرقجية ، النساجين •

وقد واصل اتحاد نقابة عمال العراق مسيرة جمعية اصحاب الصنايع في المطالبة بحقوق العمال وقيادة اضراباتهم من اجل تحسين احوالهم المعاشية والصحية • لكن السلطة ضاقت ذرعا به فاقدمت في الثاني من كانون الثاني ١٩٣٤ على غلقه •

وفي ١٩٣٦ شرع قانون العمل رقم ٧٢ الذي اعترف للعمال بحقهم في اقامة التنظيمات النقابية وفق الصناعات والحرف التي ينتمون لها • بيد ان هذا القانون قيد التنظيم النقابي بقيود كشرط الحصول على اجازة الترخيص، وحسن السلوك من الشرطة • فقاوم العمال ذلك ، من خلال سلسلة من الاضرابات العمالية التي اكدت اهمية التنظيم النقابي والمطالبة بتحسين احوال العمال المعاشية والصحية •

وخلال الحرب العالمية الثانية ، اضطرت السلطات الى الاستجابة لمطالب العمال واجازة بعض النقابات • وفي الخمسينات تمكنت الحركة العمالية العراقية من انشاء مجلس مركزي لها ، وانشاء المكتب الدائم للنقابات والذي قام بدور ملحوظ في انعاش الحركة النقابية وفي قيادة النضال النقابي العمالي• لكن السلطة اقدمت على اغلاق المكتب فادى ذلك الى تحول الحركة النقابية

الى العمل السري وباغلاق المكتب الدائم للنقابات انتهت اخر مرحلة من مراحل التنظيم النقابي في العهد الملكي ، لتبدأ مرحلة جديدة عرفت بارتباط الحركة العمالية بالحركة السياسية الوطنية والقومية التقدمية • وقد قام حزب البعث العربي الاشتراكي بدور كبير في تشجيع العمال على « دمج قواهم النضالية مع قوى الشعب والالتفاف حول المنظمات والاحزاب الوطنية المخلصة لتحطيم الوضع الاستغلالي التعسفي المعادي لمصلحة الشعب والعمل على اقامة حكم ديمقراطي يؤمن بالشعب » • وهذا ما حدث فعلا حين التف العمال السياسيون والمستقلون حول جبهة الاتحاد الوطني التي عملت مع تنظيم الضباط الاحرار على تقويض النظام الملكي صبيحة الرابع عشر من تموز سنة ١٩٥٨ •

وفي المرحلة التي تمتد من ١٩١٤ حتى ١٩٢٠ تشكلت بعض الجمعيات منها :

جمعية العلم في الموصل

تأسست هذه الجمعية اوائل سنة ١٩١٤ ، وقد اختار مؤسسوها هذا الاسم ليستطيعوا ان يؤولوه من العَلَم (بفتح العين واللام) الى العِلم (بكسر العين) عند الضرورة خوفا من بطش السلطات الاتحادية • وقد اصبح لهذه الجمعية سمعة طيبة بين طلاب المدارس الذين التحقوا بها • وقد حرص مؤسسوا هذه الجمعية على الالتقاء بالطلاب وتذكيرهم بالدور الانساني للعرب • فكان ثابت عبدالنور احد مؤسسي الجمعية على سبيل المثال يلقي على مسامع الطلاب شيئا كثيرا من مآثر التاريخ العربي • وكان يثير فيهم الشعور القومي • وضمت الجمعية عددا من القوميين الشباب المتحمسين من الموصليين منهم مكي الشربتي ومحمد رؤوف الغلامي وعبدالمجيد شوقي البكري ، وثابت عبدالنور ، ومحمد سعيد الجليلي ، وعبدالمنعم الغلامي •

كما اتصلت الجمعية بعدد من رجال الدين ووجوه الموصل واتسع نشاطها اتساعا كبيرا خلال الحرب العالمية الاولى •

النادي الادبي في الموصل

وتأسس في الموصل سنة ١٩١٦ ومن مؤسسيه محمد رؤوف الغلامي ونشأت محمود المفتي ، وسعيد الحاج ثابت وابراهيم عطار باشي ومحمد شريف العمري ومحمد حبيب العبيدي • وكانت تلقى في النادي الخطب والقصائد التي تذكر العرب بماضيهم المشرق •

جمعية النهضة الاسلامية في النجف

وتأسست هذه الجمعية السرية في النجف سنة ١٩١٨ وكان لها دور كبير في التمهيد لثورة النجف على الاحتلال البريطاني سنة ١٩١٩ • ومن ابرز اعضاء الجمعية الشيخ محمد جواد الجزائري والشيخ عباس الخليلي والسيد محمدعلي بحر العلوم •

جمعية حرس الاستقلال

واجه العرب بعد الحرب العالمية الاولى مواقف جديدة منها ان وطنهم اصبح مقسما بين الانكليز والفرنسيين • لذلك انشطرت جمعية العهد الى شطرين احدهما عراقي والاخر سوري • وقد تأسس للجمعية فرعان احدهما في الموصل برئاسة محمد رؤوف الغلامي والثاني في بغداد برئاسة الشيخ سعيد النقشبندي • وقد جاء في المادة الاولى من برنامج جمعية العهد العراقي ما نصه : « **ان غايات الجمعية الاساسية هي ما يأتي :**

(آ) استقلال العراق استقلالا تاما ضمن الوحدة العربية داخل حدوده الطبيعية •

(ب) طلب المساعدة الفنية والاقتصادية من بريطانيا العظمى على ان تكون هذه المساعدة بالثمن وان لا تمس استقلال العراق التام •

(جـ) انهاض الشعب ليباري الامم الغربية •

(د) السعي لخير الامة العربية عامة » •

ولقد انفصلت جماعة من المثقفين في بعداد عن فرع جمعية العهد في شباط ۱۹۱۹ واسست جمعية حرس الاستقلال • وقد عارض هؤلاء مبدأ طلب المساعدة من بريطانيا • ومن اشهر قادة الجمعية محمد الصدر (الرئيس) ويوسف السويدي ، وجعفر ابو التمن ، وبهجت زينل ، وناجي شوكت ، وعلي البزركان وعلي محمود الشيخ علي • واسست الجمعية فروعا لها في بعض المدن العراقية • ومن مواد منهاجها استقلال العراق ، وبذل الجهود للانضواء تحت لواء الوحدة العربية • وللجمعية دور متميز في قيادة ثورة ۱۹۲۰ الكبرى ، وتوحيد كلمة العراقيين ضد المحتلين •

وقد تأسس الى جانب هذه الجمعية جمعية مماثلة اخرى عرفت بجمعية الشبيبة كان من اعضائها سعد صالح وجعفر حمندي وصادق حبه وصادق الشهربانلي •

النادي العلمي في الموصل

وتأسس في الموصل سنة ۱۹۱۹ • وكان له دور مهم في العمل ضد المحتلين الانكليز • وقد جعله القوميون ستارا لتحركاتهم الامر الذي جعل السلطات البريطانية تسرع في اغلاقه بعد فترة قصيرة • ومن مؤسسيه مكي الشربتي ، وعلي الجميل ، ومحمد رؤوف الغلامي وحمدي جلميران ، وداود الجلبي • وكان برنامجه يتضمن اهدافا منها انه تأسس لكي يكون ملجأ للوطنيين ولرواد العلم والادب وواسطة لاثارة الشعور المعادي للسلطات المحتلةوضمت الهيئة الادارية للنادي كلاً من الدكتور عارف معروف (الرئيس) وعضوية كل من شريف الصابونجي، وسليم حسون، ومكي الشربتي وحمدي جلميران وفاروق الدملوجي • واصدر النادي مجلة النادي العلمي التي برز

عددها الاول في ١٥ كانون الثاني ١٩١٩ • كما نظم النادي سلسلة محاضرات ثقافية دورية شارك في القائها عدد من اعضاء الجمعية •

نادي الاصلاح

وتأسس هذا النادي سنة ١٩٢٠ • ومن مؤسسيه احمد الظاهر ، ومحمد باقر الشبيبي ، وعبدالحسين الازري ، ومحمد صادق البصام ، وجعفر حمندي ، واحمد زكي الخياط • وكان يدعو الى نشر العلوم وتعليم الآداب وبث المبادىء العربية الاسلامية واصلاح الحالة الاجتماعية • ووسائله القاء المحاضرات وتنظيم الدروس العلمية ، ومعاضدة المدارس الوطنية ، ونشر اللغة العربية • ويشترط في من يقبل انيكون عربيا متصفا بالاخلاق العالية • واصدر النادي مجلة باسم « الاصلاح » •

* * *

وفي المرحلة التالية وخلال فترة الانتداب (١٩٢١ — ١٩٣٢) اتسعت دائرة الاهتمام بالثقافة ونشر الوعي بين المواطنين • ولقد تأسست خلال هذه المرحلة بعض الجمعيات التي انضوى تحت لوائها عدد كبير من المثقفين وخاصة المعلمين والمحامين وطلبة المدارس • كما اتسمت هذه المرحلة كذلك بتأسيس الجمعيات التي تحمل الطابع الاجتماعي والتهذيبي والانساني • ومن ابرز الجمعيات التي تأسست في هذه المرحلة :

جمعية اخوان الادب

تأسست هذه الجمعية في بغداد في تشرين الثاني ١٩٢١ • وكان من اهدافها نشر الادب العصري والثقافة العربية بين المواطنين • ومن اعضائها الشاعر جميل صدقي الزهاوي والصحفي ابراهيم حلمي العمر والمربي ساطع الحصري والشاعر معروف الرصافي والدكتور امين معلوف •

المعهد العلمي

اسسه عدد من الشباب العراقي المثقف ببغداد في تشرين الثاني ١٩٢١ . وكانت غايته « بث العلوم ، ونشر الاداب العربية في العراق ، والقاء الدروس في محو الامية ، ونشر تصانيف الفضلاء ، وتأسيس مكتبة لاعضائه » . وقد تكونت الهيئة الادارية المؤسسة من علاءالدين النائب ، وحسن النقيب ، وحمدي الباجه‌جي ، وابراهيم الواعظ ، وصادق حبه ، وحسين فوزي ، وتوفيق السويدي ، ومحمد حسن حبه ، وجعفر حمندي واحمد عزت ، ونوري فتاح ، ومحمد جعفر الشبيبي ، وفائق شاكر وثابت عبدالنور .. وقد وضعت الهيئة نظام المعهد الداخلي ونشرته بتاريخ ٨ تشرين الثاني ١٩٢١ . وكان للمعهد نشاط ثقافي ملموس ، فضلا عن اهتمامه بمحو الامية عن طريق تنظيم دروس ليلية . فقد نظم سلسلة من المحاضرات وقام بعض منتسبيه بتمثيل بضعة مسرحيات . كما اقام مهرجان سوق عكاظ تخليدا لمفخرة من مفاخر العرب قبل الاسلام .

جمعية اليتم الاسلامي

تشكلت هده الجمعية سنة ١٩٢١ في بغداد . ومن ابرز مؤسسيها عبدالحميد بابان وعبدالرزاق منير وسليمان فيضي . وقد اهتمت الجمعية بتعليم وتهذيب ورعاية عدد كبير من الايتام .

جمعية الكشافة العراقية

وترجع نشأة هذه الجمعية الى سنة ١٩١٩ حين اجتمع عدد من المثقفين والوجهاء وشكلوا جمعية لمساعدة الكشاف العراقي . وقد انتخبت اول هيئة ادارية مؤلفة من ابراهيم الراوي ، وفخرالدين آل جميل ، وعبدالجبار الخياط ، وداؤد فتو ، وكريكور اسكندريان . وقد عقدت الجمعية التي كانت برئاسة ناظر (مدير) المعارف انذاك ، بضعة اجتماعات ، وسعت في

جمع التبرعات لفرق الكشافة ، لكن هذه الجمعية لم يطل عمرها بل تفرقت بعد مدة قصيرة •

وبعد تشكيل الحكم الوطني في العراق اهتم الاستاذ والمربي والمفكر العربي الكبير ساطع الحصري وكان انذاك مديرا للمعارف العام ، بامــور الكشافة ، وهكذا تم تشكيل جمعية الكشافة العراقية تحت رعاية الملك فيصل الاول نفسه ، واصبح الحصري سكرتيرا فخريا لها ، وكان من ابرز انجازاته فصل الجمعية عن مقر الكشافة البريطاني وجعلها عراقية بحتة ، وقرر لها شارة خاصة مكونة من سعف النخيل ، رمزا لهذه الشجرة التي يعد العراق اغنى بلاد العالم بها • وقد قامت الجمعية بدور رئيس في تطويــر الحركة الكشفية العراقية •

منتــدى التهذيــب

اسس هذا المنتدى ببغداد سنة ١٩٢٢ • ومن مؤسسيه عبدالجبار الخياط ، ويعقوب مراد الشيخ ، وليون لورنس ، ورفائيل بابو اسحق • ومن اهدافه « تعميم التهذيب ونشر المبادىء القويمة بين ابناء هذه الامة العزيزة» • وقد حرص المنتدى على استقطاب عدد كبير من الرواد وذلك عن طريــق الاهتمام بتنظيم سلسلة من المحاضرات الثقافية وتشجيع منتسبيه على ممارسة الرياضة البدنية •

نادي النهضة النسوية

تأسس هذا النادي في ٢٤ تشرين الثاني ١٩٢٣ • ومن ابرز مؤسسيه السيدة اسماء صدقي الزهاوي شقيقة الشاعر جميل صدقي ، والانســة حسيبة جعفر ، والسيدة نعيمة سلطان حمودة ، والانسة بولينا حســون صاحبة مجلة « ليلى » ، والسيدة نعيمة السعيد ، والسيدة ماري عبدالمسيح وزير • ومن الطريف ان هذا النادي تأسس في السنة ذاتها التي تأسس فيها الاتحاد النسائي المصري برئاسة السيدة هدى شعراوي •

وقد اعلن النادي عند تأسيسه ان غايته « ارشاد النساء والفتيات ، الى الشعور بهويتهن الحقيقية ، ومعرفة مركزهن السامي ، والاندفاع الى التنور والتهذيب لاصلاح احوالهن الادبية والاجتماعية . وحسن القيام بالاعمال التي يتطلبها منهن المعترك الانساني ، وبالواجبات والخدم الشريفة التي تنتظرها منهن الامة ، وبها يسعدن انفسهن واهاليهن والوطن اجمع » .

ومن اهدافه كذلك اعطاء الدروس والتمارين المتعلقة في التهذيب والصحة والاقتصاد وتربية الاطفال والاشغال المنزلية . كما انه يسعى الى تكثير مدارس الاناث وترقية تعليمهن وتربيتهن . وجاء في نظامه كذلك انه يعمل لمكافحة العادات المستهجنة التي ترذلها الشرائع الالهية والقوانين الاجتماعية ، لانها تنافي الفضيلة والشرف الحقيقي والاقتصاد اللازم للبلاد .

لقد ركز النادي جهوده في ثلاثة امور مهمة وقام بانجازات جيدة في هذا المجال . وهذه الامور تتلخص في فتحه دورة لتعليم الاميات ، والقيام بخياطة الملابس للفقيرات والقيام بتربية وتعليم عدد اليتيمات . ويرى البعض ان النادي اول هيئة نسوية عراقية تحقق مبدأ الاعالة الاجتماعية .

وكان للنادي نشاطات خارج القطر ، منها اسهامه في مؤتمر الاتحاد النسائي العربي الذي انعقد في بيروت سنة ١٩٢٩ . وكذلك اسهامه بوفد الى المجمع النسائي العربي الذي عقد بدمشق سنة ١٩٣٠ . وقد مثلت المرأة العراقية في هذا المؤتمر كل من السيدة امينة الرحال ، والسيدة ماري عبدالمسيح وزير والسيدة جميلة الجبوري .

جمعية المعارف الكردية

وهي جمعية تشابه في اهدافها ومراميها : المعهد العلمي في بغداد . تأسست في السليمانية باسم « كومه لي زانستى كوردان » اي جمعية المعارف الكردية وذلك سنة ١٩٢٦ . وقد انخرط في عضويتها عدد من المثقفين ووجوه البلدة وقامت بنشاطات ثقافية متعددة وخاصة في مجال فتح صفوف مسائية للاميين .

لجنة الرائد العربي

اسسها في الموصل سنة ١٩٢٧ درويس المقدادي من فلسطين وكان يعمل مدرسا للتاريخ العربي في متوسطة الموصل للبنين • وينقل الدكتور فاضل حسين في مقاله القيم عن « جمعية الجوال » عن احد اعضاء الجمعية وهو سعدي خليل ان اللجنة اسست خلال السنة الدراسية ١٩٢٧ – ١٩٢٨ وكانت ذات اتجاه عربي قومي • وقد نشطت اللجنة في ميدان الثقافة ، كالقاء المحاضرات واجراء المباريات الخطابية بين الطلبة لذلك التف حولها عدد من المدرسين والطلبة الموصليين •

جمعية حماية الاطفال

تأسست هذه الجمعيةفي ٣٠ آذار ١٩٢٨ في بغداد• وكان من ابرز اهدافها السعي باتجاه «العناية باحوال الطفل العراقي ليتاح للبلاد ان تنشىء جيلا قويا سليم العقل والبنية » • ومن مؤسسيها الحاج ياسين الخضيري ، وابراهيم الشابندر، وطاهر محمد سليم ، وسامي شوكت ، وسامي سليمان ، وابراهيم عاكف الالوسي ، وصائب شوكت ، وحسن رضا ، وقد قامت الجمعية ببضعة نشاطات كان من ابرزها انشاء مستشفى الاطفال الذي افتتح في الاول من ايار ١٩٣٤ • وقد اضطلعت الجمعية بتوزيع النشرات الصحية لارشاد الامهات الى كيفية العناية باطفالهن ودعت الامهات في فرص متعددة الى سماع محاضرات متسلسلة تلقى عليهن وتشرح لهن كيفية العناية بصحة الام والطفل اثناء الحمل وبعده • وفي ١٢ آذار ١٩٤٥ تشكل فرع نسوي للجمعية قام بجهود طيبة في مجال رعاية الامومة والطفولة وتنظيم الدورات الخاصة بذلك ••

جمعية الشبان المسلمين

وهي من الجمعيات الدينية الثقافية ، اسست ببغداد في اوائل ١٩٢٩ وفتحت لها فروعا في مدن العراق المختلفة•ومن مؤسسيها محمد بهجت الاثري وعبدالكريم الشيخلي ، وموسى الالوسي ، ورشيد رشدي • وقد اصدرت

الجمعية مجلة باسم « العالم الاسلامي » في سنة ١٩٣٨ اهتمت اهتماما كبيرا بالقضايا الدينية والوطنية والقومية . وقد نص نظام الجمعية الاساسي على ان من اهدافها نشر محاسن الاسلام وما يلائم حياة المسلمين من الحضارة الحديثة . وكان من ابرز اعضاء الهيئة الادارية الاولى للجمعية : المحامي حسين رضا رئيس الجمعية ، واسماعيل الواعظ ، ومنير القاضي ، ونعمان الاعظمي ، وطه الراوي وحمدي الاعظمي ، وجميل الراوي وكمال الدين الطائي . وقد ضم مركز الجمعية في شارع المنصور بالكرخ قاعة كبيرة للمحاضرات ومكتبة وساحات للجلوس وساحتين للعبة التنس وتشكلت في الجمعية بضعة لجان للنشر وللمكتبة وللالعاب الرياضية . وقد حرصت الجمعية على تنظيم الحفلات الخطابية وعقد الندوات وكان لها فروع في بعض المدن العراقية .

جمعية الشباب (كوما لادان)

اسست هذه الجمعية سنة ١٩٣٠ من قبل عدد من الطلبة والمعلمين العراقيين الاكراد في بغداد . وقد انحصر نشاطها في خدمة التراث الكردي واصدرت مجلة باسم « ذكريات الشباب » نشرت مقالات ادبية واشعاراً وطنية . ومن ابرز العاملين فيها فاضل الطالباني وشاكر فتاح وكوران ، وحاجي قادر .

جمعية الهداية الاسلامية

وقد تأسست في الاول من كانون الثاني سنة ١٩٣٠ في بغداد . وقامت بفتح فرع لها في الموصل سنة ١٩٣٢ وكان ابراهيم الراوي اول رئيس للجمعية ، ثم اصبح كمال الدين الطائي . وقد جاء في نظامها الاساسي ان الجمعية تسعى لنشر حقائق الاسلام باسلوب يلائم روح العصر . كما انها تعمل في سبيل نشر العلوم الدينية ، ومكافحة الرذائل والاخلاق الفاسدة ،

وحث الاغنياء على التبرع للمشاريع الخيرية • وقد اصدرت الجمعية جريدة « الهداية » الاسبوعية لتكون لسان حالها • وقد عملت الجمعية على تنظيم المحاضرات الدينية والثقافية • كما اصدرت العديد من الكتب والدراسات التي تناوولت جوانب مختلفة من العلوم الدينية •ومن مؤسسي الجمعية ابراهيم الراوي وبهاءالدين الشيخ سعيد وكمالالدين الطائي ، والحاج حمدي الاعظمي ، وطه الراوي • وقد تشكلت في الجمعية لجان للمحاضرات والنشر والوعظ •

جمعية المؤتمر العربي القومي

وتعد هذه الجمعية فرعا للمؤتمر العربي القومي الذي عقد في القدس بفلسطين سنة ١٩٣١ • ومن قادة الجمعية في العراق محمد بهجت الاثري وابراهيم الواعظ وسعيد الحاج ثابت • وللجمعية نشاطات عديده في المجالات الثقافية والقومية •

جمعية تشجيع المنتجات الوطنية

تأسست هذه الجمعية سنة ١٩٣١ • وقد اسسها جماعة من الشباب المتنورين لبث الدعاية للمنتجات الوطنية وترويجها • وقد قامت الجمعية بخدمات مفيدة في هذا المجال وخاصة في مجال ترويج البضائع العراقية ، وكان لها فروع في بعض المدن العراقية • ولتحقيق غايتها اصدرت الجمعية مجلة اسبوعية باسم « الاقتصاد » • وكان مهدي حيدر وهو موظف في وزارة المالية انذاك معتمدا للجمعية •

جمعية الثقافة العربية

تعد جمعية الثقافة العربية التي تأسست في بغداد سنة ١٩٣١ اثر زيارة قام بها وفد من الجامعة المصرية ، من ابرز الجمعيات التي تبنت الاتجاه العربي القومي في هذه المرحلة • وقد اجيزت الجمعية في ٢٤ ابار ١٩٣١

، وكان من ابرز اعضاء هيئتها الادارية الدكتـــور داود الجلبي (الرئيس) ، والدكتور متي عقراوي ، وموفق الالوسي ، وابراهيم التابندر ، ويوسف ريل • ويتحدث الاستاذ والمربي ساطع الحصري عن هـذه الجمعية فـي مذكراته فيقول انبثقت بعد ان عقد عدد من الاساتذة والمفكريـن العـرب اجتماعا في بغداد في الخامس عشر من شباط ١٩٣١ حضره كل من الدكتور عبدالوهاب عزام . والدكتور عبدالحميد العبادي . والاستاذ عبدالرزاق السنهوري ، والاستاذ احمد امين ، والدكتور حسن ابراهيم حسن ، والاستاذ ساطع الحصري والدكتور ناجي الاصيل ، والدكتور احمد حسن الـزيات، والاستاذ طالب مشتاق وغيرهم • وفي الاجتماع تم بحث افضل الطرق الممكن سلوكها لايجاد صلات وروابط فكرية بين الاقطار العربية • وقـد تبلورت الاجتماعات عن فكرة انشاء جمعية تكون واسطة الاتصال بين المثقفين العرب وذلك من خلال عقد مؤتمر علمي عربي وتأسيس فروع للجمعية في الاقطار العربية واصدار مجلة باسم « الثقافة العربية » •

لقد حدد النظام الداخلي للجمعية اهدافها بما يلي :

آ ــ ترقية الثقافة العربية وفقا لمقتضيات العصر الحاضر •

ب ــ تقوية الروابط الاخوية وتوثيق الصلات الفكرية بين الاقطار العربية•

جـ ــ الاتصال بالجمعيات المماثلة لها في الاقطار العربية الاخرى لتوحيـد الجهود وتسديدها نحو الغرض المقصود •'

واهتمت الجمعية بالبحث عن جميع الوسائل التي يتوسل بها لتعزيـز الثقافة العربية ومنها دراسة التاريخ وخاصة الجوانب التي لها صلة متينة بتقوية الشعور القومي والحس الوطني وجمع الوثائق المتعلقة بالـروح العربيـة والتقاليد الشعبية من امثال وحكايات واغان وعادات لتتخذ بعد ذلك اساسا للبحوث المتعلقة بالتربية القومية العربية •

وشجعت الجمعية المفكرين للقيام ببحوث فردية وعقد المؤتمرات والحلقات الدراسية لمناقشة هذه البحوث . ودعت الى مناقشة القضايا الوطنيه والقومية على صفحات الجرائد والمجلات . وابتدعت الجمعية من الوسائل الاعلام اساليب منها القاء المحاضرات العامة ، ونشر رسائل ومقالات وتوزيع ملصقات ، واقامة حفلات تذكارية ، والاستعانة بالروايات التمثيلية والاستفادة من الافلام السينمائية ونشر الكتب . ومن ابرز الكتب التي نشرتها الجمعية كتاب تاريخ التمدن في العراق وكتاب حضارة بابل واشور . كما وجهت الجمعية دعوات عديدة الى المثقفين العراقيين والعرب شرحت فيها الغاية من الجمعية واهدافها لهذا كان للجمعية دور كبير في نشر الثقافة العربية في العراق في تلك المرحلة .

جمعية الهلال الاحمر

تأسست الجمعية في بغداد في ٢٢ كانون الثاني ١٩٣٢ . وقد سعى في تشكيلها أرشد العمري حين كان امينا للعاصمة في اواخر ١٩٣١ على ان تكون على غرار جمعيات الصليب الاحمر الدولية . وقد قدمت الجمعية بعض الاعانات لمنكوبي الفيضان وخلال سنوات عديدة . وخصصت مكافأة نقدية للمتبرعين بالدم . وكان للجمعية فروع في بعض محافظات العراق . وشجعت الجمعية الفتيات على الانخراط في سلك التمريض، ورشحت عدداً منهن للدراسة خارج العراق . ونظمت محاضرات مختلفة في مركزها العام وفتحت الجمعية دورات للمتطوعين من الطلبة لخدمة مبادىء الجمعية وتدريبهم على الاسعافات الاولية كما انشأت بضعة مستوصفات خاصة بها في بعض المدن العراقية . ومن مؤسسي الجمعية ابراهيم محمود الشابندر ، وارشد العمري ، والدكتور سامي سليمان ، ويعقوب سركيس ، وامين الهاشمي ، ويحيى الالوسي وسليمان فتاح.

وكان لجمعية الهلال الاحمر فرع نسوي تألف في ١٩٣٣ برعاية الملكه

حزيسة وبقي كذلك حتى ١٩٤٥ حين تقدمت نخبة من عضواته بطلب تشكيل فرع جديد يكون مستقلا ماليا واداريا ، وقد انجز الفرع اعمالا اجتماعية وانسانية لم يقتصر نفعها على العراق ، بل شمل اقطارا كثيرة ، وساهم في تخفيف ما حل بها من الويلات والكوارث . وقد تبنى الهلال النسوي ، عشرة مشروعات منها ثقافية نافعة كفتح صفوف خاصة للتمريض والاسعاف ، او لتعليم الخياطة والتدبير المنزلي . ومنها اجتماعية كفتح المستوصفات مثل مستوصف الشاكرية الصحي والاجتماعي ومنها قومية ، حين نهض باكتتابات واسعة ابان حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ . وقد انشأ الاتحاد ميتما للفتيات ، وتبنى انساء دور للحضانة . ومن مؤسسات الاتحاد سعاد العسري ، وعلية سامي فتاح ، وصبيحة الشيخ داود ، واسماء منير عباس ، ونزهت عقراوي .

* * *

نشط المثقفون العراقيون في المرحلة (١٩٢١ ــ ١٩٣٢) التي اصبح فيها العراق مستقلا ودخل عصبة الامم في ٣ تشرين الاول ١٩٣٢، في تنظيم جمعيات عكست الاتجاهات الفكرية التي لم تكن سوى امتداد لاتجاهات حركة النهضة العربية . ولعل من ابرز الاتجاهات الفكرية السائدة في هذه المرحلة : (الاتجاه العربي القومي) المجسد في جماعات سياسية عديدة منها (جماعة المثنى) . اما الاتجاه الاخر فهو (الاتجاه الاشتراكي الاصلاحي) الذي مثله جماعة من الذين اطلق عليهم اسم (جماعة الاهالي) . وقد قامت الى جانب هاتين الجماعتين ، نواد وجمعيات كثيرة عكست الواقع الثقافي والاجتماعي في العراق خلال هذه المرحلة .

ومن ابرز هذه الجمعيات والنوادي :

نادي بغداد

ان جماعة الاهالي ، الذين اصدروا في ٢ كانون الثاني ١٩٣٢ جريدة الاهالي ، وهي تمثل نوعية جيدة في الصحافة والسياسة والمعارضة تدعو

للدمقراطية والاشتراكية المعتدلة ، بدأوا بالتحضير لتأسيس تنظيم اجتماعي وثقافي باسم « نادي بغداد » الذي اقترح فكرته عبدالفتاح ابراهيم • وكانت البداية مبكرة جدا ، فمنذ العدد الاول للاهالي والجماعة يخاطبون الشباب ويولونهم وقضاياهم من الاهتمام مالاحد له • لهذا كله راح جماعة الاهالي يسعون الى كسب الشباب ودعوتهم الى التكتل والتعاون بالانتظام في « جمعيات لها ومنتديات » • فلما وجدوا ان التجاوب كاف لدعوتهم تقدموا بطلب تأسيس النادي الذي اجيز في ٢٥ تشرين الثاني ١٩٣٣ • وفي اول اجتماع لاكثرية اعضاء النادي ، تم صباح يوم ٩ اذار ١٩٣٤ انتخاب لهيئة الادارة من عبدالفتاح ابراهيم ، محمد حديد ، الدكتور صبيح الوهبي ، الدكتور احمد عزت القيسي ، هاشم جواد ، عوني الخالدي ، يوسف الكيلاني • ثم اجتمعت الهيئة الادارية وانتخبت عبدالفتاح ابراهيم معتمدا للنادي ويوسف الكيلاني سكرتيرا ، وعوني الخالدي محاسبا • وقد اخذ النادي في مقره بمنطقة البتاويين ببغداد يزاول نشاطاته الاجتماعية والثقافية المتمثلة في عقد الندوات واللقاءات وتنظيم القاء بعض المحاضرات •

وقد انضم الى النادي عدد من اعضاء جمعية السعي لمكافحة الامية التي تأسست في ٢٥ ايلول ١٩٣٣ وهدفها « السعي لتكوين رأي عام في صفوف الشعب وفي المجلس التشريعي والدوائر الرسمية والمقامات العليا يرى لزوم مكافحة الامية في هذه البلاد » • ونشرت جريدة الاهالي في عددها الصادر في ٧ تشرين الاول ١٩٣٣ النظام الاساسي للجمعية • وكان للجمعية فروع في بعض مناطق العراق • كما افتتح فرع نسائي لها في بغداد • ومن ابرز اعضاء الجمعية جعفر ابو التمن ، وكامل الجادرجي ، والدكتور فاضل الجمالي ، والدكتور احمد عزت القيسي ، ومحمد صالح القزاز ، وادهم مشتاق ، وخدوري خدوري ، والدكتور زكي صالح • واستطاعت الجمعية كسب اعتراف الحكومة بها كجمعية خادمة للمنافع العامة •

وفي ١٥ تشرين الثاني ١٩٣٦ نشرت جمعية الاصلاح الشعبي ، وكانت سربة اسسها كامل الجادرجي ويوسف ابراهيم ومحمد صالح القزاز وعبدالقادر اسماعيل وصادق كمونه ومكي الجميل ، منهاجها الذي حدد غاية الجمعية بالسعي « للقيام باصلاح سياسي اجتماعي اقتصادي يعود نفعه على عامة افراد الشعب ويحقق تقدم الشعب ويقضي على الاستغلال . ومما يلاحظ ان جماعة الاهالي الذي اسسوا نادي بغداد هم الذين اسسوا جمعية الاصلاح الشعبي .

جمعية الرابطة العلمية الادبية

تأسست هذه الجمعية في النجف الاشرف سنة ١٩٣٣ . وغايتها الاساسية « بث الروح العربي والمبدأ القومي بكل شيء » . وتعنى عناية خاصة باللغة العربية ونشرها بين كافة الطبقات بالقاء محاضرات اسبوعية في مختلف المواضيع . كما انها تعمد الى تنظيم الاحتفالات العامة في المناسبات الوطنية والقومية وتستقبل من يرد النجف من الشخصيات والوفود العربية . وكان للجمعية ناد يختلف اليه عدد كبير من المثقفين . كما ضم مركز الجمعية مكتبة غنية بالمصادر والمراجع العربية .

جمعية الطيران العراقية

تأسست هذه الجمعية في ١٨ حزيران ١٩٣٣ لتنشيط حركة الطيران في العراق وبث الدعاية لها من الوجهتين العسكرية والتجارية وتحت اشراف وزارة الدفاع . وقد دأبت الجمعية على منح متخرجيها شهادات تقديرية . وتوسعت حتى اصبح لها فروع عديدة في العراق . وقد جمعت بعض الاموال عن طريق التبرعات وقدمتها لوزارة الدفاع بقصد شراء عدة طائرات . وقد تألفت الهيئة الادارية للجمعية عند تأسيسها من عاكف صالح ومحسن

علوش ، ومولود مخلص وعلي محمود الشيخ علي ، وروفائيل بطي ، وسلمان البراك ، وقاسم الخضيري ، ونجيب الراوي ، وسليمان فيضـي ، وسعيد الحاج ثابت ، وداود السعدي ، وجعفر الشبيبي .

جمعية المؤتمر الاسلامي

اسست هذه الجمعية في بغداد استجابة لمقررات المؤتمر الاسلامي العام الذي انعقد في فلسطين للفترة من ٧ ــ ١٧ كانون الاول ١٩٣١ بهدف شرح حقيقة القضية الفلسطينية . وتألفت الهيئة الادارية للجمعية التي اجتمعت لاول مرة في ٩ ايار ١٩٣٣ من الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء ، والحـاج نعمـان الاعظمي ، وسعيد الحاج ثابت ومحمد بهجة الاثـري ، وابراهيـم الواعظ ، وحسن رضـا وماجـد القرهغولـي ، وعبدالحسـين الازري ، وكمال‌الدين الطائي ، وهاشم الالوسي . ومن غايات الجمعية كذلك نشـر الثقافة العربية الاسلامية ، وصيانة المقدسات والبقاع المشرفة . وقد عمدت الجمعية الى اقامة الاحتفالات الدينية والوطنية وتنظيم المحاضرات . كما بذلت جهودا كبيرة في مجال التبرعات لحماية المصالح والمقدسات الاسلامية من كل تدخل وسيطرة .

جمعية مشروع الفلس

تأسست هذه الجمعية في ٢٩ ايلول ١٩٣٣ ببغداد وكانت غايتها الاولى تقديم خدمات اقتصادية في البلاد وذلك بجمع ما يتيسر جمعه من المبالـغ الصغيرة لانشاء معامل وطنية. ومن مؤسسيها ناجي شوكت ، وسعيد الحاج ثابت ، وعلي حيدر سليمان ومحمد بهجة الاثري ، ومدحت منيف ، وحسين الكيلاني . وقد طبعت الجمعية طوابع لمشروعها ، واقامت بعض الاحتفالات لجمع الاموال اللازمة . وساعدها في ذلك طلبة المدارس . كما تقدمت بطلب لتأسيس معمل للسداير العراقية .

جمعيـة الجـوال

لقد ادرك الشباب القومي المتعف في العراق اواخر العسرينات واوائـل الثلاثينات بان الركون الى السياسة الاقليمية وعزل العراق عن الاقطار العربية الاخرى ، والاعتراف بالواقع الذي اوجده السلطات الاستعمارية البريطانية لا يتفق مع تطلعاتهم وايمانهم بوحدة الامة العربية ؛ لذلك فكرت طليعة منهم بتأسيس جمعية قومية باسم « جمعية الجوال » ؛ وقـد اختير الاسم على اعتبار ان الاعضاء دعاة القومية العربية العاملين على بعث الفتـوة العربيـة الاسلامية « سيتجولون » في انحاء العراق والوطن العربي لنشر مبادئهـم وافكارهم • ومن الذين تقدموا بطلب تأسيس الجمعية خالد الهاشمي ، وناجي معروف ، ونعمان محمد امين العاني ، وعمر احمد الراوي ، وجابـر عمر ، ورشيد علي العبيدي •وقد نصت المادة الثانية من القانون الاساسي للجمعية على ان اهداف الجمعية او الغاية منها « تنمية روح الفتـوة والرجولـة في في الشبان ، وذلك بالتمرينات العسكرية والرياضية والعمل لتهذيب الخلق الشخصي ، واسداء الخدمات الصحية والاجتماعية بالتجول في انحاء القطر العراقي وخارجه » • وتتوسل الجمعية لتحقيق غاياتها بالتدريب العسكري، واقامة الحفلات الرياضية والاستعراضات ، ومكافحة العوامل المنهكة للصحة والمضعفة للشخصية ، بالكتابة والمحاضرات واقامة المؤتمـرات والاتصـال بالجوالين والكشافين العراقيين والعرب •

لقد ضمت الجمعية عددا من القوميين العاملين في العـراق وخاصة في حقل التعليم ولعل من ابرز هؤلاء الدكتـور مصطفى الوكيـل من مصـر ، ودرويش المقدادي من فلسطين ، وامين رويحه من سوريا ، وفرحان شبيلات من الاردن ؛ وابراهيم حيدر من لبنان • وانتمى الى الجمعية عدد من الضباط منهم خيرالله طلفاح وناجي طالب ورجب عبدالمجيد • وكان من انشط المدنيين المتصلين بالضباط محمد يونس السبعاوي وكانت في الجيش كتلة من الضباط

القوميين تتعاطف مع جمعية الجوال ، وكان لذلك اثر في اسهام بعض اعضاء الجمعية في ثورة مايس ١٩٤١ •

دأبت الجمعيه على عقد مؤتمرات سنوية لها منذ تأسيسها في صيف ١٩٣٤ • وقد عقدت سبعة مؤتمرات كان اخرها المؤتمر السابع الذي عقد في اليومين الخامس والسادس من ايلول ١٩٤٠ • وفي هذا المؤتمر نوقشت اعمال الجمعية ونشاطاتها في مجال العمل الوطني والقومي • وقد تم انتخاب الهيئة الادارية للجمعية من كل من درويش المقدادي (معتمدا) ، وعبدالمجيد عباس (نائبا للمعتمد) ، ومحمد ناصر (سكرتيرا) ، ومزاحم الشابندر ، (امينا للصندوق) وانتخب كاعضاء : سليم النعيمي ، وعبدالستار القرهغولي، وناجي معروف ، وسليمان قدوري الناصري ، وجابر عمر ، وعباس محمد القدسي •

وقد نشطت الجمعية خلال السنوات الاولى من تأسيسها ولعل من ابرز فعالياتها شراء مطبعة الجزيرة ، واصدار مجلة الفتوة ، واصدار كراريس ثقافية وقومية ، وتأسيس جمعية للتوفير ، وتنظيم سفرات وجولات داخل العراق وخارجه ، وتشجيع الصناعات الوطنية ، والاهتمام بالمناسبات الوطنية والقومية ، والاسهام باللجنة الادارية لنادي المعلمين الذي اسس في تلك الفترة •

وقدشجعت الجمعية فكرة تدريب طلاب المدارس على استخدام السلاح • ونشطت الجمعية في الميدان الاجتماعي فاقامت المهرجانات والحفلات التكريمية للشخصيات العربية الوافدة الى العراق •

وهكذا ، فقد كانت جمعية الجوال جمعية قومية عربية رائدة دعت الى الوحدة العربية الشاملة وهذه ، كما يقول الدكتور فاضل حسين في مقاله القيم عن « جمعية الجوال » هي اهم مزاياها • ومن هذه الزاوية يمكن القول بان جمعية الجوال جمعية قومية تقدمية كان لها موقف واضح من الاستعمار

والتخلف والتجزئة في الوطن العربي • ولم تكن ، كما قيل ، نازية ، بل ناصرت كل من عادى الاستعمار والصهيونية •

ورأت ان الاشتراكية القومية التي تدعو الى العدل والمساواة بين افراد الامة الواحدة لا تتناقض مع القومية بل تنسجم معها • وقد اتصلت الجمعية بالجمعيات ذات الصبغة المشابهة مثل جمعيةالدفاع عن فلسطين ونادي القلم وجمعية العروة الوثقى (في الجامعة الاميركية في بيروت) وعصبة العمل القومي (في سوريا ولبنان) • وكانت ذات صلة بالشخصيات القومية من غير العراقيين امثال ابراهيم هنانو ، وقسطنطين زريق ، وكاظم الصلح ، وفوزي القاوقجي ، وعبدالقادر الحسيني ، وعبدالله المشنوق كما تطوع عدد من اعضائها لمساندة ثوار فلسطين خلال ثورة ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩ • وساندت ثورة مايس ١٩٤١ مساندة فعاله ونشطة ، لذلك اقدمت وزارة جميل المدفعي الخامسة التي تشكلت في اعقاب فشل الثورة على تعطيل الجمعية ، ومصادرة املاكها واعتقال ابرز قادتها •

نادي القلم

تأسس نادي القلم اواخر ١٩٣٤ وذلك بمبادرة من بعض الشخصيات القومية التي تردد ذكرها في جمعية الجوال • وقد تم اختيار الشاعر جميل صدقي الزهاوي رئيسا للنادي ، ومحمد فاضل الجمالي نائبا للرئيس ومتي عقراوي امينا للصندوق ، وابراهيم حلمي العمر أمينا للسر • ومن اعضاء النادي روفائيل بطي ، وعباس العزاوي ، وعلي الشرقي ، وباقر الشبيبي ، وعبدالمسيح وزير ، وامين سعيد ، وعبدالجبار الجلبي ، وعبدالكريم الازري ، وبعد وفاة الزهاوي في ٢٧ شباط ١٩٣٦ اختار اعضاء النادي الشيخ محمدرضا الشبيبي خلفا له في رئاسة النادي • وكان اتجاه النادي قوميا وساهم معظم اعضائه في نشاطات النادي المختلفة وابرزها القاء المحاضرات

والقصائد والقصص في اجتماعات النادي ولقاءاته التي ظلت تجري بشكل دوري وبانتظام وهي على الغالب اسبوعية . وقد طبع النظام الاساسي للنادي ووزع على الاعضاء ، وكان يتضمن في مادته الثانية اهداف النادي وهي تعارف المؤلفين وحملة الاقلام في البلاد واحكام الروابط بينهم وتعزيز الادب العربي ، وتعضيد البحث وايجاد الصلات بين حملة الاقلام في العراق واقرانهم في الوطن العربي . واقام النادي صلات مع نوادي مماثلة له في العالم . كما شارك في بعض المؤتمرات التي عقدت في لندن والارجنتين . ومن الذين مثلوا النادي في هذه المؤتمرات الشيخ محمدرضا الشبيبي والدكتور مجيد خدوري . وكان للنادي كذلك صلات وثيقة بالنوادي العربية المماثلة . وارتبط النادي بجمعية الجوال ونادي المثنى .

نادي المثنى بن حارثة الشيباني

تأسس هذا النادي في اوائل شباط ١٩٣٥ ببغداد ومن مؤسسيه الدكتور صائب شوكت ودرويش المقدادي والدكتور متي عقراوي والدكتور خالد الهاشمي ومحمد مهدي كبه والدكتور ناجي معروف ومحمد يونس السبعاوي، وابراهيم عطار باشي ، وصديق شنشل ونعمان العاني ، وقاسم حمودي والدكتور امين رويحه . وكان هدف النادي الرئيس « بعث الروح القومي بين ابناء الشعب وايقاظ شعور المواطنة العربية العامة في نفوسهم ، والعمل على احياء التراث القومي ، ونشر الثقافة العربية بين افراد المجتمع » . وحددت المواد (٧) و (٨) و (٩) من النظام الداخلي للنادي الطريقة التي يقبل بها طالب الانتساب الى النادي والصفات التي يتحلى بها واهمها الصدق والاخلاص لمبادىء النادي وطاعة نظمه والتجرد من النزاعات التي لا تتفق مع مبادىء النادي وغايته .

لقد انضم الى النادي الكثير من الشباب القومي من مختلف القطاعات وخاصة قطاع التعليم . واتصل النادي بعدد كبير من الشخصيات العراقية

والعربية وحظي بالعطف والتأييد من لدن الملك غازي ، وللنـادي اهـداف ومنطلقات فكرية اشار اليها الدكتور عماد الجواهري في كتابه الموسوم « نادي المثنى وواجهات التجمع القومي في العراق ١٩٣٤ ــ ١٩٤٣ » ومن ابرزهـا التصدي للتيارات الفكرية الوافدة . ومن هنا جاء تأكيد جماعات النـادي على اهمية مكنونات التراث القومي واهمها التاريخ العربي والدين الاسلامي وذلك برأي جماعة النادي ضروري لوضع الانسان العربي في الموضع الذي يدرك فيه بان الامة العربية كيان واحد بصرف النظر عن الحواجز السياسية .

لقد اصدر النادي خلال السنوات التي عمل فيها مجلة اسبوعية باسم « مجلة المثنى بن حارثة الشيباني » . كما اصدر مجموعة من الرسائل . وقد عبرت جميعها عن اهتمام النادي بالتراث القومي العربي ، وجهوده من اجل يقظة الفكر العربي وثقافة الجيل الصاعد . ولم يقتصر نشاط النادي الثقافي على ذلك بل تعداه الى عقد الندوات والاجتماعات والاحتفالات في المناسبات المختلفة وخاصة المناسبات الوطنية والقومية . واهتم النادي بالشباب وعمل على تطوير الوعي والثقافة بينهم . وشكل النادي لجانا فنيـة وریاضـية . وكانت له علاقات وصلات مع التنظيمات القومية العربية ومع قادة الحركات الوطنية في العديد من الاقطار العربية . واهتم النادي بقضايا فلسطين وسوريا واقطار المغرب العربي . كما انتصر للقضية الطرابلسية وارسل الاحتجاجات استنكارا للعدوان الايطالي على ليبيا سنة ١٩٣٦ .

كان هناك تعاطف بين بعض العسكريين القوميين ونادي المثنى . وكان لمحمد يونس السبعاوي علاقات وثيقة بضباط الجيش ومنهم العقداء الاربعة صلاح الدين الصباغ ، وفهمي سعيد ومحمود سلمان ، وكامل شبيب ، وبعد ثورة مايس حلت وزارة نوري السعيد نادي المثنى .

وكان للنادي لجنة للسيدات تشكلت سنة ١٩٣٩ لتتولى مهمة العمل في المجال النسوي • وبعد فترة اصبحت بناية النادي مقرا لنادي اخوان الحرية الذي تأسس في ٢٨ حزيران ١٩٤٢ برئاسة فاريا ستارك Freya Stark الملحقة الصحفية بدار السفارة البريطانية • وكان من ابرز مهام هذا النادي ابعاد الشباب العراقي المتقف عن الاهتمام بقضاياه الوطنية والقومية • وتأسس الى جانب هذا النادي وفرعه النسائي المسمى بـ (نادي اخوات الحرية) الذي اسس في نيسان ١٩٤٤ جمعيات ونواد مماثلة منها جمعية مكافحة النازيـة والفاشية التي تأسست سنة ١٩٤٢ في بغـداد ، ونـادي (زد) (Z) وظاهر هذه الجمعيات والنواد انها ترفيهية ، لكن اهدافها ابعد من ذلك فقد حرصت السلطات على الاتصال ببعض الشباب وخلق صداقة معهم عن طريق الحفلات الراقصة والغناء والفكاهة • ولكن هذه الجمعيات والنوادي قوبلت بمقاومة العناصر القومية والتقدمية واتهمت بانها مراكز للدعايات الاستعمارية، ولم تضع الحرب العالمية الثانية اوزارها الا واغلقت جميعها ••

جمعية النشيء العراقي

اسست هذه الجمعية سنة ١٩٣٥ ببغـداد وهدفها رفع مستوى النشيء العراقي وتهذيبه وتقوية الرابطة بين العراقيين ، والعمل على بناء العراق • ومن مؤسسي هذه الجمعية : عبدالغني الدلي ، وحسن عبدالرحمن ، وعبدالرحمن عمر ، وابراهيم احمد •

منتدى النشر في النجف

تأسس هذا المنتدى في النجف الاشرف في العاشر من كانون الثانـي ١٩٣٥ • وهدفه « تعميم الثقافة العربية بواسطة النشر والتأليف وغيرهمـا من الطرق المشروعة الصحيحة » • ومن مؤسسيه الشيخ محمد رضا المظفر ، والشيخ جواد قسام ، والسيد هادي فياض • وقام المنتدى بنشـر عدد من

الكتب والبحوث ، ونظم محاضرات علمية وادبية وتاريخية عديدة • كما استفاد من جريدة (الهاتف) النجفية في الاجابة على الاسئلة التي ترده من المواطنين ، واسس مكتبة كبيرة •

جمعية بيوت الامة

اسسها فريق من مثقفي العراق في ١١ آب ١٩٣٥ ، « وهي ترمي الى النهوض بالشعب العراقي من الناحيتين التهذيبية والصحية » وقد حظيت الجمعية بدعم الملك غازي الذي تبرع لها بقطعة ارض • واتسع نشاط الجمعية واصبح لها فروع في مناطق مختلفة من العراق • وقد أمدت مديرية الصحة العامة هذه الجمعية بجمهرة من موظفيها الصحيين للقيام بخدمة ابناء الشعب من الوجهة الصحية • كما ان وزارة المعارف نسبت عددا من المعلمين للتدريب والارشاد •وقد تألفت الهيئة الادارية للجمعية برئاسة مولود مخلص ، وعضوية حنا خياط ، ورؤوف الكبيسي ، وجميل دلالي ، ويحيى قاف الشيخ عبدالواحد ، وسعيد كمال‌الدين ، وعبدالجبار الجلبي ، وعلي الشرقي ، وفاضل الجمالي •

واسس للجمعية فرع نسائي اضطلع باعمال مثمرة كفتح المدارس المسائية ، ومعاونة منكوبي الفيضان ، وجمع التبرعات لدعم القضية الفلسطينية : وانشأ الفرع ميتم الملكة عالية الذي ضم قرابة مائة فتاة • وقد تألفت الهيئة الادارية للفرع من السيدة علية يحيى قاسم ، والانسة ظفيرة جعفر ، والسيدة فخرية شيخون ، والسيدة بدرية علي •

جمعية الناشئة الاسلامية

تأسست هذه الجمعية في ربيع ١٩٣٥ ببغداد • وتولى رئاستها عبدالباقي العاني • وكان من اعضاء هيئتها الادارية كل من الشيخ جلال الحنفي ومكي القرەغولي ، واسماعيل عبدالسلام • وغاية الجمعية « السعي في مكارم

الاخلاق والعمل للمصالح الاسلامية » وقد قامت الجمعية بعدة اعمال اصلاحية . كما قدمت للسلطات الحكومية عدة مقترحات منها طلب الغاء البغاء ، واصلاح الزواج ومكافحة الربا وانشاء المعارض الصحية ومكافحة الادمان . واهتمت بالوعظ والارشاد . واصدرت مجلة باسم « الناشئة الاسلامية » في ١٨ تموز ١٩٣٥ .

نقابة هواة التمثيل

تأسست هذه النقابة في ١٤ كانون الثاني ١٩٣٥ ببغداد . وغرضها اصلاح المسرح والسينما . وقد أسسها فريق من الشباب المهتمين بالفن امثال حافظ الدروبي ، وعبدالله الصراف ، ونعيم عبدالاحد ، وناجي الواعظ وقد نص احد بنود نظامها الاساسي على تشجيع حركة التأليف المسرحي والسينمائي وتشجيع حركة السينما المحلية والمسرح المحلي وتكوينهما على اسس علمية حديثة . وقامت النقابة بدور مهم في دفع الاهتمام بحركة المسرح في العراق .

جمعية الدفاع عن فلسطين

اسست هذه الجمعية سنة ١٩٣٦ وكانت برئاسة طه الهاشمي ، وانضم اليها الكثيرون من القادة القوميين، واتخذت الجمعية من نادي المثنى مقرا لها. وكان من اعضائها البارزين سليمان فيضي ، ومحمد مهدي كبه ، وصديق شنشل ، وسعيد الحاج ثابت . وعقدت الجمعية كثيرا من الاجتماعات القيت فيها الخطب والمحاضرات حول القضية الفلسطينية بشكل خاص والقضية العربية بشكل عام . وبالاضافة الى نشاط الجمعية الثقافي والاعلامي ، قامت الجمعية بجمع التبرعات المالية لنصرة القضية الفلسطينية .

جمعية مكافحة العلل الاجتماعية

تأسست سنة ١٩٣٧ في بغداد ، ومن ابرز مؤسساتها سارة الجمالـــي ، ومرضية الباجه‌جي ، وحسيبة الجيبه‌جي ، ورشدية الجلبي ، وفتوح الدبوني، وشهبال فاضل ، واسيا توفيق وهبي ، وعائشه خوندة • وكان من اهدافهـــا محاربة المسكرات ، وانقاذ مدمني الخمر ومحاربة تجار الخمور •وقد تبينت الجمعية ان منكلة الخمور ليست المشكلة الوحيدة في العراق ، فقررت ان توسع اهدافها لتشمل محاربة الآفات الثلاث : الفقر ، والجهل والمرض • وقامت الجمعية ببعض النشاطات منها تأليف اللجان الخاصة بالاشراف على ســجون النساء والمدارس الاصلاحية ، والقيام بزيارات لبيوت المحكومين من نزلائها وتقديم بحوث في مختلف القضايا الاجتماعية • وانشأت الجمعية معهديــن : هما معهد تعليم الخياطة ومعهد الصم والبكم • وقد تولت ادارة المعهد المذكور السيدة فتوح الدبوني الحاصلة على شهادة متخصصة من جامعة مانجستر في انكلترة في مجال تعليم الصم والبكم •

نــادي المهلب

تأسس في البصرة سنة ١٩٣٧ نادي اجتماعي ثقافي باسم نادي المهلب بن ابي صفرة•ومن مؤسسيه : الدكتور سعدالدين العيسى، وطه الفياض، واحمد الخزعلي ، والحاج نعمة المنصور ، وحسون كاظم البصري • ومن اهــداف النادي نشر الثقافة العربية في البصرة •

جمعية الرابطة الادبية

وقد تأسست في النجف الاشرف سنة ١٩٣٢ • وكان رئيسها الشيخ محمدعلي اليعقوبي • وقامت الجمعية بنشاط ملحوظ في مجال التعبئة الاعلامية خـلال الثورة •

جمعية الرابطة الثقافية

تأسست الجمعية في ٢٦ كانون الاول ١٩٤٣ . وهي جمعيه ثقافيه . كان عبدالفتاح ابراهيم مؤسسها الحقيقي ورئيسها الفعلي . وقد التف حولها عدد كبير من المثقفين واكثرهم من حملة الشهادات العاليه ، وفيهم نسبة كبيرة من مدرسي المدارس المتوسطة والثانوية . بعضهم من خريجي الجامعة الاميركية في بيروت . ويشير الدكتور فاضل حسين في مقاله القيم عن « جمعية الرابطة الثقافية » : ان مؤسسها فكر في تأسيسها لكي تكون نواة لحزب سياسي ديمقراطي اشتراكي راديكالي.وقد قامت الجمعية على اساس التفاؤل بمستقبل للعراق والوطن العربي افضل مما كان عليه خلال الحرب العالمية الاولى . ومن ابرز المؤسسين عبدالجبار الجلبي . ومحيى الدين يوسف ، وعبدالفتاح ابراهيم، وجمال نظمي، وخدوري خدوري، وحازم نامق ، ومجيد عبدالله .

اما اهداف الجمعية العامة . فقد نصت عليها المادة الثانية من نظامها الاساسي وهي « بث الثقافة والروح الديمقراطيه . وتشجيع النشاط العلمي والاجتماعي بكل ما يتيسر لديها من الوسائل المشروعة كاصدار النشرات ونشر البحوث ، واعمال التأليف والترجمة والقاء المحاضرات ، واقامة اجتماعات البحث ، والمناقشة والمساهمة باعمال مكافحة الامية . والخدمات الاجتماعية والتعاون مع المؤسسات التي تماثلها في الاهداف » .

وكان في الجمعية بضعة لجان تتولى تنفيذ برنامجها ، ومن هذه اللجان لجنة المحاضرات والمناقشات المؤلفة منذ ان اختارتها الهيئة الادارية للجمعية من محي الدين يوسف ، وفاضل حسين ، ومحمد توفيق حسين ، وعبدالغني الجرجفجي ، وداود سلمان . ولجنة التأليف والترجمة والنشر المؤلفة من عبدالفتاح ابراهيم، وحسن احمد السلمان، ومجيد عبدالله، وبشير فرنسيس، وطه باقر ، وكوركيس عواد .

كما اسست الجمعية مكتبة لبيع مجلتها التي اصدرتها باسم (الرابطة)

في ١٦ اذار ١٩٤٤ . كما تولت المكتبة بيع منشورات الجمعية من الرسائل والكتب . ولعل من ابرز ما نشرت الجمعية كتاب (مقدمة في كيان العراق الاجتماعي) لهاشم جواد ، وكتاب (الانسان في فجر حياته) لدروثي ديفدسن وترجمة طه باقر وفؤاد سفر وكتاب (العراق في القرن السابع عشر) لتاقرنييه وترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد وكتاب (خلاصة الفكر السياسي منذ الثورة الفرنسية) لستيفن سينكلر وترجمة مجيد عبدالله وخدوري خدوري .

وقامت الجمعية بتأسيس شركة للطباعة عرضت اسهمها على الاعضاء ، ثم اشترت مطابع حديثة سمتها مطبعة الرابطة مقرها في مبنى دار الجماهير الحالي في بغداد . وقد اصدرت الجمعية في ٢٨ نيسان ١٩٤٥ عددا خاصا من مجلة الرابطة عن العراق تضمن مواضيع عديدة عن « مكانة الشباب الواعي في حياتنا الوطنية » و « الوضع الاقتصادي في العراق بعد الحرب » و « احوال العمال في العراق » و « القضاء العراقي ، اراء في اصلاحه » و « التربية والتعليم في العراق الحديث » و «الطب واثره في المجتمع العراقي» و «اسس نطور الحياة العقلية في العراق » و «الحركة الفنية الحديثة في العراق» و «نظرة في مشكلة الاراضي في العراق » .

ونشطت الجمعية في مجال اقامة بعض الاحتفالات وعقد الندوات ، منها الاحتفال المهيب الذي اقامته لمناسبة مرور الف عام على وفاة ابي العلاء المعري، ودعوة لجنة المحاضرات والمناقشات للدكتور يوسف مجلي الاستاذ في دار المعلمين العالية لالقاء محاضرة بعنوان « البلاد العربية كوحدة جغرافية » واقامة حفلة تأبينية للشاعر معروف الرصافي في اربعينيته .

وفي صيف ١٩٤٦ جاءت وزارة ارشد العمري الاولى لمكافحة الحريات والاحزاب الوطنية فقررت حل جمعية الرابطة ، والغاء امتياز مجلتها التي حصلت على سمعة طيبة بين المثقفين لما عالجته من مواضيع سياسية وقومية عربية واقتصادية ومالية ودولية وقانونية وجغرافية وادبية .

الاتحاد النسائي العراقي

اسس الاتحاد النسائي العراقي سنة ١٩٤٥ ببغداد استجابة للمقـررات التي اتخذها مؤتمر الاتحاد النسائي العربي الاول الذي دعت اليه السيدة هدى شعراوي وانعقد في القاهرة سنة ١٩٤٤ كمحاولة لتنسيق جهود المرأة العربية والعمل على تقرير حقوقها المدنية والسياسية • وقد وضع الاتحاد النسائـي نصب عينيه الاخذ بيد المرأة العراقية . ورفع مستوى العائلة وخدمة المجتمع بوسائل عديدة منها :

١ ــ توثيق الروابط التعاونية بين الجمعيات النسائية المختلفة في العراق•

٢ ــ توثيق الروابط الثقافية والاجتماعية والقومية مـع الجمعيـات النسائية في الاقطار العربية •

٣ ــ توثيق العلاقات بين الجمعيات النسائية في العراق والمؤسسـات العالمية التي تستهدف رفع مستوى المرأة والمجتمع في العالم •

٤ ــ توثيق جهود نساء العراق لرفع مستوى المرأة العراقيـة صـحيا واجتماعيا ومدنيا وشرعيا واقتصاديا •

لقد وجه الاتحاد اهتمامه ، في الناحية الثقافية ، الى رفع مستوى المرأة العلمي والادبي والفني وذلـك باقامة مواسـم ثقافية يشارك فيهـا عدد من المفكرين والاختصاصيين •• كما اقام سلسلة من الحفلات والمسرحيات وعرض في مركزه افلاما علمية واجتماعية • وحقق بعد جهود متواصلة الغاء « البغـاء العام » وفي مجال تحسين احوال المرأة سعى الاتحاد الى مواصلة الجهـود لسن قانون خاص باجراء الفحص الطبي على طالب الزواج ، ونادي باعطـاء الطفل للاصلح من الابوين في حالات الانفصال . وفي الوقت نفسه ، سعى الى رفع مستوى الممرضات وزيادة رواتبهن • وفي سنة ١٩٥٤ نظم الاتحاد اسبوعا للمطالبة بالحقوق السياسية للمرأة • وعمل الاتحاد على اثارة قضايا شرعيـة

اتصل معظمها بالمهور وحوادث الطلاق والشؤون الاجتماعية الاخرى • وخلال حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ بذل الاتحاد جهودا طيبة في مجال ارسال مواد الاسعاف لسكان القرى الفلسطينية الامامية • ونهض باعباء اكثر من اكتتاب مالي وخاصة خلال الاعتداء الاثيم على مصر سنة ١٩٥٦ •

وقد توقف الاتحاد النسائي عن نشاطه ، كمؤسسة تجمع الهيئات النسوية، منذ صدور مرسوم تأليف الجمعيات سنة ١٩٥٤ لكن بعض المشتغلات في الحقل النسوي واصلن جهودهن ضمن الاتحاد ولكن بترخيص جديد لجمعية تحمل اسم (جمعية الاتحاد النسائي) وكانت هذه الجمعية برئاسة السيدة اسيا توفيق وهبي وعضوية السيدات بتول عبدالاله حافظ ، وحسيبة امين خالص ، وعزة الاسترابادي (امينة السر) ، وعائشة خوندة ، وظفيرة جعفر ، وعفيفة البستاني ، ومرضية الباجهجي ، وفتوح الدبوني •

نادي البعث القومي

اسسه سامي شوكت سنة ١٩٤٦ في بغداد ، وغايته نشر الثقافة القومية بين الشباب • وقد اصدر النادي جريدة «البعث القومي» كتب فوق عنوانها الاية الكريمة « كنتم خير امة اخرجت للناس • تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » وتحتها اعلام الاقطار العربية وعليها عبارة « البلاد العربية وحدة لا تتجزأ » ولم يدم عمر النادي طويلا ، حيث قررت وزارة ارشد العمري في صيف ١٩٤٦ غلقه •

جمعية البيت العربي

نهضت جماعة من المشتغلات في حقل التعليم سنة ١٩٤٨ بتأسيس جمعية باسم « جمعية البيت العربي » في بغداد هدفها رعاية النساء والاطفال الذين يفقدون المأوى ووسيلة العيش بسبب من الاسباب • وساهمت الجمعية في هذا المجال بانشاء ميتم للفتيات ورصدت بعض المبالغ لرعاية هؤلاء • وفي سنة

١٩٥٦ حققت الجمعية مشروعا بانشاء دار للحضانة عد من اوائل دور الحضانة التي اسست في العراق . وكانت الهيئة الادارية للجمعية تتألف سنة ١٩٥٨ من اديبة ابراهيم رفعت ، والدكتورة لمعان امين زكي ، ومحاسن الكيلاني ، ومآرب علي جواد ، والدكتورة سعاد خليل اسماعيل ، والشاعرة لميعة عباس عمارة ، وآمنه احمد رمزي ، وفاطمة احمد قدري ، ونزيهة الاعرجي .

نادي البعث العربي

اسس هذا النادي في بغداد في ٩ ايار ١٩٥٠ . ومن ابرز مؤسسيه خضر عبدالغفور ، وهاشم الحلي ، ويوسف الحاج ناجي ، والدكتور عبدالرزاق محي الدين ، والدكتور احمد عبدالستار الجواري ، والدكتور محمد حسين آل ياسين ، وطه باقر ، والدكتور محمد حسن سلمان .

ويهدف النادي الى « بث الفكرة القومية » وانماء الشعور القومي الصادق ، وتشجيع البحث العلمي للقضايا العربية العامة ، والتأليف بين جهود المفكرين والعاملين في خدمة الوطن العربي لرفع المستوى الثقافي والاجتماعي، والعمل على تحقيق الدولة العربية الموحدة » .

وكان للنادي قسم مميز نصه « أنا عربي ، واؤمن ان العرب امة واحدة ، حقها الطبيعي مقدس ، ان تعيش حرة مستقلة في جميع اقطارها تدفعها قوميتها المتحفزة الى تحرير الوطن العربي وتوحيده ، والى تأسيس نظم اقتصادية وسياسية واجتماعية اعدل واصلح من نظمه الحاضرة تستهدف مكافحة الاستغلال ، ورفع مستوى المعيشة وزيادة الخير المادي والمعنوي للامة ، وتساهم في العمل لخير المجموع الانساني، وتسعى لتحقيق ذلك بالعمل الدائب على اساس التنظيم القومي ، اعاهد الله ان اجاهد ما حييت في هذا السبيل واضعا المصلحة القومية فوق كل اعتبار » .

اصدر النادي مجلة باسم « مجلة البعث العربي » في ١٥ كانون الاول

١٩٥١ • وقام النادي بنشاطات ثقافية وقومية كثيرة ، لكن حياته انتهت سنة ١٩٥٤ اثر اعلان حل الجمعيات والاحزاب في العراق •

الغاء الجمعيات والنوادي ١٩٥٤

اصدرت وزارة نوري السعيد الثانية عشرة (٢ آب ١٩٥٤ ـــ ١٧ كانون الاول ١٩٥٥) التي تالفت لمكافحة الحريات والاحزاب والجمعيات الوطنية والقومية التقدمية ، سلسلة من المراسيم الرجعية منها المرسوم رقم (١٩) لسنة ١٩٥٤ الذي صدر في أيلول ١٩٥٤ والغى كافة الجمعيات والنـوادي ودور التمثيل المجازة في العراق بحجة ان هذه المؤسسات اخذت « تجاهر بالدعوة الى مذاهب ومبادىء يعاقب عليها القانون ، كما ان بعضها اخـذ يدعو الى استغلال طرق الشغب واشاعة الفوضى ••• كما ان بعضها استغل الامتيازات التي منحها القانون لها ولصحافتها ، فأخذ يحرض الناس في الصحف التي تنطق بلسانه على الشغب ، والقيام باعمال ثورية لقلب نظام الحكم ••• » •

وقد اصدر وزير الداخلية بيانا عد فيه الجمعيات والنوادي ملغية اعتبارا من ٢٢ ايلول ١٩٥٤ ، ودعا الراغبين في انشاء جمعيات ونواد جديدة الى تقديم طلباتهم الى وزارة الداخلية مرفقة بخمس نسخ من انظمة هذه الجمعيـات او النوادي •وقد بلغ عدد الجمعيات الملغاة بحكم هذا المرسوم انذاك (٤٦٨) مابين جمعية وناد في كافة انحاء العراق منها (٢٤٦) جمعية وناد في بغـداد و (٥٣) في البصرة و (٤٧) في الموصل و (١٢) في العمارة و (١٥) في كل من كركوك والحلة وكربلاء والديوانية •

عارض الشعب العراقي تلك المراسيم الرجعية ، وكان ذلك مدعاة للعمل المشترك بين الاحزاب والقوى السياسية الوطنية والقومية التقدمية من جهـة وتنظيم الضباط الاحرار من جهة اخرى ، بهدف اسقاط النظام الملكي ونشـر الوعي ضد حكم نوري السعيد وعبدالاله وانصارهما من الرجعيين وشيوخ الاقطاع وضد النفوذ البريطاني • وقد تم ذلك في صبيحة يوم ١٤ تموز ١٩٥٨ حيث سقط النظام برمته تحت ضربات الشعب وقواته الوطنية المسلحة •

المصادر والمراجع

* احمد ، ابراهيم خليل ، ولاية الموصل : دراسة في تطوراتها السياسية ١٩٠٨ — ١٩٢٢ ، رسالة ماجستير غير منشورة قدمت لجامعة بغداد ١٩٧٥ .
* احمد ، كمال مظهر ، الطبقة العاملة العراقية : التكون وبدايات التحرك ، (بغداد ، ١٩٨١) .
* الجادر ، وليد ، الحرف والصناعات اليدوية في العصر الاشوري ، (بغداد ، ١٩٧٢) .
* الجبوري ، عبدالجبار حسن ، الاحزاب والجمعيات السياسية في القطر العراقي ١٩٠٨ — ١٩٥٨ . (بغداد ، ١٩٧٧) .
* الجواهري ، عماد احمد ، نادي المثنى و واجهات التجمع القومي في العراق ١٩٣٤ — ١٩٤٣ ، (بغداد ، ١٩٨٤) .
* جبار ، عباس عطية ، العراق والقضية الفلسطينية ١٩٣٢ — ١٩٤١ (بغداد ، ١٩٨٣) .
* الحسني ، عبدالرزاق ، الاسرار الخفية في حركة السنة ١٩٤١ التحررية، ط٢ ، (صيدا ، ١٩٦٤) .
* الحسني ، عبدالرزاق ، تاريخ الوزارات العراقية ، جـ٢ ، طـ٥ (بيروت، ١٩٧٨) .
* حسن ، رزاق ابراهيم ، تاريخ الطبقة العاملة في العراق بين الاضرابات وبناء التنظيم النقابي ١٩١٨ — ١٩٦٨ ، (بيروت ، ١٩٧٦) .
* حسين ، فاضل ، تاريخ الحزب الوطني الديمقراطي ، (بغداد ، ١٩٦٣) .
* حسين ، فاضل ، سقوط النظام الملكي في العراق ، (القاهره ، ١٩٧٤) .
* حسين ، فاضل وآخرون ، تاريخ العراق المعاصر ، (بغداد ، ١٩٨٠) .
* حسين ، فاضل الفكر السياسي في العراق المعاصر ١٩١٤ — ١٩٥٨ ، (بغداد ، ١٩٨٤) .

* حسين ، فاضل ، جمعية الجوال ، فصل في تاريخ القومية العربية في العراق المعاصر ، مجلة كلية الاداب ، جامعة بغداد ، المجلد ٣٣ ، العدد ٢ ، كانون الاول ١٩٨٢ .
* حسين ، فاضل ، جمعيه الرابطه الثقافية في العراق ، فصل من تاريخ الدمقراطية في العراق المعاصر ، مجلة دراسات في التاريخ والاثار العدد (٢) ، ١٩٨٢ .
* حمدي ، جعفر عباس ، التطورات السياسية في العراق ١٩٤١ ــ ١٩٥٣، (النجف ، ١٩٧٦) .
* الحصري ، ساطع ، مذكراتي في العراق ، جـ ١ ، ١٩٢١ ــ ١٩٢٧ ، (بيروت ، ١٩٦٧) .
* خليل ، عادل غفوري ، احزاب المعارضة العلنية في العراق ١٩٤٦ ــ ١٩٥٤ ، (بغداد ١٩٨٤) .
* الدراجي ، عبدالرزاق ، جعفر ابو التمن ودوره في الحركة الوطنية في العراق ١٩٠٨ ــ ١٩٤٥ . (بغداد . ١٩٧٨) .
* درويش ، محمود فهمي ، الدليل العراقي الرسمي لسنة ١٩٣٦ ، (بغداد ، ١٩٣٦) .
* داؤد ، صبيحة الشيخ ، اول الطريق الى النهضة النسوية في العراق ، (بغداد ، ١٩٥٨) .
* رؤوف ، عماد عبدالسلام ، تطور نظام الاصناف في العراق ، مجله آفاق عربية ، العدد ١٠ ، حزيران ١٩٨٤ .
* العكام ، عبدالامير ، تاريخ حزب الاستقلال العراقي ١٩٤٦ ــ ١٩٥٨ ، (بغداد ، ١٩٨٠) .
* كبة ، محمد مهدي ، مذكراتي في صميم الاحداث ١٩١٨ ــ ١٩٥٨ . (بيروت ، ١٩٦٥) .
* الفياض ، عبدالله ، الثوره العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠ ، (بغداد ، ١٩٦٣) .
* فتاح ، شاكر ، صفحات مشرقة من تاريخ مكافحة الامية في كردستان ، مجلة الحكم الذاتي ، العدد ٥ ، لسنة ١٩٧٨ .
* القيسي ، نوري حمودي ، الحرف والاصناف والنقابات في العراق ، مجلة بين النهرين ، العدد ٤٧ ، ١٩٨٤ .
* الوكيل ، فؤاد حسين . جماعه الاهالى في العراق . (بغداد ، ١٩٧٩) .

البحث الخامس

الحركة النسوية

د . طارق نافع الحمداني

جامعه بغداد / كليه التربية

خطت الحركة النسوية في العراق حتى قيام ثورة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ خطوات كبيرة قياسا الى ما كانت عليه في بدايات القرن العشرين . ونعني بتلك الخطوات تقدم المرأة ونهوضها في المجالات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، ذلك النهوض الذي اعطى للمرأة حقها الطبيعي عن طريق مساواتها مع الرجل ، ومشاركتها اياه في بناء المجتمع العراقي الجديد .

وقبل ان نتوغل في دراسة الحركة النسوية المعاصرة لابد لنا من الاشارة الى ان هذه الحركة ترتبط ارتباطا وثيقا بما كانت عليه حالة المرأة في العهود السابقة ، وبالذات العصر العثماني الذي انتهى في العراق خلال الحرب العالمية الاولى ، وهو ما عالجناه في مبحث سابق ، في الجزء العاشر من هذا الكتاب تحت عنوان (المرأة العراقية واثرها في المجتمع) . ومما لا ريب فيه ان الحركة النسوية انذاك لم تكن قد ظهرت بعد الى حيز الوجود ، بسبب الظروف القاسية التي كانت مفروضة على المرأة ابان العصر العثماني ، وتعرقل قدرتها على الاداء .

اما في النصف الاول من هذا القرن ، فلقد ظهر نموذج جديد للمرأة هو نموذج المرأة التي تطمح في الحصول على نصيب اوفر من الثقافة والتعليم ، وتقف ، على قـدم المساواة مـع الرجل وتسـاهم مثلـه في النشـاط الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وعلى اكتاف هذه المرأة قامت الحركة النسوية المعاصرة في العراق .

ومهما يكن من امر ، فان هذه التطورات لا يمكن الالمام بها دون الرجوع الى معرفة مسبباتها ، وذلك ما يكمن في تطور التعليم النسوي في العـراق ، الذي يعتبر الدعامة الاساسية التي استوت عليهـا نهضة المـرأة الجديدة . فالتعليم يشكل جانبا ، وجانبا مهما في عملية نهوض المرأة وذلك لانه احدث تغيرا جذريا في وضع المرأة ومكانتها في المجتمع كما سنرى .

تطور التعليم النسوي في العـراق

اذا ما القينا نظرة فاحصة على التعليم النسوي في العراق خلال العصـر العثماني نجد بانه في غاية التأخر . فلقد كان الناس في هذه الفترة يعتقدون بان مجرد تعليم المرأة القراءة والكتابة يؤدي الى افسادها ، ولذا فان تعليمها لم يكن شيئا يذكر ، اذ لم يكن في البلاد الا عدد قليل من المدارس والكتاتيب لتعليم القراءة والكتابة . واذا ما استثنينا طائفة من الكتاتيب البسيطة وبعض المدارس القليلة للاقليات غير المسلمة فان تعليم المرأة يكاد ينعـدم .

واذا ما كانت مسألة التعليم تشكل حجر الاساس في نهضة المرأة العراقية فانها كانت مسألة معقدة بسبب الظروف والتقاليد الصارمة التي اشرنا اليهـا اعلاه ، وبسبب ان العراق لم يكن شديد التأثر بالنهضة التعليمية والثقافيـة الحديثة التي جرت في كل من مصر وسوريا ابان القرن التاسع عشر واوائـل القرن العشرين . اذ قادت تلك النهضة الى نشوء فكرة تحرير المـرأة العربية ، واعطائها حقوقها الشرعية وحظها من التربية والتعليم ، وكانت دعوة قاسـم

امين التي انطلقت عام ١٨٩٨ خير من يمثل هذا الاتجاه . على ان هذه الدعوة لم تستطع الوقوف على قدمين ثابتتين الا بعد فترة طويلة من الزمن ، لكنها بدأت تنعكس في اقطار الوطن العربي الاخرى ، ومن بينها العراق ، حيث تمثلت في شعر الشاعرين الكبيرين الزهاوي والرصافي .

والذي لا يمكن نكرانه ان الدعوة لتعليم المرأة ونهوضها في العراق ، كما هو الشأن في مصر ، قد استندت الى تشجيع بعض المفكرين والكتاب العراقيين، وكان على رأس هؤلاء المفكرين شاعر العراق المعروف جميل صدقي الزهاوي .

ولد الزهاوي عام ١٨٦٣ ، وكان والحالة هذه معاصرا لقاسم امين في مصر. وقد نشأ في عائلة يسودها العلم والادب ، وسافر الى مصر حيث اتصل بالاوساط التي كانت تدعو الى تحرير المرأة . وراح فور عودته الى بغداد يحث واليها نامق باشا على اقامة مدرسة للبنات ، وتم هذا الامر عام ١٨٩٩ م حيث مثل ذلك بداية التعليم النسوي في العراق، ولم يعقبه انشاء مدرسة اخرى للبنات حتى عام ١٩١٣ .

ان اراء الزهاوي عن المرأة قد ظهرت في عدد من المقالات التي نشرها في مطلع القرن العشرين ، وتناولت فيما تناولت تلك الاراء الدعوة الى تحرير المرأة والدفاع عنها . ومما يهمنا في هذا المجال هو موقف الزهاوي من تعليم المرأة وتثقيفها ، حيث اكد بان هذا التعليم هو الاساس في رفع مستواها الثقافي ، كما يقول في قصيدة :

لا يقي عفة الفتاة حجاب بل يقيها تثقيفها والعلوم

وكان الشاعر الرصافي ، كما هو معلوم ، واحدا من اولئك الرواد الذين طالبوا بتعليم المرأة العلوم والاداب ، كما يظهر في قوله :

هل يعلم الشرقي ان حياته تعلو اذا ربى البنات وهذبا
وقضى لها بالحق دون تحكم فيها وعلمها العلوم وادبا
فالشرق ليس بناهض الا اذا ادنى النساء من الرجال وقربا

ونخرج من هذا كله الى ان الاهتمام بتعليم المرأة كان ضيقا ومحدودا حتى العقود الاولى من القرن العشرين ، وقد كان لدعوات تحرير المرأة وتعليمها الاثر الكبير في تسامح الناس في مسألة تعليم المرأة ، ذلك التسامح الذي وقف في باديء الامر عند حدود المرحلة الابتدائية ثم امتد بمرور الزمن الى المرحلة الثانوية ثم الجامعية . على ان قبول المجتمع لهذا التطور الجديد لم يأت بسهولة وبقفزة واحدة وانما مرّ بمراحل عديدة ، وهذا التطور في التعليم النسوي هو الذي سنتناوله بشيء من التفصيل .

عند قيام الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٤ ودخول الانكليز العراق خلت البلاد او كادت تخلو من مدارس البنات . ويعود السبب في ذلك لان الانكليز اولا ليسوا محتاجين الى استخدام الاناث في دوائر الحكومة . وثانيا، لانهم لا يوجد لديهم عدد كاف من المعلمات . وثالثا ، لان الناس كانوا متعصبين غير راغبين في ارسال بناتهم الى المدارس .

ولكن هذه الاسباب لم تقف حائلا بوجه المطالبة بحقوق المرأة في التعليم، حتى اضطرت سلطات الاحتلال البريطاني الى انشاء عدد من مدارس البنات، فتأسست مدرسة ابتدائية كاملة في الموصل ، واخرى في الديوانية ، وثالثة في بغداد . وفي سنوات الحكم الوطني خطا التعليم الابتدائي خطوات واسعة ، وتكشف الاحصائية (رقم ١) مقدار التطور الحاصل في مدارس البنات واعداد الطالبات الملتحقات بها حتى عام ١٩٥٨ :

احصــائية رقــم (١)

نمو المدارس الابتدائية الرسمية (١٩٢٠ ــ ١٩٥٨)

السنة	عدد المدارس	عدد البنات	الملاحظات
١٩٢١–٩١٢٠	٣	٤٦٢	
١٩٢٢–١٩٢١	٢٧	٣ر٠٤٩	
١٩٢٣–١٩٢٢	٢٩	٣ر٤٩٢	
١٩٢٤–١٩٢٣	٢٧	٣ر٥١٩	
١٩٢٥–١٩٢٤	٣١	٤ر٠٥٥	(يعود سبب هذا النقص الى اغلاق ثلاثــة مدارس خاصــة في الموصل لعجــز في الميزانية والمعلمات) .
١٩٢٦–١٩٢٥	٢٧	٤ر٠٥٣	
١٩٢٧–١٩٢٦	٢٨	٤ر٤٤٣	
١٩٢٨–١٩٢٧	٣٤	٥ر٨٧٩	
١٩٢٩–١٩٢٨	٣٩	٥ر٠٣٦	
١٩٣٠–١٩٢٩	٤٢	٦ر٠٠٢	
١٩٣١–١٩٣٠	٤٥	٧ر٠٤٦	
١٩٣٢–١٩٣١	٤٩	٨ر٨٤٥	
١٩٣٣–١٩٣٢	٦٧	١٠ر٩١٢	
١٩٣٥–١٩٣٤	٨٥	١٣ر٩٠٢	
١٩٤٠–١٩٣٩	١٤٥	٢٧ر١١٥	
١٩٥٠–١٩٤٩	١٨١	٣٥ر١٤٥	
١٩٥٣–١٩٥٢	٢٠٤	٤٥ر٦٠٠	
١٩٥٨–١٩٥٧	٢٧٤	١٠٨ر٦٠٣	

وتوضح الاحصائية المشار اليها اعلاه الزيادة السريعة في عدد مدارس البنات وطالباتها في المرحلة الابتدائية ، مابين قيام الحكم الوطني وقيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ • اما الطفرة الواضحة في عدد المدارس والطالبات عام ١٩٣٩ فلا يمكن ان نعزوها الا لنمو الشعور الوطني والقومي في العراق ابان تلك الفترة • اما الاسباب العامة لهذه الزيادة فترجع لعدة اسباب ، فمنها ما يتعلق باستقلال العراق وقيام حكومة وطنية فيه ، ومنها ما يتعلق بتقدم المجتمع العراقي نفسه وتغير نظرته نحو التعليم • فالاباء مثلا اخذوا يميلون الى تعليم

بناتهم ، ذلك لان التعليم اصبح وسيلة لضمان فرص اوسع لعمل الفتاة ، واعطاء العائلة منزلة خاصة ، فعمدت الاسر الميسورة على تعليم بناتها اولا ، ثم تبعتها الاسر الاخرى .

اما التعليم الثانوي للبنات فقد بدأ متأخرا في العراق ، اذ يرجع انشاء اول مدرسة ثانوية لهن الى عام ١٩٣٠ اي بعد اكثر من عشر سنوات على قيام اول مدرسة ثانوية للبنين . ومع ذلك فقد ازدادت مدارس البنات بصورة تدريجية واصبح في كل محافظة (لواء) مدرسة ثانوية كاملة للبنين واخرى للبنات على الاقل ، وفتحت في عدد كبير من الاقضية مدارس متوسطة للبنين واخرى للبنات ، ويشير الجدول رقم (٢) الى تصاعد عدد مدارس البنات وطالباتها .

جدول رقم (٢)

نمو المدارس المتوسطة والثانوية للبنات ١٩٣٠ — ١٩٥٨

السنة	عدد المدارس	عدد الطالبات
١٩٣٠ — ١٩٣١	١	١١
١٩٣١ — ١٩٣٢	٣	١٧٦
١٩٣٣ — ١٩٣٤	٦	٤١٧
١٩٣٥ — ١٩٣٦	٩	٥٦٤
١٩٣٧ — ١٩٣٨	١١	٩٩٣
١٩٣٨ — ١٩٣٩	١٦	١٫٩٠٩
١٩٤٦ — ١٩٤٧	٢٣	٢٫٦٩٤
١٩٥١ — ١٩٥٢	٣١	٥٫٢٥٢
١٩٥٧ — ١٩٥٨	٦٥	١٤٫٠٠٣

وبسبب الاقبال على التعليم فقد اصبحت هناك حاجة ماسة للمدرسات ، لذلك عمدت الحكومة الى ارسال بعض الطالبات للدراسة في الجامعة الاميريكية ببيروت او الى الجامعات المصرية . وفي سنة ١٩٤٥ تم افتتاح « معهد الملكة عالية » او « كلية البنات اليوم » ، من اجل تهيأة مدرسات للتعليم الثانوي . كما تم انشاء دار المعلمين العالية سنة ١٩٢٣ (وتم اغلاقها سنة ١٩٢٧) ، لتخريج مدرسين ومدرسات في نفس الوقت .

ويظهر الجدول رقم (٣) ازدياد عدد المعلمات والمدرسات في العراق .

جـدول رقـم (٣)

نمو عدد المعلمات والمدرسات (١٩٢٠ ــ ١٩٥٨) .

السنة	عدد المعلمات	عدد المدرسات
١٩٢٠	١٥	—
١٩٣٠	٢٣٧	٢٢
١٩٣٩	٨٨٦	٧٩
١٩٤٦	١ر٤١٨	١٤١
١٩٥٢	٢ر٢٣٧	٣٦٦
١٩٥٧	٤ر١٦٠	٩٥٣

وفي عام ١٩٤٢ تم انشاء اول معهد للفنون البيتية للبنات في بغداد . وقد ازداد عدد الطالبات فيه من ٥٨ طالبة عام ١٩٣٢ الى ١٣٦٣ طالبة عام ١٩٥٧ ــ ١٩٥٨ . وفي عام ١٩٥١ انشيء قسم خاص للفنون البيتية في « كلية الملكة عالية للبنات » من اجل تخريج مدرسات في معاهد الفنون البيتية وفي الاقتصاد المنزلي .

اما في التعليم العالي فقد كان مجرد تفكير الفتاة فيه يعد مغامرة خطيرة مليئة بالصعاب والعقبات ، وكان على الراغبات في اكمال دراستهن السفر الى الخارج .وجدير بالذكر انه لم يكن هناك قانون يمنع دخول الفتاة الى الكليات في بغداد ، غير ان المسؤولين عن هذا التعليم كانوا متأثرين بالرأي العام ، الذي كان ما يزال يعارض فتح ابوابه امام الفتاة .

كان عام ١٩٣٦ يمثل منعطفا خطيرا في تعليم المرأة العراقية ، اذ فتحت كلية الطب وكلية الحقوق ابوابها لقبول الفتيات فيها . حيث قبلت الاولى ثمان طالبات وقبلت الثانية طالبة واحدة، ومنذ ذلك الوقت فتحت ابواب الكليات للفتاة العراقية ومنحتها جميع التسهيلات ، واخذت الكليات تتبارى في هذا المضمـــار .

في عام ١٩٤٣ كان هناك احدى عشرة طالبة في كلية الحقوق ، واربعون في دار المعلمين العالية ، وست في كليه الطب ، وخلت كليـــة الهندسة مـــن الطالبات . اما في عام ١٩٥٢ ــ ١٩٥٣ فقد بلغ عدد طالبات كلية الحقوق خمسة وتسعين طالبة ، ومئتين واثنتين وعشرين في دار المعلمين العاليـــة ، واربعـــة في كلية الهندسة ، وثلاثمائة وتسعا واربعين في كلية الملكة عالية ، ومائة وتسعا واربعين في الاقتصاد والتجارة ، واحدى وسبعين في كلية الاداب والعلوم وسبعة في كلية الطب . وكان عدد الطالبات في الكليات العراقية عام ١٩٥٨ هو ١١٩٣ . ويعكس لنا الجدول رقم (٤) تزايد انتماء الطالبات للجامعات والمعاهد العراقية .

جـدول رقـم (٤)

نمو اعداد الطالبات في الجامعات والمعاهد العراقية ١٩٣٦ ــ ١٩٥٨

السـنة	عدد الطالبات
١٩٣٦	٩
١٩٣٧	٢٨
١٩٣٨	٣٩
١٩٤٠	٥٧
١٩٤٢	١٠٣
١٩٤٤	١٦٤
١٩٤٦	٤٢٦
١٩٤٨	٧٤٨
١٩٥٢	٩٦٣
١٩٥٤	١٢١٦
١٩٥٦	١٢٣٢
١٩٥٨	١٣٨٧

واذا امعنا النظر في هذه الارقام فاننا نصل الى نتيجة تدعو الى الدهشة والاعجاب • فهي تشير اولا الى حدوث انقلاب اجتماعي وثقافي عظيم في تعليم المرأة وتثقيفها ، وتعني من الناحية الثانية ان المرأة استطاعت ان تقف بوجه التيارات المحافظة التي وقفت بوجه تعليمها ، هذا التعليم الذي قادها الى ان تقف على قدم المساواة مع الرجل وتتبوأ مكانها الطبيعي في المجتمع •

الدعـوة لتحرير المرأة العراقيـة

السـفور والحجـاب

لقد ارتبط قبول المجتمع العراقي لمسألة تعليم الفتاة بحركة خلع الحجاب، تلك الحركة التي لم تقل ضراوة وعنفا عن سابقتها ، وذلك لوقوف كثير من القوى المحافظة في هذا الطريق ، وقاد هذا الامر الـى « معركة العراقية مع الحجاب » كما اسمته صبيحة الشيخ داود ، اولى رائدات النهضة النسوية في العراق ، ومن المساهمات في ارساء قواعدها واصولها .

فالحجاب الذي كان يعني تغطية الوجه والجسم (العباءة) بخمار اسود ، يمثل رمزا لعزلة الفتاة ، وتقييدا لعلاقاتها الجنسية ، وتصرفاتها الاجتماعية ، واستقلاليتها وحريتها ، وهو لذلك كان عثرة في طريق تقدمها . وكان الحجاب يخضع لتقاليد اجتماعية صارمة ، ولاجل طرحه جانبا كان يتوجب تغير تلك التقاليد ونظرة المجتمع اليه ، خصوصا وان السفور وفقا لتلك النظرة يعتبر امرا شائنا ومخزيا ، بل انه مجال للشك في سمعة الفتاة واخلاقها . وفي ذلك الوقت كانت كل الفتيات في سن التاسعة من العمر فما فوق يرتدين الحجاب .

بيد انه طرأ تحول تدريجي في مسألة اقدام المرأة على السفور . ففـي تقرير كتبته لجنة خاصة من المسؤولين عام ١٩٤٦ اشار الى « ان نمو التعليم بصورة متزايدة قد احدث تغيرات في العادات والتقاليد الاجتماعية . ومع ان عددا كبيرا من النساء مازلن محجبات ، ولكن الحجاب فقد اهميته ولم يعد اكثر من مجرد عادة قد يجد البعض صعوبة في نبذها » . وهكذا نلاحـظ كيف ان حركة السفور والحجاب كانت قائمة على قدم وساق مع حركة تعليم المرأة وتحريرها . والسؤال الذي يفرض نفسه هنا كيف بدأت هذه الحركة ومتى وقعت وانتهت ، ومن هم ابطالها ، سواء منهم دعاة السفور او دعـاة الحجـاب ؟

كان ذلك منذ اكثر من نصف قرن مضى ، عندما بدأت ارهاصات سفور المرأة العراقية ، بخاصة في المدينة ، اما في الريف فقد كانت العراقية وما تزال تمارس حقها الطبيعي في مشاركــة الرجل في سبل العيش المختلفة . على ان الدعوة الى السفور قد اقترنت بستادات عنيفة مــلأت اعمــدة الصحــف ، وشارك فيها كثير من الشعراء وقادة الفكر ورجال السياسة والدين . ويصح في هذا المجال قول احدى رائدات الحركة النسوية : « انني لا اعلم ان قضية هزت دنيا العراقيين وشغلت اذهانهم كالخطوة التي اقدمت عليها المــرأة في السفور ، ولا اعرف ان مسألة حظيت باهتمام صفوة المفكرين وقادة الرأي ، حتى سواد الناس ، كثورة المرأة على الحجاب » .

ولعل بعض الحوادث التي وقعت اول ايام الحكم الوطني في العــراق تكشف عن بدايات حركة السفور والحجاب . ففي عام ١٩٢٢ اقام المعهد العلمي في بغداد مهرجان شعريا عرف باسم (سوق عكاظ) ، ورأى بعضــ منظميه انتساهم الفتاة العراقية فيه . ووقع الاختيار على صبيحة الشــيخ داود ، التي كانت بسن الثامنة ، لتقوم بالقاء بعض الابيات للشاعرة العربيــة الخنساء . وقد اثار هذا الأمر انتقادات كثيرة خصوصا وان الفتاة التي وقع الاختيار عليها حفيدة الشيخ داود الذي درس السيد عبــد الرحمن النقيب ، رئيس الوزارة العراقية انذاك ، على يديه الحديث والاصول ، والذي كــان اول المعارضين لهذا الاتجاه ولم يخف تبرمه به . وقد هدد النقيب عندئــذ بالاستقالة ، الا ان هذه الفتاة قد صمدت بثبات وادت دورها بجدارة ممــا كان مثار اعجاب الحاضرين ، وان تمت الخطوة في جو من الضجة والصخب . وفي عام ١٩٢٤ اعد احتفال لاستقبال الامير غازي شاركت به مدارس البنين وشاركت فيه مدرسة واحدة من مدارس البنات وهي مدرســة البارودية ، برئاســة معزز برتــو ، مديــــرة المدرســة . ومــع ان فتيــات تلــك المدرسة اللواتي خرجن الى الشارع مرتديات زي الكشافة لا تتجاوز اعمارهن

الرابعة عشرة ، الا ان الاوساط المحافظة نددت بهذه البادرة ، واعتبرتهـا تحديا للرأي العام وللتقاليد الاجتماعية .

كان من اعنف الحملات التي شنت على المرأة انذاك قول ابراهيم ادهم الزهـاوي :

رايت في النوم ابليسـا فقلت لـه   جـند الشياطين لا تبخـل بتبيـان
فقـال مرتجـلا بيتـا اجـاد بـه   وكان مختفيـا عـن كـل انسـان
سل السفوري عمـا تستشير بـه   ان السفوري من جنـدي واعواني

وقول حسين الظريفي في قصيدة عنوانها (خلوا احتجاب الغانيـات وشـأنه) :

يريدون هتك المحصنـات وجوهها   ويرجون ان يلقوا بتلـك الستائر
اما والعلى انـي لاطـرح العلـى   اذا هي كانت في سـفور الحرائـر
وخلوا احتجاب الغانيـات وشأنـه   فنحن على ابواب خـطب كاسـر

ان هذا الاهتمام بالجدل الذي دار حول السفور والحجاب حمل مصطفى القاضي ـ من ادباء بغداد ـ علـى تصنيفه في كتاب باسـم « مختارات في السفور والحجاب » ونشره عام ١٩٢٤ . والكتاب بجملته سند تاريخي هـام يبين الصراع الدائر بين ادباء بغداد حول السفور والحجاب ، وقد ضم عشرين مقالة ، منها ست عشرة مقالة لانصار الحجاب ، واربعة فقط لانصار السفور . وكان توفيق الفكيكي ، وخليل اسماعيل ، ومحمد بهجة الاثـري ، طليعة الذين جاهروا بمعارضتهم لسفور المرأة . ويرى دعاة الحجاب « ان الفسـاد منشؤه السفور » ، وان السفور انما هو حملة من ايجاد المستشرقين لافساد الاخـلاق .

اما دعاة السفور فكانوا قلة لا يتجاوز عددهم اصابع اليد بينهم مصطفى علي ومحمود احمد السيد وسامي شوكت وحسين الرحال ، وكانت اراؤهم مستوحاة من طبيعة تطور الشعوب ونهضتها ، حيث اكدوا ، ان سنة التطور

تحتم علينا قبول مبدأ السفور وتعليم الفتاة مع الرجل جنبا الى جنب » . كما يرون بان مسألة الحجاب « انما هي عادة طارئة ، وان العادة هذه ليست عربية ... ولم يخلقها الاسلام » .

على ان الطريق في هذا النقاش العنيف انه شهد بروز عدد من الانصار ممن كتبوا باسماء مستعارة ، تحت قناع اسماء نسوية ، مدحا وتأييدا لطرح الحجاب ، او قدحا وتفنيدا لسفور المرأة . فالدكتور سامي شوكت (فتاة غسان) رد على الفكيكي ــ من انصار الحجاب ــ بقوله : «انكم تريدون ان تبقى المرأة على حالها ، متذرعين بالدين والعادات ، ولكنكم في الوقت الذي تفعلون هذا مع المرأة باسم الدين والعادات ، تجيزون لانفسكم (ما تشتهون) دون ان تخشوا في ذلك دينا او عرفا » . وينبري احد الاقلام تحت اسم « بنت الحجاب » مؤيدا الحجاب .

ولكن مهما قيل في هذه المشادة الفكرية ، فانها خدمت المرأة ، ونبهت الكثيرين الى ما لها من مطالب وحقوق .

ولعل من الانصاف ونحن نتحدث عن حملة السفور والحجاب ، الا ننسى بعض المفكرين والشعراء الذين ناصروا المرأة ، ووقفوا الى جانبها في الحصول على حقوقها ، وحشدوا اقلامهم ومواهبهم في ذلك الصراع العنيف ، بكل ما لديهم من الحجج والامكانيات ، وفي مقدمتهم جميل صدقي الزهاوي ومعروف الرصافي .

فالزهاوي كان من الرواد الاوائل الذين دعوا الى تحرير المرأة وتخليصها من الحجاب ، فهذا رأيه يزجيه في صراحة لا التواء فيها ولا ايهام في قصيدته « اسفري » التي يخاطب بها المرأة فيقول :

اسفري فالحجاب يا ابنة فهر   هو داء في الاجتماع وخيم
كل شيء الى التجدد ماضي   فلماذا يقر هذا القديم ؟

وللزهاوي قصائد عديدة حول الحجاب ، بل انه يمثل اعنف شاعر معاصر حديث يدعو الى نبذ الحجاب ونمزيقه . وهو يرى ان الحياة الحضرية تتطلب نبذ الحجاب ويطلب من الفتاة العراقية ان تمزقه دون خوف ويقول :

مزقي يا ابنـة العـراق الحجابـا واسفري فالحيـاة تبغـي انقـلابا
مزقيـه واحرقيـه بـلا ريـث فقـد كـان حارسـا كذابـا
سجنوا غير مشـفقين العـذارى في بيـوت وغلقـوا الابوابـا
وادعـوا ان في السـفور سـقوط في المهـاوي وان فيـه خرابـا
كذبـوا فالسفـور عنـوان طهر لبـس يلقـى معـرة وارتيابـا

ولم يكن المرحوم معروف الرصافي ، وهو من اعظم ارباب الفكر العربي في القرن العشرين ونصير النهضة النسوية ، اقل حماسة ولا اندفاعا في المطالبة بحقوق المرأة وتحريرها ، من صنوه الزهاوي . وها هو شاعرنا يناصر المرأة ويعاضدها كل المعاضدة في قصيدته « المرأة » وكيف ان الرجل قد شدد عليها بالحجاب وطول الاقامة في البيت بقوله : ـ

لقد غمطوا حـق النساء فشـددوا عليهن في حبس وطـول ثـواء
وقد الزموهن الحجاب وانكـروا عليهـن الا يخرجـن بغطـاء

وهكذا نرى مدى جرأة شاعري العراق وحماسهما في الدعوة الى تحرير المرأة وتخليصها من القيود ، وهي جرأة مبعثها الايمان الصادق بما يدعـوان اليه . وكان من اثر هذه الدعوات الصادقة ان تنبهت المرأة في العـراق من غفوتها ، واخذت تتطلع الى تحقيق نهضتها والحصول على حقوقها كاملة غير منقوصـة .

الصحافة النسوية

لم تقتصر الدعوة لتحرير المرأة على اقلام المفكرين والشعراء والادباء والصحفيين الرجال ، وان كانوا قد عاونوا المرأة كثيرا في هذا الامر ، بل امتدت لتشمل مساهمة المرأة نفسها في تلك المجالات ، ومن بينها ظهور المرأة في الصحافة • اذ شهد قيام الحكم الوطني في العراق نشوء عدة مجلات وصحف نسائية ، وكان نشوؤها يمثل بداية تاريخ الصحافة النسوية ، التي نجحت الى حد كبير في الدعوة لقضية المرأة وتحريرها •

تعد مجلة « ليلى » التي اصدرتها بولينا حسون في ١٥ تشرين الاول عام ١٩٢٣ اول مجلة نسوية في العراق • ونستطيع معرفة اهداف المجلة مما ذكرته صاحبتها في غلاف المجلة بالعبارة الاتية : (في سبيل نهضة المرأة العراقية) • ومع ان هذه المجلة لم تحدد هدفا معينا من وراء النهضة النسوية التي دعت اليها ، لكنها بشرت بنشر الثقافة والتعليم ، ولم تجرؤ على الدعوة الى السفور ، ووقفت موقف المتحفظ منه ، خصوصا وان قضية السفور لم تتبلور الا بعد ذلك بسنوات ، وقد توقفت المجلة عن الصدور بعد عامين من ظهورها •

لم تصدر مجلة نسائية اخرى الا عام ١٩٣٦ ، وذلك بعد مضي اربع عشرة سنة على اغلاق مجلة « ليلى » ، وتلك هي مجلة « المرأة الحديثة » التي اختفت بعد صدور ثمانية اعداد منها ، وحلت محلها مجلة «فتاة العراق» • وكان رئيس التحرير في هاتين المجلتين هو فاضل قاسم راجي ، في حين كانت سكينة ابراهيم المحررة الوحيدة في المجلة الاخيرة • وكانت الموضوعات الرئيسية التي عالجتها مجلة « فتاة العراق » هي الدعوة الى تحطيم القيود والتقاليد البالية ، والعمل على اعطاء فرص متساوية للمرأة مماثلة لتلك التي يتمتع بها الرجل• وظلت هذه المجلة تصدر نحو اربعة اعوام، وعادت الى الصدور بعد الحرب العالمية الثانية ، ولكنها اختفت بعد وقت قصير •

اما مجلة « فتاة العرب » فقد وصفت بانها « جريدة ادبية نسائية اجتماعية غايتها خدمة الفتاة العراقية » . وقد صدر العدد الاول منها في ايار عام ١٩٣٧، وكا نطابعها المميز هو دعوة صاحبتها الملحة لتعليم المرأة في الريف ، ولكن هذه المجلة لم تستمر اكثر من ستة اشهر توقفت بعدها عن الصدور بسبب الصعوبات المالية التي واجهتها .

وبعد فشل حركة مايس التحررية عام ١٩٤١ ودخول القوات البريطانية العراق، فرضت الرقابة على الصحف، وشمل هذا التقييد الصحافة النسوية، ولكن سمح لزوجة القنصل البريطاني في البصرة اصدار مجلة باسم « فتاة الرافدين » . ومنذ ذلك الحين وحتى قيام ثورة الرابع عشر من تموز عام ١٩٥٨ صدرت عدة مجلات نسائية مثل « تحرير المرأة » عام ١٩٤٦ ، و « بنت الرشيد » لدرة عبدالوهاب ، وبعدها مجلة « الرحاب » لقدس عبدالحميد ، ومجلة « الاتحاد النسائي » لاسيا توفيق عام ١٩٤٩ ، الا انها جميعا لم تساهم بشكل بارز كتلك التي صدرت في الثلاثينيات من هذا القرن .

النوادي والجمعيات النسوية

في الوقت الذي كانت الحملة لرفع مستوى المرأة العراقية وضمان حقوقها وحريتها تتصاعد باستمرار ، شقت المرأة طريقها ايضا وعملت على تأسيس المنظمات النسوية ومؤسساتها المختلفة . وتدل الشواهد على ان اصبح هناك اكثر من امر يهدف الى دعم الحركة النسوية في العراق ، وكان « نادي النهضة النسوية » الذي انشيء في تشرين الثاني عام ١٩٢٤ ، هو من بين تلك الطاقات الجديدة .

كانت الهيئة المؤلفة لهذا النادي مكونة من : اسماء الزهاوي (شقيقة الشاعر جميل صدقي الزهاوي) رئيسة ، ونعيمة السعيد نائبة الرئيسة ، وماري عبدالمسيح وزير السكرتيرة ، وفخرية العسكري ، عقيلة المرحوم جعفر العسكري ، امينة الصندوق .

واعلنت مؤسسات هذا النادي «ان الغاية المقدسة التي ترمي اليها النهضة النسوية العراقية هي ارشاد النساء والفتيات ، الى الشعور بهويتهن الحقيقية ، ومعرفة مركزهن السامي والاندفاع الى التنور والتهذيب لاصلاح احوالهن الادبية والاجتماعية ... واما النادي النسائي المنوي فتحه ، فهو المعول عليه لتعزيز هذه الغاية والتوسل بجميع الوسائل الممكنة لبلوغها » .

وقوبلت هذه الدعوة برد قوي ، اذ انقسم الناس الى فريقين قسم يؤيد الفكرة ويطلب تحرير المرأة العراقية ، وقسم اخر يعتبر ذلك مخالفا للديـن والعقائد الاسلامية ، حتى ان قسما منهم قد طلب من الحكومة التدخل لخنق هذه الدعوة ، متعللا بان السفور يغزو البلاد .

بدأ النادي اعماله بالتركيز على الامور التالية :

١ ـ فتح دورة لتعليم الاميات .

٢ ـ القيام بتربية وتعليم عدد من اليتيمات .

وبهذا يكون النادي اول هيأة نسوية عراقية ، تشارك عضواته في خدمة العشرات من بنات هذا البلد وتوجيههن التوجيه الصحيح . بيد ان الضغط والهجوم اخذا يزدادان يوما بعد يوم على النادي واعضائه ، حتى اوصـدت ابوابـه .

لم يطرأ تحول على نشاط الجمعيات النسوية في العراق حتى الثلاثينيات من القرن العشرين، حيث شهدت هذه الفترة وماتلتها ظهور عدد من الجمعيات التي اتخذت لنفسها اهدافا ومسارات مختلفة . ولعل الصفة البارزة لهـذه الجمعيات هو اقتصارها على الاهتمام بالنواحي الاجتماعية اكثر من النواحي السياسية كانشاء المستشفيات والمياتم ومدارس التمريض وما شابهها . وكـان من بين هذه الجمعيات الفرع النسوي لجمعية الهلال الاحمر الذي اسس عام ١٩٣٣ وبقي حتى عام ١٩٤٥ ، وجمعية بيوت الامة التي اسست عام ١٩٣٥ ،

وجمعية مكافحة العلل الاجتماعية التي انشئت عام ١٩٣٧ • ووجد عدد من الجمعيات النسوية ذات الصفة الدينية كجمعية الاخت المسلمة ومثلها الجمعيات النسوية المسيحية •

واعقب ذلك بروز عدد من الجمعيات النسوية التي اصطبغت بطابع سياسي ، كجمعية مكافحة النازية والفاشستية التي انشئت عام ١٩٤٣ ، وقد تحولت فيما بعد الى (جمعية الرابطة النسوية) ، وقد نجحت هذه الجمعية بتأسيس مجلة دعتها « تحرير المرأة » • وكان هدف هذه الجمعية هو رفع مستوى المرأة الثقافي عن طريق المحاضرات العلمية والادبية وانشاء مراكز مكافحة الامية لتعليم الاميات وتوجيههن ، الا ان هذه الجمعيات ضعفت بمرور الزمن وانحلت •

على ان اكثرالجمعيات النسوية دواما ونشاطا هو (الاتحاد النسائي العربي المعقود في القاهرة في ذلك العام • ووضع نصب عينيه الاخذ بيد المرأة في المجالات الاتية :

١ ــ توثيق الروابط التعاونية بين الجمعيات النسوية المختلفة في العراق •

٢ ــ توثيق الروابط الثقافية والاجتماعية والقومية معالجمعيات النسوية في اقطار الوطنالعربي •

٣ ــ توثيق جهود نساء العراقلرفع مستوىالمرأة العراقية صحيا واجتماعيا ومدنيا وشرعيا واقتصاديا •

وقد كان تأسيسه مبنيا على اشتراك ثلاث عضوات من كل جمعية تنتدبهن الهيئة الادارية لتمثيل تلك الجمعية في الاتحاد النسائي • ثم تنتخب من كل هؤلاء الهيئة الادارية للاتحاد وتتكون من الرئيسة ونائبةالرئيسة والسكرتيرة وامينة الصندوق •

وقام الاتحاد النسائي بنشاطات ثقافية واسعة عن طريق اقامة المحاضرات والمواسم الثقافية ،التي تهدف الى توسيع افق المرأة ورفع مستواها الثقافي • وعدا ذلك فقد بذل الاتحاد جهودا اخرى في حقول مختلفة مثل المطالبة بحقوق المرأة السياسية والشرعية ، ووفق في كثير من تلك الجهود •

الا ان الاتحاد توقف عن نشاطه كمؤسسة تجمع الهيئات النسوية ، منذ صدور مرسوم تأليف الجمعيات لعام ١٩٥٤ ، الذي حظر ادماج جمعيتين او اكثر ، ولكن بعض المشتغلات في الحركة النسوية ما لبثن ان حصلن على رخصة بتأليف جمعية بأسم (الاتحاد النسائي) برئاسة اسيا توفيق وهبي •

وعلى اية حال ، فقد كان لهذه الجمعيات جميعها ، فضل لا ينكر على قضية المرأة العراقية ، سواء بما كانت تسديه من خدمات اجتماعية وثقافية ، او تطالب به حقوق شرعية وسياسية •

المؤتمرات النسوية

لم تقتصر نشاطات المرأة العراقية من اجل نهضتها على المجال القطري فحسب بل انها نقلت جهودها الى مجال المؤتمرات والمحافل الدولية تشارك فيها وتشرح وجهات نظرها ، وتبرهن على انها لا تقل شاوا ولا شأنا عن اخواتها في الاقطار الاخرى • وقد افادت المرأة العراقية كثيرا من هذه المؤتمرات ، وذلك من خلال الوقوف على المشكلات الاجتماعية التي تواجهها المرأة ، وتلمس الحلول لها ، وبالتالي ابراز مقومات نهضتها الحديثة •

ومما يستوقف النظر ان هذه المؤتمرات النسوية تمشت مع سير الحركة النسوية وانتقلت اغراضها بمرور الزمن ، من البحث حول القضايا الخلقية وتربية الاطفال والعناية بالامومة ، الى الاهتمام بالحقوق السياسية والدستورية والمشاركة في الحياة العامة والدفاع عن مصالح المرأة • ويبدو هذا التحول السريع اكثر وضوحا في المؤتمرات التي عقدت بعد الحرب العالمية الثانية ،

بخاصة المؤتمر النسائي العربي الاول الذي عقد في القاهرة عام ١٩٤٤ ، وتناول بعض القرارات الاساسية الرامية الى المطالبة بحقوق المرأة كمواطنة لها ما للرجل وعليها ما عليه .

كان المؤتمر النسائي الشرقي الذي انعقد في دمشق عام ١٩٣٠، اول مجمع نسوي تشارك فيه المرأة العراقية ، وقد مثلت العراق في هذا المؤتمر كل من امينة الرحال وجميلة الجبوري .وقد تناولت بحوث المؤتمر مسائل عديدة تتعلق بقضية المرأة العراقية والقت امينة الرحال كلمة باسم المرأة العراقية نالت الاعجاب والاستحسان ، وذلك لما تضمنته من نظرة بعيدة المدى حيث اكدت على « ان واجب المرأة اليوم هو غير المنازعة مع الرجل بل المطالبة بمناصرة الرجل العربي في جهاده ليصل الى الغاية التي يرمي اليها » .

وبعد سنتين من ذلك انعقد المؤتمر النسائي في بغداد ، وكان انعقاده يمثل مرحلة جديدة من تاريخ الحركة النسوية في العراق ، ذلك لان الدعوة اليه كانت تتجاوب مع الاقبال المتزايد على نشر التعليم النسوي ، ووضوح الحركة الرامية للانتقال من الحجاب الى السفور .

ولعل من اهم المؤتمرات واكثرها تأثيرا في تاريخ الحركة النسوية العربية عامة ، والعراقية خاصة ، هو (المؤتمر النسائي العربي الاول) ، الذي عقد في القاهرة عام ١٩٤٤ ، ذلك لانه يمثل اول محاولة لتنسيق جهود المرأة العربية، والعمل على تقرير حقوقها المدنية والسياسية .

وقد مثل العراق في هذا المؤتمر وفد برئاسة نظيمة عقيلة تحسين العسكري ، وممثلات عن الجمعيات النسوية انذاك. واشارت رئيسة الوفد العراقي في كلمتها الى ان في « العراق وثبة نسوية كبيرة تجلت اثارها في جميع نواحي الحياة القومية ، وتركت اعظم تأثير في تطور النهضة العراقية في العشرين

سنة الماضية . فقد وقفت المرأة الى جانب الرجل في السراء والضراء ، وسارت معه كتفا الى كتف في جميع الاعمال الوطنية التي قامت في العراق » .

وتتجلى اهمية المؤتمر في القرارات التي توصل اليهـا والتي تضمنت الاتـي : ــ

١ ــ مطالبه الحكومات العربية بالعمل على المساواة بالتدريج بين المرأة والرجل في الحقوق السياسية ، وعلى الاخص في ان تَنْتَخِب وتُنْتَخَب .

٢ ــ مطالبة الحكومات العربية بتعيين المرأة في الوظائف التي يشغلها الرجل المتساوي معها في الشهادات والمؤهلات .

٣ ــ الموافقة على مقررات في الحقوق المدنية والشرعية تقوم على اساس تعديل قوانين الاحوال الشخصية ، وفي الثقافة والتعليم على اساس نشر التعليم.

وعلى هذا يعتبر المؤتمر المذكور بمثابة نقطة تحول في حياة المرأة العربية ، ذلك لانه ابرز اهم المطالب التي سعت اليها المرأة في حركتها ابان النصف الاول من القرن العشرين ، والتي لم يكن من السهولة التحدث عنها بهذا الشكل .

حقوق المرأة الشرعية والسياسية

اذا كانت الحركة النسوية في العراق قد ابتدأت مسيرتها في مطلع القرن العشرين بالمطالبة بحق المرأة في التعليم ، والتخلص من العـادات والتقاليـد الاجتماعية البالية المتمثلة بالحجاب ، فانها امتدت في منتصف هذا القرن وما تلاه لتشمل الحصول على كافة حقوقها الشرعية والسياسية ، ويعكس هذا الامر طبيعة التطور الذي طرأ على الحركة النسوية نفسها .

الحقـوق الشرعية

تتساوى المرأة العراقية من الناحية الشرعية مع الرجل . اذ ان لها حق التملك والتصرف بملكيتها دون الحاجة للحصول على موافقـة والدهـا او زوجها في ذلك .كما ان بامكانها ادخار ما تحصل عليه ، او صـرفه حسبما

تشاء • ووفقا للشريعة (التي تمثل المصــدر الرئيسي للدساتير العراقيــة) ، فان للمرأة حقوق متساوية مع الرجل باستثناء الارث ، وفي الشهادة والطلاق ، ففي الارث فان نصيب المرأة هو نصف نصيب الرجل، وفي الشهادة فان صوت امرأتين يعادل صوت رجل واحد، وليس للمرأة حق في تطليق زوجها • وعلى العموم ، فقد كان للمرأة العراقية ، منذ العهود الاسلاميه الاولى وحتى عهود السيطرة الاجنبية المغولية وما اعقبها من اقوام اخرى ، كان لها حقوقها الشرعية التي لم تحصل عليها معظم النساء في الاقطار الغربية ا لا في القرن العشرين ، وبعد كفاح طويل ومرير • وخلال هذه العصور الاخيرة فقدت المرأة العراقية كثــيرا من حقوقها الرئيسية ، بسبب ما لحق بها من اهمال وتقييد كبيرين ، فكان هناك بون شاسع وهوة سحيقة بين الرجل والمرأة ، اصبحتا هدفا اساسيا من اهداف الحركة النسوية في العراق •

وقد سبق ان اشرنا الى ان زيادة عدد المتعلمات في العراق وانشاء المنظمات النسوية ، واشتراك المرأة في المؤتمرات والمحافل الدولية ، جعلها تتقــدم في المطالبة بحقوقها الشرعية • من ذلك مطالبة المرأة العربية ، ومن بينها العراقيه ، في المؤتمر العربي الاول عام ١٩٤٤ • بتعيين المرأة في الوظائف التي يشغلهــا الرجل المتساوي معها في الكفاءات ، والدعــوة لتعديل قوانــين الاحــوال الشخصية • وقد اصبح هذا الامر نقطة انطلاق العراقية في المؤتمرات اللاحقة •

الحقوق السياسية

مما تجدر الاشارة اليه ، ان المرأه العراقية لم تتخلف عن مشاركة الرجل في المظاهرات والانتفاضات الوطنية ضد السيطرة الاستعمارية التي فرضت على العراق بعد دخول الانكليز اليه عام ١٩١٤ ، ويظهر دورها واضحا في ثورة ١٩٢٠ ، وانتفاضة بورتسموث ١٩٤٨ ، وفي ادانة العدوان الثلاثي على مصــر ١٩٥٦ وفي ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ •

ومع ازدياد المطالبة بحقوق المرأة فقد ازدادت مطالبتها بحقوقها السياسية وطغت على ما عداهـا من القضايـا الاجتماعية • ولا نعدو الواقـع حـين نقول ان العراقية احاطت بهذا الهدف منذ تأسيس الحكم الوطني ، وكانت اول صيحة بهذا الشأن هي التي اطلقتها الصحفية بولينا حسون عند اجتماع اول مجلس تأسيسي عراقي ، وذلك في مقالة نشرتها في عدد اذار ١٩٢٤ من مجلة « ليلى » التي كانت تصدرها يومذاك حيث قالت :

« ان نجاح النهضة النسوية الناشئة منوط بغيرتكم وشهامتكـم ايهـا الرجال الكرام ، ولا سيما انتم الذين تحملتم اعباء مسؤولية تأسيس الحيـاة الديمقراطية العراقية على قواعد عصرية راسخة ، والحياة ، وانتم تعلمون انها ليست حق الرجل فقط » •

ومما يلفت النظر، ان الدستور العراقي من الناحية النظرية لم يحرم المرأة العراقية ان تكون ناخبة ، ولم ينص على سلب هذا الحق منها ، بل انه اثبت ذلك في المادة الثامنة عشرة ، بما نصه :

« العراقيون متساوون في التمتع بالحقوق المدنية والسياسية وفيما عليهم من الواجبات والتكاليف العامة » • وكما ضمن القانون الاساسي هذين الحقين للرجل فقد ضمنها للمرأة على حد سواء ، وبهذا لم يجر التفريق بين المرأة والرجل في الحقوق السياسية ، و لا في الحقوق المدنية • ولكن من الناحيـة العملية لم تجر اي محاولة لضمان حقوق المرأة ، خلال الفترة موضوعة البحث • وقد قاد هذا الامر الى اشتداد مطالبة المرأة بحقوقها السياسية كلما وجدت الفرصة مناسبة لذلك • ومع ان المرأة نادت بمثل هذه المطالب في المؤتمرات والمحافل الدولية، الا انها قامت عام ١٩٥٢ برفع مذكرة الى الحكومة، بواسطة الاتحاد النسائي العراقي جاء فيها :

« اننا نطالب بالحاح بان تعترف الحكومة العراقية بمساواة المرأة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا للرجل ، وخاصة انها بالنظر للتكاليف وللضرائب وللقوانين بما فيها الدستور مساوية للرجل بالتكاليف والواجبات فلها الحق بالمطالبة بالمساواة في الحقوق ان تسرع بسن التشريعات المحققة لهذا الطلب والمؤيدة له » .

في اذار ١٩٥٨ اعلنت الحكومة العراقية عن نيتها في اصدار مباديء جديدة يقتضيها تطور العراق السياسي والاجتماعي ، ومن ذلك منح المرأة العراقية الحقوق السياسية . وفي هذا الصدد كان الاتحاد النسائي العراقي قد قدم مذكرة في شباط ١٩٥٨ عن طريق هيئته الادارية برئاسة اسيا توفيق وهبي ، ضمنها المطالبة بحقوق المرأة السياسية ومما تضمنته المذكرة القول : « ان الاتحاد النسائي العراقي يطالب بمنح المرأة العراقية حق ممارسة حقوقها كناخبة ومنتخبة ... » . وهكذا اصبح للمرأة العراقية حق ممارسة حقوقها السياسية التي منحتها الدساتير ممارسة فعالة . وذلك في عام ١٩٥٨ بعد ان حرمت من ذلك وقتا طويلا .

وهنا لابد من ان نذكر موقف الاحزاب والهيئات السياسية في العراق من مكانة المرأة وحقوقها . ففي الوقت الذي تجاهلت فيه الاحزاب التي تشكلت في السنوات الاولى من الحكم الوطني مطالب المرأة وحقوقها ، مثل حزب التقدم وحزب الامة وحزب الشعب والحزب الوطني ، نرى انه لم يخل منهاج لحزب من الاحزاب التي نشأت بعد الحرب العالمية الثانية من الحث على انصاف المرأة ، باعتبارها نصف الامة المشلول تارة ، وباعتبارها اساس الامة وخليتها الاولى تارة اخرى .

ففي منهاج حزب الاتحاد الدستوري ، الذي كان يترأسه نوري السعيد، اعلن الحزب بانه « ينظر الى المرأة احد ركني الاسرة ، ويحرص على تهيئة

ما يكفل بتثقيفها واعدادها لان تكون ربة بيت فاضلة وصالحة ، وعضوا نافعا في المجتمع » •

لكن حزب الاستقلال ، بزعامة محمد مهدي كبة ، ذهب الى ابعد من ذلك حينما اذاع بانه « لضمان تمثيل الشعب تمثيلا صحيحا ، يرى الحزب وجوب الاخذ بنظرية التصويت العام الذي لا يتقيد الا بمبدأ الرشد السياسي ، ويرى الحزب ان للمرأة المتعلمة من الرشد السياسي ما يؤهلها لان تكون ناخبة » •

على ان المناداة بهذه الحقوق المبدئية للمرأة جاءت في ادبيات حزب البعث العربي الاشتراكي وفي دستوره الصادر عام ١٩٤٧ ، حيث نصت المادة الثانية عشرة منه على ان « المرأة العربية تتمتع بحقوق المواطنة كلها » واكد على ان « الحزب يناضل في سبيل رفع مستوى المرأة لتصبح جديرة بتمتعها بهذه الحقوق » •

وعلى ضوء هذه النظرة ، فان المسألة ليست مسألة شكلية تتوقف على الاعتراف القانوني بحقوق المرأة ــ كما هو الحال في برامج الاحزاب السابقة ــ بل هي مسألة جوهرية تتعلق ببعث المرأة العربية كجزء من بعث الامة •وقد اخذ الحزب على عاتقه القيام بهذه المهمة من اجل تحرير حقيقي جوهري للمرأة العربية حتى تكون جديرة بممارسة حقوقها •

حقوق العمل

عندما سارت المرأة شوطا بعيدا في نهضتها ووقفت على قدم المساواة مع الرجل في مجال التعليم ، فقد اصبحت تواكبه في ميدان العمل ايضا ، وكان هذا ايذانا بوضع المرأة على ابواب عهد جديد قائم على المساواة في مجالات الحياة المختلفة •

في البداية كانت الاعمال التي اقبلت عليها المرأة محدودة ، واقتصرت على التعليم في مراحله الاولى ، لانه في نظر كثير من العوائل العراقية انـذاك احسن ما يلائم الفتاة في هذا الدور من دخولها في الحياة العملية • ولكن المرأة اخذت تنافس الرجل في مختلف دروب الحياة ، وصارت تمارس الاعمال التي كانت تعد حكرا للرجل مثل الاشتغال في الوظائف الحكومية ، او العمل في الطب والمحاماة والهندسة والفن •

ففي الطب مثلا كان هناك طبيبة واحدة عام ١٩٣٩ ، ثم اصبح عددهن ١٧ عام ١٩٤٤ ، وتضاعف العدد الى حوالي ١٩٧ عام ١٩٦٤ • وفي مدارس التمريض كان عدد العاملات فيه عام ١٩٣٥ هو ١٢ ممرضة ، في حين اصبح عددهـن عام ١٩٥٧ بحدود ٧٣٢ •

ويكاد يخلو مصرف من المصارف العراقية في بغداد والمدن الاخـرى من جهود ظاهرة للمرأة كسكرتيرة او موظفة في اقسام الحسابـات • وان وجودهن ظاهر للعيان في مختلف فروع الصناعة وفي مضامير العمل الاخرى •
وبحكم النتائج السابقة فقد نص قانون العمال رقم ٢ لسنة ١٩٣٦ المعدل لسنة ١٩٤٢ على مساواة المرأة بالرجل من حيث الحقوق العامة • فالمرأة وفقا لهذا التشريع تتمتع كالرجل بكافة حقوقها سواء من حيث ساعات العمل او من حيث الاجور التي تتقاضاها في مقابل عملها •

وهكذا يتبين لنا مدى النضال الطويل الذي خاضته المرأة في سبيل تحقيق اهدافها وحقوقها المشروعة ، تلك الحقوق التي كانت مثارا للصراع والجـدال خلال النصف الاول من هذا القرن • الا ان التطورات العديدة التي شملت الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية قد جعل حصول المرأة على مثل تلك الحقوق امرا لا يمكن التغاضي عنه وكانت نهضة المرأة وحركتها تمثل صورة حية لتلك التطورات ، وهي التي عكست كل مجالات اخفاقها ونجاحها •

المصادر والمراجع

العربيـة :

احمد ، الدكتور ابراهيم خليل ، تطور التعليم الوطني في العراق ١٨٦٩–١٨٣٢ (مطبعة جامعة البصره ، ١٩٨٢) .

بيرك ، جاك ، العرب تاريخ ومستقبل تعريب خيري حماد (الهيئه المصريه العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٧١) .

التعليم النسوي في العراق بين الامس واليوم ، مجلة المعلم الجديد . الجزء الاول والثاني ، السنة السابعة عشرة (ايلـول ، ١٩٥٣) ، من ص ٣ – ٧ .

الجابري ، علي حسين ، الحلقة الدراسيه المنعقدة في السليمانية تحت شـعار « العلم لرسم معالم المراة العراقية » (١٩٧٨) .

داود ، صبيحة الشيخ ، اول الطريق الى النهضـة النسـوية في العراق (مطابع الرابطة ، بغداد ، ١٩٥٨) .

الدربندي ، عبدالرحمن سليمان ، المراة العراقيه المعاصرة ج١ (بغداد د . ت) .

رضا ، د. محمد جواد ، التعليم الثانوي (مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٦٦) .

الزيدي ، د. عباس ياسر ، صفحات مطوية من تاريخ المراة في العراق ، مجلـة بين النهرين ، العدد ١٧ (١٩٧٧) من ص ٤٧–٥٣ .

الزيدي ، د. عباس ياسر ، دراسات عن المراه في الخليـج العربي في بحـوث الندوة العلمية العالمية الثالثة لمركز دراسات الخليج العربى « الانســان والمجتمع في الخليج العربي » (بغداد ، ١٩٧٩) .

الصفواني ، سلمان ، قضية المراة العراقية ، مجلـة الشباب ، السنة الاولـى العدد ٣ (نيسان ، ١٩٢٩) من ص ٨٥ – ٨٨ .

طبانة ، بدوي ، أدب المراة العراقية في القرن العشـرين (دار الثقافة ، بيروت ط٢ ، ١٩٧٤) .

العباسي ، خضر ، تحرير المراة العراقية بين شاعرين الزهاوي والرصافي : تاريخ الحركة النسائية في العراق (بغداد ، د . ت) .

عبدالغني ، همام ، الاتحاد العام لنساء العراق ترجمة لاهداف الثوره في العمل والابداع (بغداد ، ١٩٨٠) .

العبيدي ، غانم سعيد ، التعليم الاهلي في العراق بمرحلتيه الابدائية والثانوية تطوره ومشاكله (بغداد ، ١٩٧٠) .

عقراوي ، الدكتور متي ، نمو المعارف العراقية في خمس عسره سنة ، مجلة المعلم الجديد ، السنة الاولى ، العدد الثاني (حزيران ، ١٩٣٥) من ص ٢٠١ — ٢١٥ .

عقراوي ، الدكتور متي ، نمو التعليم العراقي في خمسين عاما ، مجلة العاملون في النفط ، العدد ٦٢ (ايار ، ١٩٦٧) .

العمري ، خيري ، حكايات سياسية في تاريخ العراق الحديث (دار الهلال ، ١٩٦٩) .

الغنام ، محمد احمد ، مستقبل التعليم الثانوي في العراق (بغداد ، ١٩٦٦) .

غوديو ، اميليو ، ثورة النساء في الاسلام (دار الروائع ، بيروت ، د. ت) .

فرح ، الدكتور الياس ، المرأة في فكر ونضال حزب البعث العربي الاشتراكي (المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٦) .

محي ، الدكتور ابراهيم عبدالله ، مشكلات المرأة في البلاد العربية (مطبعة الرابطة ، بغداد ، ١٩٥٨) .

المفرجي ، احمد فياض ، المرأة في الشعر العراقي الحديث (مطبعة الجامعة ، بغداد ، ١٩٥٨) .

الهلالي ، عبدالرزاق ، تاريخ التعليم في العراق في عهد الاحتلال البريطاني ١٩١٤— ١٩٢١ (مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٧٥) .

اليوزبكي ، سلمى محمد علي ، مشكلات تعليم المرأة على المستوى الجامعي ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة بغداد ١٩٧٠—١٩٧١ .

الانكليزية :

Berque, Jacques, The Arabs : their history and Future, translated by Jean Stewart (Faber and Faber, London, 1964).

Ingrams, Doreen, The Awakened : Women in Iraq (Third World Center London and Beirut, 1983).

Al-Kassir, Maliha Awni The Women's status in Modern Iraq (Baghdad, 1965).

Al-Qazzaz, Ayad, Current status of research on Women in the Arab World, **Middle Eastern Studies**, Vol. 14, No. 3 (October, 1978).

البحث السادس

الصحافة العراقية

١٩١٤ ـ ١٩٥٨

د . ابراهيم خليل احمد

كلية التربية ـ جامعة الموصل

لطباعة ١٩١٤ ـ ١٩٥٨

اشرنا فيما سبق الى ان تاريخ الصحافة في العراق ارتبط ارتباطا وثيقا بحركة الطباعة ، وتتبعنا في جزء سابق نشأة الطباعة في العراق واثارها . ولقد توالى انشاء المطابع خلال الفترة من ١٩١٤ حتى ١٩٥٨ . فبعد الاحتلال البريطاني للعراق (١٩١٤ ـ ١٩١٨) استولت سلطات الاحتلال على كافة المطابع للاستفادة منها في اغراضها العسكرية والمدنية . كما انشأت مطابع رسمية خاصة بها ، منها مطبعة الحكومة التي تأسست في نيسان ١٩١٧ في بغداد وعين لها مدير انكليزي اسمه (ويكفورد) كان يعمل في البصرة منذ احتلالها سنة ١٩١٤ .

وفي الموصل أعاد الانكليز مطبعة نينوى لصاحبها الذي اخذ يطبع فيها مجلة النادي العلمي وجريدة صدى الجمهور ، هذا فضلا عن طبعه المطبوعات

التجارية واغلفة السكاير • ويشير الدكتور خليل صابات في كتابه : « تاريخ الطباعة في الشرق العربي » المنشور بمصر سنة ١٩٦٦ الى ان صاحبها ابراهيم الكواز اشتهر بفن الحفر والذوق السليم ، مما رفع شأن مطبعته وجعلها تتبوأ المركز اللائق بها بين مطابع العراق •

وبعد تشكيل الحكومة العراقية ، شهدت الطباعة تطورا كبيرا ، وذلك لتنامي الوعي القومي والوطني ووجود رغبة جامحة لدى العراقيين للنهوض ببلادهم ورفع مستواها • لذلك فقد تأسست مطابع عديدة في مختلف انحاء العراق منها على سبيل المثال مطبعة العراق التي تأسست سنة ١٩٢١ وصاحبها رزوق غنام ، ومطبعة الاستقلال التي تأسست سنة ١٩٢١ كذلك وصاحبها عبدالغفور البدري ، والمطبعة الحيدرية التي تأسست في كربلاء سنة ١٩٢٢ وصاحبها محمد كاظم الكتبي ، ومطبعة الفرات التي تأسست في بغداد سنة ٩١٢٣ وصاحبها رشيد الصفار، ومطبعة الشعب التي تأسست في الموصل سنة ١٩٢٦ ، وصاحبها عزيز الياس ، ومطبعة التفيض التي تأسست في بغداد سنة ١٩٢٧ وكانت تابعة لمدرسة التفيض الاهلية ومطبعة الهدى التي تأسست في العمارة سنة ١٩٢٩ وصاحبها عبدالمطلب الهاشمي •

وخلال عهد الانتداب عرفت مطابع العراق (اللاينو تايب) والمحركات الكهربائية ، بعد ان كانت تدار بالمحركات البخارية • ولكن مستوى الفن الطباعي لم يرتفع كثيرا ويعود ذلك الى عدم اهتمام السلطات الحاكمة انذاك بارسال البعثات العلمية لتطوير هذا الفن • ومع هذا فقد سعى بعض اصحاب المطابع الى تطوير مطابعهم • ويمكن الاشارة في هذا الصدد الى ان حسين علي العاني مدير مدرسة التفيض هو اول من ادخل مطبعة اهلية حديثة من طراز (لاينو تايب) الى العراق وذلك سنة ١٩٣٧ • ويقول سليم طه التكريتي في مقاله الموسوم « التفيض اول مطبعة (لاينو تايب) اهلية في العراق » المنشور في مجلة الطباعة ، العدد (١٠) ، ١٩٨٠ الى ان مطابع (اللاينوتايب)

لم تكن قد وصلت الى العراق الا من قبل مطبعة الحكومة سنة ١٩٣٥ • وكانت مطبعة التفيض تستورد ورقها من السويد مباشرة ويضيف ان المطبعة وصلت بغداد اوائل سنة ١٩٣٨ وتولى السيد ابراهيم هايس نصبها • وقد التزمت المطبعة ، فضلا عن الكتب التي دفع بها بعض الكتـاب والادباء والمؤلفين العراقيين ، بمسؤولية طبع عدد كبير من الكتب المدرسية لحساب وزارة المعارف (التربية) • وقد الحق بمطبعة التفيض قسمين واسعين احدهما للتجليد والاخر للزونكغراف • وتولى ادارة المطبعة بعد وفاة حسين العاني الاستاذ فؤاد درويش •

والى جانب مطبعة التفيض تأسست مطابع اخرى منها مطبعة المعارف التي تأسست في بغداد سنة ١٩٣٠ وصاحبها عبدالكريم فدوري • ومطبعة الاهالي لصاحبها عبدالقادر اسماعيل وتأسست سنة ١٩٣١ ، ومطبعة ام الربيعين في الموصل وتأسست سنة ١٩٣٢ وصاحبها ابراهيم الجلبي • ومطبعة زاري كرمانجي وتأسست في اربيل سنة ١٩٣٥ لصاحبها حسين حزني مكرياني • ومطبعة زاهد وتأسست في بغداد سنة ١٩٣٧ وصاحبها عبدالكريم زاهد ، ومطبعة التمدن التي تأسست في بغداد سنة ١٩٣٩ وصاحبها محمد صالح الاعظمي ، والمطبعة الشرقية الحديثة التي تأسست في الموصل سنة ١٩٣٩ وصاحبها اسطيفان فتح الله •

وكان لقيام الحرب العالمية الثانية تأثير على حركة الطباعة في العراق ، بسبب انقطاع ورود الالات الطباعية الجديدة ، وندرة قطع الغيار ، وارتفاع اسعار الورق • ولكن اصحاب المطابع استطاعوا تجاوز الازمة وتمكنوا من تلبية الطلبات المتزايدة التي انهالت على مطابعهم • ومما أورده الدكتور خليل صابات في مقدمة كتاب تاريخ الطباعة في العراق : لشهاب احمد الحميد ، الجزء الاول ، الصادر في بغداد سنة ١٩٧٦ نرى بان عدد المطابع التي تأسست

خلال الحرب ، بلغ ثماني عشرة مطبعة ، اربع عشرة منها في بغداد، وواحدة في البصرة واثنتان في كربلاء وواحدة في الموصل .

وما ان وضعت الحرب اوزارها حتى توالى انشاء المطابع . ولعل من ابرز المطابع التي ظهرت في هذه المرحلة مطبعة الرابطة التي اسستها جمعية الرابطة الثقافية سنة ١٩٤٤، وقد عرضت اسهمها على اعضاء الجمعية، واشترت مطابع حديثة كان مقرها في منطقة الصرافية اي في بنايـة دار الجمـاهير الحالية في بغداد . وقد تولت المطبعة طبع مجلة الرابطة ، الى جانب ذلك قامت بنشـر الكثير من الكتـب .

وفي ١٩٤٤ انشأ جعفر حمندي شركة النشر والطباعة العراقية المحدودة ببغداد . وكان الغرض من انشائها توسيع حركة النشر . وفي ٢١ تشرين الثاني ١٩٤٥ اسس المحامي انور شاؤول شركة التجارة والطباعة المحدودة وتولت المطبعة طبع مجلتي « القضاء » و « غرفة التجارة » . وفي ١٩٤٨ انشأ موسى حبيب مطبعة بغداد . وفي ١٩٤٩ تأسست مطبعة الاوقات العراقية وكانت تعد من اكبر مطابع بغداد واحدثها . وفي ١٩٥٠ تأسست في بغداد مطبعة شفيق لصاحبتها مريم داؤد وفي ١٩٥٢ اسس شمس الدين الحيدري مطبعته في بغداد وفي ١٩٥٦ تأسست مطبعة الحرية لصاحبها قاسم حمودي وفي ١٩٥٧ تأسست مطبعة البلاد لصاحبها انيس روفائيل بطي .

وفي الموصل تأسست مطبعة الاتحاد سنة ١٩٤٩ وكان اصحابها خليل وعبدالاحد ابراهيم ومتي ابراهيم ومحمود فوزي الغلامي . ثم اصبح اسمها بعد ذلك مطبعة الاتحاد الجديدة . وفي ١٩٥٤ اسس سـالم الحصان مطبعة الحصان . كما اسس خليل ابراهيم مطبعة الخيام سنة ١٩٥٦ .

اما في البصرة فقد تأسست مطابع عديدة منهـا مطبعـة الجمهور التي تأسست سنة ١٩٤٨ وكان صاحبها عزالدين الريس و مطبعة الناس وتأسست

سنة ١٩٥٢ وصاحبها عبدالقادر السياب ومطبعة المنار وتأسست سنة ١٩٥٤ لصاحبها عبدالعزيز بركات .

وتأسست في بعض المدن العراقية الاخرى مطابع عديدة منها المطبعة الحيدرية في كربلاء التي يرجع تأسيسها الى سنة ١٩٢٢ وكان صاحبها محمد كاظم الكتبي ومطبعة (چين) وتأسست في السليمانية سنة ١٩٣٧ وصاحبها الحاج توفيق ومطبعة الرشيد وتأسست في العمارة سنة ١٩٤٧ وصاحبها الحاج جابر رشيد ومطبعة الترقي وتأسست في كركوك سنة ١٩٥٤ وصاحبها محمد امين ومطبعة الفرات وتأسست في الكوت سنة ١٩٥٦ وصاحبها نجم مهدي صالح .

وبعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ زاد الاهتمام بالتعليم ونشطت حركة الثقافة والفكر وازداد الاقبال على المطبوعات وكثر عدد الصحف والمجلات ، فكان لذلك اثره على الطباعة التي شهدت بحق نهضة مباركة .

الصحافة العراقية في عهدي الاحتلال واوائل الانتداب البريطاني ١٩١٤ ـ ١٩٢٠

سيطرت سلطات الاحتلال البريطاني خلال الفترة الواقعة ١٩١٤ ـ ١٩٢٠ م على الصحافة واوهمت الناس بانها تروم بث الفكرة العربية القومية وخدمة اللغة العربية وتثقيف الشعب ومن يراجع الصحف التي اصدرها الانكليز في العراق يجدها قاطبة تكيل المدح والاطراء لقوات الاحتلال اذ جعلت منهم أساطين عدل ورواد حرية ومن ناحية اخرى تلقي مسؤولية ماحدث في العراق من تخلف واضطهاد وكبت للحريات على عاتق الدولة العثمانية . ولعل من أبرز الصحف التي صدرت في عهدي الاحتلال واوائل الانتداب ، جريدة الاوقات البصرية وجريدة صدى الحقيقة وجريدة العرب في بغداد وجريدة

الاوقات البغداديه وجريدة الموصــل وجريدة العراق وجريدة الشــرق كما صدرت مجلات باسم دار السلام في بغداد والنادي العلمي في الموصل ومرآة العراق في البصــره •

جريدة الاوقات البصرية

اقدمت سلطات الاحتلال البريطاني في باديء الامر على اصدار نشرة يومية باللغتين العربية والانكليزية تحمــل برقيات رويتر تذيــع فبها اخبار الجبهات العسكرية الاانها شــعرت بضرورة اصدار جريدة تروج لسياســة الانكليز وتحسنها الى الناس لذلك اصدرت جريدة الاوقات في البصرة في مطلع سنة ١٣٣٤هـ/١٩١٥م باللغات العربية والانكليزية والتركية والفارسية، وقد جاء في ترويستها انها « جريدة يومية سياسية ادبية مصورة» وابرز محرريها المستر جون فيلبي وعطا عون وسليمان الزهير وسليمان فيضي• أما اهم الموضوعات التي تطرقت اليها فكانت المقالات والاخبار التي يراد بها الحط من قيمة العثمانيين والاساءة الى سمعتهم وذكر ظلمهم وجهلهم ومــدح الانكليز وعدلهم وابراز اعمالهم العمرانية التي يقومون بها والتي كان معظمها مكرساً لخدمة قوات الاحتلال • وساهمت الجريدة في حملة التبرعات التي قصد منها بناء تمثال للقائد البريطاني الجنرال مود واهتمت في الوقت نفسه بنشر اخبار الحــرب مسيرة الى انتصارات بريطانيا ، وكرست سلسلة من المقالات لمهاجمة الالمان واساليبهم التجسسية •

تولى سليمان الزهير احد وجوه مدينة البصرة في آذار ١٩١٧ رئاســة تحرير الجريدة بطريقة الالتزام من السلطات البريطانية وحاول جعلها جريدة أهلية واناط رئاسة تحريرها لمحرر مصري اسمه عطا عون واستمرت الجريدة في الصــدور حتى ســنة ١٩٢١ •

أما في بغداد فقد اصدرت سلطات الاحتلال في بادىء الامر نشرة بأسم « صدى الحقيقة » في الاول من تشرين الاول سنة ١٩١٧ وقد جاء ترويستها انها « جريدة يوميه سياسية » وكانت تنشر الاخبار والصور المختلفة عن انتصارات الحلفاء وقد اهتمت بها سلطات الاحتلال لكنها توقفت عن الصدور في ١١ تسرين الثاني ١٩١٨ وهو تاريخ عقد الهدنة بين الدول المتحاربة في الحرب العالمية الاولى فاصدرت سلطات الاحتلال جريدة جديدة باسم(جريدة العرب) في ٤ تموز ١٩١٧ وقد جاء في ترويستها انها « جريده يومية سياسية تاريخية ادبية عمرانية عربية المبدأ والعرض يصدرها في بغداد عرب للعرب » • وكان الهدف من اصدارها الترويج لسياسة الانكليز ومحاولة استغلال القضية القومية العربية استنادا الى الشعار الذي اذاعه الانكليز والقائل (جئنا اليكم محررين لافاتحين) اما ابرز كتابهم فهم المستر جون فيلبي والاب انستاس ماري الكرملي ونكرى الفضلي وكاظم الدجيلي وعبدالحسين الازري•ويبدو ان سلطات الاحتلال حاولت الاستفادة من رجال العلم والادب في العراق لخدمة اهدافها بدعوى « بث الفكرة القومية وخدمة اللغة العربية » ومما يلحظ ان اكثر اولئك المحررين كانوا ينشرون مقالاتهم باسماء مستعارة •

اعلنت الجريدة منهاجها في افتتاحية العدد الاول ومما جاء فيها ان الجريدة « ستكون وسيلة لنشر اراء العرب ونعميم علومهم وادابهم وترفية شؤونهم وعمرانهم ونأمل انها تلاقي اقبالا وحظوة عند كل من يهمه ترقية حال العرب وتحرير رقابهم من نير الظلم الذي يئنون تحته اكثر من اربعمائة سنة »• وهذا دليل على استغلال الانكليز « للناحية القومية لبث روح الحقد والكراهية للاتراك العثمانيين » هذا فضلا عن تعرضها لبعض الشخصيات السياسية العراقية التي وقفت موقفا معارضا للسيطرة البريطانية وطفقت مقالات الجريدة « تلهج بمدح الانكلز وذم الاتراك » والمبالغة في « تصور رغبة بريطانية لخدمة الامة العربية » وقد استمرت في الصدور اربع سنوات الى ان اعلنت يوم ٣١ آيار ١٩٢٠ انها ستتوقف عن الصدور •

كما اصدرت سلطات الاحتلال في الاول من كانون الثاني سنة ١٩١٨ جريدة اخرى باسم (الاوقات البغدادية) وجاء في نرويستها انها (جريدة عامة تصدر يوميا ماعدا يوم الاحد) وقد اصدرتها شركة التايمس ومثل شقيقتيها الاوقات البصرية والعرب فقد كانت الجريدة تعبر عن سياسة المحتلين وتحسن للناس اعمالهم واستمرت في الصدور حتى ١٨ اذار ١٩٢٨ .

وفي الثالث والعشرين من حزيران ١٩١٨ اصدرت سلطات الاحتلال جريدة (دار السلام) في بغداد وقد جاء في ترويستها انها « صحيفة اسبوعية ادبية تاريخية اجتماعية سياسية خادمة العرب ولسانهم » واهتمت الجريدة بالقضايا الادبيه وقدمت السلطه المحتلة للكتاب والشعراء الذين ساهموا في تحريرها مبالغ كبيرة فاظهرت شأن الجرائد التي سبقتها « مساوىء الحكم العثماني وماخلفه من تأخير وانحطاط في كل نواحي الحياة لاسيما الثقافية منها» وادعت بانها تدافع عن اللغة العربية التي كانت مهملة ابان العهد العثماني . وبعد ان صدر منها اربعة عشر عددا صدرت على شكل مجلة باسم (دار السلام) وذلك في السادس من تشرين الاول سنة ١٩١٨ .

أما في الموصل فقد سيطرت سلطات الاحتلال البريطانية على الصحافة وشجعت بعض الكتاب والمثقفين بالمال واجزلت لهم اجور الكتابة كما الفت قلوبهم وشجعتهم بأساليبها المقصودة على انها تروم خدمة اللغة العربية وتثقيف الشعب ومن الصحف التي اصدرها الانكليز في الموصل جريدة الموصل التي اتخذوها وسيلة من وسائل الدعاية لحكمهم وقد اقتصر العدد الاول الذي صدر في ١٥ تشرين الثاني ١٩١٨ على نشر وقائع الاجتماع الذي عقد صباح يوم الاثنين ١١ تشرين الثاني ١٩١٨ اثر دخول القوات البريطانية الموصل وحضره الاشراف ووجوه البلد والموظفون .

ان المتصفح لاعداد الجريدة يجد أنها لا تخرج في بداية امرها عن نشرة اصدرها الانكليز لخدمة مصالحهم في العراق والترويج لسياستهم وحلفائهم

ومع هذا ففيها بعض المقالات الثقافية والسياسية ولكنها قليلة بالقياس الى الموضوعات الاخرى وحتى هذه الموضوعات القليلة لا تخلو بين ثناياها من مدح الانكليز وذم الاتراك . ترأس تحرير الجريدة انيس صيداوي وهو كاتب من لبنان كان مرافقا للانكليز في حملتهم على العراق . كما اسهم في تحريرها القس سليمان الصايغ وعلى الجميل وسليم حسون . وقد صدرت باربع صفحات بالحجم المتوسط وجاء في ترويستها انها «جريدة رسمية تصدر مرتين في الاسبوع الاثنين والجمعة » .

ولعل من ابرز الموضوعات التي عالجتها الجريدة تلك التي تتعرض لثورة اكتوبر الاشتراكية في روسيا سنة ١٩١٧ التي تصادف قيامها في تلك الفترة ، لقد امتلاءت اعمدة هذه الجريدة بالعديد من المقالات التي تحط من قدر هذه الثورة ورجالها واصفة اياهم بابشع الاوصاف ، وحرصت الجريدة ان تبين لقرائها ما لبريطانيا من فضل في مساعدة الشعوب وعرضت في بعض مقالاتها الافتتاحية الى الاوضاع السياسية في بعض الاقطار العربية . واهتمت كذلك بالشؤون الدولية ولكن من وجهة النظر البريطانية وخاضت في مناقشة القضايا المتعلقة بالصراع الدبلوماسي بين بريطانيا والولايات المتحدة حول نفط الموصل. ونشرت الجريدة اخبار مدينة الموصل العمرانية والعلمية وماطرأ عليها من تغيير ، وعالجت بعض مشاكل الاهالي الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والصحية واعتادت نشر هذه الشكاوي وتعقيب مدراء الدوائر على بعضها . كما نشرت في بعض اعدادها محاضر اجتماعات مجلس ادارة اللواء والمجلس البلدي .

كما اولت الجريدة اهتماما كبيرا للقضايا الاجتماعية كدور المرأة ومسألة التعليم وطرحت بعض الموضوعات ذات الطابع الفكري وقد استمرت الجريدة بالصدور حتى سنة ١٩٣٤ .

وفي ١ حزيران ١٩٢٠ صدر العدد الاول من جريدة (العراق) ببغـداد باربع صفحات من الحجم المتوسط وجاء في ترويستها انها « جريدة يوميـة ادبية سياسية اقتصادية » وقد نشرت جريدة العرب خبر صدورها قائلة انها جريدة يومية تبحث في السياسة والادب والاقتصاد صاحبها رزوق داود غنام. ومما يلحظ ان جريدة العراق ليست الا امتداداً لجريدة العرب التي اخلت الطريق اليها لتحل محلها وكانت تصدر بين يوم ويوم وبعد شهر اصبحت يومية ثم توقفت بعد اربع سنوات . وقد كرست الجريدة صفحاتها لنشر اخبـار السلطة المحتلة وتحذير قادة المعارضة الذين « اعتادوا ان يعقدوا المواليد في ليالي الجمعة ظاهرا لمقاصد دينية ولكن في الحقيقة لتهييج افكار الناس ضد الحكومة » وكان اسهام الجريدة الادبي قليلا حيث غلب على اسلوبها السجع والتكلف لكن هذا الاسلوب سرعان ماتطور في السنة الثانية من صدورها أثر قيام عدد من الكتاب والادباء العراقيين بنشر انتاجاتهم على صفحاتها ومنهم روفائيل بطي وسلمان الشيخ داود وابراهيم أدهم الزهاوي ومعروف الرصافي وتوفيق السمعاني ومحمد باقر الشبيبي . وقد ظلت الجريدة متخلفة من حيث الاخراج وبقيت تهتم بالاخبار والصور اكثر من اعتمادها على المقال والتعليق . فعلى سبيل المثال تابعت نشر وقائع جلسات مجلس الوزراء العراقي في بدء اجتماعاته وكان لها السبق الصحفي في نقل مراسيم تنصيب فيصل الاول ملكا على العراق . واستمرت مدة (١٢) عاما حتى عطلتها حكومة نوري السعيد في اواخر ١٩٣٢ بعد ان استطاع صاحبها رزوق غنام من تحويلها من اتجاه لصالح الاحتلال الى اتجاه لصالح البلاد وخاصة بعد قيـام الحكـم الوطني في ٢٣ آب ١٩٢١ .

واصدرت سلطات الاحتلال جريدة الشرق في ٣٠ آب ١٩٢٠ باربـع صفحات بالحجم الصغير وقد جاء في ترويستها انها « جريدة يومية سياسية تجارية ادبية صاحب امتيازها حسين افنان» ولم تكن هذه الجريدة من الجرائد

البارزة انذاك لصغر حجمها ورداءة تبويبها ودعمها المكشوف للسياسة البريطانية .

وقد كتبت العديد من المقالات التي تطرقت فيها الى مستقبل العراق فقامت بدعاية واسعة لطالب باشا النقيب ووقفت موقفا عدائيا من ثورة ١٩٢٠ الوطنية وقالت عن الثورة « انها اضرت بالاهلين وكبدتهم خسارة في النفوس والاموال واوقفت التجارة فاوجبت غلاء الاسعار »ودعت رجال الثورة الى الاستسلام وكتبت مقالات هدفها تثبيط عزيمة الثوار .ولم تدم الجريدة اكثر من شهرين لعدم الاقبال عليها ومقاطعة الناس لها فتوقفت عن الصدور في ١٨ تشرين الثاني ١٩٢٠ وعين صاحبها سكرتيرا لديوان مجلس الوزراء .

وخلال فترة الاحتلال واوائل الانتداب صدرت بعض المجلات الادبية والسياسية منها مجلات دار السلام والنادي العلمي ومرآة العراق .

صدر العدد الاول من مجلة « دار السلام » في بغداد في ٦ تشرين الاول ١٩١٨ وكان عدد صفحاتها ثلاثين صفحة بالحجم المتوسط وجاء في ترويستها انها « وضيعة تصدر في بغداد مرة في الاسبوعين وتبحث في الادب والعلم والاجتماع والتاريخ وتعتني بشؤون العراق خاصة » . وقد عهد الى الاب انستاس ماري الكرملي امر ادارتها . فكتب فيها بحوثا ادبية قيمة وكانت كذلك توزع باعداد كبيرة وتمكنت من اجتذاب عدد من الشعراء والكتاب، ومع هذا فقد كانت وجهتها سياسية وان كان ظاهرها الادب اذ حرصت على نشر النتاجات المتوافقة مع رغبة المحتلين . ومما يميزها كذلك استخدامها الصور الفوتوغرافية لهذا كان مظهرها اكثر حيوية واشراقا من مظهر أي صحيفة اخرى من صحف ذلك الوقت . وقد عالجت كذلك بعض الشؤون المالية والاقتصادية واهتمت بمدن العراق القديمة وآثارها وبعد صدور ثلاثة وعشرين عددا احتجبت بعدما سلخت من عمرها ثلاث سنوات .

اما ظروف اصدار مجلة (النادي العلمي) في الموصل ونشاطه فتعكس اوجها اخرى من المواقف ازاء الاحتلال البريطاني اراده القوميون ستاراً لتحركاته ضد الاحتلال ، بينما جعله بعض وجوه المدينة وغيرهم من المقربين لسلطات الاحتلال منبرا لاظهار تزلفهم نحو السلطة الجديدة فدار صراع عنيف داخل النادي الذي تأسس في ١٨ تشرين الثاني ١٩١٨ جعل سلطات الاحتلال تسرع في اغلاق النادي وايقاف مجلته بعد فترة قصيرة .

لقد اصدر النادي مجلة باسم (مجلة النادي العلمي) وجاء في ترويستها انها «مجلة علمية، فنية، ادبية، اخلاقية، تاريخية تصدر كل خمسة عشر يوماً مرة واحدة في الموصل» وصدر العدد الاول منها في ١٥ كانون الثاني ١٩١٩ ولم يصدر منها سوى (٨) اعداد اذ توقفت عن الصدور في ٣٠ نيسان ١٩١٩ وقد عهد بادارة المجلة الى علي الجميل كما اسهم في تحريرها صديق الدملوجي وحنا خياط وفتح الله سرسم ورشيد الخطيب رفتح الله سحار وروفائيل بطي وغيرهم .

بسطت المجلة في عددها الاول خطتها واهدافها وذلك في مقال افتتاحي كتبه علي الجميل جاء فيه انها مجلة « تروم كشف الحجاب لتظهر برداء عربي قشيب ... وقد عاهدت نفسها من صميم فؤادها انها ستقضي حياتها في سبيل نشر العلوم والفنون والادب وتهذيب الاخلاق وخدمة للمعارف ... تريد هذه المجلة الصغيرة ان تحيا حياة سعيدة صافية من شوائب الزمان محفوظة من نوائب الاقدار فلذلك قد ضربت بينها وبين السياسة حجابا قويا » .

ويستغرب احد الباحثين وهو الدكتور منير بكر التكريتي في كتابه الموسوم « الصحافة العراقية واتجاهاتها السياسية والاجتماعية والثقافية » من قول كاتب المقال بان مجلته ضربت بينها وبين السياسة حجاجا قويا فيقول « ان المتصفح لاعدادها يجد المجلة تسبح بحمد الانكليز والثناء عليهم فقد صورتهم اساطين حرية واصحاب عدل » .

لقد عالجت مجلة النادي العلمي موضوعات اجتماعية وثقافية ونشرت مقالات عديدة حول قضية المرأة وتحريرها كما ثبتت فترة احياء الاثار الادبية لرجال الموصل « المنقرضين » أمثال على الغلامي ومحمد امين العمري وصالح السعدي وعبد المجيد المتولي وغيرهم من الذين « لهم اثار عديدة مابين منظوم ومنثور مبعثرة لم تدون في كتاب او ديوان » • وقد لخصت المجلة في بعض اعدادها المحاضرات التي كانت تلقى في النادي ومن ذلك محاضرات تتعلق بـ (الامراض المعدية) و (تاريخ اداب اللغة العربية) و (تهذيب الاخلاق) • (مسـك الدفاتر التجارية) •

أما مجلة«مرآة العراق»فقد صدر عددها الاول في البصرة وذلك في الثاني من شباط سنة ١٩١٩ بست عشرة صفحة من القطع الكبير وقد جاء في ترويستها انها « مجلة اسبوعية علمية اخلاقية زراعية تجارية مصورة » وكانت تصدر باللغتين العربية والانكليزية لاغراض تخدم الدعاية لسلطات الاحتلال لذلك اهتمت شأنها في ذلك شأن الصحف التي صدرت في هذه الفترة باللغة العربية وبالتاريخ العربي املا في التقرب من جماهير الشعب العراقي الذي عانى طويلا من السيطرة العثمانية • كما لا حظت سلطات الاحتلال اهمية الناحية الروحية لدى العراقيين فاهتمت مجلتهم بسرد الحوادث التاريخية ذات المغزى الروحي لتبين للرأي العام بان سياستها لا تتعارض مع المعتقدات الدينية وامتازت المجلة بنشرها الصور المختلفة بحجـم (البوسـكارت) والتي تمثل قادة الجيش البريطاني في العراق مع نبذة مختصرة عن حياتهم والاوسمة التي حصلوا عليها • ونشرت كذلك صورا للانشاءات العمرانية التي قامت بها القوات البريطانية لاغراض عسكرية كمد خطوط السكك الحديد وانشاء الملاجىء ولم تستمر بالصدور اذ احتجبت بعد مرور ثلاثة اشهر على صدورها •

الصحافة العراقية والحركة الوطنية حتى ١٩٢٠

اعلن الانتداب البريطاني على العراق في ٢٦ نيسان ١٩٢٠ وشهد العراق اثر ذلك حركة مقاومة شديدة ضد السلطات البريطانية اذ عقدت الاجتماعات الشعبية واقيمت المظاهرات في مناطق العراق المختلفة ثم تطورت الحركة الوطنية الى ثورة كبرى اندلعت في حزيران ١٩٢٠ وشملت القطر كله من شماله الى جنوبه .

لقد كان على الحكومة البريطانية ان تغير سياستها بعد الثورة فاصدرت اوامرها بنقل السر ارنولد ولسن وكيل الحاكم المدني العام ليحل محله السر يرسي كوكس لا كحاكم مدني عام بل ليعين مندوبا ساميا على العراق وقد اذاع السر برسي كوكس بعد وصوله في ١١ تشرين الاول ١٩٢٠ بيانا عاما اشار فيه الى ان حكومته انتدبته لتشكيل حكومة وطنية في العراق باشراف الحكومة البريطانية وقد تشكلت الحكومة العراقية الاولى برئاسة عبد الرحمن الكيلاني نقيب اشراف بغداد في ٢٥ تشرين الاول ١٩٢٠ .

لقد اوجب تشكيل الحكومة العراقية المؤقتة وجود جريدة رسمية حكومية تتولى نشر مراسيمها وبياناتها وفي كانون الثاني ١٩٢١ صدر العدد الاول من جريدة الحكومة العراقية الرسمية في اثنتي عشرة صفحة وقسمت كل صفحة في الجريدة الى حقلين طوليين متساويين احدهما تكتب فيه البلاغات والاعلانات والقوانين باللغة الانكليزية والثاني يحتوي على ترجمة باللغة العربية لما جاء في الحقل الاول .

أما طريقة عرض مادة الجريدة فقد تصدرت البلاغات الصادرة من المندوب السامي الصفحة الاولى ثم اعقبتها في الصفحات التالية بلاغات مجلس الوزراء « الحكومة العراقية المؤقتة » ومن ثم البلاغات الصادرة من الوزارات ولقد استمرت الجريدة على هذا الاسلوب والترتيب في عرض مادتها طيلة فترة

صدورها التي استمرت سنتين « ١٩٢١ ــ ١٩٢٢ » ولم يكن عدد صفحات الجريدة ثابتا فقد وصل عدد صفحاتها الى«٤٩»صفحةفي العدد العاشر الصادر في ١٥ تموز ١٩٢١ وانخفض الى ٣ صفحات في العدد الثالث عشر الصادر في ٣١ آب ١٩٢١٠ويقول الدكتور مظفر الادهمي الذي تولى دراسة هذه الجريدة ضمن كتاب « دراسات في الصحافة العراقية » الصادر عـن وزارة الاعلام سنة ١٩٧٢ « ان لجريدة الحكومة العراقبة اهمية كبيرة جدا لانها سجل رسمي خاص واحد المصادر الاساسية الرئيسة المهمة لدراسة تكوين الدولة العراقبة في ظل الانتداب البريطاني ومعرفة الاجراءات الرسمية التي تخص الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والصحية للناس في هذه الفترة بل يمكن دراسة تلك الاوضاع من خلال هذه الاجراءات » ٠

لقد ابدل اسم جريدة الحكومة العراقية باسم (الوقائع العراقية) فصدر العدد الاول من الوقائع في ٨ كانون الاول ١٩٢٢ على شكل مجلة صغيرة ذات غلاف ٠ وقد اشارت وزارة الداخلية في الصحفة الاولى منها الى اسباب تبديل الاسم فقالت « يعلم كل احد ان وزارتنا كانت تصدر جريدة رسمية باسم جريدة الوقائع العراقية وقد كانت تلك الجريدة لاتحتوي الاعلى الامور التي تختص بالموظف نفسه فقط لا يستفيد منها الرأي العام فائدة تذكر لما رأتها غير كافية رأت ان توسعها وتغير اسمها بحيث تكون جامعة لما يفيد الآمـر والمأمور والخاصة والعامة من الناس » ويستمر بيان الوزارة بتبيان اهميـة الجريدة واهمية نشر الامور الرسمية فيها واوضح كذلك بان بابا سيخصص لنشر مقتطفات من الجرائد والمجلات الاجنبية السياسية والتاريخية والادبية ٠ وبعد صدور بضعة اعداد منها اصبحت في ١٩ كانون الاول ١٩٢٢ جريـدة ولا تزال جريدة الوقائع العراقية مستمرة في الصدور حتى الآن ٠

كما صدرت خلال هذه الفترة في بغداد (المجلة العسكرية) وجاء في ترويستها انها «مجلة عسكرية فنية فصلية» وظهر العدد الاول منها في الاول

من كانون الاول سنة ١٩٢٤ ومعظم مباحثها عسكرية وماتزال تصدر حتى الان. واصدرت الكلية العسكرية الملكية مجلة سنوية مصورة ببغداد سنة ١٩٥٢ . وفي وزارة الدفاع صدرت سنة ١٩٥٦ مجلة باسم (صوت اللواء) وهي مجلة عسكرية صرفة تولى جميل خليل حداد رئاسة تحريرها .

لقد صحب قيام حكم وطني في العراق اهتمام رسمي وشعبي بشؤون الصحافة والتعليم باعتبارهما الدعامة التي يستند اليهما الاستقلال الحقيقي للبلاد ، وانه من الوسائل الفعالة في النهوض بالبلاد ورفع مستواها . وسرعان ماأخذ الاتجاه القومي والوطني يتنامى في العراق الامر الذي اقلق السلطة المنتدبة . وفي ١١ تموز ١٩٢١ قرر مجلس الوزراء العراقي بناء على اقتراح الرئيس المناداة بفيصل ملكا على العراق على ان تكون حكومته « دستورية نيابة دمقراطية مقيدة بالقانون» . وقد وقفت الصحافة الوطنية مع الشعب في قضاياه خلال هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ العراق . ولعل من ابرز الصحف التي ظهرت في هذه المرحلة : مجلة اللسان وجريدة الفرات وجريدة الاستقلال البغدادية وجريدة الاستقلال النجفية البغدادية .

مجلة اللسان

صدر العدد الاول من مجلة اللسان ببغداد في تموز ١٩١٩ وكان صاحبها « علي رضا الغزالي » ومديرها المسؤول انطوان لوقا واحمد عزت الاعظمي وقد جاء في ترويستها انها « مجلة تاريخية اجتماعية ادبية شهرية » . وتعد مجلة اللسان اول صحيفة دعت الى الثورة وقامت بتغذيتها ونشر مفاهيمها وكانت في مقدمة الصحف التي اكدت اهمية الحرية والسيادة والاستقلال وذلك من خلال ماتنشره من مقالات وقصائد تلهب الشعور الوطني . وقد استقبل الشباب العراقي المتحمس صدور هذه المجلة بكل ارتياح . وكان لها مكانة كبيرة في نفوس العراقيين المتلهفين الى الصحافة الوطنية الحرة . وكانت

المجلة تستفيد من كل فرصة ادبية « لتحرك المشاعر وتهزها في سبيل دعوتها العربية القومية » . وقد اهتمت بالتاريخ العربي ورموزه العظيمة . ونشرت المقالات العديــدة في استنهاض الهمم ومن ذلك نشــرها مقال تحت عنوان « وظيفه الوطني » جاء فيه تنقسم الوظائف الى ثلاث اقسام :

١ ــ وظيفته ازاء نفسه ومعاصريه .

٢ ــ وظيفته امام اسلافه وعاداتهم .

٣ ــ وظيفته نحــو لغتــه .

ولم يخل عدد من المجلة من التغني بالعروبة وامجادها ومن ذلك نشرها القصائد الوطنية ولنستمع الى قصيدة المجد العربي للشاعر العراقي محمــد الهاشمي نشرت في العدد الاول منها :

ياأبــن الاعاظــم لاتــذ	ل فقــد كرمت أبـا وجــدا
آبــاؤك العــرب الالــى	مــدوا بضبع الشــرق مــدا
منهم اخــو الحزم الرشــيد	ومنهــم المأمــون عــدا
وهــب الزمــان لهــم فخــا	را لا يطــال فاســـتردا
فانهــض لتبلــغ شــأوهم	واحفد الــى الاقبال حفــدا
وازرع لنفســك ماتعــز	بزرعــه لتنـــال حصــدا

وهكذا فان المجلة عنيت بالتراث العربي وسعت لاحيائه واستعادة ماضي الامة وحضارتها المجيدة فهي تكرر القول بان هدفها الذي ترمي اليه « ترتيل محاسن المدنية العربية التي لعبت بها يد الاهوال منذ قرون على مســامع ابناء العراق الاعزاء وتذكيرهم بما كان لامتهم من المكانة السامية بين الامم والمنزلة العليا من التمدن ... » .

اما ابرز من كتب فيها من الشعراء والادباء والكتاب فهم محمد مهدي البصير وعبد الرحمن البناء وعبد الكريم العلاف وجميل صدقي الزهاوي وكاظم الدجيلي ومحمد الهاشمي وطه الراوي وسلمان الشيخ داود ورفائيل بطي وداود صليوا وعيسى رزوق ومحمد عبدالحسين ومحمود المدرس • وكانت ادارة المجلة وسطا وطنيا يلتقي فيه العاملون من اجل القضية العراقية • واستمرت المجلة بالصدور سنة واحدة وبعد عددين من صدورها في السنة الثانية توقفت بسبب اندلاع الثورة ١٩٢٠ الكبرى وكان لهذه المجلة الفضل في تهيئة الاذهان ضد المحتلين لهذا فسجل الصحافة العراقية يفرد لها انصع صفحة فيه •

واثر نشوب ثورة ١٩٢٠ الكبرى اصدر الشيخ محمد باقر الشبيبي جريدة الفرات • وكانت جريدة اسبوعية سياسية صدر عددها الاول في اوائل آب ١٩٢٠ وذلك باربع صفحات من الحجم الصغير وقد عدت الجريدة لسان حال الثوار تفصح عن آرائهم وتشرح مبادىء الثورة واهدافها وغدت مجالا لنشر آراء رجال الدين وفتاواهم وخطبهم في حث الناس على مقارعة المحتلين • وقد سجلت خطب الثوار وتعليمات القادة ومواقع القتال • وبدت الجريدة كما يقول روفائيل بطي « بلهجة صارخة وكتبت بدم القلب لابحبر القلم وحصرت بحثها في الشؤون السياسية وكتابة المقالات الاستفزازية واذاعة الخطب التي تلقى في محافل الثورة » وقد اتجهت الى فضح السياسة البريطانية ونشرت في عددها الثاني الصادر في ١٨ ايلول ١٩٢٠ مقالا بعنوان «ثورة العراق» قارنت فيه بين ثورة العراق والثورتين الايرلندية والمصرية فهي تقول : « ••• ان الثورة العراقية تشبه الثورة الايرلندية والمصرية في كل الوجوه فقد فجر بركانها الضغط واضرم نارها الاستبداد ووسعها القضاء على الحرية

فصمت الاذان عن سماع الحق وسدت المحاكم ابوابها واصبح الحق للقوة وردت مطالب الامة . فاشتد الظلم حتى بلغ منتهاه ونفد صبر الامة مما تلاقيه كل يوم من جـور حكام الاحتلال » .

احتجبت جريدة الفرات بعد صدور عددها الرابع دونذكر الاسباب وقد يرجع ذلك الى صعوبات مادية وفنية تتعلق بامور الطباعة والورق وامكانية توفره في تلك الظروف الصعبة . لكنها مالبثت ان عاودت الصدور بعد اقل من شهرين من احتجابها ، حيث ظهر عددها الخامس في ٢٥ ايلول سنة ١٩٢٠ . وجـاء في الكلمـة الافتتاحية لذلك العدد قولها « ... تعود (الفرات) الى الصدور بايجاب من الهيئة العلمية وزعماء النهضة العربية والامل ان اولياء الامور الذين قاموا بنشر هذه الصحيفة الحرة واهتموا باظهارها مصممة على استمرار اصدارها وسوف يستمرون على القيام بشؤونها وضمانة حياتهـا لتعيش كما تعيش الصحف الراقية ذات المبدأ الصحيح ... نعم : الهيئـة العلمية لن تعلك عن العناية بامر الصحافة وسوف تخلد ذكرا مجيدا لها في تاريخ النهضة العراقية لاصدار الفرات وقد بشرتنا باهتمامها وتصدي القائمون بها من رجال الفضل توسيع حجمها واصدارها مرتين في الاسبوع ... فالفرات تعود اليوم ... » وكان من الطبيعي ان يهتم الشعب بجريدة الفرات ويتعلق بمقالاتها ولكن نتيجة لضغط السلطات المحتلة على الثوار وظهور بوادر القضاء على الثورة احتجبت الجريدة في ٢٦ ايلول ١٩٢٠ .

وفي بغداد صدر العدد الاول من جريدة (الاستقلال) في ٢٨ ايلول ١٩٢٠ وقد جاء في ترويستها انها « جريدة يومية عربية حرة » صاحبها عبـد الغفور البدري أحد العاملين في الحكومة الوطنية في العراق . وكان هدف الجريدة خدمة الثوره والتعبير عـن لسان حال جمعية العهـد العراقي التي تأسست في العراق بعد ان انقسم حزب العهد الى فرعين احدهما عراقي والاخر سوري وتولى بعض العهديين امر تحريرها وكانت جريدة الاستقلال في بداية

صدورها يومية وبسبب ندرة الورق ومصاعب الطباعة جعلت اسبوعية تصدر يوم الاحد من كل اسبوع وقد حرر فيها نخبة من الادباء والكتاب منهم محمد مهدي البصير وعبدالرحمن البناء ومحمد باقر الحلي وطالب مشتاق وسامي خونـــدة •

اما خطتها فقد نشرت في بداية صدور عددها الاول ومما جاء فيها قولها ان جريدة الاستقلال « منشور وطني حر ، يخدم أقطار العرب عامة والعراقيين خاصة يدافع عما يدافعون ويطالب بما يطلبون ولا يبالي اذا انزعج منه الخائنون ولا ينتسب الا الى الوطنية الصادقة ولايتكلم الامايطابق اقــوال الشعب وافكـــاره » •

لذلك دعت جريدة الاستقلال الى التآخي والتكاتف بين ابناء الشعب الواحد وحذرت المواطنين من دسائس الاجنبي واساليبه في بث التفرقــة بينـــهم •

وبعد ان تمكنت الجريدة من ترسيخ قدمها اخذت تصدر اعتبارا مــن العدد (٣١) يوميا بانتظام • وقد بدأت الجريدة في نشر مفاهيم الثورة العراقية وبيان حق الشعب العراقي بالحرية والاستقلال • كما انها سعت حثيثا بمطالبة السلطة المحتلة باطلاق سراح المعتقلين السياسيين واعادة جميع المنفيين ورفع الادارة العراقية العسكرية واطلاق حرية الصحافة والاجتماعــات وكتبت في فوائد الحياة الحزبية والاسراع في اجراء الانتخابات الحرة وتشكيل البرلمان • وتولت الجريدة كذلك تنفيذ ماورد على السنة بعض الساسة البريطانيين في مجلس العموم بخصوص العراق • وناصرت القضية العربية وقد اعتمدت في تسيير امورها على الاشتراكات والتبرعات • فكانت بحق جريدة للشعــب لذلك تلاقفتها الايدي ولم تشاهد البلاد في تاريخها الصحفي في تلك الحقبة جريدة تنفد اعدادها في ساعات ويسارع القراء لاقتناء اعدادها • وحين برزت

صحف اخرى لتفت من عضد جريدة الاستقلال مااستطاعت الوقوف فيالميدان وما وجدت من العراقيين الا سخرية واعراضاً .

عندئذ اوعزت السلطات البريطانية لوزارة الداخلية في الحكومة العراقية المؤقتة بتعطيلها في ٩ شباط ١٩٢١ اما صاحبها وعدد من محرريها فقد تعرضوا للسجن والاضطهاد ولم يفرج عنهم الابعد تنصيب فيصل ملكا على العراق فعادت جريدة الاستقلال الى الصدور سنوات عديدة حتى احتجبت في ٧ آب ١٩٤٣ وحملت في عددها الاخير بمقال افتتاحي نددت فيه بالاحتلال البريطاني الثاني للعراق وكان بعنوان « نحن والمحتلين » .

اما في النجف الاشرف فقد صدرت جريدة باسم «الاستقلال» كذلك . وجاء في ترويستها انها جريدة سياسية اجتماعية تصدر في الاسبوع اربع مرات وقد تقدم السيد محمد عبد الحسين بطلب الى قائمقام النجف المعين من قبل قادة الثورة بشرط « ان لاتتخالف مع مبادىء الثورة المقدسة » وفي ٣ تشرين الاول ١٩٢٠ صدر العدد الاول من الجريدة التي اتخذت من « مكتب الدعاية والاخبار » للثورة مقرا لادارتها . وبرزت الاستقلال طافحة بالمقالات الثورية التي تهاجم سلطات الاحتلال وتدعو ابناء الشعب العراقي لمقاومته كما انها باشرت بنقل انباء المعارك الضارية التي كان يخوض غمارها ابناء الشعب مشيرة الى انتصارات الثورة . ويذكر روفائيل بطي ان محرري جريدة الاستقلال قاسوا بعض ما يعانيه صحفيو اوربا وغيرهم ابان الحروب حيث كانوا يكتبون احيانا تحت ازيز القنابل التي ضربت النجف وكان شعار الجريدة « لاحياة بلااستقلال » وقد كتبت مرة تقول ان العراقيين امتشقوا الحسام في وجه المحتلين واخرجتهم من كثير من المناطق في مدة قليلة ودعت الشعب الى التمسك باهدافه والاستمرار بالنضال حتى تتخلص البلاد من ربقة المستعمر .

لقد واجه صاحب جريدة الاستقلال صعابا جمة اثناء صدور جريدته منها قلة الورق وندرته في تلك الظروف مما جعل امر صدورها غير منتظم • وقد اضطرت سلطات الثورة في النجف الى وضع اليد على مطبعة صادق الكتبي لحاجة الجريدة اليها بعد ان امتنع صاحبها عن طبع جريدة الاستقلال وحين قاربت الثورة نهايتها وشرع زعماؤها في مغادرة العراق تخلصا من بطش المحتلين احتجبت جريدة الاستقلال النجفية في ٢ تشرين الاول سنة ١٩٢٠ بعد صدور عددها الثامن •

تطور الصحافة العراقية ١٩٢٠ ـ ١٩٤١

بدأ الشعب العراقي اثر اخفاق ثورة ١٩٢٠ يتحسس اهمية التنظيم وتوحيد الكلمة من اجل التعبير عن اهدافه القومية والوطنية • وبعد تتويج الملك فيصل في ٢٣ آب ١٩٢١ اشتدت المطالبة بنشوء الاحزاب السياسية وقد رضخت الحكومة لهذه المطالب فسمحت بتأليف الاحزاب العلنية وفق قانون الجمعيات في العراق والذي صودق عليه في ٢ تموز ١٩٢٢ • وقد اتسمت الصحف التي صدرت في هذه المرحلة بالجرأة واللهجة الشديدة التي كثيرا ماجرت محرريها الى السجن والاعتقال وعرضت الجريدة للمصادرة والتعطيل •

وقد قامت هذه الصحف بدور مهم في تكوين الرأي العام الوطني في العراق بما دأبت عليه من مناقشة للاحداث ونقد للحكومات واستثارة الهمم •

الصحافة الحزبية

أ ـ صحافة الاحزاب المعارضة

وتأتي صحافة الحزب الوطني وحزب النهضة وحزب الشعب وحزب الاخاء الوطني في بغداد وصحافة جمعية العهد العراقي وحزب الاستقلال الموصلي في مقدمتها •

فقد اصدر الحزب الوطني الذي تأسس في بغداد في ٢ آب ١٩٢٢ جرائد خاصة به منها جريدة صدى الاستقلال وجريدة صدى الوطن وجريدة الثبات ففي ١٥ ايلول ١٩٣٠ اصدر الحزب الوطني جريدة (صدى الاستقلال) لتكون لسان حاله بثمان صفحات • وقد اشرف على اصدارها عبد الغفور البدري ومديرها المسؤول علي محمود الشيخ علي وقد اتسمت مقالاتها بالجرأة لاسيما تلك التي تنادي بعدم شرعية انتخابات المجلس التأسيسي • وقد شنت الجريدة حملات شديدة على معاهدة ١٩٣٠ المعقودة بين العراق وبريطانيا وهاجمت وزارة نوري السعيد الاولى (١٩٣٠ ـ ١٩٣١) حتى ضاقت ذرعا بها فعطلتها بقرار في تشرين الثاني ١٩٣٠ على اثر نشرها مقال افتتاحي بعنوان « يشتكون من الاستشارة ويمدحون المستشارين » وقد اصدر الحزب جريدة صدى الوطن بدلا عنها وظهر عددها الاول في ٢٥ تشرين الثاني ١٩٣٠ باربع صفحات من الحجم المتوسط وكان صاحب امتيازها محمود رامز • وسارت على نفس منوال جريدة صدى الاستقلال اذ نشرت مبادىء الحزب وانتقدت الحكومات العراقية المتعاقبة ونددت بمعاهدة ١٩٣٠ التي كبلت العراق بقيود سياسية واقتصادية ثقيلة وقد كرست معظم صفحاتها للتنديد بالسياسة البريطانية لا في العراق فحسب بل وفي مختلف انحاء الوطن العربي والعالم • ونتيجة لمواقف هذه الجريدة اقدمت حكومة السعيد على غلقها في تشرين الثاني ١٩٣١ فاصدر الحزب جريدة ثالثة ناطقة باسمه هي جريدة الثبات •

صدر العدد الاول من جريدة الثبات في ٣٠ كانون الاول ١٩٣٠ باربع صفحات بالحجم الكبير وقد جاء في ترويستها انها « جريدة يومية سياسية جامعة صاحبها ومديرها المسؤول محمود رامز » وقد نددت هذه الجريدة كذلك بسياسة الحكومة وبطريقة انتخاب المجلس النيابي العراقي الثالث سنة ١٩٣٠ وعدم السماح للاحزاب الوطنية في ابداء رأيها ونتيجة لجرأتها ونقدها الشديد اللاذع للسلطة تعرضت للتعطيل مرات عديدة واخيرا ضاقت السلطة

ذرعا بها فاصدرت قرارها في ١٣ آذار ١٩٣٤ القاضي بايقاف اصدار جريدة الثبـــات •

فأما حزب النهضة الذي تألف في ١٩ آب ١٩٢٢ فقد اصدر بعد مرور اربع سنوات على تأسيسه جريدة (النهضة) وكان يوم ١٠ آب ١٩٢٧ موعداً لصدور عددها الاولى وقد جاء في ترويستها انها « جريدة يومية سياسية لسان حال حزب النهضة العراقية » وتعد هذه الجريدة من اكثر الصحف العراقية جرأة أذ ساهم في تحريرها نخبة من الكتاب الوطنيين امثال محمد باقر الشبيبي وعلى الشرقي ومحمد عبدالحسين ويوسف رجيب وغيرهـم • وقد وقفت هذه الجريدة صفحاتها لنشر اهداف الحزب التي تؤكد على « توطيد دعائم الاستقلال التام للشعب العراقي وتحقيق رغائبه بحكومة عربية ملكية دستورية ديمقراطية ، وتنشيط الفكرة الوطنية للوحدة العراقية واتخاذ الوسائل لتعميم معارف العراق وتوسيع نطاق تجارته وزراعته وانماء ثروته وكل مايصلحه ماديا وادبيا وتحسين الصلات بينه وبين الدول الاخرى بما لا يمس شـرف ومصـــالح العـــراق •

ولقد تعرضت جريدة النهضة الى عنت السلطة بسبب جرأتها وصراحتها فسيق مديرها المسؤول مراراً الى المحاكم وغرم عدة مرات • وفي مطلع ايلول ١٩٢٩ عطلت الجريدة مما اضطر الحزب الى اصدار جريدة (صوت العراق) لتحـــل محلهـــا •

صدر العدد الاول من جريدة « صوت العراق » في ٨ أيلول ١٩٢٩ وذلك باربع صفحات من الحجم المتوسط وابرز من حرر فيها محمود الشيخ علـــي ومزاحم امين الباجة جي • واهتمت الجريدة بنشر اهداف الحزب كما اهتمت بالقضية الفلسطينية وانتقدت السياسة البريطانية وفضحت النوايا الصهيونية في فلسطين وحملت الحكومة العراقية مسؤولية تهاونها ازاء هذه القضية وكان

لمواقفها الجريئة اثر كبير في قيام السلطة بتعطيلها في اواخر شهر كانون الثانـي ١٩٢٩ ٠

وكان لحزب السعب صحافة خاصة به وقد تأسس هذا الحزب بزعامة ياسين الهاشمي في ٤ تموز ١٩٢٥ وهو حزب برلماني معارض لحزب التقدم الذي الفه عبد المحسن السعدون وقد اصدر حزب الشعب جريدته الاولى باسم « نداء الشعب » باربع صفحات وجاء في ترويسة العدد الاول منها والذي صدر في ٢٠ كانون الثاني ١٩٢٦ انها « جريدة يومية سياسية » لسان حزب الشعب العراقي ٠ واهم من حرر فيها ابراهيم كمال ومحمود رامز وعبد اللطيف الملاحي ٠ وظهرت جريدة نداء الشعب ناضجة التفكير ومثالا للادب السياسي والبعد عن المهاترات وقد سعت الجريدة لنشر اهداف الحزب التي تؤكد على « انماء القوى الوطنية وتحقيقها سواء كان ذلك في فروع الادارة والاقتصاد والمعارف والزراعة والجيش او غيرها وتقوية الشعور الوطني والعمل لتعميم مبادىء التضامن والتضحية بين الاهلين » ٠ وقد هاجمت الجريدة الوزارة السعدونية بشدة واتهمتها بالفشل في ادارة شؤون الحكم وحثت العراقيين على النهوض ومحاربة الاجنبي والغاء المعاهدات الجائرة التي تكبل الوطن بالاغلال واثر سقوط الوزارة السعدونية الثانيـة التي عقدت معاهدة ١٣ كانون الثاني ١٩٢٦ مع بريطانيا وتأليف الوزارة العسكرية الثانية توقف جريدة نداء الشعب عن الصدور في ٩ تموز ١٩٢٧ ٠

كما اصدر حزب الاخاء الوطني الذي تأسس في ٢٥ تشرين الثانـي ١٩٣٠ بزعامة ناجي السويدي ورشيد عالي الكيلاني وعلى جودت الايوبي وحكمت سليمان ومحمد رضا الشبيبي جريدة الاخاء الوطني في ٢ آب ١٩٣١ لتكون لسان حاله، وقد جاء في ترويستها انها « جريدة يوميـة سياسيـة جامعة » وقد كرست الجريدة صفحاتها لنشر اهداف الحزب القاضية « ببذل الجهود لتنبيه الشعب العراقي الى الاخطار المحدقة به من الوجهات السياسية

والادارية والاقتصادية والعمل على تأليف رأي عراقي عام لمكافحة كل مامن شأنه ان يشوب استقلال البلاد بأية شائبة أو يخل بالوحدة العراقية او ينافي احكام القوانين والعمل على صيانة حقوق العراق في مرافقه الاقتصادية • وقد كانت الجريدة شديدة الوطأة على الحكومة السعيدية القائمة انذاك وخصصت حقلا واسعا في صفحتها الاولى لانتقاد رجال السلطة وفي ٢ تشرين الاول ١٩٣١ عين كامل الجادرجي مسؤولا للجريدة بدلا من عبـد الاله حافظ • واستغلت معظم افتتاحياتها في انتقاد سياسة الحكومة وخاصة في اتجاهها العنف ضد الصحفيين الوطنيين المعارضين ونتيجة لمقالاتها الجريئة ضد السلطة الحاكمة فقد اتخذت حكومة السعيد قرارا في ١٣ كانون الثاني ١٩٣٢ بمنع اصدارها فاحتجبت عن قرائها •

لقد استفاد حزب الاخاء الوطني من جريدة « البلاد » لصاحبها روفائيل بطي كثيرا • وكان بطي قد اصدر جريدته منذ ٢٥ تشرين الاول ١٩٢٩ بست صفحات وجاء في ترويستها انها « جريدة يومية سياسية جامعة » تصدرها شركة روفائيل بطي وجبرائيل ملكون وقد ساندت هذه الجريدة سياسة ياسين الهاشمي الداعية الى تسلم العراقيين لمسؤوليات الدولة والاخذ بالوسائل الممكنة لرفاه العراق وتقدمه •

وساهم في تحرير جريدة البلاد مجموعة بارزة من الكتاب والادباء امثال فهمي المدرس وابراهيم صالح شكر ومعروف الرصافي ومصطفى علي وعلي الشرقي ويوسف رجيب وجميل صدقي الزهاوي ويوسف غنيمة والاديب المصري احمد حسن الزيات الذي كان يعمـل آنذاك مدرسا للادب العربي في دار المعلمين العالية ببغـداد •

ولقد اهتمت الجريدة فضلا عن النواحي السياسية بالشعر والقصة والسينما والمسرح وافردت بعض صفحاتها لشؤون الطلبة • نشرت جريدة البلاد نهجها في افتتاحية عددها الاول مشيرة الى العمل وفق ماتقتضيه مصلحة

البلاد وكل مصلحتها بل اكسير حياتها الحرية والاستقلال فمن اتفق مع هذا المبدأ فالجريدة معولة عليه ناصرة له ومن يعتدي على البلاد فهو عدوهـا سواء كان محسوبا ام اجنبياً عنها ، لذلك حملت الجريدة بشـدة علـى سلطات الانتداب البريطاني في العراق وبعد صدور العدد (٢١١) من جريدة البلاد في ٢١ تموز ١٩٣٠ قامت الحكومة السعيدية بتعطيلها .

وفي الموصل كان لجريدتي الجزيرة والعهد موقفهما الصريح والواضح من سلطة الانتـداب البريطاني . وجريدة الجزيرة كما جـاء في ترويستها « يومية سياسية وطنية حرة تصدر مرتين في الاسبوع مؤقتا » وقد صدر عددها الاول في ٢٤ آذار ١٩٢٢ وصاحبها مكي الشربتي ، وهو من العاملين في الحركة العربية القومية في الموصل منذ اواخر العهد العثماني وقد عبرت منذ صدورها عن اتجاهات الرأي العام الموصلي عامة وجمعية العهد العراقي فرع الموصل خاصة . فقد كتبت مقالا في ١ نيسـان ١٩٢٢ بعنـوان « الصداقة العراقية ــ الانكليزية وكيف تدوم » اوضحت فيه رغبة العراقيين في حكـم انفسهم بأنفسهم وكشفت الاخطار التي تنجم عن معارضة هذه الرغبة وقالت « ان العراقيين يريدون ان يكونوا اسيادا في بلادهم احرارا في عقر دارهم » . واضافت قائلة بان زمان الغش وقلب الحقائق قد مضى والانكليز يقدرون اكثر منا الاضرار التي لحقت الطرفين من جراء تلك السياسة .

وفي عددها الصادر في ٤ نيسان ١٩٢٢ قالت جريدة الجزيرة ليس من الحكمة الركون الى الهدوء عند هضم الحقوق . كما هاجمت تصريح المستر ونستن تشرشل وزير المستعمرات البريطاني في ٢٢ أيار ١٩٢٢ القائل بان الملك فيصل وحكومته لم يرفضا قبول الانتداب البريطاني على العراق . فقالت في مقال نشرته في ١٠ حزيران ١٩٢٢ بعنوان « المعاهدة والانتداب » جاء فيه « ان الشعب العراقي يرى نفسه محقا بمقت هذه الكلمة (الانتداب) ويفسـرها تفسيرا يحق فيه ان تكون كلمة استعباد من احدى الكلمات المرادفة لها » .

لقد احتجبت جريدة الجزيرة بعد صدورها بستة اشهر ثم صارت تصدر بشكل مجلة بقطع الربع مدة ثلاثة اشهر في عشرين صفحة وفي الشهر مرتين ثم بشكل جريدة بصفحتين مرتين في الاسبوع وكان صدورها بشكل مجلة في ٢٢ شـباط ١٩٢٣ .

هذا وقد كان للجو السياسي العام الذي ساد الموصل اثر مطالبة تركيا بها وقرار عصبة الامم في ٣٠ ايلول ١٩٢٤ لدرس المشكلة وتخطيط الحدود العراقية ـ التركية اثر كبير في تحفيز الموصليين على تأليف الاحزاب السياسية واصدار صحف جديدة للوقوف ضد الدعايات التركية اولا ولتاكيد عروبة الموصل ثانيا . ومن الاحزاب التي انشئت حزب الاستقلال العراقي الـذي اسس في الاول من ايلول سنة ١٩٢٤ . وقد رفع الحزب شعار العهديين السابق « ليس للانسان الا ما سعى » موضحا اهمية العمل الجدي لتأكيد استقلال العراق بحدوده الطبيعية ووضع الحزب قول الملك «العراق المستقل لا يتجزأ» قاعدة لسياسته الداخلية والخارجية . ومن ابرز قادة الحزب مكي الشربتي وابراهيم عطار باشي وسعيد ثابت وجميل دلالي . وقد اصدر الحزب جريدة (العهد) لتكون لسان حاله وقد ظهر العـدد الاول في ٢٠ كانون الثانـي ١٩٢٥ .

وكانت الجريدة تصدر ثلاث مرات في الاسبوع وحـرر فيها الكتاب والادباء الموصليون فضلا عن اعضاء الحزب المذكور .

دارت معظم مقالات جريدة العهد حول قضية الموصل وكانت تركز على الجوانب التاريخية والاقتصـادية والجغرافية للمشـكلة وقد استخدمـت « الكاريكاتير » في تأييد الحقوق العربية في الموصل وكثيرا ما اوقفت صفحاتها لنشر المقالات التي تصف اوضاع الموصل خلال حكم الاتحاديين . ونقلت جريدة العهد نشاطات لجنة الدفاع الوطني التي تأسست في الموصل بـين

٢٥ ـ ٢٧ كانون الثاني ١٩٢٥ للدفاع عن عروبة الموصل•وقد هاجمت صحيفة العهد تصديق معاهدة ١٩٢٦ ونشرت البيانات الكثيرة ضدها ونتيجة لمواقفها اصدرت وزارة الداخلية قرارا بتعطيلها •

ب ـ صحافة الاحزاب الحكومية

لقد كان للاحزاب الحكومية صحافتها الخاصة بها كذلك • ولعل في •قدمة الصحف التي صدرت خلال الفترة جريدة «العاصمة» التي صدر عددها الاول في ٥ تشرين الثاني ١٩٢٢ لتكون لسان حال الحزب الحر العراقي المؤسس في ٣ أيلول ١٩٢٢ ومن مؤسسيه محمود النقيب الذي استفاد من الجريدة المذكورة لشد ازر وزارة ابيه عبد الرحمن الكيلاني وقد جاء في ترويستها انها « جريدة يومية سياسية صاحبها حسن الغصيبة ومديرها المسؤول المحامي شاكر غصيبة» وقد كرست جهدها لمساندة السياسة البريطانية في العراق والدفاع عن معاهدة ١٩٢٢ ولم تستمر في الصدور اذ احتجبت في ٢٤ آب ١٩٢٣ بسبب تعيين محررها رئيسا لديوان الانشاء في المجلس التأسيسي •

اما جريدة (اللواء) فقد صدر عددها الاول في ٢٠ آذار ١٩٢٨ لتكون لسان حال حزب التقدم الذي تأسس في ٢٦ حزيران ١٩٢٥ وعهد بامتيازها ومسؤولية ادارتها الى محمد سعيد العزاوي وجاء في ترويستها « انها جريدة يوميةسياسيةاجتماعيةانتقادية تصدر ثلاث مرات في الاسبوع مؤقتاً»وقد كرست صفحاتها للدفاع عن مبادىء حزب التقدم واهدافه المتمثلة بادخال العراق ضمن عصبة الامم والاحتفاظ بالوحدة العراقية بحدودها الطبيعية والحصول على الاستقلال التام وتطوير الاوضاع العامة وتقوية الجيش ويتم ذلك من خلال تأليف اغلبية في البرلمان • وقد انتقدت الجريدة خصوم حزب التقدم امثال ياسين الهاشمي الذي اتهمته باستعمال الشدة ضد المعارضين لسياسته ولاسيما عند تسلمه منصب وزير المالية في الحكومة السعيدية وبعد مرور مايقرب من

اربعة اشهر من صدورها اغلقتها وزارة جعفر العســكري في ٩ تموز ١٩٢٨ فاصدر الحزب جريدته الثانية « التقدم » .

صدر العدد الاول من جريدة التقدم في ١٦ تشرين الثاني ١٩٢٨ وقــد جاء في ترويستها « انها جريدة يوميــة سياسية صاحب امتيازها ومديرهــا المسؤول المحامي سلمان الشيخ داود » . وقد دافعت الجريدة عن وجهة نظر الحزب وخاصة في مجال تأييد اقتراح وزارة السعدون الثالثة في ١٤/كانون الثاني/١٩٢٨ والخاص بابرام معاهدة مع بريطانيا على غرار مشروع المعاهدة المصرية ــ البريطانية . الا ان الصحف المعارضة امثال صحيفتي الاستقلال والعراق هاجمتها بشدة فلم تتمكن من الثبات فتوقفت عن الصدور في ٥ أيــــار ١٩٢٨ .

وكان لحزب العهد العراقي الذي اسسه نوري السعيد في ١٤ تشرين الاول ١٩٣٠ جريدتان : صدرت الاولى باسم (صدى العهد) فيبغداد في ٧ آب ١٩٣٠ وصدرت الثانية في ٦ أذار ١٩٣٣ باسم (الطريق) . وقد دخلت هاتان الجريدتان فيمساجلات طويلةومعارك كلامية عديدة معصحف الاحزاب الوطنية مدافعة في ذلك عن معاهدة ١٩٣٠ بين العراق وبريطانيا كما اندفعت بحماس كبير للدعوة الى وحدة العراق وسوريا وهي الفكرة التي نادى بها نوري السعيد من قبل لتوحيد المشرق العربي . وفي اواخر ســنة ١٩٣٢ توقفت الجريدة الاولى عن الصدور وذلك في عهد حكومة ناجي شوكت . أما الجريدة الثانية فقد عطلتها حكومة انقلاب ١٩٣٦ وذلك في تشرين الثاني ١٩٣٦ .

ج ـ صحف اخرى

لقد شهدت هذه الفترة كذلك ظهور صحف سياسية الا انها غير حزبية منها صحف جادة ومنها صحف هزلية ولعل من ابرز الصحف الجادة جرائد

الفلاح والمفيد والعالم العربي والوطن والفرات والسياسة والاخبار وبغداد والعقاب والاهالي اما الصـحف الهزلية فمنها جريدة (كناس الشـوارع) وجريدة حبزبوز •

صدر العدد الاول من جريدة الفلاح في بغداد ٢٠ حزيران ١٩٢١ وقد جاء في ترويستها انها «جريدة يومية سياسية علمية» صاحبها ومديرها المسؤول عبد اللطيف الفلاحي • وقد دعت الجريدة منذ صدورها الى تأسيس حكومة دستورية ملكية نيابية•كما نشرت مقالات عديدة في الجوانب العلمية والادبية والاقتصادية لكنها احتجبت عن الصدور في ٢٢ كانون الثاني ١٩٢٢ بعد ان عين صاحبها مديرا لشرطة بغـداد •

أما جريدة « المفيد » فقد اصدرها الصحفي المعروف ابراهيم حلمي العمر في بغداد وظهر عددها الاول في ١١ نيسان ١٩٢٢ وبسبب مواقفها الوطنية لاقت الكثير من عنت واضطهاد السلطة الحاكمة فبعد هجومها العنيف علـى فكرة بريطانيا الرامية ربط العراق بمعاهدة ١٩٢٢ قامت حكومة عبد الرحمن الكيلاني بتعطيلها في ٢٤ آب ١٩٢٢ وابعاد صاحبها الى جزيرة هنجام •

أما جريدة العالم العربي التي صدر عددها الاول في ٢٧ آذار ١٩٣٤ فقد عرفت بمواقفها الوطنية والقومية ونشرها المقالات العديدة التي تحذر مـن الخطر الصهيوني على الوطن العربي • وكان رئيس تحريرها سليم حسون ويبدو انها اعتمدت في كتابة مقالاتها ونشـر اخبارها على الترجمة ونشـرت الجريدة في افتتاحية عددها الاول خطتها القائلة بانها « نازلة على هدى الله مع المجاهدين في سبيل المصلحة العامة قاطعة للأمة عهود الاخلاص والامانة »• وقد هاجمت الجريدة معاهدة ١٩٣٠ وسعت لنشر المبادىء الوطنية والقومية وحاربت النعرات الطائفية واكدت اهمية الوحدة الوطنية وحذرت من مكائد الاستعمار ودسائسه • ونتيجة لمواقفها من معاهدة ١٩٣٠ اصدرت حكومة نوري السعيد امرا باغلاقها فاحتجبت في ٧ تشرين الثاني ١٩٣٠ •

كما اصدر عبد الغفور البدري في ٢ أيار ١٩٢٩ جريدة باسم (الوطن) وقد اهتمت بنشر المقالات والقصائد الوطنية التي تدعو الشعب الى التحرر والخلاص من ربقة الاستعمار البريطاني ونددت باستغلال الشركات الاجنبية لجهود العمال العراقيين وترجيح العمال الاجانب عليهم . وحذرت من نوايا الانكليز وخصصت حقلا لذلك باسم « صفحات من التاريخ » للتنديد بالسياسة البريطانية وكان من ابرز محرريها سلمان الصفواني وعبد الرحمن البناء وقد استمرت في الصدور حتى ٦ كانون الثاني ١٩٣٠ . كما صدرت جريدة باسم (الفرات) في ٧ أيار ١٩٣٠ وقد جاء في ترويستها انها جريدة يومية سياسية عامة صاحبها ورئيس تحريرها محمد مهدي الجواهري وكرست معظم صفحاتها لمهاجمة معاهدة ١٩٣٠ واهتمت كذلك بالأدب العربي وبالنهضة الاجتماعية وبمسائل التجديد . وفي ٤ حزيران ١٩٣٠ اصدرت ملحقاً باسم « الفرات المسائي » ولم تحبذ الجريدة استعمال القوة ضد سلطات الانتداب البريطاني وانما دعت الى اتباع الطرق السلمية لنيل الاستقلال التام وقد توقفت عن الصدور في ٢٣ آب ١٩٣٠ .

وفي ٢٦ كانون الثاني ١٩٣١ صدرت جريدة (السياسة) لصاحبها عبد الاله حافظ . نددت الجريدة منذ صدورها بالانتداب البريطاني واساليبه وحثت في سلسلة المقالات ابناء الامة العربية على ان يجمعوا كلمتهم وينبذوا الخصومات فيما بينهم وقد ضاقت وزارة نوري السعيد ذرعا بها فعطلتها في ٢٤ آذار ١٩٣١ .

كما صدرت في بغداد جريدة باسم الاخبار في ١٨ حزيران ١٩٣١ وكان صاحب امتيازها ومديرها المسؤول المحامي روفائيل بطي وقد انتقدت هذه الجريدة سياسة نوري السعيد الرامية الى خنق الحريات والضغط على الصحف المعارضة وانتقدت كذلك بعض اجراءات حكومته المالية والادارية وعالجت القضايا التعليمية وهاجمت فكرة الاستعانة بالخبير الامريكي مونرو وجماعته

في دراسة التعليم الوطني في العراق وقد اقدمت وزارة السعيد في ٣٠ آب ١٩٣٥ علـى ايقافهـا •

وقد صدرت جريدة اسبوعية سياسية عامة في بغداد بأسم (بغداد) في ٢٠ نموز ١٩٣١ وكان صاحب امتيازها عبد الرحمن البناء ومديرها المسؤول احمد حامد الصراف المحامي • ولم تقتصر في مقالاتها على الجوانب السياسية وانما اتسعت لتتناول جوانب ادبية واجتماعية وقد اوقفت الكثير من الصفحات لتأكيد الوحدة الوطنية وتفنيد الاشاعات الضارة بهذه الوحدة ولصعوبات فنية ومادية احتجبت الجريدة في ٢٣/شباط ١٩٣٥ •

وفي ١٧ تشرين الثاني ١٩٣٣ صدر العدد الاول من جريدة (العقاب) لصاحبها يونس بحري وابرز منحرر فيها امين سعيد ومحمد مهدي الجواهري • وقد كرست الجريدة بعض صـفحاتها للدفاع عن الدستور لذلـك انكرت الجريدة اسلوب سيطرة الحكومة على الانتخابات النيابية التي جرت في سنة ١٩٣٥ واهتمت الجريدة باخبار مصر فنشرت مقالات عديدة عن نشاط حزب الوفد واستمرت في الصدور بصورة متقطعة حتى احتجبت في ١٥ كانـون الاول ١٩٣٨ نظراً لسفر صاحبها الى خارج العراق •

أما جريدة الاهالي فقد كانت بحق جريدة سياسية متميزة اذ عبرت عن فكر جماعة من الشباب الذين اتفقوا في سنة ١٩٣١ على توحيد مساعيهم والعمل مشتركا في تنظيم واحد يستهدف تطوير المجتمع العراقي سياسيا واقتصاديا واجتماعياً باسلوب جديد يعتمد الديمقراطية ويختلف عن تلك الاساليب التي درج عليها الساسة القدامى انذاك وهؤلاء الشباب هم محمد حديد وعبـد الفتاح ابراهيم وحسين جميل وعبد القادر اسماعيل وقد قرروا ان يبدأ عملهم باصدار جريدة يومية سياسية ، ثم يوسعوا عملهم بعد ذلك بنشر الرسائـل والكتب واتفقوا على تسمية جريدتهم بـ « الاهالي » وكانوا يقصدون بذلك

ان الوطنية تعني فضلا عن المطالبة بالاستقلال التام العناية الوافية بمصالح « الشعب » أو « الاهالي » واوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية وان المطالبة بالاستقلال يجب ان تستند على الشعب وان ذلك يقتضي نشر الوعي السياسي باساليب علمية عصرية بين الاهالي .

صدر العدد الاول من الجريدة يوم ٢ كانون الثاني ١٩٣٢ وقد كتب تحت اسم الجريدة جملة « يصدرها فريق من الشباب » والى جانب الاسم « صاحبها ومديرها المسؤول حسين جميل » المحامي والذي تولى كتابة اكثر افتتاحيات الجريدة . اما عبد الفتاح ابراهيم فقد ترجم تاريخ حياة غاندي ثم تلاها بترجمات اخرى ، وترجم محمد حديد فصولاً عن آراء الاقتصادي المعروف هارولد لاسكي ونشر مقالات عن الجمعيات التعاونية وقد ساندت الجريدة الدعوة التي قامت بها جمعيات العمال سنة ١٩٣٣ الى مقاطعة شركة الكهرباء في بغداد ودعت الى تأسيس بنك اهلي وعارضت قانون حقوق واجبات الزراع لما تضمنه من غمط لحقوق الفلاح ونادت بضرورة الغاء قانون دعاوي العشائر وتبنت مشروع محو الامية وعارضت قانون المطبوعات لما تضمنت نصوصه من احكام حق تعطيل الصحف بدلا من السلطة التنفيذية وعارضت قانون الدعايات المضرة وصيانة الامن ودعت الى حرية الاجتماع والتظاهر والنشر وكافحت كل المظاهر المخالفة للدستور والديمقراطية .

كانت جريدة الاهالي ، كما يقول الدكتور فاضل حسين تتميز بطابع موضوعي يظهر في افتتاحياتها وفي اخبارها الداخلية والخارجية كما حافظت على مستوى عال من الرزانة ولكنها شذت عن ذلك خلال انقلاب سنة ١٩٣٦ وانتخاب بعض جماعة الاهالي نوابا في مجلس النواب امثال عبدالقادر اسماعيل ومحمد حديد وعزيز شريف وصادق كمونة وبالرغم مما عرف عن دمقراطية وشعبية الجريدة ومصدريها فلم تكن للجريدة او لمصدريها في الواقع فلسفة اجتماعية وثقافية واضحة المعالم .

لقد كان من الطبيعي ان لا تمر مقالات الجريدة بسلام بل كانت جريدة الحزب الحاكم « صدى العهد » ترد عليها باستمرار كما انها تعرضت للتعطيل لاكثر من مرة حتى توقفت عن الصدور . وابتداء من ١٤ آذار ١٩٣٤ صدرت « صوت الاهالي » بدلا عنها وهي تحمل اسم كامل الجادرجي صاحبا ومديرا مسؤولا لهـا .

الصحافة الهزلية

وخلال هذه الفترة صدرت جرائد هزلية منها جرائد « كناس الشوارع » و « حبزبوز » « قرندل » وقد ظهر العدد الاول من جريد كناس الشوارع في الاول من نيسان ١٩٢٥ وكان صاحبها ومديرها المسؤول ميخائيل تيسـي وكان نقدها منصبا على شؤون الحياة المختلفة التي ادت الى تأخـر العراق ثقافيا واقتصاديا ودارت معظم مقالاتها على ضرورة الاهتمام بالنظافة وانارة الشوارع وتبليط الطرق وردم المستنقعات وكشف المتلاعبين بقوت الشعب .

كما انتقدت الخرافات والبدع ودعت الى تربية الجيل وتنشأته تنشئة حديثة ووجهت هجوما عنيفا على موظفي الدولة المتهاونين في اداء واجباتهم وكثيرا ما استخدمت الشعر الشعبي والغمز واللمز كأساليب للنقد السياسي وقد احتجبت في ٢ كانون الاول ١٩٢٦ اثر تعرض صاحبها لمحاولة اغتيال .

أما جريدة « حبزبوز » الاسبوعية فتعد من ابرز الجرائد الهزلية ذات الطابع السياسي . وقد جمعت بـين الكاريكاتير الانتقادي والمقال الهزلـي الساخر . صدر عددها الاول في ٢٩ أيلول ١٩٣١ وكان صاحبها ومديرها المسؤول نوري ثابت . وسلكت الجريدة طريقة الاسلوب الرمزي ولجأت الى سرد الاحداث التي تبين مساوىء الادارة الحكومية وتقاعس الموظفين وتعتمد فن الكاريكاتير الذي دخل الصحافة العراقيه لاول مرة حين تريد ابراز فكرة أو موقف معين . ولعل من ابرز رسامي الكاريكاتير الذين عملوا في الجريدة

سعاد سليم وعبدالجبار محمود ومحمود ابو طبرة•كما استفادت الجريدة من الشعر الشعبي في هذا المجال • وفي ١٢ تشرين الاول ١٩٣٨ توفى صاحبهـا فاحتجبت عن الصدور وكان لها تأثيرها بين القراء اذ لاقت رواجا شديدا •

وفي ٢٠ شباط ١٩٤٧ صدر العدد الاول من جريدة ساخرة بغدادية باسم (قرندل) ويعد صاحبها صادق الازدي من ابرز الصحفيين العراقيين الذين استخدموا النقد المشوب بالسخرية في الكشف عن اعداء الوطن وتحديـد مواقع الخيانة في مؤسسات العهد الملكي • وقد جاء في ترويستها انها مجلة « فكاهية اسبوعية » وصدرت بـ (٢٤) صفحة وبغلاف ذي لونين وقد اسهم في تحريرها عدد من الكتاب والادباء المعروفين منهم حافظ القباني وسعاد الهزمزي وعبد المجيد لطفي وجعفر الخليلي وعبد الرزاق الهلالي وخالـد قادر وقد استمرت في الصدور حتى اندلاع ثورة ١٩٥٨ •

لقد عرف تاريخ الصحافة العراقية في هذه الفترة كذلك صحفا متخصصة للادباء والطلبة والعمال والنساء وكان للحكومة صحيفة رسمية خاصة بها ولنتعرف أولا الى الصحف الادبية ••

الصحافة الادبية

كانت مجلة (الزنبقة) اول مجلة ادبية اذ صدرت في الاول من تشرين الاول سنة ١٩٢٢ بـ (١٩٢) صفحة من القطع الصغير وكان صاحبها ومديرها المسؤول عبدالاحد حبوش ورئيس تحريرها عطا عون ، وقد عنيت المجلـة بمختلف فنون الادب من قصص وروايات وشعر ومسرحيات وقد ابدت غيرة محمودة على اللغة العربية وراحت تقارن بين ماكانت عليه من رقي وازدهار يوم كانت الامة العربية في عزها وبين مأأصابها من ضعف وخمول نتيجة لسيادة العناصر الدخيلة وبعد صدور عددها الثاني عشر في ١٥ آذار ١٩٢٣ احتجبت عن قرائها •

وكانت جريدة « الناشئة الجديدة » اسبوعية ادبية جامعة صدر عددها الاول في ٢٧ كانون الاول ١٩٢٢ وصاحبها الاديب ابراهيم صالح شكر وقد بينت خطتها حين نشرت في عددها الثاني الصادر في كانون الثاني ١٩٢٣ مقالا بعنوان (اداب الانتقاد) جاء فيه : « ••• يعرف القراء اننا من القائلين بضرورة الانتقاد أذا كان مقتصرا على مناقشة الرأي وتفنيد الحجج بحجج اخرى وانما ننقم منه ونشنع به أذا كان من نوع القدح والطعن والسباب لما في هذا النوع من الخروج عن الاسلوب والمناظرة » ولما عرف عن صاحب الناشئة الجديدة من جرأة واتخاذه من قلمه سيفا شهره على الساسة المفرطين في حق الوطن ومعولا يهدم به الجمود والجهل فقد تعرضت جريدته للتعطيل مرات عديدة واستمرت في الصدور حتى ٩ حزيران ١٩٢٥ حين احتجبت بصورة نهائية بعد ان ضاقت السلطات الحكومية ذرعا بنقدها اللاذع •

أما مجلة المرشد فقد صدرت ببغداد في كانون الاول ١٩٢٥ وكان السيد محمد عبد الحسين صاحب امتيازها • اما ابرز من حرر فيها فهم هبة الدين الشهر ستاني وعبدالمحسن السهروردي وعبدالرزاق الحسني وطنطاوي جوهري « العالم المصري المعروف » وعيسى اسكندر المعلوف الاديب اللبناني وقد عنيت بالمباحث اللغوية والتاريخية واهتمت بالظواهر الاجتماعية السائدة في المجتمع ومنها ظاهرة الطلاق واستمرت في الصدور حتى كانون الاول ١٩٢٩ •

وقد اصدر الملاعبود الكرخي جريدة ادبية اسبوعية باسم (الكرخ) ففي ١٠ كانون الثاني ١٩٢٧ صدر العدد الاول وكانت السخرية تغلب على معظم مقالاتها الادبية والسياسية كما عمدت الى نشر الشعر الشعبي واستخدمته في التنديد بالاستعمار واساليبه واستمرت في الصدور حتى ٣ كانون الاول ١٩٢٨ وفي ١٧ نيسان ١٩٢٨ اصدر صاحبها جريدة « صدى الكرخ » فكانت جريدة ادبية اسبوعية مديرها المسؤول حسين الرحال

وقد دعت الجريدة الى الاخلاص في العمل الصحفي الادبي وربطت بين الصحافة الادبية والنزعة الوطنية مشيرة الى من واجبات الاديب الرئيسة العناية بقضايا وطنه ومشكلات امته • وفي ٢ حزيران ١٩٢٨ اوقفتها السلطة عن الصدور بحجة عدم التزامها بالنهج الادبي فاصدر صاحبها جريدة اخرى باسم « صدى التعاون » في ٢ نيسان ١٩٣١ والتي طغت عليها مسحة من التشاؤم المستمرة ونتيجة لانتقاها قانون الصحافة قررت حكومة نوري السعيد غلقها في ١٤ أيار ١٩٣١ •

وفي ١١ تموز ١٩٢٧ صدرت جريدة «الزمان» وقد جاء في ترويستها انها جريدة يومية سياسية اجتماعية انتقادية وكان صاحبها ورئيس تحريرها ابراهيم صالح شكر . وقد اهتمت بالموضوعات الادبية والسياسية وانتقدت اجراء الحكومة بفصل الطلبة الذين تظاهروا ضد زيارة الفرد موند الصهيوني لبغداد لذلك اغلقت في ١٦ ايلول ١٩٢٨ •

وقد صدرت في بغداد مجلة باسم « الهدى » في ١٧ آب ١٩٢٨ باربعين صفحة من القطع المتوسط وصاحبها ومديرها المسؤول عبد المطلب الهاشمي وعنيت المجلة بتراجم الادباء ونشرت نماذج من الشعر الحديث واستمرت في الصدور ثلاث سنوات اذ احتجبت في ١٧ آب ١٩٣١ •

وفي ٢٨ تشرين الثاني ١٩٣٠ اصدر لطفي بكر صدقي مجلة ادبية اسبوعية جامعة باسم « الوميض » بسبع عشرة صفحة من الحجم الكبير واهم من حرر فيها ابراهيم صالح شكر ويوسف رجيب وامين نخلة ومعروف الرصافي ومصطفى علي • واهتمت المجلة بالادب العراقي والعربي والعالمي وبالنقد الادبي ودعت الى خلق ادب عراقي يتسم بالابداع والاصالة ولعل من اروع ماكتب فيها مقالات ابراهيم صالح شكر الموسومة بـ « قلم وزير » والتي اتخذ منها من قلم الرصاص رمزا لصدق الكلمة والاخلاص في النصيحة والبعد

عن المداهنة والمصانعة واستمرت في الصدور حتى ألغي امتيازها في ١٧ كانون الاول ١٩٥٤ .

الصحافة الطلابية

أما ابرز صحف الطلبة التي صدرت في هـذه المرحلة فكانت مجلات التلميذ العراقي والكشاف والمدرسة والطلبة والفتوة ودنيا الاطفال وروضة الاطفال وسند وهند والطلبـة .

صدرت مجلة التلميذ العراقي في التاسع من تشرين الاول ١٩٢٢ وكانت ترويستها تشير الى انها « مجلة مدرسية تهذيبية اسبوعية » وقد توجهت هذه المجلة الى تلاميذ المدارس وكان مصطفى علي المدرس بمدرسة تطبيقات دار المعلمين ببغداد انذاك مديرا لادارتها ابتداء من العدد الاول حتى العدد العاشر الصادر في ١١ كانون الثاني ١٩٢٣ ثم تولى ادارتها محمود حلمي صاحب المكتبة العصرية حتى العدد الثلاثين الصادر في ٢١ نيسان ١٩٢٣ .

ومن ابواب المجلة : الدنيا ومافيها ، معرض المشاهير ، الشعر المدرسي ، العناية بالصحة، وقد ساهم في تحريرها عدد من الادباء والكتاب العراقيين منهم هاشم الالوسي ورفائيل بطي وعبـد الرزاق الحسني والشيخ محمد رضـا الشبيبي ومحمد مهدي البصير ومصطفى علي . كما نشرت بضع مقالات لعدد من الطلبة منهم مصطفى جواد وحسين جميل وطالب مشتاق .

وفي ١٥ حزيران ١٩٢٤ صدرت مجلة « الكشاف العراقي » وجاء في ترويستها انها مجلة علمية ادبية تهذيبية تحتوي على كل مايهم الكشاف معرفته من المواد العلمية والعملية وتستهدف نشر حركة الكشاف ومساعدة نهضتها في العراق وتصدر في منتصف كل شهر وكان محمود نديم مدير شؤونها وقد اهتمت المجلة باخبار ونشاطات وتعليمات الكشافة العراقية ولم تواصل المجلة الصدور بانتظام واستمرت اقل من عامين وصدر منها (١٥) عددا .

واصدر محمود نديم مجلة اخرى هي « المدرسة » وجاء في ترويستها انها « مجلة شهرية جامعة تبحث في العلوم والمواضيع المدرسية للبنين والبنات خاصة » وقد صدر عددها الاول في ١٥ أيار ١٩٣٦ ومن ابوابها : الشعر ، المواد الدراسية ، حديقة الفتاة ، عظماء التاريخ ، ثمرات اقلام التلاميذ . وقد نشرت معظم موضوعاتها دون الاشارة الى كتابها ولم تلبث المجلة ان توقفت عن الصدور بعد بضعة اعداد .

وفي الاول من كانون الثاني ١٩٣٢ صدرت مجلة « الطلبة » وجاء في ترويستها انها « مجلة اسبوعية علمية ثقافية للبنين والبنات » وكان عباس فضلي مديرها المسؤول وقد عنيت المجلة بالمعلومات العامة والمعارف العلمية والصحية ومن ابوابها : علوم وفنون ومخترعات ، ثمار الاقـلام اليانعة ، المشاهير والعظماء ، صحيفة الطالبات ، الالعاب الرياضية . ومن بين الذين نشرت لهم المجلة : حكمت عبد المجيد ونوري ثابت وشوقي الداودي واحمد حقي الحلي ومصطفى جواد واسماعيل الغانم ومتي عقراوي وعفيفة رؤوف وامينة يوسف ومصطفى علي وفرج الله ويردي وجعفر الخليلي ولم تكمل المجلة عامها الاول حيث توقفت عن الصـــدور .

كما صدرت في الثامن من تشرين الاول ١٩٣٤ مجلة « الفتوة » وجاء في ترويستها انها مجلة « علمية مدرسية لصاحبها سعدي خليل باشراف مديرية دار المعلمين » . وقد اهتمت المجلة بدعوة الفتية الى تحمل مسؤولياتهم في النهوض بالحاضر باعتبارهم ابناء شعب يتطلب العلم والصحة ويحارب الخرافات والمرض والفقر وعنيت بالتراث العربي الاسلامي ونبهت الفتية الى « العمل بيد واحدة وقلب واحد ولسان واحد لبناء كيان الامة العربية العتيد » ومن ابوابها : بلادنا العربية ، ابطالنا ، العلوم ، الفتاة ، الشعر ، الصحة ، بريـد المدارس ، صفحة الطلبة وقد حرر فيها خالد الهاشمي ، متي عقراوي ، عزيز

سامي ، جابر عمر ، درويش المقدادي ، محمد بديع شريف ، فاضل الجمالي ، ناجي معروف ، ابراهيم شـوكت .

واصدر زكي الحسني الشهير بـ (عمو زكي) مجلة دنيا الاطفال في ايار ١٩٤٥ وهدف هذه المجلة تقديم القصص التي نربي في نفوس الاطفال الخصال الطيبة وقد توقفت المجلة بعد فترة قصيرة من صـدورها .

هذا وقد اصدرت مديرية معارف لواء بغـداد في كانون الثاني ١٩٥٨ مجلة شهرية باسم « سند وهند » والتي عدد نفسها « مجلة جميع الاسـر التعليمية» . ومن ابوابها : مغامرات سند وهند، لكل قصة، هل تعلم، اختبر ذكاءك ، طالعت لك . وقد اكدت في افتتاحية العدد الاول اهمية المجلات المدرسية في « تنمية افكار الطلبة وتقويم ملكاتهم وصقل اذهانهم وفي تهيئتهم لمستقبلهم المنتظر » . ولم تستمر المجلة في الصدور طويلا اذ توقفت بعد صدور بضعة اعداد منها .

وفي شباط ١٩٥٨ صدرت مجلة باسم « الطلبة » في بغداد وذلك باشراف لجنة من ادارات المدارس النموذجية في مديرية معارف لواء بغداد «الاطراف» وقد اوضحت المجلة في افتتاحية العدد الاول خطتها قائلة « هذا هو العدد الاول من مجلتنا التي يتولى تحريرها طلبة مدارسنا واساتذتها المفكرون وقد صحت عزيمتنا على ان نجعل منها صحيفة للعلم والثقافة تهدف الى توجيه البنات والبنين لحياة أفضل فيما يكتبون ومن منهلها العذب يرتشفون » . وقد تضمنت المجلة العديد من القصص والمقطوعات الشعرية والمقالات التي ساهم فيها الطلبة اسهاما واضحا ومما يميزها عن غيرها من المجلات الطلابية صدورها بطباعة انيقة وبالوان وكانت تصدر بعشرين صفحة .

الصحافة النسوية

أما اول مجلة نسوية صدرت في العراق فكانت مجلة «ليلى» وصاحبتها بولينا حسون . وقد جاء في اعلى صحيفة الغلاف العبارة التالية « في سبيل نهضة المرأة العراقية» وفي ترويستها مايشير الى انها «مجلة نسائية شهرية تبحث في كل مفيد وجديد مما يتعلق بالعلم والفن والادب والاجتماع وتدبير المنزل» . وقد صدر عددها الاول في ١٥ تشرين الاول ١٩٢٣ والمرأة الحقيقية في نظر المجلة «هي من تحسن تنشيف الدموع كما تحسن التدبير والترتيب والتوفير وتعيب المجلة في احدى مقالاتها على النساء في بعض «البلدان الراقية» مطالبتهن بالمساواة مع الرجال كما تعيب عليهن عدم رضاهن « بمركزهن الطبيعي » ودور المرأة في نظر المجلة لن يكون اكثر من تقديم المرأة اعدادا من (الاولاد) الذين سيخدمون الامة وتنصح المجلة فيما تنصح به الامهات عدم التطرق الى المواضيع السياسية مع ابنائهن وتقصد المجلة بالمواضيع السياسية ما « يشم منه رائحة التفرقة والتمييز بين المواطنين » وفي الاعداد التالية في المجلة تخطت « ليلى » الاسلوب الذي عالجت به موضوعاتها تماما وكسرت الطوق الذي كانت قد ضربته على نفسها وقالت في احدى مقالاتها : (قد بلى الزمن .. الذي كان الرجل فيه يعتبر السيد المطلق يصنع بامرأته واولاده ما يهوى) .

وابدت مجلة (ليلى) اسفها لما اسمته بالخسارة العظمى التي تتكبدها بلادنا بحرمان المرأة من التهذيب الحقيقي وكررت عتبها على النساء اللواتي لم يتكاتفن لانقاذ انفسهن من هذه الحالة الكئيبة « المخجلة » التي قالت بانها ماعادت تطاق كما عتبت على الرجل تماديه في اهمال المرأة وتركها في حالة جمود . وبعد عامين من صدورها احتجبت كما هو الحال في غيرها من الصحف التي لاتلتزم منهجا معينا واضحا في المبدأ والاسلوب .

وبعد ثلاثة عشر عاما كاملة برزت مجلة « المرأة الحديثة » سنة ١٩٣٦ لصاحبتها « حميدة الاعرجي » وكانت هذه المجلة حدثا مميزا في تاريــخ الصحافة النسوية ذلك انها دعت منذ عددها الاول الى « تحطيم قيـــود التقاليد البالية والعمل على اعادة المرأة الى سالف عزها وعدم التفريق بينها وبين الرجل » وكان اهم مايميز مجلة المرأة الجديدة طابعها الناقد واستخدامها للكاريكاتير في معالجة الكثير من الظواهر الاجتماعية السلبية واهم معالجات المجلة قضية اجبار الفتيات على الزواج ممن لايرغبن ٠ وطرحها الاقتراحات الخاصة بتخفيض المهور لتشجيع الشباب من الزواج والمطالبة « بسن قانون للزواج الاجبـــاري » ٠

لم يكتب لمجلة « المرأة الحديثة » العيش لاكثر من ثمانية اعداد اذ صدرت بدلها مجلة نسوية باسم « مجلة فتاة العراق » لصاحبتها حسيبة راجي وكانت المحررة الوحيدة فيها « سكينة ابراهيم » ومما يلحظ على هذه المجلة انها لم تكن تختلف عن المجلة الاولى الافي تغيير اسم صاحبتها التي عينت معلمة بعد تخرجها من دار المعلمات ٠ وقد دعت المجلة الجديدة الى بعث روح التجدد الصالح ونبذ كل ماهو غير مستحسن ومحمود ٠ وبينت في افتتاحية عددها الاول انها ستكون خير واسطة للتعبير عن الاراء الجريئة دون اي تردد ٠ وقد اخذت المجلة على عاتقها كذلك مناصرة الشعب العربي الفلسطيني في الدفاع عن حقه المشروع في أرضه فتعقد على صفحاتها برلمانا نسائيا دوليا يفضح باسلوب كاريكاتيري الاعيب المستعمرين الانكليز الرامية لاطلاق يد الصهاينة في ارض فلسطين ٠ كما التزمت المجلة بنضال المرأة في كل مكان في العالم ٠ ولم تغفل المجلة الدعوة لتشجيع المرأة على النزول الى ميدان العمل جنبا الى جنب مع الرجل ومن اجرأ ما تناولته المجلة موضوع « القمار » الذي كان متفشيا يومذاك في بعض بيوتات الطبقات الخاصة فقد دعت الى محاربة تلك الرذيلة دون هوادة وهددت بنشر اسماء من لايرتد عن

ممارستها • وفي اسلوبها لاصلاح اوضاع المرأة دعت المجلة الى مقاطعة المنعوذين والدجالين واستخفت بالعقليات التي تركن الــى هؤلاء عنــد الشــدائد •

كما صدرت في سنة ١٩٣٦ جريدة بأسم (فتاة العرب) لصــاحبتها (مريم نرمة) وقد كرست الجريدة صفحاتها للدعوة الملحة لتعليم المرأة في الريف في وقت لم تكن فيه المتعلمات في المدينة نفسها الا قلة •

ثم توالى صدور المجلات النسوية في العراق ولعل من ابرز هذه المجلات مجلة الصبح لصاحبتها نهاد الزهاوي وصدرت في ٢١ آذار ١٩٣٦ • ومجلة « فتاة الرافدين » التي صدرت في البصرة سنة ١٩٤٣ ومجلة « تحرير المرأة » التي أصدرتها جمعية الرابطة النسائية وصدر عددها الاول في ٥ كانون الثاني ١٩٤٦ ومجلة الرحاب التي اصدرتها اقدس عبد الحميد في ١ آب ١٩٤٦ ومجلة « الام والطفل » الشهرية التي اصدرتها جمعية حماية الاطفال في ١٥ تشرين الاول ١٩٤٦ وماتزال مستمرة حتى يومنا هذا وممن تولى رئاستها الدكتورة لمعان امين زكي وعبد الامير علاوي • كما صدرت في بغداد سنة ١٩٤٨ مجلة « بنت الرشيد » وجاء في ترويستها انها مجلة عامة ادبية اجتماعية فنية مصورة صاحبتها درة عبد الوهاب • كما صدرت ببغداد في ايار ١٩٥٠ مجلة الاتحاد النسائي لصاحبتها آســيا وهبي وبعده توقفت عن الصدور لتعود ثانية في سنة ١٩٥٨ •

الصحافة العمالية

ظهرت الرغبة في اصدار مجلات عمالية منذ العشرينات من هذا القرن حين اصبح بالامكان التحدث عن بوادر ظهور صحافة عمالية فقد اصدر اول رئيس لجمعية عمال المطابع العراقية عباس حسين آل الجلبي جريدة باســم « الحقائق » في ٢٢ شباط ١٩٢٤ • واهتمت الجمعيات والنوادي العراقية

بالصحافة في هذه الفترة فاصدر بعضها صحفا منها المجلة الطبية البغدادية التي نشرتها الجمعية الطبية وصدر عددها الاول في ١ حزيران ١٩٢٥ . وصدرت مجلة المحامي الشهرية في تشرين الاول من العام نفسه . ولم يكن اصدار صحيفة عمالية من الامور الهينة في ظروف العراق يومذاك . أما المحاولات الاولى لاصدار صحافة نقابية في العراق فترجع الى سنة ١٩٢٩ حين تقدمت جمعية تعاون الحلاقين بطلب لاصدار جريدة باسم «التعاون» وتأخر صدور الجريدة حتى ١٤ تشرين الثاني سنة ١٩٣٠ حين صدر العدد الاول منها واصدر راجي العسكري احد اعضاء جمعية عمال الميكانيك على اصدار جريدة باسم « صدى التعاون » وذلك في ١٩ كانون الاول . وترتبط المحاولة الثانية لاصدار جريدة نقابية للعمال في العراق باسم « جمعية اصحاب الصنائع » محمد صالح القزاز التي صدر اول عدد منها في اوائل خريف سنة ١٩٣٠ ولم يصدر منها سوى ثلاثة اعداد فقط وصودر ثالثها في المطبعة قبل توزيعه . وممن حرر فيها محمود احمد السيد وحسين الرحال وعبد الفتاح ابراهيم وعبدالله جدوع وعبدالقادر السياب وغيرهم وقد عالجت المجلة مشكلة البطالة ونشرت مقالات كان من شأنها رفع وعي العمال .

وفي ٨ ايلول ١٩٣٠ صدرت جريدة عمالية باسم « العمال » وكان صاحبها عبد المجيد حسن وجاء في ترويستها انها « جريدة ادبية فنية مصورة اسبوعية » وقد ورد في عددها الاول مايشير الى هدفها ومما جاء فيه : هنا جريدتك ايها العامل العراقي وقد انشئت لتنصرك فانصرها ، انشئت لتكون قوة الى جانب شقيقاتها صحف العمال في مصر وسورية وهذه القوة منك تستمد حياتها فلا تبخل عليها بمادة الحياة وقد احتوى العدد الاول على اربع عشرة مادة اهمها « فاتحة العمل » و « حياة العامل » لابراهيم حلمي العمرو « اتحاد جمعيات العمال » لمحمود احمد السيد و «قل اعملوا »

لسلمان الصفواني وكما يبدو جلياً فان جريدة العامل كرست نفسها لخدمة قضايا العمال وتثقيفهم .

ولئن كانت جريدة « نداء العمال » التي صدر عددها الاول في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٣٠ دون مستوى مجلة العامل من اوجه عديدة الا انها بحكم اعتبارات معينة تدخل بدورها ضمن الصحافة العمالية وقد جاء في ترويستها انها « لسان حال العمال وسلاحهم الادبي غايتها خدمة العمل في جميع البلدان العربية » .

وفي الموصل اصدر المحامي احمد سعد الدين زيادة في الفترة نفسها مجلة تحمل اسم « العمال » وقد صدر العدد الاول منها في الخامس من ايلول سنة ١٩٣١ لتكون لسانا لحزب في طور التأسيس سمي « حزب العمال » . الا ان الجريدة صدرت والحزب لم يجز وقد ربطت الجريدة في مقالاتها بشكل جيد بين الاستعمار والواقع المزري للفئات الكادحة في المجتمع العراقي انذاك .

هذا وقد كانت بعض الصحف والمجلات الزراعية والمهنية رسمية واهلية تتناول بعض موضوعات العمل والعمال كما خصصت جريدة « الاهالي » حقولا ثابتة لقضايا العمل والعمال وحينما عادت الحياة الحزبية في العراق الى العلنية سنة ١٩٤٦ اهتمت صحف المعارضة بقضايا العمال فافردت صفحات اسبوعية عمالية خاصة منها « صوت الاهالي » التي كانت لسان الحزب الوطني الديمقراطي الذي يمثل العناصر الديمقراطية انذاك وجريدة « لواء الاستقلال » لسان حال حزب الاستقلال الذي كان يمثل العناصر القومية انذاك ثم كانت جريدة « الحرية » تهتم بقضايا الطبقة العاملة منذ صدورها سنة ١٩٣٥ على ان هناك جانبا اخر للصحافة العمالية في العراق وهو الجانب السري حيث اصدرت بعض الاحزاب والقوى الوطنية والقومية

صحفا عمالية . ولعل من ابرز تلك الصحف جريدة « وعي العمال » التي اصدرها بصورة سرية المكتب الثقافي لحزب البعث العربي الاشتراكي في العراق وكانت تطبع بالرونيو وكانت وعي العمال منذ اول صدورها سنة ١٩٥٩ تحاول الاسهام الفعلي في توعية الجماهير العمالية وتعبئتها للدفاع عن حقوقها المشروعة . كما اهتمت بوحدة الطبقة العاملة العربية وادانت كل محاولات انتهاك حرمةالعمل النقابيوالفصل الكيفي كما وقفت موقفا صلبا من قضايا النضال القومي والطبقي على امتداد ساحة الوطن العربي الكبير كما انها وقفت مع عمال العالم في نضالهم من اجل الحرية والتقدم والسلام .

الصحافة العراقية الكردية

لقد تمثل النشاط الثقافي للعراقيين الاكراد خلال هذه المرحلة فيمجالات كثيرة منها مجال الصحافة . اذ صدرت في السليمانية جريدة علمية اجتماعبة ادبية اسبوعية باسم « بانگ كردستان » أي نداء كردستان باللغات الكردية والتركية والفارسية وقد برز عددها الاول في ٢ آب ١٩٢٢ وصاحب امتيازها ومديرها المسؤول مصطفى باشا ياملكي الذي حاول جعلها اداة فعالة لنشر الوعي الثقافي بين العراقيين الاكراد وكانت لسان حال جمعية كرد ستان التي تأسست في ٢١ تموز ١٩٢٢ . وقد التف حول الجريدة عدد من المثقفين العراقيين الاكراد منهم : صالح قفطان ورفيق حلمي وبيخود وزيور وعلي كمال بابير اغا والشيخ نوري الشيخ صالح وغيرهم وقد صدر منها (١٤) عددا في مدينة السليمانية و (٣) اعداد في مدينة بغداد سنة ١٩٢٦ .

كما صدرت في السليمانيــة كذلك جريدة باسم (رۆژي كوردستان) أي شمس كردستان وقد صدر عددها الاول في ١٥ تشرين الثاني ١٩٢٢ وقد اهتمت الجريدة باللغة الكردية وبتاريخ العراقيين الاكراد عبر العصور وكان صاحبها م . نوري ورئيس تحريرها علي كمال .

وصدرت في السليمانية جريدة « بانگ حق » اي نداء الحق وجـاء في ترويستها انها « جريدة رسمية سياسية ادبية اجتماعية كردية » صدر عددها الاول في ٨ آذار ١٩٢٣ وعمرها ثلاثة اعداد فقط .

وفي ١٨ آب ١٩٢٤ صدرت في السليمانية جريدة اخبارية اسبوعية كردية باسم « ژيانەوە » أي البعث وصدر العدد الاخير (٥٦) في ١٤ كانون الثاني ١٩٢٦ .

وثمة مجلة ادبية اجتماعية مصورة صدرت في بغداد باسم « مجلة دياری كردستان » أي هدية كردستان لصاحبها صالح زكي صاحبقران زادة بـ (٣٢) صفحة من القطع المتوسط وقد صدر عددها الاول في ١١ آذار ١٩٢٥ لكنها توقفت عن الصدور بعد انتهاء السنة الاولى ، وكانت تصدر باللغـات الكردية والعربية والتركية .

كما صدر العدد الاول من مجلة (زاری كرمانجي) في ٢٥ مايس ١٩٢٦ وجاء في ترويستها انها « مجلة اجتماعية ادبية تاريخية فنية شهرية » صاحبها ورئيس تحريرها الصحفي العراقي الكردي حسين حزني المكرياني . وقد قامت المجلة بدور بارز في نشر الوعي الوطني والثقافة الكردية وساهم في تحرير المجلة عدد من الكتاب العراقيين الاكراد منهم حسين حزني المكرياني وعبدالخالق ئه سيري وما من كركوكي والشيخ نوري الشيخ صالح وعبد الرحمن نوري خان وعبد الخالق قطب وفائق بيكه سي . وقد صدر منها خلال ست سنوات (٢٤) عددا فقط .

وفي ١٩٢٧ صدرت ببغداد مجلة ادبية اجتماعية كردية باسم (پە یژة) أي السلّم وصاحبها مصطفى شوقي ولم يظهر منها سوى عدد واحد فقط .

أما مجلة روناكي أي النور فقد كانت مجلة اجتماعية علمية ادبيـة اسبوعية صاحبها المحامي شيت مصطفى ورئيس تحريرها حسـين حزني

المكرياني وقد صدر عددها الاول في ٢٤ تشرين الاول ١٩٣٥ وتوقفت عن الصدور في ١٦ ايار ١٩٣٦ بعد ان صدر منها (١١) عددا وممن ساهم في تحريرها محمد علي كردي وجبار اغا كاني •

كما صدرت ببغداد مجلة ادبية ثقافية كردية باسم (گه لاويژ) أي نجمة الصبح لصاحبها ابراهيم احمد المحامي • وقد صدر عددها الاول في كانون الاول ١٩٣٩ وتعد من اطول المجلات الكردية عمرا حيث استمرت على الصدور شهريا وبصورة منتظمة حتى سنة ١٩٤٩ وقدمت خدمة كبيرة للادب واللغة الكردية والتقى على صفحاتها كتاب كبار ، وكما يقول الدكتور عز الدين مصطفى رسول في كتابه الموسوم (الواقعية في الادب الكردي) فانها ربت جيلا من الادباء وممن كتب فيها رفيق حلمي وعبدالقادر القزاز ومحمد امين زكي وتوفيق وهبي وكوران وعلاء الدين السجادي •

وقد صدرت ببغداد مجلة (ده نگي كيتي تازة) أي صوت الدنيا الجديدة وجاء في ترويستها انها مجلة تصدر بالكردية ادبية واجتماعية مديرها المسؤول محمد بابان وصدر عددها الاول في نيسان ١٩٤٣ وبقيت تصدر حتى ١٩٤٧ •

كما اصدر المثقفون الاكراد من خريجي الجامعات الامريكية سنة ١٩٤٦ ببغداد مجلة اقتصرت على نشر الاخبار والحوادث باسم (مجلة ئاگاو وراداری هەفتەیی) اي الاخبار والحوادث الاسبوعية •

أما جريدة (ژين) فقد اصدرتها السيدة رحمة الحاج توفيق بمدينة السليمانية وجاء في ترويستها انها « جريدة ادبية اسبوعية » وقد منح امتيازها في ١٩ كانون الاول ١٩٥٤ ثم توقفت عن الصدور في ٨ شباط ١٩٦٣ •

وفي ايار ١٩٥٤ صدر في اربيل العدد الاول من مجلة « هه تاو » أي الشمس التي قامت بدور مهم في خدمة الثقافة الكردية • وكانت مجلة ادبية

اجتماعية تاريخية ثقافية تصدر ثلاث مرات في الشهر باللغة الكردية وصاحب امتيازها ومدير تحريرهـا كيو المكرياني ، اما المحامي ابراهيم عزيز دزەيي فكان مـن كتابهـا وقـد توقفت عـن الصدور في ٣٠ تشرين الاول ١٩٦٠ بعد ان صدر منها (١٨٨) عددا وتعد هذه من اطول المجلات الكردية التي صدرت في اربيل عمرا فقد عاشت حوالي ست سنوات وكانت تصدر بشكل مستمر ومنتظم وساهم في تحريرها عدد من الكتاب والادباء والسعراء الاكراد منهم الدكتور ت • ب مريواني ومجيد ئاسنكر والشاعر المعروف قانـع وبشير مشير ومحمد توفيق ووردي وتاكر فتاح هذا فضلا من مساهمة عدد من الاقلام النسوية منها امثال اديبة علي وبريخان وشفيقة علي وصبرية محمد وحسيبة محمد •

ان مساهمة كل تلك الاقلام المعروفة في (هه تاو) اعطتها مكانة ادبية وثقافية بارزة ومكنتها من ان تقوم بدور ثقافي واضح وبفضل الخط الوطني والقومي الذي التزمته المجلة ومحاولاتها الجادة اصبحت تحتل مكانة متميزة عند الكتاب والادباء الاكراد وتتجمع حولها جمهرة غفيرة من القراء •

وفي تموز ١٩٥٧ صدرت مجلة اجتماعية شهرية مصورة باسم مجلة «هيوا» أي الامل وكانت لسان حال نادي الارتقاء الكردي وصاحب المجلة محمود جميل بابان أما رئيس التحرير فهما حامد مصطفى وهاشم الدوغرمجي وقد توقفت عن الصدور في ٨ شباط ١٩٦٣ •

الصحافة العراقية ١٩٤١ ــ ١٩٥٨

اصدرت وزارة نوري السعيد الرابعة بعد اعلان الحرب العالمية الاولى عددا من المراسيم والانظمة تجعل بعض احكامها الصحف والمجلات خاضعة للرقابة الحكومية وقد اصبحت هذه الرقابة سلاحا سياسيا لخدمة الحكومة • وكانت الصحف العراقية تنشر انباء القتال كما هي وتنقل عن شتى المحطات

ماكان لها من الاخبار على الرغم من هيمنة الحكومة فكان نقل هذه الاخبار ونشرها بهذا الشكل يثيران السفير البريطاني الذي اثار مسألة امتناع الصحف العراقية من انتقاد تصريح كانت المانيا وايطاليا اعلنتا فيه عطف المحور على نضال العرب من اجل الاستقلال ثم قال « ان الحكومة البريطانية لاتثق بوزارة يرأسها انذاك رشيد عالي الكيلاني وعلى العراق ان يختار احد حلين : أما الاحتفاظ برشيد عالي رئيسا للحكومة وأما الاحتفاظ بصداقة بريطانيا العظمى » •

طلب االوصي عبد الاله من الوزارة الاستقالة خوفا من تطور الازمة بين العراق وبريطانيا لكن رئيس الوزراء لم يستجب لطلب الوصي مدفوعا بدعم واسناد العقداء الاربعة من قادة الكتلة العسكرية القومية : صلاح الدين الصباغ وفهمي سعيد ومحمود سلمان وكامل شبيب واخذ الوصي يناور مع بعض الوزراء ليحملهم على الاستقالة واعلن ان الوزارة اذا لم تقدم استقالتها فأنه سيتخلى عن الوصاية ويترك البلاد • عندئذ اضطر رئيس الوزراء الى الاستقالة وكلف الوصي طه الهاشمي بتشكيل الوزارة وقد ادلى الهاشمي في ٦ شباط ١٩٤١ بحديث للصحفيين اشار فيه الى انه « لا لزوم يبرر لصحافتنا ان تتجه في نشر اخبار سياسية يفهم منها التخريب للفريق المخاصم لحليفتنا » •

حاول الوصي تشتيت الضباط الاحرار وابعادهم عن بغداد فتفاقمت الامور وانذر العقداء الاربعة في ١ نيسان ١٩٤١ بعض وحدات الجيش واحتلوا المواقع الستراتيجية ثم احاطوا بدار الهاشمي وكلفوه بالتخلي عن رئاسة الوزارة وفر الوصي من داره في (٢) نيسان الى الحبانية ثم البصرة محتميا بالقاعدة البريطانية هناك وازاء هذه الخيانة السافرة للوصي قررت الكتلة العسكرية في بغداد اقامة حكومة عسكرية باسم « حكومة الدفاع الوطني » وتشكلت في ٣ نيسان ١٩٤١ برئاسة رشيد عالي الكلاني وانتخب

البرلمان الشريف شرف وصيا على العرش وهكذا عرف العراق خلال شهري نيسان وايار حكما وطنيا معاديا للاستعمار البريطاني .

فهذه جريدة العالم العربي تمجد الحكومة الجديدة قائلة في عددها الصادر في ٦ نيسان ١٩٤١ وبعنوان : حكومة الدفاع الوطني مظهر من مظاهر حيوية الامة « لقد وثب الشعب العراقي المظفر وثبة الفائز المنتصر ... وبرهن لمن خادعه الفكر واعماه الغرور ان في هذه الامة الفتية قوة جبارة ترد الطامع وتصرع الغاصب وتقلم اظافر الشر قوة لاتعترف بغير حق الامة ولاترضي بغير الدستور ولاتنام على الذل ... » .

واضافت تقول : « ولا يخفى ان السيطرة التامة التي تتمتع بها حكومة الدفاع الوطني التي يؤيدها الجيش والشرطة والموظفون ورجالات البلد الامين المخلصون والشعب اجمع متوفقة لا محالة للقضاء على كل الاسباب والعوامل التي كثيرا ما سببت تبلبل السياسة واسست حجر عثرة في سبيل الاصلاح وحللت جريدة صوت الشعب في عددها الصادر في ١٦ نيسان ١٩٤١ شعور الشعب الفياض نحو حكومة الدفاع الوطني وتكلست عن موجة الحماس التي لم يسبق لها مثيل وقالت « صوت الشعب صوت الله » .

ونشرت مجلة « المجلة » في عددها الصادر في ١ أيار ١٩٤١ وهي مجلة وطنية تقدمية مقالا تحت عنوان « الامة تطلب الخدمة والمخلصون يلبون » واصدرت عددا خاصا عن الجهاد الوطني تضمن مجموعة من المقالات والقصائد الداعية للثورة والمعادية لبريطانيا .

الا ان انتكاسة ثورة ١٩٤١ كشفت الوجه الحقيقي لبعض الصحف الانتهازية فكانت جريدة الزمان مثلا في عددها الصادر في ٣٠ حزيران ١٩٤١ تقول ان من اسباب فشل الثورة « انها (أي الثورة) استهدفت التطاول على البيت الهاشمي المقدس وعلى كرامته المحترمة في شخص صاحب السمو الامير

المحبوب » وفي عددها الذي صدر في ١٨ تموز ١٩٤١ وجهت مجموعة مـن الاهانات الى قادة الجيش الذين قاموا بالثورة ونسجت جريدة (الاخبار) على منوال جريدة (الزمان) فكتبت المقالات العديدة التي تهاجم فيها الثورة والقائمين بها والمتعاونين معها •

كانت آخر وزارة عراقية تألفت أثناء الحرب العالمية الثانية هي وزارة حمدي الباجه جي الثانية التي شكلت في ٢٩ آب ١٩٤٤ وفي عهدها انتهت الحرب • وفي ٢٧ كانون الاول ١٩٤٥ القى عبد الاله خطابا يبدو ان الانكليز ونوري السعد هم الذين اشاروا عليه بالقائه لتهدئة الشعب وكسب الوقت لكي يعودوا بعد قليل الى الاساليب التقليدية في الاستبداد • وفي هـذا الخطاب زعم الوصي ان المجال سوف يفتح علـى مصراعيه امام الاحزاب السياسية والهيئات الوطنية لتتقدم الى الشعب بخططها ومناهجها في معركة الانتخابات فمن فاز منها على سواه اضطلع بالحكم ووفقا لهذه السياسة الجديدة تألفت وزارة توفيق السويدي الثانية في ٢٣ شباط ١٩٤٦ وفيها اصبح سعد صالح وزيرا للداخلية وقد جرت خلال الفترة من ١٩٤٧ ولغاية ١٩٥٨ ستة انتخابات الاولى في سنة ١٩٤٧ والثانية في ١٩٤٨ والثالثة جرت اثر انتفاضة تشرين الثاني ١٩٥٢ والرابعة جرت في حزيران ١٩٥٤ والخامسة في خريف ١٩٥٤ والسادسة في ربيع ١٩٥٨ • وقد كشفت الصحف الوطنية زيف انتخابات السلطة التي كثيرا ما تمت في ظل الاحكام العرفية وفضحت الاساليب التي انغمست فيها الوزارات المتتالية لتزوير ارادة الناخبين وفي حالـة موافقـة الاحزاب والقوى الوطنية والقومية المتمثلة انذاك بالحزب الوطني الدمقراطي وحزب الاستقلال وحـزب البعث العربي الاشتراكي المشـاركة في بعض الانتخابات مثل انتخابات خريف ١٩٥٤ فانها عملت على دفع صحافتها باتجاه دعم واسناد مرشحي الحركة الوطنية والسعي الى خلق معارضة وطنية في المجلس النيابي • وقد نالت الصحافة الوطنية من جراء تصديها لممارسات

السلطة غير الديمقراطية في هذا المجال الكثير من الاضطهاد والتعسف • فهذه جريدة صوت السياسة لسان حال حزب الاتحاد الوطني تدعو الى مقاطعة انتخابات ١٩٤٧ وذلك في عددها الصادر في ٧ كانون الاول ١٩٤٦ • أما جريدة صوت الاهالي لسان حال الحزب الوطني الدمقراطي فتكتب في ٣٠ كانون الاول ١٩٤٦ •مقالا تفضح فيه تدخلات الحكومة في الانتخابات • وتشير جريدة صوت الاحرار لسان حال حزب الاحرار في عددها الصادر في ١٩ شباط ١٩٤٧ الى الاجتماع السري الذي عقده نوري السعيد مع متصرفي الالوية واعطائهم قوائم باسماء النواب الذين يجب ان يفوزوا • ودأبت جريدة لواء الاستقلال لسان حال حزب الاستقلال (صدرت في ٤ آب ١٩٤٦) في اعدادها الصادرة في ٩ أيار و ٢٩ حزيران و ٣٠ تموز ١٩٥٤ على نشر ميثاق الجبهة الوطنية التي تشكلت في ١٢ أيار ١٩٥٤ من الحزب الوطني الديمقراطي وحزب الاستقلال والحزب الشيوعي وانصار السلام والمستقلين التقدميين لخوض الانتخابات •

كما مهدت الصحف الوطنية لانتفاضة تشرين الثاني ١٩٥٢ • ونددت جريدة الاهالي في عددها الصادر في ١٨ تشرين الثاني ١٩٥٢ بالحكومة من ادعائها القائل « بان مايعنيها قبل كل شيء تربية الشعب وتثقيفه واعداده اعدادا حسنا لكي يمارس حقوقه المدنية والسياسية » •

أما جريدة لواء الاستقلال فقد استعرضت في عددها الصادر في ١٨ تشرين الثاني ١٩٥٢ (مفاسد الحكومة) •

لقد ناضلت الصحافة الوطنية في العراق بلا هوادة من أجل الدفاع عن حريتها وكثيرا ماتعرضت في سبيل الدفاع عن حريتها الى جانب الدفاع عن الحياة الحزبية وحرية التنظيم النقابي للعنت والاضطهاد والتعطيل والالغاء كما نال الصحفيون الاحرار شرف المساهمة في النضال الى جانب فئات الشعب الاخرى رغم ماواجهوه من سجن ونفي لذلك كان مطلب حرية الصحافة هدفا

من اهداف الحركة الوطنية والمطالب الشعبية التي تبنتها الاحزاب والانتفاضات الشعبية كما حدث في وثبة بورتسوث ١٩٤٨ وانتفاضتي ١٩٥٢ و ١٩٥٦ •

قامت الصحافة الوطنية بتبني مطالب العمال والفلاحين كذلك وساندت الاضرابات العمالية ودعت جماهير الشعب للدفاع عن حقوق العمال والفلاحين فلقد اولت جريدة صوت الاهالي وجريدة لواء الاستقلال قضايا العمل والعمال والفلاحين ونضالهم من اجل الارض وتحسين ظروفهم اهتماما كبيرا • ونشرت العديد من المقالات في هذا المجال لذلك كله ضاقت السلطة ذرعاً بالصحف الوطنية بحيث لم يحل خريف سنة ١٩٥٤ الا وجميع الصحف الحزبية العلنية قد اختفت ولم تعاود الصدور الا بعد ثورة ١٤ تموز١٩٥٨ •

أما صحف الاحزاب السرية فقد قامت بدورها الوطني القومي فجرائد الحزب الشيوعي اولت قضايا النضال الطبقي اهتمامها فهذه جريدة كفاح الشعب التي صدر العدد الاول منها في منتصف ١٩٣٥ ترفع شعار « الفلاح اخو الفلاح وعدوهما الاقطاع والاستعمار » • اما جرائد الحزب الاخرى ومنها (الشرارة ، وصدرت في مطلع الاربعينيات) و (القاعدة التي صدر عددها الاول في كانون الثاني ١٩٤٣) وصوت العمال التي صدرت في اواخر ١٩٥٣ واتحاد الشعب التي صدرت في منتصف ١٩٥٦ اخذت على عاتقها نشر برامج الحزب والدعوة الى الخروج من حلف بغداد واطلاق سراح السجناء والمطالبة بالحريات بما فيها حرية التنظيم والصحافة والعمل النقابي • وكان لمجلة الثقافة الجديدة التي صدرت منذ سنة ١٩٥٣ اثر في نشر الفكر والثقافة الماركسية • وركزت جريدة حزب البعث العربي الاشتراكي « العربي الجديد » التي صدرت في تشرين الاول ١٩٥٣ على قضايا النضال الوطني والقومي والطبقي ومما جاء في افتتاحية عددها الاول انها « جريدة الاشتراكيين العرب تنطق بلسان الحزب والشعب بدون ان تكلف

نفسها معرفة ما اذا كانت تتلاءم مع قوانين النظـــام الرجعي الدكتاتوري أو مطبوعاته وصحفه » وضم العدد الثاني الذي صدر في أوائل تشرين الثاني ١٩٥٣ مقالات عديدة توضح كل منها موقف الحزب من القضايا السياسية والاجتماعية والاقتصادية المطروحة انذاك .

وفي كانون الاول ســـنة ١٩٥٣ صدرت جريدة اخرى للحـــزب بدل العربي الجديد باسم « الاشتراكي » وقد جاء في بيان القيادة القطرية للحزب في العراق ان هذه الجريدة (جريدة الاشتراكيين العرب تناضل في سبيل الحرية والاشتراكية والوحدة العربية وقد سماها الحزب كذلك تاكيـــدا للصفة الاجتماعية له ودور الطبقات الشعبية في النضال) .

وهكذا قامت الصحافة الحزبية السرية بدور بارز خلال هذه المرحلة في الدفاع عن الحريات الدمقراطية وحقوق الشعب وكان لتأسيس جبهة الاتحاد الوطني في شباط ١٩٥٧ من حزب البعث العربي الاشتراكي والحزب الوطنـــي الدمقراطي وحـــزب الاستقلال والحزب الشيوعي وعـــدد مـــن الشخصيات المستقلة اثر كبير في دفع حركة الصحافة العراقية باتجاه الدعوة الى اسقاط وزارة نوري السعيد والخروج من حلف بغداد ومقاومة التدخل الاستعماري بشتى اشكاله ومصادره وانتهاج سياسة عربية مستقلة اساسها الحيـــاد الايجابي واطـــلاق الحريات الدمقراطية والدستورية والغاء الادارة العرفية واطلاق سراح السجناء السياسيين واعادة المفصولين الى اعمالهم .

وقد عملت الصحافة السرية خلال هذه الفترة على نشر اخبار الجبهة ونشاطاتها فكتبت جريدة الاشتراكي السرية التي اصدها حزب البعث العربي الاشتراكي في العراق في عددها الصـــادر في أواخر كانـــون الثاني ١٩٥٨ مهاجمة وزارة عبدالوهاب مرجان التي خلفت وزارة نوري السعيد تقول : « ان وزارة مرجان حلقة اخرى من سلسلة الحكـــم الاستعماري الرجعـــي

المفروض على العراق وان شعبنا الذي قضى حتى الان سنوات عديدة يناضل فيها الاستعمار من اجل تحرره ووحدته سيواصل نضاله وسيزيد من تكاتفه والتفافه حول جبهة الاتحـاد الوطني مـن أجل تحقيق الاهداف الوطنيـة الكبـرى » •

كما تمكن حزب البعث العربي الاشتراكي منذ بداية سنة ١٩٥٤ من الاستفادة من بعض الجرائد العلنية لطرح افكاره ومبادئه فعلى سبيل المثال• اعلنت جريدة « الافكار » التي اصبح يحيى ياسين المحامي وهو من أوائل البعثيين في العراق رئيسا لتحريرها والتي عادت الى الصدور في ١٠ كانـون الثاني ١٩٥٤ انها تصدر بمعونة مجموعة من شباب الوطن الاحرار الذين ذاقوا الاضطهاد منذ نعومة اضفارهـم • وساهمت الجريدة في طرح اهداف الحزب وبيان مواقفه من القضايا القومية والدولية وناقشت مشكلة الاقطاع واعلنت بأن ليس لهذه المشكلة سوى حل واحد ذلك هو عودة الحق الى ذويه ولن يكون ذلك الا حين تكون الارض للفلاحين • وفي السياسة الخارجية هاجمت المشاريع الاستعمارية ومنها مشروع الدفاع عن الشرق الاوسط الذي كانت تروج له الامبريالية الاميريكية •

واستفاد الحزب من جريدة العمل لصاحبها عدنان الراوي والتي صدرت في ٣٠ كانون الثاني ١٩٥٤ وكانت تنشر افكار البعث ومقالات قادته وفي شهر تموز ١٩٥٤ عطلت الحكومة جريدتي الافكار والعمل فدفع ذلك الحزب الى الاتفاق مع قاسم حمودي المحامي رئيس التحرير والمدير المسؤول لجريدة لواء الاستقلال على اصدار جريدة (الحرية) فصدرت يوم ١٩ تموز ١٩٥٤ وهي تحمل مقالا افتتاحيا بقلم صاحت الجريدة يوضح فيه انه اختار اسم جريدته من اسم اول شعار من الشعارات المقدسة الثلاث الحرية ، الاشتراكية ، الوحدة العربية وان الجريدة في سبيل الحرية ستعمل على تحقيق الاشتراكية والوحدة• وقد عهد الحزب الى المكتب الثقافي بالاشراف على تحرير الجريدة فساهم

معظم قادة الحزب في تحريرها وركزت الجريدة على توضيح اهداف الحزب وطريقته في العمل السياسي ودعت الشعب الى الالتفاف حول الطليعة العربية ووضحت مفهوم الحزبية عند الطليعة في عددها الصادر في الاول في آب ١٩٥٤ بانه يقوم على الايمان بفكرة او عقيدة ممثلة لروح الامة العربية ومعبــرة عن حقيقتها وملبية لحاجاتها ومتطلعة الى غايتها •

واوجدت الجريدة حقلا خاصا بعنوان « الزاوية العربية » تناولت فيه مواقف الحزب من قضايا النضال القومي العربي واهدافه الوحدوية • كما اوضحت موقف الحزب من قضايا النضال العالمي واوجدت بابا خاصة سمته نضال العمال والفلاحين هدفه بث الوعي بين الكادحين وتأييد نضالهم للوقوف بوجه المستغلين والشــركات الاجنبية وطالبت باجازة التنظيم النقابي للعمال ونبهت الى أن أي تجاهل لمصالح الكادحين العرب وفي مقدمتهم العمال لابد ان يكون مدفوعا بدوافع طبقية يهمها بقاء الاستغلال واستمرار الجشــع • ودعت الجريدة الى حل مشكلة البطالة ورفع مستوى الاجور وناقشت مشاكل الارض والفلاح وهاجمت الاقطاع وطالبت بتطبيق مقولــة (الارض لمــن يزرعهـــــا) •

ورغم ان سيطرة الحزب على جريدة الحرية لم تستمر اكثر من ثلاثــة اشهر فقد هدد صاحبها باغلاقها بعد ان ازداد ارهاب وزارة نوري السعيد الثانية عشرة ألا أن الجريدة استمرت في توضيح مبادىء الحزب واهدافه مما ساعد على اتساع قاعدته الشعبية بحيث ساهم مساهمة فعالة في تفجير ثورة ١٤ تمــوز ١٩٥٨ •

وحال نجاح الثورة صدرت جريدة الجمهورية باشراف حزب البعــث العربي الاشتراكي وتولى الرفيق الدكتور سعدون حمادي مسؤوليتها وقد عبرت هذه الجريدة عن اتجاه الثورة القومية العربية في العراق •

المصـــادر

١ ـ زاهدة ابراهيم ، كشاف الجرائد والمجلات العراقية ، مراجعة عبدالحميد العلوجي ، بغداد ١٩٧٦ .

٢ ـ يعقوب يوسف كوريا ، صحافة ثورة العشرين (بغداد ١٩٧٠) .

٣ ـ روفائيل بطي ، الصحافة في العراق (القاهرة ١٩٥٥) .

٤ ـ عبدالله الفياض ، الثورة العراقية الكبرى (بغداد ١٩٦٣) .

٥ ـ عبدالرزاق الحسني ، الثورة العراقية الكبرى ، ط ٣ (صيدا ١٩٧٢) .
تاريخ الوزارات العراقية ، حـ ٥ (صيدا ١٩٦٦) .

٦ ـ خالد حبيب الراي ، من تاريخ الصحافة العراقية (بغداد ١٩٧٨) .

٧ ـ د . عبد الله اسماعيل البستاني ، حرية الصحافة (القاهرة ١٩٥٠) .

٨ ـ فائق بطيء ، صحافة العراق ، تاريخها وكفاح اجيالها (بغداد ١٩٦٨) .

٩ ـ د . ابراهيم خليل احمد ، ولاية الموصل ، دراسة في تطوراتها السياسية ١٩٠٨ ـ ١٩٢٢ رسالة ماجستير غير منشورة قدمت لجامعة بغداد ١٩٧٥ .
نشاة الصحافة العربية في الموصل/الموصل ١٩٨٢ .

١٠ ـ د . محمد مظفر الادهمي ، جريدة الحكومة العراقية ، في دراسات من الصحافة العراقية بغـداد ١٩٧٢ .

١١ ـ محمد مهدي الصدر ، (من صحافة الهزل ، حبزبوز) في دراســات في الصحافة العراقية (بغداد ١٩٧٢) .

١٢ ـ هدى عبدالرحمن ، اساليب ومعالجات الصحافة النسوية في العراق قبل الاربعينات (في دراسات في الصحافة العراقية ، بغداد ١٩٧٢) .

١٣ ـ سامي احمد خليل ، افكار اساسية حول الصحافة العمالية في الوطن العربي (بغـداد ١٩٧٨) .

١٤ـ رزاق ابراهيم حسن ، الصحافة العمالية في العراق (بغداد ١٩٧٩) .
١٥ـ هادي نعمان الهيتي ، صحافة الاطفال في العراق نشأتها وتطورها مع تحليل لمحتواها وتقييمها (بغداد ١٩٧٩) .
١٦ـ فؤاد حسين الوكيل ، جماعة الاهالي في العراق (بغداد ١٩٧٩) .
١٧ـ حسين جميل ، الحياة النيابية في العراق ١٩٢٥ ـ ١٩٤٦ موقف جماعة الاهالي منها (بغداد ١٩٨٣) .
١٨ـ د . عباس ياسر الزيدي « من تاريخ الصحافة البصرية في العهدين العثماني والبريطاني » مجلة (صوت الجامعة) البصرة العدد ١٣ ١٩٧٨ .
لمحات من نضال صحافة حزب البعث العربي الاشتراكي منذ المرحلة التاسيسية (مجلة الجامعة ، الموصل السنة (٨) العدد (٦) اذار ونيسان ١٩٧٨ .
(دور الصحافة في التاريخ النضالي لثورة سنة ١٩٢٠) مجلة افاق عربية السنة (٤) العدد ٢٧ اذار ١٩٧٩ .
الصحافة العراقية في عهد الحكم العسكري البريطاني ١٩١٤ ـ ١٩٢٠ مجلة الجامعة الموصل السنة (٧) العدد (٨) يأار ١٩٧٧ .
تاريخ الصحافة العراقية منذ نشأتها حتى سنة ١٩٣٦ رسالة دكتوراه غير منشورة قدمت لجامعة عين شمس سنة ١٩٧٥ .
لمحات من تاريخ الصحافة الادبيةفي العراق مجلة افاق جامعية، السليمانية السنة (٢) العدد (١٢) تشرين الثاني ١٩٧٨ .
١٩ـ د . فاضل حسين ، تاريخ الحزب الوطني الدمقراطية ١٩٤٦ ـ ١٩٥٨ (بغداد ١٩٦٣) .
٢٠ـ د . منير التكريتي ، الصحافة العراقية واتجاهاتها السياسية والاجتماعية والثقافية في ١٨٦٩ ـ ١٩٢١ (بغداد ١٩٦٩) .
٢١ـ د . فاروق صالح العمر ، الاحزاب السياسية في العراق ١٩٢١ ـ ١٩٣٢ (البصرة ١٩٧٨) .
٢٢ـ قيس عبد الحسين الياسري ، حرية الصحافة في العراق ١٩٢١ ـ ١٩٣٢ (مجلة دراسات للاجيال العدد ١ السنة ٢ كانون الثاني ١٩٨١ .
الصحافة العراقية والحركة الوطنية من نهاية الحرب العالمية الثانية حتى ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ (بغداد ١٩٧٨) .

٢٣ـ د . عبد العزيز نوار ، تاريخ العراق الحديث (القاهره ١٩٦٨)
داود باشا والي بغداد (القاهرة ١٩٦٨)

٢٤ـ د . جعفر عباس حميدي (وسائل النشر العلني لحزب البعث العربي الاشتراكي في القطر العراقي ١٩٤٨ ـ ١٩٥٨) مجلة الجامعة/الموصل السنة (٨) العدد ٦ اذار ونيسان ١٩٧٨ .

من تعليقات الصحافة العراقية المعاصرة لثورة ١٩٤١ مجلة الف باء السنة ١٦ العدد ٨١٤ ٢ أيار ١٩٨٤ .

٢٥ـ عصام محمد محمود ، مطبوعات الموصل منذ سنة ١٨٦١ ـ ١٩٧٠ الموصل ١٩٧١ .

٢٦ـ عدنان عبد المنعم ابو السعد ، تطور الخبر واساليب تحريره في الصحافة العراقية منذ نشأتها حتى سنة ١٩١٧ (بغداد ١٩٨٣) .

٢٧ـ فائق بطي ، (صحافة الحزب الشيوعي خلال مسيرة الاربعين عاما) عدد خاص من جريدة طريق الشعب ٣١ اذار ١٩٧٤ .

٢٨ـ د . عزالدين مصطفى رسول ، الواقعية في الادب الكردي (بيروت ، لا . ت) .

٢٩ـ ابراهيم باجلان ، (مجلة كلاويز دورها في تاريخ الصحافة الكردية ، جريدة العراق ١٩٨٤/٤/١٦ .

٣٠ـ جمال خزنة دار (جامع) بانكي كوردستان (بغداد ١٩٧٤) .

٣١ـ خيري العمري (حبزبوز) مجلة الاقلام السنة (٢) الجزء (٣) تشرين الثاني ١٩٦٥ .

٣٢ـ نزار جرجيس علي ، كيو المكرباني صحفيا رائدا ، جريدة العراق ٢١ نيسان ١٩٨٤ .

هەتاو و دورها في الساحة الثقافية الكردية ، جريدة العراق ٥ ايار ١٩٨٤

٣٣ـ جواد كاظم (مع صاحب مجلة قرندل الاستاذ صادق الازدي) مجلة امانة العاصمة العدد (١٢) ايلول ١٩٧٧ .

٣٤ـ د . كمال مظهر احمد ، الطبقة العاملة العراقية (بغداد ، ١٩٨١) .

٣٥ـ اعداد متفرقة ولسنين مختلفة من بعض الجرائد والمجلات الوارد ذكرها في المتن .

٣٦ـ شهاب احمد الحميد ، تاريخ الطباعة في العراق ، مطابع القطاع الخاص ١٨٣٠ – ١٩٧٥ ، جـ١ ، (بغداد ، ١٩٧٦) .

٣٧ـ خليل صابات، تاريخ الطباعة فيالشرق العربي، طـ٢ (القاهرة، ١٩٦٦) .

٣٨ـ سليم طه التكريتي « التفيض اول مطبعة لاينوتايب اهلية في العـراق » مجلة الطباعة ، تصدرها دار الحرية ، ببغداد ، العدد (١٠)، ١٩٨٠ .

البحث السابع

المكتبات

د. عماد عبد السلام رؤوف
مركز احياء التراث العلمي العربي – بغداد

لم تخل مدن العراق الرئيسة ، حتى في اشد حقب التخلف التي رانت عليها ، من خزائن عامة للكتب ، يلحقها الواقفون واهل الصلاح على المدارس الدينية والتكايا وبعض المساجد ، لينهل منها طلبة العلم والمدرسون واولو الاهتمامات الثقافية عامة ، ورغم حرص اولئك الواقفين على سن القواعد الخاصة بحفظ الكتب والعناية بها في وقفياتهم ، وتخصيص الرواتب للعاملين في ذلك المجال ، من خزَنة وقوَمة ومناولين ، الا ان انعدام وجود اشراف رسمي حقيقي على شؤون المكتبات ، وعدم توفر جهة مسؤولة عن ادارتها وتنمية محتوياتها ، وغياب وعي مكتبي حديث ، جعل أمر تلك المكتبات ومصيرها رهين جهود فردية ، وهي جهود وان كان يعزى لها الفضل في حماية المتوفر من الكتب ومعظمها من المخطوطات ، الا انها كانت عاجزة عن التعامل مع حركة النشر الحديثة واستيعاب ما كانت تقذفه المطابع من كتب متنوعة المجالات ، ومع ان بعض المثقفين من العراقيين تنادوا على صفحات الجرائد الصادرة في

العراق في اواخر العصر العثماني من أجل جمع خزائن الكتب الموزعة هنا وهناك في مكتبات عامة تشرف عليها جهة مسؤولة ، الا ان شيئا من هذا لم يحدث حتى انقضاء صفحة الحكم العثماني كلها ، ومنذ تأسيس الدولة العراقية الحديثة اخذت الجهود تبذل ، بهمة ونشاط ملحوظين لتأسيس اولى المكتبات العامة في العراق ، وفق مناهج مكتبية حديثة وتنسجم مع الروح الثقافية الجديدة التي اخذت تعم الاوساط المثقفة والمتعلمة من المجتمع العراقي آنذاك وتستجيب لحاجات طلبة المدارس والمعاهد المتزايدة من مصادر العلم الحديث. وقد توزعت جهود اولئك المثقفين أول الامر على مجالين رئيسيين ، هما المكتبات العامة الرسمية ، والمكتبات العامة الاهلية . ومن ثم سرعان ماتشعب هذان المجالان الى شعب عديدة ، شملت المكتبات المدرسية والجامعية ومكتبات الوزارات وبعض المؤسسات الحكومية وغيرها .

ا ـ المكتبات العامة

وتعتبر المكتبة العامة ببغداد (المكتبة الوطنية منذ ١٩٦١) أقدم تلك المكتبات العامة في العراق . ويعود الفضل في انشائها الى نخبة من العراقيين المحبين للعلم والثقافة ، كانوا قد شكلوا من انفسهم لجنة أهلية تولت تأسيس المكتبة على نمط حديث لم تعهده مكتبات القطر من قبل ، ودعيت باسم (مكتبة السلام) وافتتحت في السادس عشر من نيسان من عام ١٩٢٠ ، وكان لحماسة اعضاء اللجنة وهمتهم العالية دور بارز في تطوير المكتبة ورفدها بالكتب المطبوعة والدوريات الصادرة في ذلك الحين ، الا ان ظروفا متنوعة ، ادت الى دعوتهم وزارة المعارف لتتولى ادارتها بصفة رسمية ، وقد تم ذلك فعلا سنة ١٩٢٤ وسميت بالمكتبة العامة . وصارت هذه الوزارة هي المسؤولة عنها اداريا وماليا وفنيا ، تديرها بموجب (تعليمات وزارية) تصدر لهذا الغرض . إذ لم يكن ثمة تشريع خاص بالمكتبات حتى اصدار نظام المكتبات العامة رقم ٤ لسنة ١٩٦٠ .

ونظرا لما كانت المكتبة العامة تقوم به من خدمات ثقافية جليلة ولعدم توفر بناية خاصة بها ، فقد فاتحت وزارة المعارف مديريـة الاوقاف العامـة باشراك مكتبتها في بناية مكتبة الاوقاف العامة بباب المعظم ، وهي بناية فخمة كانت قد شيدت سنة ١٩٣١ ، ففعلت الاوقاف وظلت فيها حتى أخريات عـام ١٩٥٦ حيث استقلت ببناية خاصة بها في شارع الزهاوي ، وبقيت هناك حتى قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ ٠

وكان للمكتبة العامة دور مهم في توفير الكتب المهمة الصادرة في العالم وتيسيرها للقراء ، ومعظمها مما لم يكن يصل الى مكتبات البيع في العـراق ولذا فقد ظلت مؤئلاً لطلبة الكليات وغيرهم ، خاصة وان موقعها كان قريبا لعدد من الكليات المستجدة فضلا عن بعض المدارس الثانوية ، وقد تجاوز عدد كتبها سنة ١٩٥٨ الثلاثين الفا من مختلف المصادر العلمية والادبية ٠

ومنذ الثلاثينات ، اخذت وزارة المعارف العراقية بتعميم فوائد هـذه التجربة الثقافية الرائدة ، وصارت تنشيء في مراكز الالويـة (المحافظات) والاقضية بعض المكتبات العامة ، فكانت ثمة مكتبة عامة في الموصل سـنة ١٩٣٠ وفي الحلة والبصرة والنجف سنة ١٩٣٦ ، وفي كركوك سنـ ١٩٣٧ وفي العمارة سنة ١٩٣٨ وفي الديوانية في التاريخ نفسه ، وفي السليمانية سنة ١٩٤٣ وفي بعقوبا والرمادي والكوت وكربلاء سنة ١٩٤٤ وفي الناصرية واربيل ١٩٤٥ وفي قضاء الكاظمية سنة ١٩٤٧ وفي عانه والخالص سنة ١٩٤٨ وفي الكوفة سنة ١٩٥٤ وفي سامراء سنة ١٩٥٥ ٠

وفي عام ١٩٥٦ اصبحت مهمة تأسيس مثل هذه المكتبات وادارتها مناطة بوزارة الداخلية ــ الادارة المحلية ، فازداد عددها واتسع نطاق خدماتها ، حيث شهد العامان التاليان تأسيس عدد من المكتبات العامة في كويسنجق والعشار والمدائن والفلوجة وسـوق الشـيوخ وحلبجه وتكريت والدور والاعظمية والمحمودية وبيجي والعطيفية الثانية ببغداد ٠

ب ـ المكتبات المدرسية

اولت وزارة المعارف العراقية ، منذ تأسيسها ، اهتماما واسعا بانشاء المكتبات المدرسية ورعايتها وتشجيع الهيئات التدريسية والطلبة على تنميتها ما أمكن ذلك ، ورغم الظروف المالية والصعبة التي كانت تواجه الوزارة في تنفيذ خططها التعليمية والثقافية في ذلك العهد ، فانها نجحت في ايجاد عدد غير قليل من المكتبات في مدارس العراق المختلفة ، والابتدائية والمتوسطة والثانوية ودور المعلمين والفنون البيتية والمدارس الصناعية والزراعية والتربية الاساسية، وتولت رفدها بالكتب والمجلات والنشرات المختلفة . واذا كان مستوى بعض تلك المكتبات ظل محدودا ، فان مكتبات اخرى حققت نموا طيبا ، وحوت بعض مكتبات المدارس الابتدائية ، وبخاصة النموذجية منها ، على اعداد وافرة من المصادر والمراجع والدوريات المهمة .

ونتيجة لازدياد عدد هذه المكتبات والنمو السريع في مقتنياتها وموقعها المهم في العملية التعليمية والنشاط الثقافي عامة ، فقد رأى المسؤولون في وزارة المعارف ضرورة توحيد طرق التنظيم المكتبي وتيسير مهمة المشرفين على المكتبات المدرسية ، فاستقدم الى العراق عام ١٩٥٦ خبير من منظمة اليونسكو لهذا الغرض ، وضع اثر دراسة قام بها حول واقع المكتبات وسبل تطويرها كتابا عن المكتبات المدرسية ضمنه قواعد التنظيم المكتبي الحديث ، وقد ترجم الكتاب الى العربية ونقح ليلائم تصانيف العلوم العربية ، كما ذُيل بقسم خاص عن السجلات والاثاث واللوازم المكتبية ، ووزع على جميع المدارس العراقية بهدف تنظيم مكتباتها وتطويرها بما يلائم حاجات البلاد الثقافية المتنامية . وقد ناهر عدد المكتبات المدرسية في العراق ، في عام ١٩٥٨ ، نحو الثلاثة آلاف مكتبة ، وهو عدد كبير دل على عظم اهتمام الشعب والمسؤولين بتوسيع قاعدة هذه التجربة وتعميقها رغم صعوبة الظروف وقلة الامكانات المتاحة .

ج ـ مكتبات الكليات والمعاهد

وكان تأسيس الكليات المتخصصة والمعاهد العالية عاملا مهما في تطوير المكتبة العراقية وتوسعة آفاقها ، حيث ادت حاجة الطلبة الى مصادر تعينهم على البحث العلمي وتتيح لهم متابعة ما يجرى في العالم من دراسات وبحوث، وفي تخصصات مختلفة ، الى تولى ادارات تلك الكليات والمعاهد انشاء مكتبات متخصصة ، ذات سعة استيعابية اكبر ، وامكانات مادية وفنية اوفر ، وخبرة في الانتقاء والاتصال بدور الكتب والناشرين بما يتيح فرصا اوسع امام الطلبة والاساتذة على حد سواء للاستفادة من مصادر الفكر والتجربة في العراق والوطن العربي والعالم •

وتعتبر مكتبة كلية الطب اولى المكتبات من هذا النوع ، فقد تأسست سنة ١٩٢٧ ، واحتوت على بضعة آلاف من الكتب والدوريات المتخصصة بمجالات الطب المتنوعة ، فضلا عن عدد من المخطوطات الطبية التراثية المهمة• وفي سنة ١٩٣٤ انشئت في كلية الحقوق (القانون والسياسة حاليا) مكتبة قانونية متخصصة ضمت مختلف مصادر القانون والفقه الاسلامي ، واعقبتها عام ١٩٣٩ مكتبة دار المعلمين العالية (التربية حاليا) التي زاد عدد محتوياتها على العشرين الفا من الكتب ، فكانت بذلك اكبر مكتبة بين مكتبات كليات بغداد ومعاهدها حتى قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ ، وفي سنة ١٩٤٢ تأسست مكتبة كلية الهندسة ، واعقبها سنة ١٩٤٦ تأسيس مكتبة كلية الشريعة ، فمكتبتا كلية التجارة والاقتصاد ، وكلية الملكية عالية (البنات حاليا) سنة ١٩٤٨ ، واحتوت الاخيرة ، فضلا عن مايقارب العشرين الفا من الكتب ، عددا من المخطوطات العربية النفيسة ونوادر المطبوعات في العالم ، وماثلتها ، من حيث اهمية الكتب وتنوعها ، مكتبة كلية الاداب والعلوم المنشأة سنة ١٩٤٩، وعندما انفصل قسم العلوم عنها ، مكونا كلية مستقلة ، هي كلية العلوم ، كان لهذه الكلية مكتبتها الخاصة بها • وفي سنة ١٩٥٢ تأسست مكتبة كلية

الزراعة ، وكان آخر مكتبة تنشأ قبل عام ١٩٥٨ ، هي مكتبة كليـــة الطب البيطري ، حيث تأسست عام ١٩٥٣ ٠

ونظرا لما حققته هذه المكتبات من خطوات ناجحــة على صعيد تكوين المكتبة الجامعية الشاملة ، فقد اخذت فكرة انشاء مكتبة مركزية لكليات بغداد تراود اذهان المسؤولين عن شؤون التعليم العالي في العــراق ، وخاصة بعد تأسيس جامعة بغداد سنة ١٩٥٦ ، وضمها الكليات والمعاهد السابقة ضمن اطار اداري وعلمي واحد ، وقد تبلورت هذه الافكار بسرعة على شكل مشروع متكامل لانشاء أول مكتبة جامعية شاملة في العراق ، هي المكتبة المركزية لجامعة بغداد ، على ان التأسيس الفعلي لهذا المشروع لم يجر الا" بعيد قيام ثورة تمــوز ١٩٥٨ ٠

د ـ مكتبات المؤسسات الرسمية غير التعليمية

ولم يقف الامر عند انشاء المكتبـات العامة والتعليمية التي اضطلعت بتأسيسها وزارة المعارف ثم تولتها وزارات اخــرى فيما بعد ، وانمــا نهدت مؤسسات اخرى ، لا صلة لها بالتعليم ، الى انشاء مكتبات متخصصة تلحق بها ، وتهدف الى رفع المستوى الفني والثقافي لمنتسبيها ، والاستفادة مــن المصادر العلمية والفنية في مجال تطوير كفاءتها واجراء البحوث اللازمة لتحسين مستوى ادائها ٠ وتميزت بعض المؤسسات في هذا المجال المهــم بان فتحت ابواب مكتباتها على نحو واسع لاكبر عدد من الباحثين والمتخصصين لينهلوا مما احتوته من كتب ومصادر قد لا تتيسر لهــم في مكان آخر : كجزء مــا تؤديه من خدمات عامة للمواطنين ٠

وتعتبر مكتبة مديرية الري العامة اقدم مكتبة تابعة لمؤسسة فنية بحتة ، فقد تأسست عام ١٩١٨ لتضم جملة وافرة من الكتب المتخصصة بشؤون الري في العراق والعالم ، ثم سمت مؤسسات اخرى ، منذ الثلاثينات ، الى انشاء

مثل هذه المكتبات المتخصصة ، فكانت مكتبات المتحف العراقي سنة ١٩٣٣ ووزارة الخارجية سنة ١٩٣٤ ومديرية المساحة العامة سنة ١٩٣٥ ومديرية البحث والرقابة الصناعية في العام نفسه، ووزارة العدل ١٩٣٨ والمجمع العلمي العراقي سنة ١٩٤٧ ومتحف الموصل سنة ١٩٥١ ووزارة الاقتصاد سنة ١٩٥٢ والبستنة العامة سنة ١٩٥٥ وغير ذلك من مكتبات المؤسسات الرسمية التي ضمت مجموعات مهمة من المصادر والدوريات المتخصصة في ضرب واحد من المعرفة غالبا مما يحتاجه المنتسبون والباحثون •

ويمكننا ان نعد مكتبتي المتحف العراقي ، والمجمع العلمي العراقي ، انموذجين بارزين على ما بلغه هذا النوع من المكتبات الرسمية من تطور ملموس في اداء أفضل الخدمات العلمية والثقافية ، ليس لمنتسبيها فحسب ، وانما للباحثين والكتاب ومحبي المعرفة كافة •

فمكتبة المتحف العراقي (المفتتحة سنة ١٩٣٣) وان استهدفت اولا توفير المصادر اللازمة لاجراء البحوث والاعمال الآثارية التي تضطلع بها مديرية الاثار القديمة العامة (المؤسسة العامة للآثار والتراث حاليا) في العراق والبعثات التنقيبية العاملة في القطر ، الا انها سرعان ما ضمت ، الى جانب هدفها المباشر هذا ، هدفا آخر ، هو خدمة الباحثين عامة في توفير مايحتاجونه من مختلف المصادر والمراجع والدوريات العلمية فكان في طليعة المواضيع التي اهتمت بها هذه المكتبة ، علم الآثار ولاسيما آثار العراق ، وتعد مجموعة الكتب التي تحرزها في هذا المجال من اوسع المجاميع لا في مكتبات الوطن العربي وحدها ، بل في سائر مكتبات العالم • وفضلا عن ذلك فان المكتبة حوت على نصيب وافر من امهات التصانيف الخاصة بتاريخ العرب ، وبلدان الشرق الاوسط غير العربية ، ومجموعات من كتب الرحلات والسياحات النادرة ، والكتب الباحثة في تاريخ الحضارة اليونانية والرومانية • وكانت المكتبة تتلقى بين حين واخر بعض الهدايا من مجاميع الكتب النفيسة تهديها

اليها عدد من الجهات العلمية في داخل العراق وخارجه مما زاد في سرعة نموها حتى ناهز عدد كتبها المطبوعة ثلاثين الف كتاب .

ومما زاد من اهمية هذه المكتبة وجود قسم خاص فيها للمخطوطات . تجمعت محتوياته عن طريق اهداء اصحاب المكتبات الخاصة بعض مخطوطاتهم اليه ، كمخطوطات الأب انستاس ماري الكرملي (المتوفى سنة ١٩٤٧) البالغة ١٣٣٥ مخطوطا ومخطوطات الملا صابر بن محمد الكركوكلي البالغة (٥٠٠) مخطوط اضافة الى ضم مخطوطات المكتبة العامة اليه .

وعند قيام ثورة تموز ١٩٥٨ ، كانت المكتبة قد وفرت للباحثين فرص الافادة من نحو الفين وخمسمائة مخطوط ، معظمها نادر ومهم ، مما حصلت عليه في خلال نحو ربع قرن من تاريخ انشائها .

ولم يقتصر نشاط مكتبة المتحف العراقي على مجالات الخدمة المكتبية حسب ، وانما سعت الى توسيع قاعدة خدماتها ، فكانت اول مكتبة عراقية تقيم المعارض الموضوعية للكتب ، وتساهم في معارض الكتاب والمخطوطات في القطـر .

وفي عام ١٩٥١ تفرعت عن هذه المكتبة الناشطة مكتبة اخرى مشابهة لها في الاختصاص والهدف ، هي مكتبة متحف الموصل ، حيث نقلت اليها مجموعات من الكتب والدوريات ، اصبحت ـ فيما بعد ـ نواة لنشاط ثقافي ملحوظ .

اما مكتبة المجمع العلمي العراقي ، فقد ولدت مع ولادة المجمع نفسـه عام ١٩٤٧ ، لتكون عونا لاعضائه في بحوثهم العلمية واللغوية ، ورغم تواضع المبالـغ التي كانت تستأثر بهـا المكتبة مـن ميزانية المجمع نفسـه الا ان همة محمودة بذلت في سبيل توفير امهات المظان واصول المراجع في اللغـة والادب والفلسفة والانساب والتاريخ والمعاجم ودوائر المعـارف ، وسرعان ما تنامت المكتبة لتغدو احدى اهم مكتبات العراق العامة ، من حيث نفاسة

محتوياتها ، وتكامل ما تمثله من مجالات علمية متنوعة وزاد من اهميتها انها ضمت ، منذ سنى تأسيسها الاولى ، مجموعة كبيرة من المخطوطات المصورة مما حصل عليها المجمع عن طريق اتصالاته الواسعة بدور الكتب والهيئات العلمية في العالم ، وبذا تجاوزت المكتبة نطاق خدماتها الاصلية لتغدو موئلاً للعلماء والباحثين من كل حدب وصوب .

هـ ـ مكتبات الاوقاف الرسمية وشبه الرسمية

تمتد جذور فكرة انشاء مكتبة تابعة لوزارة الاوقاف وتجمع فيها الكتب المبعثرة في مساجد بغداد وتكاياها الى سنة ١٩٢٢ ، حين رأى احد وزراء الاوقاف آنذاك ضرورة انشاء مكتبة عامة ، تابعة لوزارته ، واختير احد مساجد بغداد القديمة المتهدمة في محلة باب الاغا ليكون مقرا لها بعد تجديده وتطويره بما يلائم هذا الهدف ، الا ان تنفيذ المشروع توقف نتيجة لتغيرات وزارية من جهة ، وقلة الوعي المكتبي والثقافي من جهة اخرى ، وبعد محاولات متعددة ، تم تأليف في سنة ١٩٢٨ لجنة تتولى جمع الكتب من مساجد بغداد وجوامعها وتكاياها ، وايداعها في بناية (مكتبة الاوقاف العامة) في باب الاغا . وقد افتتحت المكتبة رسميا في ١١ صفر ١٣٤٧هـ / ٢٧ تموز ١٩٢٨ من قبل الملك فيصل الاول ، وجمهرة كبيرة من رجال الدولة آنذاك . ثم ألفت وزارة الاوقاف لجنة مهمتها القيام بوضع نظام خاص بالمكتبة وجاء النظام ليحدد مصادرها بانها « تؤلف من كتب المدارس العلمية والمساجد في بغداد مخطوطة مطبوعة ، ومن الكتب التي اقتنتها او تقتنيها دائرة الاوقاف ، ومن الكتب التي تقدم من قبل اهل الخير واعمال البر ورجال الاصلاح ، ومن تهمهم الثقافة العامة وتهذيب افراد الامة » وكلفت وزارة الاوقاف مؤرخا عراقيا معروفا ، هو المحامي عباس العزاوي ، بتسجيل كتبها في سجل خاص بها ، ثم تولى الدكتور محمد اسعد طلس وضع فهرس اكثر تفصيلا لمخطوطات المكتبة التي بلغت اذ ذاك ٣٦١٤ مخطوطا ، ما عدا الكتب المطبوعة ، وسماه « الكشاف

عن مخطوطات خزائن كتب الاوقاف (طبع ببغداد سنة ١٩٥٣) . ومن اهم المواطن التي استقيت منها كتب هذه الخزائن ، الخزانة النعمانية التي انشأها العلامة نعمان خيرالدين الآلوسي في المدرسة المرجانيةببغداد، والتكية الخالدية، وجامع القبلانية وجامع الحيدرخانة فضلا عن عدد كبير من الخزائن الشخصية التي وقفها اصحابها على اهل البحث والعلم . فبلغ عدد كتب المكتبة مايزيد على العشرة آلاف ، منها نحـو اربعة آلاف مخطوط ، وفيهـا كل نادر من المطبوعات القديمة ، والمخطوطات النفيسة .

ويبدو ان فكرة اقامة مكتبة تجمع فيهـا الكتب الموقوفة في المدارس الدينية والمساجد والتكايا لم تكن مقتصرة على بغداد وحدها ، اذ كانت وزارة الاوقاف تخطط لانشاء مكتبتين عامتين من هذا النوع ، واحدة في الموصل واخرى في النجـف ، الا ان اسبابا متنوعة حالت دون تحقيق هـذه الخطوة الثقافية الكبيرة ، ولذا فقد بقيت مئات من خزائن الكتب القديمة الموقوفة في مدن العراق ، بعيدة عن اي اشراف مكتبي حديث يتيح للباحثين الاستفادة من كنوزها ، ومعظمها من المخطوطات . صحيح ان جهودا غير قليلة بذلها بعض محبي التراث العربي لفهرسة مخطوطات عدد من تلك الخزائن ، او خزائن مدينة باكملها ، الا ان نشر هذه الفهارس ، مع غيبة اي حماية فعالة للمخطوطات نفسها ، سهل على بعض جماعي الكتب، وبخاصة المستشرقين منهم، الحصول على ما رغبوا فيه من مخطوطات مهمة ، مستغلين جهل حفظة تلك الخزائن او أهمالهم . واهم المحاولات الفهرسية وأشملها في هذه الحقبة فهرس «مخطوطات الموصل » الذي وضعه داود الجلبي ونشره سنة ١٩٢٧ وفيـه فهارس معظم خزائن المخطوطات في هذه المدينة ، الوقفية والخاصة ، بلغ عددها نحو مائة خزانة . ثم سرعان ما نشطت حركة الفهرسة ، فنشرت عشرات الفهارس ومئات من الدراسات التي عرفت بمخطوطات مهمة بذاتها .

وسعى بعض المثقفين ممن يتولى الاوقاف على المدارس والمساجد ، الى انشاء مكتبات عامة تكون نواتها ما لدى تلك المؤسسات الوقفية من كتب ، ثم تنمى عن طريق تخصيص مبالغ كافية من واردات الوقف نفسه • ولعل من ابرز نماذج هذا الضرب من المكتبات ، المكتبة القادرية العامة ببغداد المفتتحة سنة ١٩٥٤ ، وكانت تتألف ــ بالاصل ــ من مجموعــة ضخمة من الكتب والمخطوطات التي وقفها السيد عبدالرحمن الكيلاني نقيب الاشراف ورئيس اول وزارة عراقية على جامع الشيخ عبدالقادر الكيلانــي ، ثم تولى متولو الاوقاف القادرية ، فيما بعد ، نقلها الى قاعة خاصة بها ، وعكفوا على تنظيمها واغنائها بالكتب ، فأصبحت مكتبة عامة يؤمها طلاب العلم واهل البحث من كل حدب وصوب ، حتى اذا ضاق المكان بهم ضوعفت مساحتها مرات عدة ، كما عززت محتوياتها بآلاف الكتب التي اقتنيت من داخل العراق ومن الناشرين في العالـــم •

ومن المكتبات الوقفية العامة التي انشئت في هذه الحقبة فيمدن العراق وقصباته المختلفة ، مكتبة الامام الصادق العامة في الكاظمية سنة ١٩٣٤ وهي أول مكتبة في هذا القضاء ، اعقبتها مكتبــة الجوادين ســنة ١٩٤٣ ومكتبة الامام الحسن العامة سنة ١٩٥٢ • اما في النجف فكانت ثمة مكتبة آل حنّوش العامة سنة ١٩٥٢ ومكتبة محمد حسين كاشف الغطا ، ومكتبة الشيخ هادي آل كاشف الغطا ، ومكتبة الامام أمير المؤمنين العامة المؤسسة سنة ١٩٥٣ وهي تشغل بناية فخمة في اهدأ مكان وأحسن موقع تحفها المدارس الدينية ويؤمها طلبة العلم ، وفي كربلاء ، انشئت سنة ١٩٥٦ مكتبة سيد الشهداء الحسين (ع) لتضم مجاميع نادرة من الكتب المطبوعة والمخطوطة ، فضلا عن عدد من المكتبات العامة الصغيرة التي يرتادها الباحثون وطلبة العلم في هذه المدينة • ومن ابرز المكتبات الوقفية العامة في البصرة واقدمها ، المكتبة النقشبندية التي انشأها الاخوان السيدان ناصر محمود واحمد النقشبنديان سنة ١٩٢٠ قد ضمت

فيما بعد الى مكتبة المعارف العامة في البصرة • وشهدت مدن عراقية اخرى نشاطات لا بأس بها في مجال وقف الكتب وانشاء المكتبـات ففي الناصرية وجدت مكتبتان عامتان ، هما مكتبة الراضي سنة ١٩٥٥ ومكتبة الامام الباقر سنة ١٩٥٦ وفي الهندية انشئت مكتبة عامة اهلية ، هي مكتبة الرسول الاعظم سنة ١٩٥٣ ، وفي الحلة افتتحت مكتبة السادة القزاونة العامة في سنة ١٩٢٠ • وغير ذلك من المكتبات العامة التي وقفها الواقفون خدمة للعلم في العراق او سعوا ــ من خلالها ــ الى توفير سبل الثقافة في مدن عديدة ، لم تكن جهود الدولة وحدها تكفي لانشاء المكتبات الرسمية فيها •

و ــ مكتبات الجمعيات والنوادي الثقافية

وساهمت التجمعات الثقافية غير الرسمية في رفد حركة انشاء المكتبات العامة ، بما كانت تمتلكه من حماسة وغيرة وطنية، واهتمام بمشاكل الثقافة في العراق بوجه عام • فسعت جمعيات ونواد ثقافية الى تأسيس مكتبات عامـة ملحقة بها ، بل ان بعض الجمعيات لم تتألف الا من اجل هذا الغرض وحده •

ففي الموصل ، اسس جماعة من الشبان المثقفين ، في تشرين الثاني من عام ١٩١٨ ناديا دعوه (النادي العلمي) واتخذوا له مقرا في احد دور سراة المدينة، وضموا اليه مكتبة قيمة ضمت عددا وافرا من الكتب ، بينها مخطوطات مهمة• وعند اغلاق هذا النادي ، بضغط من السلطة البريطانية ، نقلت الكتب الى المدرسة الاسلامية المؤسسة في السنة المذكورة في غرف الجامع المذكور •

وفي سنة ١٩٢١ تألفت في بلدة الزبير ، قرب مدينة البصرة ، جمعية باسم (جمعية مكتبة الزبير) اضطلعت بانشاء مكتبة عامة في هذه البلدة والاشراف على انمائها بتزويدها بالكتب والدوريات المختلفة •

وكان في النجف ثلاث مكتبات عامة من هذا النوع ، اولها مكتبة جمعية الرابطة الادبية سـنة ١٣٥١ هـ / ١٩٣٢م وقد اسسها بعض ادبـاء المدينـة

وشعرائها ، ومكتبة جمعية منتدى النشر سنة ١٣٥٤ هـ /١٩٣٥م وقد خصصت لابنائها بعض الاوقاف فضلا عن مساعدة مديرية الاوقاف وتبرعات المحسنين، ثم مكتبة جمعية التحرير الثقافي سنة ١٣٦٠هـ / ١٩٤١ م وكانت ملحقة بمدرسة دينية تتولى الجمعية ادارتها .

ولعل من ابرز النماذج على هذا الضرب من الجهود الثقافية ، مكتبة الخلاني العامة ببغداد التي اسسها سنة ١٩٤٥ نفر من المثقفين والمحبين للعلم ، فجمعوا نواتها الاولى من مكتباتهم الشخصية الغنية ، ثم ضاعفوها بما اقتنوه من كتب ودوريات عديدة ، ومخطوطات مهمة ، وجعلوا لها مقرا في قاعة كبيرة ذات مخازن للكتب ، ضمن ارض جامع الخلاني ببغداد .

ومكتبة دار التربية الاسلامية في الكرخ التي اسستها سنة ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م جمعية التربية الاسلامية كجزء من مشروع ثقافي كبير يستهدف نشر التعليم الاسلامي بين ابناء الامة بتأسيس المدارس والسعي لانارة الافكار بالثقافة الاصيلة على طريقة تناسب وروح العصر . واعتمدت مبالغ مناسبة لشراء الكتب والمصادر الرئيسة في التفسير والفقه واصوله والحديث الشريف والعلوم الاخرى .

ز ـ المكتبات الخاصة

لم تخل مدن العراق في اي عهد من عهود التاريخ ، من مكتبات شخصية غنية يجمعها مثقفون مولعون باقتناء الكتب ، محبون للعلم والمعرفة ، وقد ترددت في الكتب والروايات ، اخبار عدد من مكتبات اولئك النفر ، بماتحتويه من مقتنيات نفيسة ، ومخطوطات نادرة ، ذاع صيتها في العهود الماضية .

وبعض تلك المكتبات اندثر وتبددت كتبها او تفرقت أيدى سبأ منذ عهد بعيد ، والبعض الاخر استمر في الوجود والنمو حتى الحقبة المعاصرة من تاريخ العراق . فمن المكتبات الخاصة التي اشتهرت في هذه الحقبة بكثرة الكتب

ونفاسة المحتوى ، مكبة آل باش اعيان في البصرة المرتقى عهد تأسيسها الى القرن العاشر الهجري (١٦ للميلاد) وهي تضم كمية ضخمة من الكتب النادرة المطبوعة في اول عهد الطباعة العربية ، والمشتملة على مختلف العلوم والفنون، كالتاريخ والحديث والادب والفقه والسياسة والرجال والفلسفة والملل والنحل والحكمة والطب والحساب والهندسة والجغرافية والنبات، عدا العلوم الغريبة والابواب النادرة • كما تضم مجموعة كبيرة من المجلات والجرائد الصادرة قبل الحرب العالمية الاولى ، فضلا عن مجموعة قيمة من المخطوطات ، ويبلغ عدد محتويات هذه المكتبة نحو ١٢٫٠٠٠ كتاب مطبوع ، والف وخمسمائة مخطوط • والمكتبة النقشبندية في البصرة التي انشأها السيد ناصر محمود النقشبندي (المتوفى سنة ١٩٦٢) مع شقيقه السيد احمد النقشبندي سنة ١٩٢٠ والتي انتقلت مطبوعاتها الى مكتبة المعارف العامة في البصرة •

ومنها مكتبة الاب انستاس ماري الكرملي (١٨٦٦هـ — ١٩٤٧م) ببغداد وكانت تضم مجموعة منتقاة من المصادر العربية والشرقية والاوربية وبلغ عدد مطبوعاتها العربية وحدها ستة الاف مجلد اضافة الى مخطوطاتها التي سبق ذكرها والتي انتقلت الى مكتبة المتحف العراقي ، ومنها ما انتقل الى مكتبة متحف الموصل ايضا •

ومن المكتبات الشخصية الغنية الاخرى ، مكتبة يعقوب نعوم سركيس (المتوفى سنة ١٩٥٩) وتميزت هذه المكتبة باحتوائها على كل تالد ونفيس من المطبوعات القديمة ، الباحثة في تاريخ العراق وحضارته ، يبلغ عددها نحو اربعة آلاف مجلد • فضلا عن مجموعة بالغة الاهمية من المخطوطات العربية والشرقية يبلغ عددها ٣٢٧ مخطوطا • وتشتهر المكتبة باحتوائها على اكبر مجموعة من كتب السياحات القديمة التي دون فيها اصحابها مشاهداتهم عن العراق وأهله خلال العصر العثماني • ولقد اهدى ورثة يعقوب سركيس مكتبته الى جامعة الحكمة ببغداد، ومنها انتقلت الى مكتبة المتحف العراقي •

ومنها ايضا مكتبة المحامي عباس العزاوي (المتوفى سنة ١٩٧١) وهي من المكتبات ذائعة الصيت في العراق والعالم ، ضمت بهمة صـاحبها وماله ، مايزيد على الثلاثة آلاف وثلثمائة مخطوط ، ونحو خمسة وعشرين ألف كتاب مطبوع ، وبين مقتنيات هذه المكتبة نسخ نادرة مـن مخطوطات عديـدة ، وبعضها بخطوط اصحابها ، ووثائق تاريخية قيمة ، وتواريـخ شرقية عزيزة المنال ، ومجموعة من كتب الفرق والعقائد ، واللغة والدواوين ، فضلا عن عدد لا يستهان به من المجلات والصحف العثمانية والعربية القديمة ، ويحتل تاريخ العراق ، وبخاصة في العهود المتأخرة ، الجانب الرئيس من مصادر المكتبة ، نظرا لاهتمامات صاحبها وولعه بدراسة تاريخ العراق واحواله الاجتماعية خلال تلك العهود وقد اقتنيت من قبل مكتبة المتحف العراقي بعد وفاة صاحبها.

اما مكتبة الطبيب داود الجلبي (المتوفى سنة ١٩٦١) في الموصل ، فتعد بين اشهر المكتبات الخاصة في العراق ، لاحتوائها على بضعة آلاف من الكتب القيمة ، بينها جملة من أنفس المخطوطات التي تبحث في التراث العلمي العربي، وبخاصة في مجال الطب والصيدلة .

ومن المكتبات الخاصة الغنية ، يمكن ان نشير هنا الى مكتبة الاستاذ كوركيس عواد ، والدكتور حسين علي محفوظ ، والشيخ حمدي الاعظمي ، والشيخ عبدالوهاب النائب وسعيد النقشبندي ، وكمال‌الدين الطائي ، ويوسف مسكوني ، ويوسف العطا ، ببغداد .

ومكتبات احمد بك الجليلي ، وامين بك الجليلي وسعيد الحاج ثابت ، وسليمان بن عبدالحافظ العمري ، وطاهر العمري ، وفاروق الدملوجـي ، ومحيي‌الدين ابي الخطاب ، وعبدالله الجلبي ، ونشـأة الفيضي ، ونشأة بك آل ياسين المفتي ، وسعيد الديوه‌جي وغيرهم في الموصل .

ومكتبات محمد البغدادي ، ومحمد علي البلاغي ومحمد السـماوي ومحمد علي اليعقوبي ، ومحمد آل بحر العلوم ، في النجف .

ومكتبات عبدالحسين الطباطبائي ومحمد صالح البرغالي ، وآل طعمة ، ومحمد باقر الطباطبائي ، ووداي العطية في كربلاء .

ومكتبة محمد رشاد المفتي في اربيل ، وملا صابر بن ملا طاهر في كركوك، ومحمد الخال في السليمانية ، ومكتبة عباس حلمي القصاب في سامراء ، ومحمد احمد المحامي في البصرة ، وغير ذلك مما لا مجال لذكره .

ح ـ مكتبات بيع الكتب

شهدت مدن العراق منذ نهاية الحرب العالمية الاولى نشاطا ملحوظا في مجال تجارة الكتب ، لم تشهده البلاد على هذا النحو منذ عهد بعيد ، واسترعت هذه الظاهرة انتباه اكثر من ناشر عربي او اجنبي ، حتى شاع القول بأنه اذا كانت مصر ولبنان قد اختصتا بالتأليف والنشر، فان العراق قد اختص بالقراءة. واتجه الناشرون الى العراق ، حيث وجدوا فيه سوقا كبيرة للكتب العلمية والادبية ، ووجدت في معظم المدن العراقية مكتبات بيع ذات نشاط كبير ، واهتمامات واسعة ، وكان لبعضها صلات عمل بالمكتبات الكبرى والناشرين في اقطار العروبة الاخرى ، ومنها ما ساهم في الحركة الثقافية بما نشره ، او اعاد نشره ، من الكتب النادرة ، والمخطوطات المحققة ، والدراسات والدواوين المختلفة ، ومن اوائل المكتبات التي تأسست في مدن العراق خلال تلك الحقبة نذكر :

بغداد : المكتبة العصرية / محمود حلمي سنة ١٩١٤ .
المكتبة الاهلية / عبدالامير الحيدري سنة ١٩٢٢ .
مكتبة مكنزي / مكنزي سنة ١٩٢٥ .
المكتبة العلمية / محمد جواد الكتبي سنة ١٩٢٥ .
مكتبة الطلبة / يوسف سعيد حافظ سنة ١٩٢٧ .
مكتبة الشبيبة (ابي صباح فيمابعد) / رشيد عبدالجليل النعمة سنة ١٩٣٠ .

مكتبة المثنى / قاسم محمد الرجب سنة ١٩٣٦ وتعد اكبر مكتبات العراق واوسعها نشاطا في ذلك العهد .

دار الكتب العراقية في الكاظمية سنة ١٩٤٣ .

الموصل : المكتبة العربية / عبدالرحمن عبدالله الكركجي سنة ١٩٢١ .

المكتبة الوطنية / شاكر عبدالرحمن شنشل سنة ١٩٢٣ .

مكتبة الاهالي / عبدالرحمن نصار ابراهيم سنة ١٩٣٥ .

البصرة : المكتبة الاهلية / فيصل حمود سنة ١٩٢٨ .

مكتبة العشار / الياس دورنه سنة ١٩٤٩ .

مكتبة فرجو / عبدالله فرجو سنة ١٩٥٣ .

بعقوبة : مكتبة الثقافة / فاضل الحاج حسين الزبيدي سنة ١٩٥٢ .

خانقين : مكتبة سور / عبدالكريم خضر سنة ١٩٤٨ .

كركوك : مكتبة الامل / محمد رجب سنة ١٩٢٦ .

المكتبة العصرية / عباس حلمي سيد لطفالله سنة ١٩٣٠ .

مكتبة الترقي / محمد أمين العصري سنة ١٩٣٣ .

مكتبة ذكرى / احمد فكري سنة ١٩٤٧ .

السليمانية : مكتبة كلاويژ / رؤوف معروف فتاح سنة ١٩٥٠ .

مكتبة زيور / محمد عارف معروف سنة ١٩٥٦ .

النجف : المكتبة الحيدرية / محمد كاظم الكتبي سنة ١٩٣٢ .

المكتبة العربية / عبدالعزيز هادي البغدادي سنة ١٩٤٠

مكتبة الحلو / محمد الحلو سنة ١٩٥٠ .

مكتبة الغراوي / جاسم محمد حسن الغراوي سنة ١٩٥٣ .

مكتبة الغدير / حسين فاضل سنة ١٩٥٥ .

مكتبة الغري (دار المعارف فيما بعد)/محمد حسين الطالقاني سنة١٩٥٧ ٠

كربلاء : مكتبة كربلاء سنة ١٩٣٨ ٠

مكتبة الزهراء / جاسم الكلكاوي سنة ١٩٥٦ ٠

الناصرية : مكتبة الاهالي / جبر غفوري سنة ١٩٣٣ ٠

مكتبة المنتفك (١٤ تموز فيما بعد) / طاهر محمد سنة ١٩٤٧ ٠

الحلة : مكتبة الفرات / عباس السعيد سنة ١٩٢٦ ٠

مكتبة المعارف / عبدالحسين هادي علوش سنة ١٩٤٣ ٠

مكتبة الرشاد / عبدالجليل ناصر سنة ١٩٤٦ ٠

العمارة : مكتبة الغد / شاكر حسين الهاشمي سنة ١٩٤٩ ٠

وغير ذلك من المكتبات ، التي كان لها أبلغ الاثر في توصيل الكتاب العراقي والعربي والاجنبي الى ايدي القراء في العراق من جهة ، وفي توصيل نتاجات المؤلفين العراقيين الى مختلف القراء في الوطن العربي ، ولا تنكر اهمية ذلك الاثر في نشر الثقافة العربية وتعميق اواصر الصلات الثقافية بين العراق وسائر اقطار العروبة ٠

المصادر والمراجع

باش اعيان ، عبدالقادر :

البصرة في ادوارها التاريخية ، بغداد ١٩٦١ .

الجبوري ، عبدالله :

مكتبة الاوقاف العامة تاريخها ونوادر مخطوطاتها ، بغداد ١٩٦٩ .

الچلبي ، داود :

مخطوطات الموصل ، بغداد ١٩٢٧ .

رؤوف ، عماد عبدالسلام :

– الآثار الخطية في دار التربية الاسلامية ببغداد ، مجلة المورد ، قسمان ١٩٧٧ .

– الآثار الخطية في المكتبة القادرية . بغداد ١٩٧٤ – ١٩٨٠ .

صالح ، زكي :

مقدمة في دراسة العراق المعاصر . بغداد ١٩٥٣ .

طعمة ، سلمان :

تراث كربلاء . النجف ١٩٦٤ .

عواد ، كوركيس :

– فهرست مخطوطات خزانة يعقوب سركيس . بغداد ١٩٦٦ .

– فهارس المخطوطات العربية في العالم . الكويت ١٩٨٤ .

– مكتبة المتحف العراقي . مجلة سومر ١٩٥٤ .

محبوبة ، جعفر باقر :
ماضي النجف وحاضرها . النجف ١٩٥٨ .
الناصر ، حميد والوائلي ، عبدالاله :
دليل المكتبات العراقية . بغداد ١٩٧٥ .
الناصري ، نهاد عبدالمجيد :
الخدمات المكتبية في الجمهورية العراقية . بغداد ١٩٦١ .
النقشبندي ، اسامة ناصر :
المخطوطات اللغوية في مكتبة المتحف العراقي ـ بغداد ١٩٦٨ .
النقشبندي ، ناصر محمود :
الدينار الاسلامي في المتحف العراقي ـ بغداد ١٩٥٣ .
معلومات شخصية .

الفصل الثاني

الآداب والفنون

المبحث الأول

الشعر وفنونه وتيارات النقد

د. عناد غزوان
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

مدخل

يعد الأدب ، بفنون شعره ونثره ، اهم تجربة فكرية وثقافية في حياة أي مجتمع من المجتمعات الانسانية لانه يصور واقعه بكل ما في ذلك الواقع من قيم ومثل واتجاهات وتيارات فكرية واجتماعية واخلاقية ودينية وسياسية وفنية لذلك تركز اهتمام الباحثين والدارسين والنقاد بالنص الادبي لانه المنبع الاول الذي عنه تصدر أبحاثهم ودراساتهم واحكامهم النقدية نظرا لما يتمتع به النص الادبي من عناية فائقة في الكشف عن واقع مجتمعه كشفاً يعد مصدراً رئيساً في الدراسة والبحث .

والشعر في العراق مصدر عميق الجذور بالتراث العربي تأريخاً ونشأة وتطوراً ، لذلك عدت بيئة العراق من البيئات الشعرية الغنية في تأريخ الشعر العربي قديمه وحديثه .

وقد سجل الشعر العراقي الحديث منذ مطلع هذا القرن احداثاً سياسية واجتماعية وثقافية كثيرة ومتباينة في اسبابها ونتائجها ، عاشت في صميم المجتمع العراقي وصورته تصويراً دقيقاً واميناً في حركاته وثوراته الوطنية والقومية التحريرية ابتداء بثورة العشرين وانتهاء بثورة تموز عام ١٩٥٨ .

فألفت في تاريخ هذا الشعر وفي مضامينه وصوره واشكاله واتجاهاته كتب كثيرة ومقالات وابحاث وفيرة حظيت بها الصحافة العراقية في هذا الحقبة الزمنية من تأريخ العراق الثقافي والفكري فصارت هذه الكتب والمقالات والابحاث مصادره المعتمدة في التحليل والتعليل لظواهره الفنية المتعددة لغة وشكلا ومضموناً هي مصادر مختلفة في مناهجها وطرائقها العلمية . فالتزم بعضها بالمنهج التأريخي والعرض العام لأهم اعلامه واغراضهم الشعرية في مناسبات عديدة في حين اعتمد قسم من المناهج والنظريات الحديثة وصولا بها الى تقويم سليم يحدد أهمية الشعر العراقي الحديث وقيمه من جهة والقصة والرواية والمقالة من جهة اخرى .

أثرت في العراق وفي أدبه عامة احداث سياسية كثيرة أججت فيه روح النقمة والانتفاضة والثورة وقد صاحب الشعر سياسية كثيرة أججت فيه روح النقمة والانتفاضة والثورة وقد صاحب الشعر بوجه خاص هذه الاحداث وصورها تصويرا واقعيا كاشفا عن اسرارها الخفية معلناً النقمة بوجه اعداء الوطن والامة العربية من الغرباء والمستعمرين والفاتحين شرقيين وغربيين ، فقد كان الاستعمار العثماني عهد ظلام واستبداد شوه ملامح الحضارة في عموم الوطن العربي الذي كان خاضعاً لهذه السيطرة قرون طويلة عانى منها الشعب العربي ما عانى من أسباب الاضطهاد والانحطاط التي عمت مرافق الحياة جميعها بما فيها الاجتماعية والفكرية والعمرانية والاقتصادية .

أصاب العراق التخلف الحضاري كغيره من مقاطعات الدولة العثمانية وولاياتها المختلفة • وكانت السيطرة العثمانية عقبة كبيرة بوجه تحرير العراقيين والعرب وتحقيق وحدتهم المنشودة فكان الاضطهاد والتسلط وتعميق التخلف الاجتماعي من أبرز مظاهر هذه السيطرة التي أدت الى الجمود في ميادين الحياة كلها ، بعد أن كانت بغداد العراق مصدر أشعاع حضاري وفكري عم أغلب أرجاء العالم الانساني المعروف وقتئذ ومنحها ديمومـة البناء والتجدد وعلى الرغم من هـذا العنت والظلم والطغيان الذي مارسته السلطات العثمانية ، أستطاع العراق والقوى العربية الاخرى مواصلة النضال والكفاح وزرع أمل الحرية والاستقلال في نفوس أبنائها ومواجهة التحدي العثماني ومقارعة ذلك الواقع الفاسد بيأس وحزم وصبر صوره الادب العراقي وعكس طموح ابنائه• فقد تنامى الوعي القومي العربي منذ القرن التاسع عشـر وتمرد العرب على السيطرة العثمانية عن طريق تشكيل الجمعيات والمنتديات الفكرية والسياسية السرية والعلنية • وكانت أهداف تلك التنظيمات والتجمعات ، الدفاع عـن العروبة تجاه حملات التخريب التي نظمتها السلطة العثمانية • فقد قامت في الاستانة جمعية « المنتدى العربي » عام ١٩٠٩ وفي باريس « العربية الفتاة » ١٩١١ ، وقامت « الجمعية القحطانية » وجمعية «العهد» ١٩٠٩ وهما سريتان في صفوف الجيش • ونشأت « جمعية الاصلاح » في بيروت عام ١٩١٢ وحزب « اللامركزية الادارية العثمانية في القاهرة » •

كان لهذه الجمعيات والمنتديات الفكرية أثر فعال في بلورة الفكر الوطني والقومي في تيارات واتجاهات نضالية وكفاحية مهدت السبيل الى الاستقلال والثورات التحريرية المعروفة في الوطن العربي الكبير •

وعلى الرغم من استبداد العثمانيين وبطشهم بالعرب ، وقف بعض الشعراء العراقيين من أمثال الزهاوي والرصافي وعبد المحسن الكاظمي يندد بسياسة الدولة العثمانية ويذمها ذاكراً جورها وظلمها وأحتقارها كرامـة الشعوب

المضطهدة ، واليك على سبيل المثال ، هذه الابيات من قصيدة للزهاوي يكشف فيها عن جور العثمانيين وظلمهم وتسلطهم على رقاب الشعوب المغلوبة :

وكم وعدوا أن يصلحوا قبل هـذه ... فما بالهم زادوا فسادا وأوغلوا
لهم أثر للجور في كل بلدة ... يمثل من أفعالهم ما يمثل
اذا نزلوا أرضا تفاقم خطبها ... كأنهم فيها البلاء الموكل
فمدت الى سورية يد عسفهم ... تحملهم من ظلمهم ما تحمل
وبغداد دار العلم قد أصبحت بهم ... يهددها داء من الجهل معضل
وسل عنهم القطر اليماني أنه ... يبث بما يجري عليه وينزل

وتتعاقب الاحداث السياسية وتعم النقمة الوطنية والقومية في العراق وغيره من الاقطار فيطل الدستور العثماني عام ١٩٠٨ حدثا جديدا على الساحة السياسية العامة فيستبشر به الشعراء والكتاب العراقيون من امثال الرصافي والزهاوي والكاظمي والشبيبي وعبدالرحمن البناء وابراهيم منيب الباچه‌چي ظناً انه سيحقق لهم العدالة والحرية الاجتماعية . « فهو الوليد الذي أرتقبه العرب في مختلف ديارهم حالمين بمبادئه ، متوسمين فيه غسل جراح الشعوب المغلوبة على أمرها ويضعهم على قدر المساواة مع اخوانهم في الدين ــ الاتراك ــ ويكفل لهم حرية الفكر والعيش بكرامة فكانت ترانيم تنبعث من هنا وهناك فرحة باستقبال عهد مشرق واندثار عهد مظلم » واليك فرحة الرصافي باعلان الدستور اذ يقول :

سقتنا المعالي من سلافتها صرفا ... وغنت لنا الدنيا تهنئنا عزفا
وزفت لنا الدستور احرار جيشنا ... فأهلا بما زفت وشكراً لمن زفا
فأصبح هذا الشعب للسيف شاكراً ... وقد كان قبل اليوم لا يشكر السيفا
ورحنا نشاوى العز يهتف بعضنا ... ببعض هتافاً يصعق الظلم والحيفا
ولاحت لنا حرية العيش بعدما ... اماطت لنا الاحرار عن وجهها السجفا

ثم يحدث الانقلاب على الدستور عام ١٩٠٩ ويهب الشعراء ضد سياسة التتريك التي انتهجتها «جمعية الاتحاد والرقي» اسلوباً سياسياً حكم رعايا الدولة العثمانية ، فينطلق الشعراء العراقيون يندّدون بهذه السياسة مبدين تذمرهم واستياءهم من هذه الحالة وما صاحبها من تشاؤم وغموض ونظرة معتمة نحو المستقبل .يقول علي الشرقي معبراً عن هذا الشعور مخاطباً نواب الامة (مجلس المبعوثان) :

نطقت بحاجتها الشعوب وافصحت — وأرى عـراقي واجمـاً لا ينـطق
فكأن هـذا الشرق سفر غـرائب — أضفى عليـه الدارجـون وعلقوا
ختمت صحائفـه وجئنـا بعدهـا — حتى كـأنـا فيـه فصـل ملحق
مـاذا تغـير والبـلاد بـأهلهـا — بـغداد بـغـداد وجـلق جـلق

وتتلاشى السيادة العثمانية بتسلطها وجورها وظلمها من العراق ليحل محلها استعمار غربي جديد ، الاستعمار البريطاني الذي دخل العراق محتلا ١٩١٤ .

وتمت السيطرة على بغداد في الحادي عشر من آذار عام ١٩١٧ ، مدعياً حماية العرب وتحريرهم من السيطرة العثمانية وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨ . «واجهت الامة العربية حلقة جديدة من التآمر على وجودها ونهب خيراتها واستعباد شعبها عن طريق التجزئة والاحتلال وبروز السياسات الدولية القائمة على أساس مصالح الدول الكبرى على حساب الشعب المناضل وذلك في اتفاقية (سايكس بيكو) بين فرنسا وانكلترا ١٩١٦ وبعدها صدور وعدبلفور في تشرين الثاني ١٩١٧ والذي كان فاتحة الغزو الصهيوني لفلسطين واعطاء لواء الاسكندرونة العربي الى تركيا » وفي هـذه المرحلة الحاسمة في تاريخ العراق الوطني والقومي بدأ التغيير الاجتماعي والفكري والنفسي يتبلور في اطار ثوري عنيف ، شاجباً كل انواع الاستعمار والسيطرة والتسلط الأجنبي.

فقد جعل هذا التأريخ الطويل « من اهدار القيم الانسانية والقمع والكبت ، جعل العراقي ثورياً بطبعه وتكوينه النفسي والعاطفي ونزعته القومية وارادة التطوير والتغيير والبحث عن الأحسن والافضل ، على الرغم من الكوارث السياسية التي توالت قبل حلول الاستعمار الجديد ، الدي أتى بأقنعة براقة تتخذ من التثقيف أو التحضير أو التحرير أعذاراً وواجهات :

قال الرصافي :

ولاتغتـــرر ان قيـــل عصـــر تمـــدن فان الذي قالوه من أكذب الكدب

ويتساءل محمد رضا الشبيبي :

متى نحن نحيا أو تموت سياســة لهــا كــل يــوم مظهــر متلــون
خــداع وكــذب وافتراء وقسوة وظلم أهــذا العالــم المتمــدن ؟

ويتأجج الشعور الوطني والقومي في العراق بتصميم ابنائه من شعراء وخطباء وكتاب بثورة رائدة في تاريخه المعاصر الا وهي ثورة العشرين « التي فصلت بين استعمار راحل وبقاياه وآخر قادم يود الأقامة الدائمة » . وقد أرخ الشعر العراقي لهذه الثورة بأمانة وصدق تجلت في دواوين شعرائها من أمثال محمد مهدي البصير ومحمد باقر الحلي وناجي القشطيني وعبدالرزاق الهاشمي ومحمد حسين العبيدي وخيري الهنداوي حيث حاول هؤلاء الشعراء وغيرهم مــن الكتاب والخطباء قيادة الجماهير وتعبئتها وبلورة أحاسيسها وترجمتها واقعاً ملموساً بيد أن خيبة الامل كانت ظاهرة واضحة في الكتابات الادبية والسياسية والاجتماعية التي تلت ثورة العشرين حين ضاعت الوعود الخلابة بتأسيس حكم وطني أو استقلال الشعب العراقي في ادارة شؤونه الداخلية والخارجية . فالحكومــة الوطنية المزعومــة كانت مجرد تسمية في ظاهرها تديرها أيدي المستعمرين سراً حيناً وعلانية حيناً اخر الامر الذي أدى الى قيام المظاهرات الصاخبة والاحتجاج الثوري الوطني والقومي ضد هذه

الحكومـة المزعومة وقد لخص محمد باقر الشبيبي الوضع السياسي القائم بالابيات التالية :

قـالوا استقلت في العراق حكومة	فعجبت اذ قـالوا ولم يتـأكـدوا .
أحكـومـة والاستشـارة ربهـا	وحكومـة فيهـا المشـاور يعبـد
الحكـم حكمهـم بغـير منـازع	والامـر مصـدره هـم والمـورد
المستشـار هو الذي شـرب الطلا	فعـلام ياهـذا الوزيـر تعربـد

وأتسع نطاق الاحتجاج والجدل السياسي في مشروعية هذه الحكومة التي رفضها الشعب العراقي وتطور النقاش والاحتجاج الـى انتفاضـات ومظاهرات صاخبة تمثل صوت العراق المناضل من أجل الاستقلال والتحرر من الاستعمار الانكليزي • وعمت النقمة والغضب والاستياء كـل طبقات الشعب حيث تفجرت ثورة مايس عام ١٩٤١ ربيبة ثورة العشرين الرائدة •

وعلى الرغم من كل الظروف القاسية الرهيبة ، التي أحاطت بثورة مايس وما ترتب عليها من نتائج سلبية ، بقي الشعب العراقي بعدها يقارع الاستعمار وينافح ويكافح من أجل حقوقه المشروعة في الاستقرار والاستقلال الوطني المشروع ، فلم تفت في عضده خيبة الامل الثانية هـذه بل شرع يعمل بكل نشاط وجد وبفكر ثوري عربي جديد ناضج مؤمن بعمق أرتباطه بوطنه وأرضه ومستقبله فكانت وثبة عام ١٩٤٨ وانتفاضة عام ١٩٥٢ ثم ثورته الحاسمة ، ثورة تموز عام ١٩٥٨ •

ان هـذا الخط التأريخي ، السياسي الطويل ابتداء بأعلان الدستور ١٩٠٨ وانتهاء بثورة تموز ١٩٥٨ يؤلف بحـد ذاتـه الاتجاهات والتيارات الادبية المختلفة في العراق وان كان التيار السياسي المتمثل بالموقف الوطني والقومي هو الاكثر شعبية وامتزاجاً بروح الشعب العراقي خلال تأريخ نضاله

الطويل من أجل الاستقلال والتحرير الكامل من سيطرة الاستعمارين العثماني والانكليزي •

واذا كان الشعر العراقي قد واكب هذا التطور التأريخي ، السياسي فكرة ومضموناً وموقفا فأن النثر المتمثـــل بالقصص والروايـــات والمقالات الأدبية قد صاحب هذا التطور في محاولات اولية بعد العقد الاول من هـــذا القرن ولكنه استطاع أن يثبت وجوده الادبي والفني بعد الأربعينيات حـــين نضجت التجربة القصصية والروائية والمقالية في الادب العراقي وذلك بفضل تطور الصحافة العراقية من جهة وانتشار النشر والطباعة من جهة أخرى نتيجة لتفاعل الثقافة العربية بالثقافات الأجنبية المختلفة تأثراً وتأثيراً •

لا شك في أن المضامين الشعرية والنثرية بدأت تتغير وتتجه أتجاهاً واقعياً فنياً جديداً نظراً لتطور الدلالة الحضارية لمفهوم الأدب فظهرت حركات التجديد في الشعر والقصة والرواية والمقالة النقدية ، الأمر الذي أدى الى انتعاش الحركة الأدبية في العراق حيث تبلورت هذه الحركة باتجاهات ومدارس شعرية أو أدبية مختلفة • فاهتم قسم منها بالوضع الاجتماعي فعالج في كتاباته ونتاجاته قضايا اجتماعية مختلفة كالدعوة الى تحرير المرأة العراقية من براثن الجهل والخرافات والتقاليد البالية ومساواتها مع الرجل ، والدعوة الى مكافحة الجهل والامية ، والدعـــوة الى محاربة الأقطاع والرجعية أو الدعوة الى الاصلاح الاجتماعي العام مـــن أجل عراق متحضر مزدهر • سواء أكانت مثل تلـــك الدعوات الحرة الصريحة بشكل فني تقليدي أو شكل فني جديد كما سنرى ذلك من أستعراضنا لأتجاهات ومدارس الشعر المعاصر وتطور الفن القصصي في العراق وما نتج عن هذين اللونين الأدبيين من نقد وتقويم فنيين عملا على أنضاجهما وخلقا فيهما حركة وديمومة فكرية وثقافية صارت ملمحاً مهماً من ملامح تطور الفكر الأدبي في العراق •

اتجاهات الشعر العراقي

للباحثين والنقاد اكثر من معيار او مقياس يعتمدون عليه في تقسيم الشعر العراقي الحديث الى اتجاهات أو تيارات أو مدارس أدبية . فمنهم من يرى ان « المضمون الشعري » هو المعيار . ان الشعر العراقي الحديث يمكن ان يدرس حسب مضامينه كأن يكون على الوجه الآتي :

المضمون او الاتجاه السياسي ، المضمون او الاتجاه الاجتماعي ، المضمون او الاتجاه الوجداني . المضمون او الاتجاه القصصي ــ المسرحي . بغض النظر عن شكل القصيدة سواء أكان تقليدياً أم جديداً ، علماً ان الاغراض الشعرية من مدح ورثاء وهجاء وحماسة وغزل ووصف تضطرد في هذه الاتجاهات التي لا تخرج في دلالاتها العامة عن كونها شعراً وجدانياً ذاتياً ، أو وطنياً أو قومياً أو انسانياً ، يصور تجارب شعرية فردية أو يعالج موضوعات اجتماعية وسياسية وفكرية بروح فنية حينا او بروح حماسية ــ خطابية حينا آخر حسب طبيعة الموقف الشعري وأهمية الحدث الذي غالباً ما يفرض وجوده على القصيدة .

ومن الباحثين من يعتمد معيار « الحداثة أو التجديد » و « التقليد » أو « المحاكاة » في دراسته للشعر العراقي ، في ضوء التطور التاريخي ــ الفني العام للقصيدة العربية ، فيقسم الشعر العراقي الى مراحل ثلاث :

١ ــ ذروة التقليد من منتصف القرن التاسع عشر حتى اعلان الدستور العثماني ١٩٠٨ .

٢ ــ التجديد الموهوم ومدرسة النثر المنظوم أو فترة الانتقال من ذروة التقليد الى محاولات التجديد بعد الحرب العالمية الثانية .

٣ ــ محاولات التجديد الحديثة ابتداء من نهاية الحرب العالمية الثانية حتى يومنا هذا .

لاشك في ان هــذا المعيار يدرس القصيدة العراقية الحديثة ، شكلا ومضمونا ، في وقت واحد دون ان يفصل بينهما ، مركزا اهتمامه المباشر على القيمة الفنية للقصيدة المتمثلة بأسلوبها ، على الرغم من اختلاف موضوعاتها وأشكال بنائها الشعري • ويجب الا يغرب عن بالنا ان وظيفة الشعر ، بنظر الشعراء العراقيين قد ارتبطت بظاهرة الحداثة والتجديد في التعبير عن قضايا المجتمع والانسان والحياة ، الأمر الذي منح هذا الشعر أهمية ونفوذاً واسعين في مدى تأثيره في البيئة الاجتماعية • وفي مضمون هذه الظاهرة يقول الرصافي « ان الشعر كان في القرون الأخيرة •• لا يصور لنا مــن الحياة الا صوراً محدودة في ألواح المدح والهجاء والنسيب ونحو ذلك مما هو معلوم • أمــا في اتجاهاته الحديثة فقد أخذ يصور لنا أشياء كثيرة مــن صور الحياة على اختلاف الوانها ومنازعها مما لاحاجة الى بيانه لمــن تتبع الشعر العصري في اتجاهاته الحديثة » •

ويرى فريق ثالث من الباحثين ان « لغة الشعر » هي المعيار المعول عليه في فهم القصيدة ورصد أبعادها الفنية ، الأمر الذي يترتب عليه التمييز بــين الشعراء في استخدامهم لهذه اللغة، فالزهاوي حين يدعو الى استعمال اللغة التي يتفاهم بها الشعب وكذلك زميله الرصافي ، انما يصدران عــن وعي وادراك راسخين لما للشعر من وظيفة اجتماعية في تطور الحياة الادبية العصرية • وفي ضوء هذا المعيار ، نلمح تيار التقليد في لغة الشعر العراقي الحديث ويمثله عبدالمحسن الكاظمي ومحمد رضا الشبيبي وتيار الشعبية والسهولة او اذا شئنا ، تيار النثرية او التقريرية التي تقترب من الروح التعليمية عند كل من معروف الرصافي وجميل صدقي الزهاوي في حين يمثل علي الشرقي ومحمد مهدي الجواهري ، تيار التجديد في لغة الشعر التي قد تقترب من لغة الهمس الفني فقد « تمثل الاحساس بالتمرد والنزوع الى التجديد لدى الشاعرين سياسياً في معاداة الاستبداد والاحتلال ، وفي موقف الاسهام والمؤازرة لثورة

العشرين وتمثل اجتماعياً في الموقف الداعي لتحرير المرأة وتعليمها • الا انه لم يتمثل فنياً وعلى نحو واضح بالسرعة نفسها • بل كان لا بدله أن يتأخر عن ذلك • وان كانت بوادر التمرد على القديم ربما ظهرت على نحو متباين حتى في البدايات التقليدية لدى كل منهما » •

لا ريب في ان معيار اللغة الشعرية يتداخل مع معيار الحداثة او التجديد والمحاكاة او التقليد ، نظر لأن القصيدة ، أية قصيدة ، هي في حد ذاتها تعبير لغوي قد يكون فنياً رفيعاً حيث تتبوأ القصيدة عندئذ مكانة شعرية عالية او قد يكون نثرياً خطابياً حيث يهبط مستوى القصيدة فنياً ، ليرتفع اجتماعياً او سياسياً او تعليمياً ، علماً ان القصيدة الناجحة فنيا هي تلك التي تسمو فنيا بلغتها ومضمونها على حد سواء • وهذا ما نلمسه عند بعض الشعراء العراقيين الفحول من التقليديين او المجددين كالشبيبي والجواهري والشرقي والسياب ونازك الملائكة والبياتي وعلي الحلي على سبيل المثال لا الحصر •

ويرى فريق رابع من الباحثين انه يمكن اعتماد « معيار المذاهب الأدبية الكبرى » التي نشأت في الغرب • أساسا فيتقسيم السعر العراقي الحديث الى مدارس او اتجاهات متميزة بخصائصها وسماتها الفنية والفكرية وربما السياسية ايضاً كالاتجاه الكلاسيكي او الاتباعي ، والاتجاه الرومانتيكي او الابتداعي والاتجاه الواقعي والاتجاه الرمزي •

لا شك في أن المذاهب الأدبية الكبرى المعروفة في الغرب قد ارتبطت بنظم سياسية وأنماط اجتماعية ونفسية وفلسفية مختلفة في عمقها ، متباينة في دواعيها ودوافعها • فالكلاسيكية ذات النزعة التراثية قد ارتبطت بالنظام الملكي ــ الوراثي الذي غذاه الاقطاع في مرحلة معروفة في التاريخ السياسي الأوربي ، في حين ارتبطت الرومانتيكية بالنظام الديمقراطي الذي يؤمن بحرية الفكر والتعبير الحر المباشر عن الذات التي قد يرى الشاعر من خلالها ذوات

الآخرين . أما الواقعية فقد ارتبطت بالنظام الشعبي الذي يؤمن بحق الشعب في حكم نفسه بنفسه . وقد تأثرت هذه المدرسة بفلسفات او ايديولوجيات كثيرة ولعل من أبرزها ظهور الاشتراكية في العالم وما ترتب عليها من أبعاد سياسية صار « الالتزام » فيها ظاهرة متميزة للاتجاه الواقعي في الآداب عامة ومنها الأدب العربي الحديث ، بشعره ونثره . امـا الرمزية فلم تتأثر بنظام سياسي معين بقدر ما تأثرت بالواقع الاجتماعي والسياسي والنفسي والقلق الذي ساد أوربا بين الحربين العالميتين .

ان هـذا المعيار يجمع بـين المضمون الشعري وأبعاده السياسـية والاجتماعية والنفسية . وهو معيار غربي بدأ يؤثر في الواقع الأدبي العربي والعراقي حين ظهرت بوادر التفاعل الحضاري والثقافي بين الشـرق العربي والغرب ، نتيجة الترجمات الأدبية والفكرية والثقافية من اللغات الأوربية الى اللغة العربية من جهة ونتيجة للتطور الحضاري والتربوي السريع في العالم من جهة أخرى منذ عشرينيات هذا القرن .

ان ظهور هذه المقاييس الادبية في تقدير قيمة الشعر العراقي الحديث ، فكرة وتطوراً ، تعكس مدى الاهتمام به لكونه سجلا صادقاً لأحداث العراق الخاصة والعامة ، ولأنه تجربة شعورية يفترض فيها وجود الأصالة والابتكار حيناً او التقليد والمحاكاة حيناً آخر ، والاستقلالية في التعبير حيناً ثالثاً .

فاذا اردنا ان نؤرخ لتطور اتجاهات الشعر العراقي الحديث ، فانه ينبغي علينا ان نأخذ بعين الاعتبار أهمية الشكل والمضمون في القصيدة الحديثة ، فمن تفاعلهما بلغةعربيةفنية تولد القصيدة ـ المثال، فضلا عن اهميتها ومكانتها في الواقع السياسي والاجتماعي في العراق . واذا ربطنا بين واقع العراق هذا والتجربة الشعرية التي صاحبته وصورتـه ، نستطيع ان نتابع تطور الشعر العراقي وفق المرحلتين الآتيتين :

١ ــ مرحلة الكفاح من أجل الاستقلال المتمثلة بثورة العشرين وثورة مايس ١٩٤١ ــ (١٩٢٠ ــ ١٩٤١) ــ وهي مرحلة غنية بمضامينها الشعرية الوطنية والقومية شارك فيها اكثر شعراء العراق المعروفين من أمثال : محمد مهدي البصير ، الرصافي ، الزهاوي ، الشبيبي ، الجواهري ، الشرقي ، محمد باقر الشبيبي ، محمد حبيب العبيدي ، ابراهيم الوائلي ، محمود الملاح ، علي الخطيب ، محمد صالح بحرالعلوم ، ابو المحاسن ، محمود الحبوبي ، عبدالغني الخضري ومحمد علي اليعقوبي • ولعل من أبرز مظاهر هذه المرحلة ، الاهتمام الأساسي باستقلال العراق والالتزام القومي بالأحداث العربية والدعوة الى تحرير الأمة العربية من سيطرة الاستعمار • وفي مقدمة تلك الأحداث قضية فلسطين • وقدجسد شعراء العراق في قصائدهم ودواوينهم حالة النهوض المتصاعد من أجل حرية الوطن والأمة العربية • حيث عبر الشاعر العراقي عن مدى تعلقه بتراث أمته القومي والانساني • اذ ان هذا التراث المتمثل بالمجد والبطولة والقيم الأخلاقية الرفيعة والمثل الانسانية العالية ، كون بالنسبة للشاعر العراقي « ماضياً حضارياً » يثير في نفسه اكثر من حافز ويخلق في وجدانه اكثر من توهج قومي ، فثار ضد التجزئة وقاوم الاقليمية بكل أشكالها • فكان ثائراً عنيفا في شعره ، ومقاوما صلبا في كلماته وخطبه و « كان هذا الانقلاب الشعري مدهشاً صاحب تبادل المواقع بين الاستعمارين القديم والحديث ، ولم يستغرق مدة طويلة واندفع الشاعر بتركيز الوعي في ذاته وكونه المعبر الوحيد عن الأمة الى قيادة الجماهير وتعبئتها وبلورة أحاسيسها وترجمتها واقعاً ملموساً » فهذا البصير الثائر يقول :

لا يلبسن الشعب حلة مجده   حتى تطرز بالنجيع القاني
واذا تتوجت الجماجم بالظبا   كانت لهن كرامة التيجان

وتعد قصيدته « لبيك أيها الوطن » من اهم قصائده التي تغنى بها العراقيون لأنها ذات مضمون وطني صاف وقومي ثوري :

ان ضاق يـا وطني علي فضاكـا
فلتتسـع بـي للأمـام خطاكـا
أجرى ثـراك دمي فان أنا خنتـه
فلينبذنـي ان ثويـت ثـراكـا
بك همت بل بالموت دونك في الوغى
روحـى فداك متـى أكون فداكا

ويقول محمد رضا الشبيبي بحماسته الوطنية والقومية المعروفة :

انـي ذاك العـراقـي الـذي ذكـر الشـام ونـاجـى اليمنـا
انـي أعتـد نجـداً روضـتـي وأرى جنـة عـدن عـدنـا

وهذا الرصافي يتحدث عن ثورة مايس ١٩٤١ فيقول :

اليوم قـرى يـا مواطـن أعينا
وتطربـي بالحمـد منـك الألسنا
فلقد وفاك الجيش حقـك سالفاً
اذقام فيـك على البـلاد مهيمنا
وسعى يحوطـك بالصوارم طائعاً
لزعيمـه العالـي الرشيد ومذعنا
جيش قـد اقتحم المخاطـر واثقا
بالله والنصـر المـؤزر مـؤمنـا

وهذا السيد محمود الحبوبي يثور بحماس ووجدان عميق فيقول في هذه الثورة :

يا شعب ثر وأعد تأريخك الذهبي
واشحذ ظباك فهذي ساعـة الغلب

دع المحابـر والأقـلام تنشدنـا
(السيف أصدق انباء من الكتب)
وانشر لواءك خفاقاً يجـد لنـا
ذكـرى تدوم مـع الآباء والحقب

٢ ــ مرحلة التوثب الوطني والتجديد الشعري (١٩٤١ ــ ١٩٥٨)
وتبدأ في الواقع بعد ثـورة مايس ١٩٤١ أو قبيل الحرب العالمية الثانية حتى قيام ثورة تموز ١٩٥٨ • تعد هذه المرحلة التاريخية من أخصب مراحل تطور الشعر العراقي شكلا ومضموناً واتجاهاً • فقد تنوعت مضامينها ، ونضجت تجاريبها الشعورية والفكريـة وبرزت فيها أشكال شعرية جديدة اقتضتها الظروف الحضارية والتطور الاجتماعي والسياسي •

ومن أبـرز ظواهرها الجديدة ميلاد قصيدة « الشعر الحر » ــ التي تعتمد التفعيلة الواحدة وتنويع القوافي اسلوبا في بنائها الفني ــ تبناها شعراء عراقيون حاولوا التجديد باخلاص انسجاماً مـع متطلبات الحياة الثقافيـة الجديدة وهم : بـدر شاكر السياب ، ونازك الملائكة ، وعبدالوهاب البياتي وبلند الحيدري • ولعل من أبرز الأسباب والدوافع التي مهدت السبيل الى ميلاد هذه القصيدة الجديدة في الشعر العراقي الحديث : هو السأم مـن النماذج القديمة المتكررة والموضوعات المطروقة التي أدت بدورها الى التحرر من الرتابة والتقليد والبحث عن قوالب شعرية وفنية جديدة • وفي ذلك تقول نازك الملائكة : « فالشاعر الحديث يجب ان يثبت فرديتـه باختطاط سبيل شعري معاصر يصب فيه شخصيته الحديثة التي تختلف عن شخصية الشاعر القديم • انه يرغب في أن يستقل ويبدع لنفسه شيئا يستوحيه من حاجات العصر ، يريد ان يكف عن ان يكون تابعاً لامرىء القيس والمتنبي والمعري »• وهذا لا يعني بطبيعة الحال الانفصال المطلق عـن التراث الشعري العربي المعروف، بقدر مايعني استشرافه والاعتماد عليهمصدراً مهماً من مصادر الابداع

والتجديد حيث تولد الأصالة ويتطور التجديد مظهراً حضارياً له القدرة على الديمومة والبقاء عبر تجربة زمنية أثبتت جدارته فناً شعرياً متجدداً من فنون الشعر العربي من جهة وحررت شخصية شاعره من قيود الاتباعية والتقليد من جهة أخرى •

وكان لاطلاع الشعراء المجددين على الآداب الغربية وخاصة الأدب الانكليزي والفرنسي بلغته الأصلية او عن طريق الترجمة التي بدأت تدخل واقع الثقافة العربية بعد الحرب العالمية الثانية ، أثر بالغ في حركة التجديد الشعري هذه « فالشعراء المحدثون استفادوا من تجارب الآخرين لتطوير الشعر في العراق على ضوء المفاهيم الادبية العالمية : وما من شاعر عربي حديث حاول التجديد الاوهو يتقن لغة أجنبية او اكثر ، فهو يصدر فيما ينظم عن ثقافة مزدوجة » •

فالقصيدة الجديدة قد تحررت فعلا من قيود لا ضرورة لها • ولكن ذلك لا يعني انها تحررت من قواعد فنية ، لأنها بدأت تكون لنفسها فناً خاصاً بها • فريادة هؤلاء الشعراء — السياب ونازك والبياتي وبلند الحيدري — لم تكن ريادة هامشية او عبثية ، اي لم تنطلق دون وعي بالواقع الشعري المعروف للامة العربية • بل ان ضرورة تطور الحياة الجديدة فرضت على الشعر العربي استجابة جديدة حتى في النهج التقليدي منه ، تمثلت بميلاد الشعر الجديد الذي لم ينقطع عن تراثه الذي غذاه بالحس الفني على الرغم من التأثير المباشر للآداب الأوربية فيه كظاهرة حضارية اقتضتها ظروف المعاصرة الحضارية بين الثقافة العربية والثقافات العالمية الاخرى ، فالسياب مثلا يشرح لنا طريقته في التأليف الشعري الجديد بقوله « ••• فالطريقة التي اكتب بها أغلب قصائدى الآن هي مزيج من طريقة أبي تمام وطريقة ايدث ستويل ، ادخال عنصر الثقافة والاستعانة بالاساطير والتاريخ والتضمين في كتابة الشعر » •

واكبت هــذه القصيدة الجديدة أحــداث الوطن والأمــة في وثبتها وانتفاضتها وثورتها على لسان شعرائها الذيــن أنشدوا الوطنية الصافية ، وتغنوا بالقومية والانسانية ووصفوا الأمراض والعلل الاجتماعية ، وجسدوا في قصائدهم ودواوينهم طموحهم الشعري الذي يمثل استقلال شخصيتهم الشعرية التي عمقت وجودها الأحداث السياسية من خلال تفاعلهم الأمــين مــع الوطن والأرض ، فكان للوثبة الوطنية عام ١٩٤٨ ، ونكبة فلسطين ، والثورة الجزائريــة ، وانتفاضة العراق عام ١٩٥٢ وظهور حلف بغــداد ، والعدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ ، أثر فعال في خلق مضامين وعوالم شعرية جديدة زخرت بها حركة الشعر الجديد في العراق . واليك هــذه النماذج من هذه القصيدة الجديدة :

يصف كاظم جواد في قصيدته (معركة الحرية) العلاقة الحميمة مــع المناضل خلال الحدث فيقول :

« وتلألأت صور الكفاح
المشرئبة للصباح
وأطل مسعور الجناح
نسر سيومىء للذرى ، للحرب ، للفجر الكبير
وغيوم (تشرين) الحزينة والرفاق المنشدون
كهزيم رعد في سياط البرق يقرع بالطبول :
« انا عراة حاقدون مشردون
ونريد خبزاً لا رصاص »
والريح تصفر
والعجائز ينتحبن مناديات
أبناءهن من الحشود فلا يلبون النداء »

[ديوان ـــ من أغاني الحرية ـــ ص ١٩]

ويستمر الشاعر بصوت آخر فيقول :

.. حكام امريكا ، دعاة الحرب ، آلهة الدمار
والمال أعوان الصهاينة الذئاب
« يايسقط العملاء والمستعمرون
يا يسقطون ... يا يسقطون » .

وهذا عبدالوهاب البياتي يهتف من اعماقه :

« يا يسقط المستعمرون
ومنظمات دفاعهم ، يايسقطون »
وتئز طلقات البنادق : « أيها الجندي الحزين »
انا رفاقك أيها الجندي الحزين
انا رفاقك في المصير
في الفقر ، في المرض اللعين » .

[ديوان عبدالوهاب البياتي ١/٤٥٣]

وهذا صوت الشاعر علي الحلي يصور حالة المناضل في المعتقل فينادي القيود والأغلال :

« زمري يا سلاسل البغي يا أصفاد كفي ... انني صديان
للضحايا تعطر الرمل بالغادين ، أين الرماة والفرسان
قيد يصاغ للمعصم المعروق ويل ، وكل قيد هوان
وطن حائر .. ودنيا من الاغلال حيرى وموكب حيران » .

[ديوان ثورة البعث ـــ ص ٦٥]

وهذا صوت محمد جميل شلش يقول على لسان شهيدة اردنية :

« يا سهام الفجر في قلب الظلام

يا رفيقاتي ... الى القمة هيا
في بلادي يصنع الانسان فجره
وكأشراقة زهره
وكسهم ذهبي اللون في قلب الظلام
ضمخت بالنور اغوار الظلام
ومضت عنا وفي الصدر وسام .. »

[ديوان الحب والحرية ــ ص ٩٢]

والظاهرة الأدبية الثانية في هذه المرحلة الشعرية في العراق ، هي ظهور الشعر المسرحي والقصصي في الأدب العراقي ، ونعني بذلك مسرحيات خالد الشواف الشعرية وهي ثلاث مسرحيات : الأولى (شمسو) التي كتبها بين عامي ١٩٤٤ــ ١٩٤٦ ، ولكنها لم تصدر الا في عام ١٩٥٢ ، والثانية (الأسوار) وقد نشرت عام ١٩٥٦ ، والثالثة (الزيتونة) نشرها عام ١٩٦٨ .

لا شك في ان « أصدار المسرحية الشعرية الغنائية كما خلفها شوقي قد وصلت الى الشعراء العراقيين في مطالع الثلاثينات من هذا القرن فأخذ شعراء عراقيون يتأملون هذه المسرحيات ويعجبون بها ويحاولون محاكاتها » .

ان المحاولات المسرحيــة الشعريــة التي سبقت مسرحيــة الشــواف (الأسوار ــ عام ١٩٥٦) كانت مجرد قصائد غنائية جعلت من شوقي وأباظة مصدراً مهماً للمحاكاة والتقليد ، ويربو عدد المسرحيات الشعرية العراقية التي صدرت منذ عام١٩٣٣ حتى عام١٩٧٣ على الثلاثين وهي تتفاوت جودة وضعفاً وبعضها مما يسمى مسرحية تجوزاً . نذكر منها ثورة العراق الكبرى وثورة العرب الكبرى لعبد الحميد الراضي ، وقيس لبنى وأصحاب الكهف والرقيم لخضر الطائي ، ومجنون ليلى لعاتكة الخزرجي ، ومرجريت لعلي الصغير ، وقد

وجد مسرح شعري تربوي في هـذه المرحلـة المهمة مـن مراحل تطـور التجربة الشعرية في العراق • يعد عبدالستار القرهغولي رائد هذا اللون من شعر التمثيل • فقد أصدر عام ١٩٤٨ (روايات من تاريخ العرب) وعام ١٩٥٣ (مسرحيات للأطفال) وعام ١٩٥٥ (ابو عبدالله الصغير) ـ نقـلا عـن : محسن اطيمش : الأداء المسرحي في الشعر العراقي الحديث ، بغداد ، ١٩٧٥ ، ص ١٩٣ ، ١٩٤) •

بيد ان مسرحيات الشواف الشعرية تعد بداية فنية متميزة • فمسرح الشواف تأريخي ، وله رأي في التاريخ وعلاقته بالمسرح ، فهو يرى « ان لابد للشاعر المسرحي من استقاء مادته من التاريخ ، ذلك لأن البعد الزماني وما يضفيه من جلال القدم عامل مهم في انجاح العمل المسرحي وحفظه من الابتذال والتدني » • ويرى ايضا ان « الأساطير العربية القديمة وأحداث التاريخين العربي والاسلامي فضلا عن أحداث التاريخ القديم تنتظر من يجلوها في مسرحيات شعرية عربية » •

ان المضمون الشعري الذي تعبر عنه مسرحيات خالد الشواف هـو « تقديم صورة للصراع الدائم بـين الحق والباطل ، بين كل ما هـو شريف ووضيع يتربصه ليطيح به فينشر الظلام بدل النور والحق والانسانية »• وهو من خلال هذا المضمون يرمز الى أحداث الأمة العربية وما أصابها من غدر وظلم بضياع فلسطين على يد اليهود والصهيونية • وهو مضمون وطني ـ قومي استطاع استثمار التاريخ العربـي ـ الاسلامي والتاريخ العراقي القديـم استثماراً رمزياً حيناً واسطورياً حيناً ثانياً وواقعياً حيناً ثالثاً كي يجسد الصراع بين الحق والباطل ، بين العدالة والظلم ، بين حق الأمة العربية وطغيان الاستعمار الجاثم على صدورها •

أما الظاهرة الثالثة في هذه المرحلة ، فهي استمرار تدفق الشعر الحديث بشكله العربي القديم او كما اصطلح عليه « بالشعر العمودي » بعد ظهور حركة الشعر الحر ، تدفقاً حديثاً وجديداً في لغته وروحه ومضامينه الوطنية والقومية والانسانية والوجدانية ومن اعلام هذا الاتجاه محمد مهدي الجواهري ، محمد رضا الشبيبي ، محمود الحبوبي ، حافظ جميل ، صالح بحر العلوم ، علي الحلي ، وعبدالرزاق عبدالواحد . فقد عبر هؤلاء الشعراء عن أحداث عصرهم تعبيراً غنائياً وحماسياً صافياً فيه مسحة عباسية ، وفيه حداثة وجدة ، وفيه وجدان صادق مرهف ، وفكر عميق الجذور بالتاريخ والحاضر والتراث .

تطور نقد الشعر العربي الحديث في العراق

نقد الشعر في الادب العراقي الحديث فن أدبي ذو جذور تأريخية وتراثية في بعض اتجاهاته وفن أدبي جديد في بعضها الآخر فقد استمد دلالاته ومصطلحاته ومقاييسه من واقع الحياة العربية الجديدة في العراق ذلك الواقع الذي أثرت فيه تيارات سياسية واجتماعية وثقافية كثيرة منذ العشرينيات من هذا القرن حتى عام ١٩٥٨ ولما كان النقد الادبي عنصراً فعالاً من عناصر الفكر الادبي العربي العام فقد تأثر بتيارات ذلك الفكر في أستنباط معاييره واستحداث مقاييسه في تقويم التجربة الأدبية (الشعرية والنثرية) وتقدير ابعادها الفنية وتحديد خطها الحضاري في حركة المجتمع العراقي والعربي قومياً وانسانياً .

فقد برزت في الفكر الأدبي الدعوة العربية التي اتجهت الى بعث الأدب العربي القديم والاستعانة بروائعه البارزة في أحياء التراث العربي واستنباط عوالمه الفنية والأنسانية من أجل خلق أدب عربي حديث يستجيب لمتطلبات الحياة الجديدة ويصور روح العصر تصويراً بعيداً عن التقليد والجمود في ضوء

معيار نقدي جديد ... وقد صاحب هذا الأتجاه دعوة تؤمن بضرورة تفاعل الفكر العربي بالتيارات الحضارية الغربية والأخذ بأسباب التطور الموجود في أدب الغرب مع الأحتفاظ بالخصوصية العربية بسماتها ومزاياها النابعة من واقعها وتراثها وثقافتها العريقة ونتيجة للتفاعل بين الثقافتين العربية والأجنبية أثراً وتأثيراً ظهرت أتجاهات نقدية في الأدب العربي الحديث وان كان بعضها نظرياً لم يرق الى مستوى التطبيق والمنهجية نذكر منها على سبيل المثال :
الاتجاه التقليدي او الكلاسيكي أو الاتباعي الذي يرى في العودة الى الأصول والأسس التي وضعها النقاد العرب القدامى في مناقشة قضايا الشعر ـ كقضية اللفظ والمعنى والطبع والصنعة وعمود الشعر والموازنة والسرقة وعيوب الشعر ـ مقياسا نقديا من خلال هذا الموروث في تحليل التجربة الشعرية وتقدير قيمتها الفنية والجمالية . ويبدو ان هذا الأتجاه قد حصر نفسه في مناقشات لغوية ونحوية ضيقة دون النفاذ الى عمق التجربة الشعرية ومحاولة ربطها بعصرها لغةوصورةورؤية، بل اكتفى بالأهتمام بالجانب الوصفي ، رافضاً مبدأ التطور فصار هذا الأتجاه قريباً من كونه نقداً اصطلاحياً او تعليمياً عاماً .

وهناك الاتجاه التأثري الذي يرى في الذوق الفردي أساسا في التقدير النقدي وهو لايخلو من تأثير رومانتيكي . فما دام الادب تعبيرا عن ذات الشاعر او تجربة الكاتب فالنقد ، في مثل هذه الحالة ، تعبير عن ذات الناقد كما يراه ذوقه وتأثرته الخاصة فالناقد التأثري ينظر الى العمل الفني الشعري أو النثري ويتذوقه محاولا نقل انطباعاته ومشاهداته الى المتلقي او القارىء وهو في ذلك يسر بالتجربة نفسها التي مربها الاديب الفنان شاعرا كان أم ناثرا وتأثر بها ، لذلك فان هذا الاتجاه النقدى لا يعبأ في اصدار الاحكام الخاصة بالخطأ اللفظي او المعنوى لانه يرى أن اصدار مثل تلك الاحكام قيود أمام حرية وانطلاق الشاعر ، ولكنه قد ينوه ببعضها وان تنويهه هذا ليس غاية نقدية

بحد ذاتها بل هــو مظهر شكلي لا يصلح حكماً نقدياً قاطعاً في تقدير هــذه التجربة أو تلك لان هذا الاتجاه مرتبط أشد الارتباط بعلم الجمال الذي يرى في النقد تذوقاً مباشراً للعمــل الفني ، ولعل جماعة الديوان (العقــاد وشكري والمازني) في مطلع هذا القرن خير من يمثل طليعة هذا الاتجاه النقدي في الادب العربي الحديث امــا الأتجاه النفسي فهو النقد القائم على التحليل النفسي للأدب . وهذا الأتجاه متأثر من أسمه بدراسات علم النفس ومدارسه الأدبية أبتداء بفرويد وأدلر وينغ ومن هنا شاعت مصطلحات لغوية ذات دلالات نفسية في معجم هذا الأتجاه كالأنفعال ، الرمز ، الحلم ، الأستبطان ، الشعور ، الوعي ، اللاوعي ، الادراك ، الرؤية ، الضمير ، الاستجابة ، التداعي ، الخ ... فالاتجاه النفسي في النقد الحديث هو في الحقيقة مزج بين الجانب الذوقي ونتائج الدراسات النفسية وتبقى هذه المعادلة الثنائية بين الذوق والنتيجــة النفسية محور دراسات هذا الاتجاه واحكامه . ويبدو أن هذا الاتجــاه بقي يدور في دائرة التأمل النظري المحض .

أما الأتجاه التاريخي فيحاول فهم التجربة الشعرية في مدى أرتباطهــا وتأثرها بالبيئة والعصر والأحداث السياسية والاجتماعية والدينية لكن ذلك لا يعني تحويل التجربة الادبية الى وثيقة تاريخية بل يبقى الارتباط بين الابداع الفني والتاريخ حياً قوياً من اجل الكشف عن الجوانب الأصيلة في التجربــة وتقريبها عن طريق التفسير والتعليل والذوق الى ذهن المتلقي ووجدانه حيث تخلق عنده الاستجابة بالقبول أو الرفض لذلك أهتم هذا الاتجاه النقدي بدراسة « البيئة » ومصادر « السيرة » في نقدير الأثر الشعري وتقويمــه . ويبقى الأتجاه التحليلي ــ الفني أو التصويري مــن الأتجاهات النقدية التي تدرس القصيدة وكانها نسق فني تعبيري جذاب ذو علائق نفسية وتاريخية واجتماعية نظراً لارتباط الشاعر باحداث عصره من جهة وبانفعالاته واحاسيسه من

جهة أخرى فاعتماد مبدأ التحليل الكلي لجزيئات التجربة الشعرية من خلال النظرة الفنية الموحـــدة الى « الشكل والمضمون » في تلك التجربـــة يؤلف الأساس الذي يقوم عليه هذا الأتجاه النقدي في الكشف عن القيمة الفنية في الصور الأدبية •

وقد يأتلف بعض هذه الأتجاهات فيما بينها وقد ينفصل ويستقل الواحد عن الآخر في بعض الكتابات النقدية الشـعرية الحديثة في الادب العراقي او العربي عموماً • وان نظرة تحليلية على مابين أيدينا من مقالات وخواطر نقدية حول الشعر العراقي الحديث نشرت في الصحف العراقية منذ عام ١٩٢٠ الى تموز ١٩٥٨ تكشف لنـا عن وجود مرحلتين نقديتين مهمتين في تاريخ نقد الشعر العراقي الحديث •

وهما : مرحلـة النقد التقليدي القائم على تصيد الهفوات اللغويـة والنحوية والصرفية والالتزام بلغة نقدية عامة لا تخضع لمقياس او تحليل نقدي بقدر ما تحاول المدح والتقريظ والثناء من جهة او القدح والتجريح السطحي والشخصي من جهة اخرى وتتجلى هذه النتف النقدية عند روفائيل بطي على شعراء كتابه (الادب العصري في العراق العربي) المطبوع عام ١٩٢٣ • فمن امثلة نقده اطراؤه شعر أبي المحاسن اطراء عاماً يفتقر الى حس نقدي يكشف عن جمالية النص او تحليل القصيدة تحليلا فنياً نقدياً فيقول ان شعره يمتاز « بالجودة والانسجام والرقة مع الجزالة يجيد في كل باب ويتفنن في الاساليب تفنن أديب عارف • نمطه في نظمه أقرب الى العصري • وبالجملة نجد فكرته تمثل صوراً من الأحساس والأبداع تختلف أسلوباً وتأتلف حسناً ••• ويغلب على نظمه التجنيس والاشتقاق وسائر أنواع البديع يكسو كل ذلك ثوب من الفصاحة ، ومطرف من البلاغة يجعل لشعره روعته » •

ان البحث عن العيوب واصطياد الهفوات والأخطاء والتجريح والأنتقاص من الشاعر وشعره ،كانت النظرة النقدية حسب مفهوم النقد أو الانتقاد وقتئذ، الشديدة التأثير في النفوس ، الشائعة في الوسط الادبي ناهيك عن نتائجها وما تخلقه من ردود أفعال غريبة وعنيفة عند الشاعر وقرائه . لاشك في أن هذه المرحلة النقدية كانت مضطربة تتخبط في فوضى الاحكام الانتقادية نظرا لانها أحكام فردية بعيدة عن الروح العلمي والمنهج النقدي السليم الذي بدأت بوادره بالظهور بعد الحرب العالمية الثانية نتيجة للتطور الفكري والحضاري والثقافي الذي بدأ يظهر في الساحة الأدبية العربية والعراقية فحلت محل الثقافة الادبية السطحية ، ثقافة رصينة منهجية ، تعي مسؤولية الكلمة والحكم في النقد، خاصة حين تحول النقد الى ضرب من النوع الادبي الذي يحتاج كغيره من الانواع الادبية الى موهبة وثقافة موسوعية وتخصصية وذوق أدبي رفيع وتجربة ودربة وممارسة في العمل الأدبي عامة فكان لظهور المجلات الأدبية بعد سنة ١٩٤٥ دور فعال في تطوير عملية نقد الشعر في العراق نحو تبني مناهج واتجاهات ذات أصول وأسس رصينة في البحث عن القيمة الفنية والأدبية للقصيدة أو الديوان أو المجموعة الشعرية تحقيقاً لمحاولات الدعوة ألى « النقد النزيه » أو النقد الموضوعي الذي لايمليه على الناقد غل او ضغينة فكانت هذه الدوافع والمبادرات من ابرز خصائص وسمات المرحلة الثانية في نقد الشعر المبتدئة من ١٩٤٥ الى تموز ١٩٥٨ وهي المرحلة الغنية بظواهرها الادبية الجديدة كحركة الشعر الحر وتطور الشعر المسرحي والقصصي وروعة الشعر العمودي والتي يمكن أن نصطلح عليها بمرحلة النقد المنهجي في الأدب العراقي حيث برزت فيها مناهج النقد التأريخي والأهتمام بالبيئة والزمان ودراسة السيرة الذاتية والمنهج الفني القائم على الموازنة والتحليل ثم المنهج الوصفي والتفسيري وأخيرا المنهج الفني القائم على التحليل الدقيق لماهية الروح الشعري في القصيدة أي التحليل المنطلق من داخل التجربة وعياً واستبطاناً وكشفا عن قيمتها الجمالية وأهميتها الفنية وفق معيار

الذوق والجودة والأصالة بالأضافة الى الأهتمام «بالشكل والمضمون» دلالتين نقديتين مهمتين في هذا النقد المنهجي وما يرتبط بها من التركيز والبحث في الوحدة الموضوعية للقصيدة ودراسة أسلوبها ولغتها وصورها وسمات تعبيرها من حيث موسيقاها العروضية وفنية غموضها أو رمزيتها أو وضوحها .

ولعل أبرز سمة من سمات هذه المرحلة النقدية بالأضافة الى منهجيتها اسلوباً هي جنوحها نحو التطبيق والأبتعاد عن جدليات النظرية والتأمل الفلسفي المحض .



المصادر والمراجع

اطميش ، محسن :

الاداء المسرحى في الشعر العربى الحديث ، بغداد ، ١٩٧٥ .

بحري ، يونس :

اسرار مايس ١٩٤١ ، بغداد ، ١٩٦٨ .

البصير ، محمد مهدي :

المجموعة الشعريه الكاملة ، بغداد ، ١٩٧٧ .

بطي ، روفائيل :

الادب العصري في العراق العربي ، مصر ، ١٩٢٣ .
تاريخ الصحافة العراقية ، النجف ، ١٩٣٥ .

الخياط ، جلال :

ــ الشعر بين ثوره العشرين وثورة مايس التحرريه ، بيروت ، ١٩٨٠ .
ــ الشعر العراقي الحديث ــ مرحلة وتطور ، بيروت ١٩٧٠ .

الدقاق ، عمر :

الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث ، حلب ، ١٩٦٣ .

رضا ، عباس توفيق :

نقد الشعر العربي الحديث في العراق ١٩٢٠ ــ ١٩٥٨ ، بغداد ، ١٩٧٦ .

السامرائي ، ماجد احمد :

ــ التيار القومي في الشعر العراقي الحديث ، بغداد ، ١٩٨٣ .
ــ لغة الشعر بين جيلين ، بيروت .

عزالدين ، يوسف :

الشعر العراقي الحديث وأثر التيارات السياسية والاجتماعية ، القاهرة ، ١٩٦٥ .

علوان ، علي عباس :
تطور الشعر العربي الحديث في العراق ، بغداد ، ١٩٧٥ .
العوادي ، عدنان حسين :
لغة الشعر الحديث في العراق بين مطلع القرن العشرين والحرب العالمية الثانية ، بغداد ، ١٩٨٣ .
غـزوان ، عنـاد :
ـ الشكل والمضمون في الشعر العربي المعاصر ، بغداد ، ١٩٧٤ .
ـ في القصيدة العربية المعاصرة ، مجلة الربطة ، النجف ، ١٩٧٥ .
الفياض ، عبدالله :
الثورة العراقية الكبرى ، بغداد ، ١٩٦٣ .
المبارك ، عبدالحسين :
ثورة ١٩٢٠ في الشعر العراقي ، بغداد ، ١٩٧٠ .
مطلوب ، احمـد :
ـ الرصافي في ارائه اللغوية والنقدية ، القاهرة ، ١٩٧٠ .
ـ النقد الادبي الحديث في العراق ، القاهرة ، ١٩٦٨ .
المقدسي ، انيس :
الاتجاهات الادبية في العالم العربى الحديث . بيروت ، ١٩٥٢ .
الهلالي ، عبدالرزاق :
الزهاوي الشاعر الفيلسوف والكاتب المفكر ، مصر ، ١٩٧٦ .

المبحث الثاني

الأدب القصصي واتجاهات النقد

د . محسن جاسم الموسوي

رئيس مجلس ادارة « آفاق عربية » ـ رئيس التحرير

الرؤى ٠٠ والحس الوطني

عندما كتب عطاء أمين (رؤياه الصادقة) لمجلة دار السلام (آب وايلول ١٩١٩) بعنوان : (كيف يرتقي العراق ؟) كان صاحب الرؤيا يختتم رؤياه في بابل بطلب النصح والمشورة والمعرفة بشأن واقع وطنه ومستقبله : وجاءته النصيحة بمثابة دعوة للعراقيين للنهوض بالثقافة والمعرفة والوعي ، واللحاق بركاب المتقدمين في الزراعة والصناعة والميادين الاخرى ٠ ان القصد من هذه الاشارة التنبيه الى أن كتابة (الرؤى) التي تميز بها عطاء أمين لا تهم مؤرخ الادب في أنها مجرد تمهيد لازدهار الفن القصصي في العراق حسب ، بل تهمه أكثر لانها تنبيء أيضا بالعلاقة الوثيقة بين هذا الفن من جانب ، وطبيعة تنامي الحس الوطني المتزايد ، بين جمهرة المثقفين في بغداد والمدن العراقية الاخرى من جانب اخر ، وهو حس تأكد في مثل هذه الكتابات التي اعتمدت (الماضي المشرق) لتسلط الاتباه على الحاضر ، مثيرة الامال والطموحات ،

ومحفزة الرفض والتمرد • وكانت الرؤى سبيلا في القص الرمزي ، يتحايل على التحريم السياسي المفروض في ظل التبعية للسلطة العثمانية ، وبعدها للسلطة البريطانية • وقبل رؤيا عطاء أمين الاخيرة ، كانت مجلة تنوير الافكار قد نشرت في عام ١٩٠٩ ، أي بعد اعلان الدستور العثماني ، مثل هذه الرؤى والاحلام ، متلمسة (التنوير) ايضا ، بينما جاءت مطولة سليمان فيضي السردية المعنوية (الرواية الايقاظية) في عام ١٩١٩ اعرابا صريحا عن طبيعة هموم المثقفين وتطلعاتهم في التعلم والتنور • ولم يخف داعية التنوير المذكور أمله في ان تفيد (روايته) في ايقاظ أبناء بلاده (لعلهم من غفلتهم ينتبهون أو يتأملون ويفقهون) •

واذا كانت بدايات السرد القصصي تقرن دائما بالرؤى المدونة والقص الهادف (وتخطيطات) الشخوص ، فأن مثل هذه الكتابات التي شغلت حيزا كبيرا من الصحافة المزدهرة في العراق بعد اعلان الدستور ، لابد أن تكون مدخلا موضوعيا في دراسة تطور الادب القصصي المعاصر في العراق • كما ان طبيعة اهتماماتها المباشرة او الرمزية في الوعظ والتعليم والتحريض تجعل منها مقرونة بتطور الحياة الفكرية ، وميادينها المختلفة ، وبضمنها ميدان النقد الادبي ، الامر الذي يحتم أيضا دراسة تطور الفن القصصي في ضوء مدارس النقد الادبي القصصي واتجاهات الذوق في العراق المعاصر ولغاية ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ •

فبدءاً بمقامات ابي الثناء الالوسي في منتصف القرن الماضي كان هاجس ملامسة الحياة الواقعية ، والاوضاع الاجتماعية قائما ، ما دامت المدن ، وبغداد بخاصة قد شهدت ميلا للمجالس الثقافية والمدارس •

بينما جاء الدستور العثماني لاحقا في عام ١٩٠٨ ليحفز اهتمامات سياسية وطنية وقومية ، وتفصيلية في موضوع الديمقراطية والاستقلال، واذا كان التجوال والاحتكاك بالثقافة التركية من جانب ، وبدعاة اليقظة الفكرية

العربية من جانب آخر ، قد يسرا انفتاحا ثقافيا مناسبا ، فان انتشار الصحافة في بغداد والمدن الرئيسة ، كان له شأنه في ترويج هذه الافكار •

ولم تكن أسفار الرصافي والشبيبي والزهاوي والكاظمي ولقاءاتهم بابراهيم اليازجي وشبلي شميل ويعقوب صروف وفارس نمر وجرجي زيدان أمرا اعتياديا انذاك : اذ كانت افكارهم في كثير من الاحيان واحدة من سمات اليقظة الفكرية العربية أمام التحديات القائمة ضد القومية والثقافة العربية : ولم تكن (الايقاظ) جريدة سليمان فيضي وحدها المهتمة بالتنوير ، بل كانت اغلب الصحف معنية بهذه القضية • لكن (الايقاظ) تقودنا الى تأكيد حقيقة لجوء العديدين الى السرد القصصي بصفته وسيلة في اشاعة الوعي والتنوير ، وكانت (صدى بابل) تكتب في عددها الاول (١٩٠٩) شارحة مجالات اهتمامها ، واضعة (الاخبار الخيالية والروايات الفكاهية) بجانب المآثر التاريخية والمقالات السياسية ، لانها ترى في ذلك ايضا (صلاح شؤون الجامعة الانسانية في الحالتين السياسية والمدنية) ، وهو أمر تنبه له اغلب دارسي الفن القصصي في العراق •

واذا كانت الكتابات السردية المختلفة في مجال النشر ، من رؤى واقاصيص ، بدايات ساذجة في ميدان الادب القصصي ، شجعت على ظهورها الصحافة المنتشرة آنذاك ، الا انها من ناحية ذوقية تؤرخ واقعا ثقافيا ، تشتد فيه الدعوة للتنوير ، من خلال المقارنة بين واقع تعيس وماضٍ تليد ، فكانت الرؤى واحدة من طرائق التحريض المبطن التي اشتدت بعد انتكاسة ثورة العشرين ، وشيوع الحس بالاحباط • ولهذا كان اللون القومي يأخذ مجاله في قصص الرؤى هذه المرة ، فظهرت (وقفة على ديالى ••) لعطاء أمين في جريدة العراق ، (مايس ١٩٢١) بمثابة ترميز للنزعة القومية العربية في مجابهة الاعداء والغاصبين • ومع ما تحمله مثل هذه القصة الرمزية من احاسيس بالاحباط والتعاسة ، الا انها واضحة الغاية والمراد ، على عكس ذلك النمط

من القصص الذي قاده الاحباط الى تقليد جبران خليل جبران والمنفلوطي من بين العرب ، ولامرتين وغوته ودوماس من بين الاجانب ، في الاستئناس بالنهايات المؤلمة ، والحبكة المنتشية بفيض العواطف والوجد ، والغارقة بالشكوى . ولعل كثرة النتاج المحلي نسبة الى سعة المنشور انذاك ، وامكانات الطباعة المتواضعة هي التي دفعت جريدة العراق (العدد ٧٦٩ ، ١٩٢٢) الى الاشادة بالحركة الثقافية في العقد الثاني من هذا القرن ، وهو تخريج أكده محرر (جريدة الامل) (العدد ٣٠ ، ١٩٢٣) ، وأشاد به احد كتاب المرحلة المذكورة ، السيد حسين الظريفي ، في جريدة الامل (العدد ٤٤ ، ٢١ تشرين الثاني ، ١٩٢٣) ، وأفاض في ذكره آخرون .

متنورو العصر : مواقف

لكن هذا الواقع الذي شهد ظهور نتاجات أبرز كتاب المرحلة ، أي محمود أحمد السيد ، بدا مرصودا من قبل متنوري العصر الاخرين : واذا كان السيد في البدء قد جاء بسرديتيه المطولتين ، في (سبيل الزواج ، ١٩٢١) و (مصير الضعفاء ، ١٩٢٢) ومجموعته في العام نفسه (النكبات) منساقا مع اتجاهات القص السائدة انذاك ، حيث المفارقات الاجتماعية العامة التي يلتقطها المؤلف مستخلصا من السير الذاتية والعادات والتقاليد ما يريد موضوعا ومغزى ، فانه لم يستمر في هذه الوجهة طويلا . بل أن آخرين من متنوري العصر ، شأن الرصافي ، وقفوا بوجه ما اعدوه تزييفا للواقع ، وتحريفا لمهمة الادب في تلك المرحلة . فكتب معروف الرصافي في جريدة الامل (العدد ٣٠ ، ١٩٢٣) مقالا تصدى فيه للاتجاهات الخيالية المتطرفة وتلك المسرفة في العواطف ، بينما كان اخرون يتأملون واقع النشر في منتصف العقد الثاني بحذر ، ليكتبوا ضده بعد حين : فجاءت مقالة عبدالغني شوقي في (جريدة الفضيلة) (العدد ٧٥ ، ٩حزيران ١٩٢٧) عن

(مقام الرواية في الادب) بمثابة دعوة دقيقة الى (ان نضرب صفحا عن تلك تلك القصص الخرافية القديمة) ، مشيرا الى أن النهضة تبتدىء بالفكر والثقافة ، لا بتكرار الغث ، داعيا الى أن (تترجم الى لغتنا العزيزة من روايات كبار الغرب ما يغذي عقولنا ويرقي مداركنا ويوسع أفكارنا) : وكانت الدعوة للانفتاح على المعارف والعلوم واسعة تأثرت بالاحتكاك بالمثقفين الاتراك أولا ، لتزدهر أثر الالتقاء برواد النهضة القومية العربية ودعاتها ، الامر الذي قاد الى توريد المعارف العربية من مصر وبلاد الشام ، بينما كان حسين الرحال صاحب جريدة (الصحيفة) معروفا بحسن اطلاعه على الثقافة التركية ، لتتسع اتجاهات الترجمة بعدئذ ، حتى أسهم فيها أبرز مثقفي العصر في نهاية العشرينات والثلاثينات : ك ذو النون أيوب ونزهة غنام وعبدالمسيح وزير ومحمود أحمد السيد نفسه ، وخلف شوقي الداودي وسليم بطي وعبدالوهاب الامين • وكان أن تكررت في الساحة الثقافية اسماء اخرى علاوة على الادباء والمفكرين العرب ، فمن الفرنسيين موبوسان واناتول فرانس ودوديه واندريه مورو وفكتور هيجو ، ومن الانكليز جورج اليوت و ويلز وتوماس هاردي واوسكار وايلد • بينما كان يتصدر الروس غوركي ودستوفسكي وجيكوف وتورجنيف وجيركوف وبوشكين وتولستوي • وبرفقة هؤلاء كانت اسماء متفرقة أخرى كأونيل وريماك واندرسن وبيراندللو •

وستبقى الترجمة عن اثار هؤلاء مستمرة ، بمعايير مختلفة ، واساليب متباينة ، لتخفت قليلا اثر ازدهارها في بلاد الشام ومصر ، واعتماد المكتبات العراقية على التوريد في الاربعينات وما بعدها :

واذا كان الاتصال بالثقافة العربية المصرية على أيدي الشعراء البارز قد أفرز اثرا واضحا في حركة الشعر ، تماما كما كان له شأنه بين المثقفين في الشام ومصر ، فان الادب القصصي شهد مثل هذا التلاقح ، كما تثبت

المراسلات المتبادلة بين السيد ومحمود تيمور ، وغيرها من علاقات استمرت متصاعدة حتى الخمسينات ، عندما كان يوسف الشاروني يهدي قصة دفاع منتصف الليل المنشورة في الاديب (شباط ١٩٥٢) الى عبدالملك نوري •

اتجاهات ذوقية ونقدية

وكان لهذه الاتصالات ومظاهر الانفتاح الثقافي ، علاوة على الحس النقدي المتزايد بضرورة تعزيز النتاج المحلي وتطوير امكاناته ، أن تنامت حركة جدل ثقافي ، ونقدي ، تعمقت سماتها عند أبرز مثقفي العراق المعاصر بين المعاصرين القاصين والنقاد ، شأن زملائهم في ميادين المعرفة الاخرى • وأبرز هذه السمات :

١ ـ الدعوة لايجاد فكر عراقي أصيل ، ينبع عن الذات العراقية ، في ميدان القصص بخاصة ، في ضوء الجدل الذي شجعته الاثار الواردة آنذاك ، والتي تتضمن عناية بالموروث الشعبي •

فكتبت جريدة العراق (كانون اول ، ١٩٣٠ ، العدد ٣٢٤٩) ، تحت عنوان (الركود الادبي : عوامل واسباب) ؛ لتتابعه في عدد لاحق (٣٧٥٥ ، آب ١٩٣٢) عن (جمود الحركة الادبية في العراق) ، بينما كان عزالدين آل يس يطرق الموضوع في مجلة الاعتدال (العدد ٣ ، كانون الثاني ١٩٣٥) في مقالة عنوانها (عناصر الخلود في الادب وحظ العراق منها) ، ليتحول الموضوع الى قضية مثيرة للمناقشة ، فتطرحها مجلة الحاصد في تساؤل فحواه : (متى يزدهر التأليف ••• ؟) في السادس من حزيران ١٩٣٦ : أي أن هذه المقالات وما شاكلها طيلة النصف الاول من الثلاثينات تطرح هاجسا مشتركا حول أهمية ايجاد ثقافة عراقية رصينة ، في مواجهة التحديات القائمة ، متمثلة بحملات التتريك سابقا ، والاحتلال الانكليزي لاحقا •

وفي سياق الاهتمام بالقصص العراقي ، كانت تظهر مقالات عديدة تطمح الى تطوير هذا القصص ، فكان ممتاز اكرم العمري يكتب عن (فن القصة والوسط العراقي) في النهضة العراقية (٢٣ نيسان ١٩٣٠) ، بينما كان لطفي بكر صدقي يكتب عن (القصة العراقية في سبيل الخلق والتكون) ، في جريدة الاستقلال (٢٣ تشرين الثاني ١٩٣٢) • وتتكرر مختلف الاسماء في هذا المجال شأن وديع جويدة وعبدالمجيد لطفي ويوسف الحاج الياس وابراهيم المدرس وفهمي المدرس وجرجيس يوسف ، وغيرهم ممن يذكرهم عبدالاله أحمد في فهرسـته الرائدة لكتاب القصة ونقادها خـلال هذه المرحلـة •

٢ ـ الانصراف الى الكتابة القصصية على أنها ميدان جاد ، ثري ، فكان محمود أحمد السيد يعاود النشر ثانية ، بعدما انتقد تجربته الماضية بشدة ، واصفا اياها في مقالتـه (هياكل الماضـي ، جريدة العراق ، العدد ١٠٠٨ ، أيلول ١٩٢٣) بأنها (لطخة عار) في حياته وحياة الادب ، لانه كتب (روايات غرامية فاسدة) ، لتظهر بعدها قصته المطولة (جلال خالد ، ١٩٢٨) ، وبعدها مجموعتا الطلائع (١٩٢٩) وفي ساع من الزمن (١٩٣٥) : فتحتوي الطلائع بعضا من ترجماته وتلخيصاته • ولعل سر العودة الى الادب القصصي بمفهوم جديد ، وبمعايير جديدة ، واستيعاب مختلف ، لا يكمن في طبيعة وعيه بالتغيرات الاجتماعية والسياسية ، وصلاته بواقعه حسب ، بل بطبيعة انفتاحه على طرائق تعامل الكتاب العالميين الكبار مع واقعهم • ولهذا كان شروعه بتلخيص رواية البعث لتولستوي مهما في تحديد ملامح التغير والانقلاب في تكوينه ومسيرته القصصية ، فاذا كان قد نشر منها بعضا ملخصا (الصحيفة ، العدد ٣ ، شباط ١٩٢٥) فان معاودته التلخيص لمجلة المعرض لاحقا (كانون اول ١٩٢٦) ، والسياسة الاسبوعية المصرية (١٩٢٧) يؤكد عمق احساسه بأهمية الادب القصصي من جانب ، دون أن يعني ذلك استيعابه لوحدة الاثر

القصصي ، وصعوبة تلخيصه • لكن التجربة هيأت له انفتاحا تطبيقيا على فن الكتابة القصصية ، الامر الذي تأكد في حرصه على تضمين مجموعته الطلائع (١٩٢٩) هذا الملخص عن تولستوي •

لكن ثقة المثقفين بالفن القصصي تتأكد بانكباب مبرزين اخرين على هذا الفن : فكانت الثلاثينات تشهد ظهور مجاميع ذو النون ايوب ، رسل الثقافة (١٩٣٧) والضحايا (١٩٣٨) وصديقي (١٩٣٨) ووحي الفن (١٩٣٨) ، وبرج بابل (١٩٣٩) والكادحون (١٩٣٩) وروايته الدكتور ابراهيم (١٩٣٩) :

فالقصص عند أيوب سبيل لنشر الافكار ، كما يذكر لمجلة الادب لاحقا (العدد الثاني ، شباط ١٩٥٤ ، ص ٩٠) ، جاعلاً من قصته الطويلة مؤامرة الاغبياء (في مجموعة وحي الفن) سيرة ذاتية ، يكشف فيها عن مختلف الاهتمامات التي أثرت في تكوينه الادبي ، وسخطه الاجتماعي والسياسي على الانتهازية والمكتبية المريضة •

بينما كان جعفر الخليلي يختط طريقا خاصة في الكتابة الشعبية ، التي تمزج النقد الاجتماعي بالفكاهة القائمة على حس بالمفارقة الحياتية ، والعادات والتقاليد : دون أن تخلو كتاباته من نقد مبطن لاجهزة الحكم والمتنفذين اجتماعيا ، والمستفيدين ، من سيادة بعض الاعراف • فظهرت له في السرد القصصي (التعساء ، ١٩٢٣) والسجين المطلق (١٩٣٥) وخيال الظل (١٩٣٥) وحديث السعلى (١٩٣٤) • بينما تأتي يوميات (١٩٣٥) واعترافات (١٩٣٧) ومجمع المتناقضات (١٩٣٨) بمثابة السمة السائدة في كتابته السردية ، التي ميزت ايضا مطولته السردية الضائع لاحقا (١٩٣٧) ، حيث السرد القصصي يقرب الى الادب المحكي ، دون ترتيب مسبق ، أو حذر فني ، ودون افادة واضحة من أصول القص الجديث • لكنه كان صياد مفارقات اجتماعية ،

بارعا وصاحب حكايات عن شرائح حياتية لا يمكن تجاوزها مطلقا في تاريخ الادب العراقي المعاصر ٠

وكان عبدالمجيد لطفي قد نشر انذاك في المجلات والصحف كثيرا ، لتظهر له ،بالاضافة الى القصص والمقالات التي غذا بها الصحافة طيلة ثلاثة عقود مجموعة (اصداء الزمن ، ١٩٣٨) ، فيطرح فيها ذلك المزيج الرومانسي ، الحافل بالحنين ، وأحاسيس الفقر والحب والخيبة والالم والتمني ، بينما كان آخرون قد نشروا قصصا مطولة ، شأن العفة لمحمد صالح بحر العلوم (١٩٣١) والمشعوذ لخالد الدرة (١٩٣٧) وغادة بابل ليوسف غنيمة (١٩٣٧) ، وظهرت لآخرين مجاميع قصصية ، كصيحات الفؤاد لفؤاد بطي (١٩٣٩) و (العدالة ، ١٩٣٧) لميخائيل الياس ، و (الحصاد الاول) لانور شاؤول (١٩٣٠) وثمرات محمد بسيم الذويب التي احتوت ايضا خواطره وقصائده في عام (١٩٣٨) ٠ بينما كان خلف شوقي الداودي قد ميز نفسه بتصيد المفارقة المثيرة للضحك والفكاهة ، كما فعل في (الفلقة) المنشورة في مجلة النشء الجديد ، في نهاية العقد الماضي (الجزء ٢ ، السنة ٢ ، ١٩٢٨) ٠

وكان آخرون ينشرون بغزارة أوضح في الصحف والمجلات ، مكتفين بهذا النشر ، أو محددين جمعه شأن سعيد عبدالاله ٠

أما عبدالوهاب الامين وعبدالحق فاضل ويوسف متي فلم يكونوا مقلين في النشر في هذا العقد :

فقد ظهرت للامين (مجموعة قصص من الادب الحديث ، ١٩٣٤) ، بينما كان عبدالحق فاضل ينشر روايته مجنونان (١٩٣٩) وقبلها مجموعته مزاح وما اشبه (١٩٣٦) ٠ أما يوسف متي ، فان الثلاثينات هي مرحلته الفعلية في النشر قبل ان يغمره الاهتمام السياسي ٠ وشأنه شأن ابناء جيله

كانت الصحافة ميدانه الرحب ، اذ ظهرت له (سخرية الموت) في الحاصد (العدد ٤٢ ، السنة الثالثة أيار ١٩٣٢) ، وظهرت لـه (عاطفـة جامحة) في الحاصد أيضا (السنة الرابعة ، العدد ٢/آب/١٩٣٢) لترفدها قصته حطام في مجلة عطارد (العدد الاول اب ، ١٩٣٤) ، بالاضافة الى عدد آخر من قصص أقل شأنا ،

لكن هذه المجموعة من الكتاب قدر لها أن تكون اكثر ميلا الى اصطياد النزعات الفنية ومواصـفات الكتابة القصـصية ، فالامين بميلـه للترجمـة والتلخيص لم يغفل ما تسـتدعيه الصـنعة من حرص نسبي ، ولم تكن الموضوعة الاجتماعية وحدها المالكة لامكاناته والمسيرة لكتابتـه ، لكن عبدالحق فاضل الذي استمالته طرائق توفيق الحكيم في الحوار والجدل الذهني ، وافاد من تجارب المثقفين المصريين في التأليف ، شأن المازني وطه حسين والعقاد واحمد حسن الزيات ، أوجد اسلوبا طريا دون اسفاف ، وحوارا مسرحيا كانت فنون الادب القصـصي بحاجـة اليه ، قبل شـيوع أساليب التداعي الحر ، وتعددية النظرة ، أما يوسف متي ، فلا يغفل أهتمامه الخاص بالافادة من المؤثرات الطبيعية من جانب واصـطراع نزعات الخير والشر في النفس البشرية من جانب آخر ، في سياق تسلط القاص على ذهن شخوصه في لحظات من الكرب والتأزم ، كما فعل في (سخرية الموت) ،

٣ ـ ولعل مسيرة النقد الادبي هي التي تضيء لنا بعضا من اوجه تطور الادب القصصي العراقي آنذاك فالمتابعة التطبيقيـة للنصوص المنشـورة كانت أمرا شـائعا ، ظهرت في مجالهـا مختلف الاسـماء ، ابرزها عبدالحق فاضل في كتابته للمجلـة الموصلية ، وابراهيم المدرس وجرجيس فتح‌الله ، بينما جاءت المقدمات التي تمهد للمجاميع المنشورة سمة أخرى من سمات هذه المرحلة ، فمقدمة ذو النون ايوب لـ « رسل الثقافة » في أهمية الغاية الاجتماعية والسياسية تشكل مدخلا لتيار بارز في الادب القصصي ما زال

ممتدا حتى اليوم ، حيث يوظف كتّاب مبرزون قدراتهم السردية وامكاناتهم الرصينة توظيفا عاليا لنقل افكارهم في التصدي لمختلف الظواهر الاجتماعية والادارية والسياسية ، في سياق الواقعية النقدية :

ولهذا كان أحد متابعي تلك المرحلة ، سليم طـه التكريتي ، محقا عندما كتب في مجلة الاداب لاحقا (مايس ١٩٥٣) عن سيادة الواقعية في الثلاثينات معتبرا الصحافة مؤثرة اساسية في هذا الاتجاه • اذ (كان لجماعـة الاهالي واصحاب الصحيفة من قبلهم قصب السـبق في الاخذ بالواقعيـة وتغليبها على النتاج الفكري في العراق • اذ وضع هؤلاء نواة الادب السياسي الذي يهيمن اليوم على الحركة الثقافيـــــة) •

بينما جاء الاطلاع على الثقافات الاخرى ، وطرائق الابداع القصصي من جانب ، والتمثل الاعمق للواقع العراقي ، الاجتماعي ـ القومي والسياسي من جانب آخر ، دافعا الى حس ٍ متزايد بتفضيل التجسيد الواقعي للشخوص والمواقف على التزييف الرومانسي والمبالغة المثالية ، لاسيما في مجال طرح النسوة من الشخوص والعلاقات بين الجنسين ولهذا تعد مقالة (فجر القصة في العراق) لمحمود أحمد السيد التي ظهرت في جريدة البلاد (العدد ١٧٠ ، حزيران ١٩٣٠) تمهيدا لهذا النقد الفني •

ففي هذه المقالة يلوم السيد المبالغـة المثاليـة في طرح النسـوة ، لدى الكتاب الذين يتناسون (تلك الغريزة الجنسـية) ، سـاخرا من النهايات القصصية ، الشبيهة بختامات القصص الشعبي ، حيث هذيان الحبيب عند مرأى الحبيبة ، وحيث الاغماء الذي يعم الاحبة ، دونما مناسبـة واقعيـة تستدعي ردود الفعل الفسلجية هذه •

ولم تكن هذه الدعوة للتمثيل الواقعي معزولة عن معنى « الصدق » الفني في الكتابة الادبية ، وتوظيف التجربة ، الحياتية جماليا . ولعل هاجس عبدالمجيد لطفي مفيد في تأشير ما نحن بصدده . فعلى الرغم من غزارة اتناج لطفي في ميدان القصة الاجتماعية المزوجة بمسحة رومانسية عذبة ، الا انه كان يدرك قصور تجربته الفنية ، اذ كان يقول (الزمان ، العدد ١٥٨ ، اذار ١٩٣٨) انه لم ينتج (بعد قصة موفقة) واحدة يرضى عنها ، (قصة حقيقية صادقة كقصص موبسان وتورغنيف وتولستوي) ، وهو أمر سبق أن تطرق له السيد في المعرض (الجزء ٢ ، السنة الثانية ، كانون الاول ١٩٢٦) عندما أكبر افادة الكتاب المذكورين من البيئة الشعبية وابداعهم للادب (الشعبي الجديد) ، داعيا الى طرح (صورة مجسمة من صور الحياة الاجتماعيـة) :

وتأتي الدعوة لتجسيد الحياة الاجتماعية ، بحيث يكون الادب الشعبي (مرآة لحياة الشعب يعبر عن شعوره واحزانه ومسراته وآلامه ـ كما كتب في مجلة الحديث العدد ٢ ، كانون الاول ١٩٢٧) ردا على نهجه السابق ، ونهج هواة (المفاجآت الرائعة والالوان الساطعة) ، أولئك الذين جاءوا بقصص (خيالية كاذبة زيفها كاتبوها وعرضوها على الناس وفي الاسواق والمكتبات لغاية واحدة هي اكتساب المال) حسب تعبيره في مقاله (قصصنا العراقية الشعبية ، مجلة الحديث ، العدد ٧ ، مايس ١٩٢٨) .

وكان السيد في تقديمه لقصته (سكران) في مجموعته الطلائع قد اوضح الجانب الاخر من تحوله في كتابة القصة والرواية ، فاذا كان تعمقه في في استيعاب حياة المجتمع العراقي يمثل جانبا من تجربته الجديدة ، فأن انفتاحه على اساليب كبار كتاب الثقافات الاخرى ، في ميداني الطبيعة

والواقعية ، شأن زولا وجيكوف وتولستوي ، يمثل الجانب الاخر لهذه التجربة ، فهؤلاء في نظره (ينزلون الى الدرجات السفلى من سلم حياة المجتمع الانساني ، فيقتطفون منها المراد لقصصهم ، بدلا من ان يعرجوا الى الدرجات العليا ، فينثرون للناس الزهور ... فيشغلونهم عن معرفة الحقيقة ، والاهتداء الى الداء ...) .

ولم يكن وحده الذي اهتدى الى سبيل الاتجاهات الواقعية والطبيعية في الفن القصصي . فتجربة ذو النون ايوب هي الاخرى مفيدة في توضيح مسيرة هذا الفن في العراق . فسيرته الذاتية في (مؤامرة الاغبياء ـ مجموعة وحي الفن) تكشف عن تحولات تكاد تصدق على عدد كبير من مثقفي جيله حيث بدأ شأن غيره بقراءة القصص الشعبي والسير التاريخية لزيدان والمنفلوطي ، ليطلع بعدئذ على كل ما هو طريف ومشوق في الاداب الاخرى ، قبل أن يستسيغ الادب الرصين ، ويقرأ لتولستوي وتورجنيف وبوشكين وفولتير وبوردو وموبوسان ولورنس ومارك نوين وريماك وادغار الان بو ... الخ .

اي ان المزاوجة بين الهم الاجتماعي ـ السياسي وبين الانفتاح على فنون القصص العالمي ، أصبحت سمة من سمات الثلاثينات ، وهي سمة تستمر بالرسوخ في الادب القصصي ، لتظهر بوضوح في القصة الفنيه الحديثة ، التي يقرن ثباتها بعبدالملك نوري وفؤاد التكرلي ومعاصريهما .

لكن هذه الاهتمامات الواقعية بفروعها المتعددة لم تلغ ذلك القلق الذاتي ، الذي أخذ يتكرر منفردا في قصص كتاب معينين شأن يوسف متي في (سخرية الموت) ، حيث اصبح الذهن المرصود متعبا ، مأزوماً في داخل تلك الغرفة الضيقة حيث فراش ابنه المريض. وهذا هو شأن عبدالوهاب الامين كذلك في كتاباته وانتقاءاته ، وهو قلق رصده الكاتب المقل آنذاك وديع

جويده ، في مقالة له عن مجموعة قصص من الادب العراقي الحديث (جريدة الانقلاب ، العدد ٢٤ ، شباط ١٩٣٧) يقول فيها عن الاخير انه :

(يمثل الشـاب العراقي في دورنا هذا ، ومـا ينتابـه مـن الهواجس والافكار ... فمن خلال سير القصص وتسلسل افكار الكاتب تستطيع ان تشعر بدقات قلبه غير المتزنة والقلق الذي يساور نفسيته الفنية ... وهي تستقبل الحياة باندفاع يخامره التردد والاحجام) .

سمات المجتمع الثقافي

لكن الشيء الاهم في رصد هذه السمات هو تبين وضوحها او شحوبها في العقدين القادمين ، في سياق بياني ، يوضح طبيعة التطور القصصي واتجاهات النقد . فلم تكن الحرب العالمية الثانية وحدها المؤثرة على الساحة العراقية ، بل جاءت ثورة مايس لتثير مختلف الامال ، بينما كانت ردود الافعال ازاء ما تعرضت اليه محبطة ، غائمة تارة ، ومستفزة لمزيد من التمرد والمعارضة والتحريض تارة أخرى : ولم تكن اسماء المرحلة السابقة قد كلت ، بل كان ذو النون أيوب يصدر مجاميعه الجديدة ،حافلة بحماس أشد لموضوعاتـه الاجتماعية النقدية والسياسية التحريضية ليؤثر في مجموعة كاملة من الكتاب، لم يكن عبدالملك نوري في (رسل الانسانية) الا أحد المبرزين فيها ، فصدرت لايوب العقل في محنة (١٩٤٠) ، وحميات (١٩٤١) ، والكارثة الشاملـة (١٩٤٥) ، وعظمة فارغة (١٩٤٨) ، بينما كانت روايته اليد والارض والماء (١٩٤٨) واحدة من كتاباته الاصلاحية الداعية الى تنفيذ افكاره في ايجاد ريف متحرر من الاقطاع والتخلف ، واعتمد جعفر الخليلي مجلته الذائعـة الهاتف في ترويج القصص ، التي كان اغلبها بقلمه ايضا ، مشيعا نفسا خاصا في الادب الشعبي ، اعتمده غيره أيضـا شأن حسـن الجواهري ، وابراهيم الوائلي وصفاء خلوصي (في غير ملخصاتـه واسفاره) وعبدالسـلام حلمي

وغيرهم . لكنه علاوة على ذلك أصـــدر مطولته السردية (قرى الجن) ، ومجموعتيه (من فوق الرابية) و (حديث القوة) . كما لم يتخل عبدالمجيد لطفي عن الساحة ، فظهرت مجموعتـــه (قلب الام) (١٩٤٤) لتؤكد تلك السمة الرومانسية لتصوراته الاجتماعية ازاء مختلف الظواهر . وظهرت في هذا التيار كتابات قصصية اخرى ، لصفاء خلوصي في مجموعته نفوس مريضة (١٩٤١) ، وصلاح الدين الناهي في اقاصيص شتى (١٩٤٩) ، وعبد الرزاق الظاهر في عذارى بابل (١٩٥٠) ، وقبله كان عبدالله نيازي قد نشر مجموعة همس الايام (١٩٤٩) ، وقصـــته نهايـة حب (١٩٤٩) ، ليعقبهما بمجموعتين ، هما بقايا ضباب (١٩٥٠) ، وشجن طائر (١٩٥٠) . وكان اخرون شأن درويش وأكرم الوتري قد كتبوا أيضا آنذاك ، فظهرت للاول مجموعتا أحرار وعبيد (١٩٤١) ، وبعض الناس (١٩٤٨) ، وللثاني قصته الطويلة (الايمان) ١٩٤٧ . بينما تكررت اسماء عديدة في الصحافة اليومية والاسبوعية شأن خليل رشيد وسامي أمين وفي فترة لاحقة غالب عبدالرزاق وجلال الخياط وانيس زكي حسن ويوسف يعقوب حداد .

لكن محاولات عبدالله نيازي القصصية كانت تحمل بعضا من اهتماماته الثقافية العامة آنذاك ، واطلاعه على طرائق القص الحديث . ولم يكن وحده الذي ابدى وعيا ببعض هذه الطرائق ، فكان شاكر خصباك قد نشر مجموعته صراع (١٩٤٨) ، وبعده نشر عبدالرزاق الشيخ علي حصاد الشوك (١٩٥٠)، بينما كان محمد روزنامچي قد باشر النشر منذ عام ١٩٤٥ حيث يتلمس المرء قلقا ثقافيا ينبىء عن تغيرات في مفاهيم القصة الحديثة . بينما كان عبدالملك نوري ، قد ابتدأ النشر في مجلة المجلة ، حيث ظهرت له قصته بدرية (آب / ايلول ١٩٤١) ، لينشر بعدها مجموعته رسل الانسانية (١٩٤٦) ، بينما فازت قصته (فطومة) بجائزة الاديب لتظهر في عدد كانون الاول ١٩٤٨ من المجلة المذكورة . أي ان الساحة الثقافية حفلت آنذاك بتعددية في الاتجاهات

القصصية ، لا يمكن ان تبصر خارج الذوق العام في الاربعينات ، وهو ذوق تتعدد مساربه ايضا :

فمن البديهي أن يشتد الميل الى السياسة ، بل ان من البديهي أن تحفل الكتابة القصصية بالافكار التي كانت تتسلل بهدوء الى القراء . لكن الشيء الذي لابد من تبينه ، ان هذا الميل دفع الصحافة الى اعتماد المقالة السياسية ، والتحقيقات والاخبار الوطنية والعربية والدولية اولا ، بل ان بعض الصحف التي كانت مكرسة للادب تحولت لتصبح صحافة سياسية ، شأن الهاتف التي تخلت في آب ١٩٤٩ عن هويتها القديمة لتصبح جريدة سياسية ، فتتناول الادب تناولا هامشيا ، بينما كان بعض الذين كتبوا في الادب واحترفوه قد اضطروا الى التنديد بما قادهم اليه الادب من فاقة وعوز ، كما فعل عبدالمجيد لطفي في مجلة البيان (العدد ٦٣ ، ٢١ نيسان ١٩٤٩) .

صعاليك الادب

وعلى هامش الاهتمامات السياسية والثقافية العامة المتزايدة ، كان لابد للتجمعات الادبية الصغيرة ان تظهر الى الوجود ، ضمن الدفاع المتوقع عن الذات في هيكل الاسبقية الجديدة في الوسط بعامة . وكان ان ظهرت نماذج الفنانين والادباء ، الذين يشكون العوز من جانب ، لكنهم من الجانب الاخر تعلقوا بهواياتهم ، وتعاملوا مع الفنون والاداب تعامل الهـواة ، الظرفاء ، الذين لا يبغون احتراف الكتابة ، كما لا يبغون التفريط بحبهم الشديد لها ، وتعلقهم بمواكبة التيارات الجديدة . ولهذا كان عبدالله نيازي يكتب آنذاك في جريدة الحصون (العدد ٧٢ ، ١٧ أيلول ١٩٤٩) عما أسماهم بصعاليك الادب ، بينما كان مهدي القزاز قبله قد أشـار في مجلـة الاديب (الجزء الخامس ، السنة الثالثة ١٩٤٤) الى قضية (المجالس الادبية في بغداد) ، وهي المجالس التي سيكون لها شأنها في بلورة مختلف الاتجاهات المؤثرة في واقع

الادب القصصي والشعري ونقدهما : بل ان غائب طعمة فرمان كتب في مقالته (كتاب من العراق) المنشورة في مجلة (الثقافة المصرية / العدد ٦٠٠ ، السنة ١٢ ، ٢٦ حزيران ، ١٩٥٠) عن واحدة من هذه التجمعات ، أي جماعة (الوقت الضائع) الذين بلوروا حسا ساخطا ومتمردا بعدما تعرض العراق الى ويلات الحرب مرورا باخفاق ثورة مايس ١٩٤١ ، وآثار وثبة كانون الثاني ١٩٤٨ ، وتقسيم فلسطين ونشأة الكيان الصهيوني • فكان سخطهم يتبلور طيلة ذلك العقد بصفته بعضاً من رد ازاء واقع مؤلم • واحتوت هذه المجموعة بعض الاسماء التي كان لها شأنها في ما بعد ، شأن بلند الحيدري وحسين مردان ، ونزار سليم وجميل حمودي ، وابراهيم اليتيم وعدنان رؤوف ، وحسين هداوي ، ومحسن مهدي الذي اصبح لاحقا رئيسا لمعهد دراسات الشرق الاوسط في جامعة هارفرد •

واذا كانت ردود افعال جماعات المجالس الادبية متعددة الاتجاهات والاهواء ، فان بين هؤلاء اسماء عرفت بحماسها الوطني والقومي • وكان عبدالملك نوري في (رسل الانسانية) أحد المعبرين بقوة عن هذا الاتجاه ، بينما كان نزار سليم في بعض قصصه متفردا في طرح الهم العربي الفلسطيني •

مداخل النقد الادبي

ولا تتكامل صورة الذوق الثقافي العام دون احاطة يسيرة بمداخل الكتابة النقدية ، والتي أسهم فيها عبدالله نيازي وحسين مردان وذو النون ايوب ، وعبدالمجيد لطفي وروفائيل بطي ومحمد علي البلاغي ، وسليم طه التكريتي ، وجميل عبدالله حمادي وفائق روفائيل ومهدي القزاز وعبدالحق فاضل وغيرهم عديدون • فالسمة الغالبة في هذا النقد انه أميل الى وصف التجمعات الادبية وتفاصيل نشاطها ، بينما بقيت الاتجاهات النقدية السائدة

هي تلك تناولها (السيد) في تحولاته ، دون اضافات جديدة واضحة في معنى الاساليب الفنية ، وطرائق الكتابة • بل يمكن القول تعميما ان جهد عبدالحق فاضل في المجلة (آذار ، ١٩٤٠) كان راصدا لتيارات الواقعيـة ، السائدة في الكتابة ، باصدائها الاصلاحية الواضحة عند ايوب ، وتأشيراتها الحياتية عند الخليلي • ولهذا تراه يقر واقعية الخليلي ، في تناولـه المجتمع المحلي ، بعاداته واعرافه واوضاعه العامة ، مضـيفا الى انه لا يقدم حلولا لما يعرض ، مستنتجا (ان قصص الخليلي ليس بالقصص الاصلاحي) ، بينما اعتبر أيوب اكثر نزوعا للمعالجة ، وهو يتناول (نواحي المجتمع العراقي بطريقته الواقعية الصريحة) ، مقدما الى (محبي الاصلاح) فرصة تشخيص (مواطن الداء) والاتيان بـ (المعالجة النزيهـــة) •

واذا كانت مثل هذه المقالة في سـياق المجرى العام للادب القصـصي العراقي منذ بداية الثلاثينات ، أي سياق النزعة الاجتماعية النقدية ، الا أنها لا تعني ثباتا في القناعات بشأن الكتابة القصصية ومستوياتها ، فتكاد مقالة عبدالمجيد لطفي (في الهاتف ، العدد ٣٨٥ ، السنة العاشرة ، ٧ تموز ١٩٤٤) ان تكون التوطئة الانسب للقلق الذي سـينتاب جيلا جديدا من الكتاب ، استهوتهم القراءة الجادة والمجادلـة في معنى الاجناس الادبية وتطورها ، واوجدت لديهم حسا متزايدا بضرورة تقديم عطاء أفضل ، يرتقي الى مرتبة القصص الحديث ، المتعارف عليه عالميا • ولعلـه الهاجس ذاتـه الذي دعا عبدالمجيد لطفي أن يكتب بنكران ذات ، وموضوعية صارمة عند تعليقه على جهده في مجموعة (قلب الام) ، مشخصا الهنات العامة عنده وعند ابناء جيله على أنها متأتيـة من (الاكثار من النشر دون توخي الجودة) ، وهـو نشر يسرته (الصحافة الخفيفة ذات الصبغة التجارية) ، فجاء غير مدعوم (بشيء من عناء الدرس والاسـتقصاء ، هذا الادب الذي يأخذ لونـه من الشمس ويغيب بغيابها) •

ولعل هذه الروح الموضوعية ستطبع مزاج جيل من الكتاب ، اخذوا يتلمسون الطريق في الاربعينات ، مقدمين تجاربهم الاولى ، مترددة ، مرتبكة ، حذرة ، لتتصلب وتتماسك في بعض نتاجاتهم في مطلع الخمسينات ، عند عبدالملك نوري وفؤاد التكرلي ونزار سليم وعبدالصمد خانقاه ، ومهدي عيسى الصقر ، وغيرهم في قصص معينة ، تمكنوا فيها من تحقيق اداء فني اكثر تكاملا :

لكن هذا المزاج الجديد ، الحاد ، المتوتر ، الحريص لم يكن قائما في فراغ . بل ان التيار التقليدي مازال قائما بأركانه ، كتاب الواقعية النقدية المبرزين ، وكتاب الادب الشعبي . فأيوب يستمر بالعطاء في قلوب ظمأى (١٩٥٠) ، وصور شتى (١٩٥٤) ، وقصص في فينا (١٩٥٧) ،كما ظهرت مطولته (الرسائل المنسية) قبل حين في عام ١٩٥٥ ، وهي ضرب بسيط في رواية الرسائل ، يقل عن مستوى كتاباته السابقة . كما استمر الخليلي في العطاء هو الاخر لتظهر مجموعته الشائعة اولاد الخليلي (١٩٥٥) ، وبعدها هؤلاء الناس (١٩٥٦) .

واذا كان ايوب وفيا لاسلوبه في القص ، مركزا على الافكار والمواقف والمشكلات الاجتماعية والسياسية والوظيفية التي هيمنت على اجواء اقاصيصه ، فان آخرين لم يبتعدوا كثيرا عن الاتجاه نفسه ، وان أعوزتهم قوة اسلوبه . فكان أدمون صبري ساردا قصصيا يهمه تدوين ما يشغله من مشكلات اجتماعية ومآزق حياتية ، تدلل عليها عناوين مجاميعه ، كحصاد الدموع (١٩٥٢) والمأمور العجوز (١٩٥٣) وقافلة الاحياء (١٩٥٤) وكاتب واردة (١٩٥٥) ، وخيبة أمل (١٩٥٦) وشجار (١٩٥٧) لتجيء مطولته القصصية الخالة عطية (١٩٥٨) تتويجا لجهده الاجتماعي ـ النقدي . ولم يكن صلاح‌الدين الناهي في تثنية الاقاصيص (١٩٥٢) بعيدا عن هذا التيار ، الذي سبق ان رفده بـ (أقاصيص شتى ١٩٤٩) ، وهو تيار استقطب

عددا من المعنيين بتوصيل افكارهم وحكاياتهم ، كخالد الدرة في قصته الطويلة أفول وشروق (١٩٥٣) ومجموعته طبيعة الاشياء (١٩٥٥) ، وصالح سلمان في مجموعته السجن الكبير (١٩٥٤) .

وكان ثمة حرص أشد على الصنعة الفنية لدى كتاب آخرين في هذا الاتجاه ، شأن عبدالرزاق الشيخ علي في مجموعتي حصاد الشوك (١٩٥٠) وعباس افندي (١٩٥٩) ومحمود الظاهر في درب المراهقات (١٩٥٨) ، ومحمد بسيم الذويب في آثام (١٩٥٧) وشاكر خصباك في عهد جديد (١٩٥١) ، وحياة قاسية (١٩٥٩) ، وعبدالحق فاضل في حائرون (١٩٥٨) ، بعدما احتوت طواغيت في العام نفسه قصتين ومسرحية ، وعبدالصمد خانقاه في مجموعته (في الغاب ، ١٩٥٢) التي احتوت بعض قصصه وحوارياته .

وكان هؤلاء قد حملوا تأثيرات مختلفة ، طبعت اجواءهم في مرحلة جدل في التجريب الفني ، حتى تكاد بصمات أغلب رواد الادب القصصي في العالم تنطبع على بعض النصوص . فكان شاكر خصباك يحمل تأثره الواضح لا بتيمور وحده ، بل بچيكوف ، الذي كان آنذاك قد أثر على عدد كبير من القصاصين في حين استمالته النهاية الموبوسانية أيضا ، كما فعل في (الكسيح) وقصص اخرى . بينما كانت قصص غائب طعمة فرمان في حصيد الرحى (١٩٥٤) تفصح عن نفحات من كتابات غوركي ، كما لاحظ معاصره عبدالملك نوري في جريدة صوت الاهالي (١٦١ ، ١٤ نيسان ، ١٩٥٤) : كما كانت النزعة الموبوسانية في قصص الحبكة والمفاجآت مغرية لنزار سليم ، الذي كانت انفاس قصصه تستعير بعضا من اتجاهات الادب الوجودي حيث كان قائما بين الاتجاهات المؤثرة حينذاك : فحملت اشياء تافهة (١٩٥٠) وفيض (١٩٥٢) ، بعضا من هذا التأثير في التراكيب والاجواء . أما جبرا ابراهيم جبرا فقد كانت كتابته جدلا سرديا في هاجس الكتابة القصصية ، وعلاقة الابداع بالموروث والوثيقة .. فتناولت صرخ في ليل طويل (١٩٥٥) هذه

المشكلة في شخصية امين ، وكانت مجموعة (عرق) التي احتوت اقاصيصه المنشورة بين ٤٦ -١٩٥٦ ، تفيض هي الاخرى بجدل ذهني ، وانشغال بالتجربة الادبية ، علاوة على اهتمامات اجتماعية .

لكن شيئا من الموضوعية يلزم الباحث بتقصي مسببات الافادة من اتجاهات القصة العالمية السائدة آنذاك ، بمحاورها المعروفة واساليبها ، من حيث التأكيد على الشرائح الاجتماعية ، او اصطياد المفاجأة ، او تقصي لحظات الازمة الداعية لتيار الوعي ، وعودات الذاكرة ، او الوصف الاجتماعي المسرف للناس وحياتهم : فلم يكن الانبهار دافعا الى ذلك ، كما تشير طبيعة الكتابات النقدية في الخمسينات ، بل ان الميل الشديد الى التجديد ، والنزوع القومي الى ايجاد قصة عراقية ، تبتديء بـ (التراب العراقي) ، كما يعلن أغلب كتاب ذلك الجيل ، يقفان وراء هذه اللهفة للتجريب في الاساليب وطرائق التركيب والبناء ، فصحيح ان المرحلة لم تكفل ظهور ناقد متماسك ، متصل النتاج والتأثير ، لكن طبيعة التجمعات الادبية والفنية في المقاهي والمنتديات من جانب ، والمتابعات النقدية المتكررة في الصحافة العراقية ، وفي مجلتي الاديب والاداب اللبنانيتين بخاصة ، كلها تفصح عن لهفة مخلصة للاتيان بما هو جاد ، أصيل ، متطور . ولهذا كان كتاب تلك المرحلة شأن عبدالملك نوري وحسين مردان وغائب طعمة فرمان وفؤاد التكرلي ونهاد التكرلي وجبرا ابراهيم جبرا ونورالدين الداغستاني وخصباك وجرجيس فتح‌الله وباسم عبدالحميد حمودي وعامر رشيد السامرائي وكاظم جواد ومحيي الدين اسماعيل يتابعون المنشور من القصص ، مقدمين ضمنا خلاصات لمطالعاتهم في معنى هذا الفن :

وحتى عندما يكتب عبدالملك نوري ، مثلا ، عن حصيد الرحى (١٩٥٤) لغائب طعمة فرمان في صوت الاهالي ، مشيرا الى أثر غوركي في مثل هذه القصص ، فأنه يلاحظ اخلاص الكاتب لـ (الاجواء الشعبية المنتزعة من

أعماق المجتمع) ، وحرصه الشديد على (الابطال وانسانيتهم الغامرة ورومانتيكيتهم احيانا) ، دون ان يخفي تحفظه على هذا النهج ، بحكم ما يحتمه (الاغراق في الوصف) من طمس لـ (الصورة) • بل ان عبدالملك طور في هذه المقالة اتجاهه السابق الذي طرحه في تقييمه لخارطة الادب القصصي العراقي آنذاك في (صور خاطفة من حياتنا الادبية) المنشور في جريدة اخبار الساعة (٢ نيسان ، ١٩٥٣) ، الذي تقصى فيه طبيعة نمو هذا الجنس الادبي ، بعدما مر على ايدي ايوب ، الذي (كان يمنحنا صور هذا الواقع في دفعات صغيرة) ، بحيث (سهرنا مع ابطاله المنتزعين انتزاعا رشيقا من خضم التيار الجاري) • لكنه أخذ يرتاب في هذا النهج الغارق بالوصف الخارجي ، والتفصيل السردي لانه (يهمل ما وراء ظواهر الواقع ولا يغور الى الحس الانساني المشترك والتيار الذي يجري ابدا في الخفاء) • فالتيار الذي يعنيه هو ذلك الذي اثارته فيه قراءاته لدستوفسكي ، وكالدويل ، وشتاينبك ، وجيل الوجوديين الفرنسيين ، والذي يستتبع تركيز القاص لا على المواقف والمآزق في حياة الشخوص وحدها ، بل على الذهن البشري في مختلف المواقف واللحظات المأزومة ايضا في سياق التداعي الحر وعودات الذاكرة الى الوراء •

قصة عراقية اولا

أي ان هذا النهج في النقد يمكن ان يقودنا الى التفريق بين الانبهار بالغريب وبين الافادة من القراءات وتوظيفها ، ضمن الاخلاص لهم شديد ، هو ايجاد قصة عراقية : ولهذا تراه يذكر في رسالة لصديقه فؤاد التكرلي في ١٩٥١/١/٣١ ان على (المتقدمين) في الادب العراقي تشجيع (من نجد لديه موهبة ، وأن نوجهه الوجهة الصحيحة ••••) اذ ان في ذلك (خدمة لبلادنا ••• [فـ] نحن بحاجة الى خلق تيار أدبي محلي • قصص عراقية

بكل معنى الكلمة ، مع العمق الانساني الذي يجعلها عالمية) • ويذكر التكرلي في تقصيه لتلك المرحلة من تجربته القصصية في العدد ٧ ، تموز ١٩٧٣ من مجلة الاداب (كنت اعلم بأن استكمال الاقصوصة العراقية لمواصفات فنية عالية ، لا يمكن ان يرفعها الى المستوى العالمي الا اذا بنيت على التراب العراقي • لا جدوى من أقاصيص دون هوية • ولا يكفي ان تكتب اسما عراقيا على دمية مستوردة من الخارج او من الخيال) •

وهذه الروح لم تكن ترتضي المجاملة آنذاك ، لانها ترى في كتابة القصة رسالتها ، ولهذا كان الاخير مثلا يرد على الدكتور سهيل أدريس الذي بالغ في أعتبار اتجاه ايوب ولطفي وعبدالحق فاضل والناهي وعبدالرزاق الشيخ علي اتجاها اساسيا في القصة الفنية العراقية ، مشيرا في مقالته بمجلة الاسبوع (العدد ٢٠ ، ١٥ مايس ١٩٥٣) الى ان التصوير المسطح للواقع ليس مرادفا للواقعية ، فـ (التعبير عن البيئة وحده وبصورة مطلقة لم ينتج أدبا حقيقيا) ، بل ان التكلف في نقل الآلام والمصائب ينتج (زيفا وصورا شوهاء) •

ومثل هذا الحسم القاطع في الاراء النقدية بدا واحدة من سمات تلك المرحلة التي تعايشت فيها الاتجاهات الثقافية والفنية ، واصبحت الساحة خلالها مسرحا للجدل في مختلف وجهات النظر ، بل ان (الصداقة الشخصية) لم تكن تحول نسبيا دون نقد موضوعي في ضوء المعايير النقدية المتكونة لدى الكاتب • واذا كانت كتابات عبدالملك عن غائب طعمة ، او عن نزار سليم وشاكر خصباك في (صور خاطفة •••) واحدة من الشواهد في هذا المجال ، فان مقالة التكرلي عن مجموعة نشيد الارض لعبدالملك نوري ، والتي ظهرت في مجلة (الاديب ، تشرين الاول ، ١٩٥٤) كانت هي الاخرى سمة من سمات التجرد النقدي الذي ميز بعضا من حياة مجتمع الأدب القصصي في الخمسينات : فرغم اطمئنان كاتب المقالة الى افضلية عبدالملك

في القصة الفنية ، الا انه كان يؤاخذ عليه اهماله (العقدة) ورسم الشخوص في أغلب قصصه ، بأستثناء (غثيان) و (الرجل الصغير) ، بينما كانت نزعة انتقاء مفردات التوطئة والاسلوب بعامة عند عبدالملك تصدم القاريء وتمنعه من التخيل ، لافتقادها القدرة على الايحاء • وهذه المفردات (الصادمة) على حد تعبيره ، تزيد من ذلك المأزق الذي ترتبك فيه زاوية النظرة ، جراء ميل القاص الغالب الى رؤية شخوصه من خلال عالم أوسع في بقية قصصـــه •

واذا كان كتاب القصة والرواية ونقاد الادب القصصي قد عنوا بالتطبيقات النقدية وببعض الافكار عن فن الرواية ، فأن بحث سهيل ادريس في مجلة الاداب ، ١٩٥٣ ، كان فاتحة لسلسلة من البحوث التي تجمع الاجتهاد والمتابعة المدرسية ، شأن بحوث عبدالقادر حسن أمين وداود سلوم وجميل سـعيد ، وغيرهم •

وبكلمة اخرى فأن هذا المسعى النقدي المتجرد من الاهواء ، والمرتكز على أسس ومعايير ما في فن كتابة القصة ، كان ينمو بهدوء ، مبشرا بتطور الادب القصصي ، الذي كان يشهد حيوية خاصة ، لم تتحدد بالنزعة الواقعية النفسية لدى أغلب قصاصي الجيل المذكور ، ولم تكتف بأسلوب التداعي الحر ، والافادة من المكتشفات الحديثة في العلوم المختلفة ، بل تعدت ذلك الى بحث مستمر عن الصيغة الافضـل للابداع • وأذا كانت سـمة الافادة من التداعي الحر بارزة في الخمسينات ، فأن نوعية الادب القصصي من حيث جنسه الادبي ، هي الاخرى مدعاة للتأمل •

فاذا كانت الرواية في هذه المرحلة قد ظهرت على هامش القصة القصيرة ، التي تعددت في مجاميع ومنشورات منفردة في الصحف والمجلات ، فان قلة شأنها كما ونوعا تستحق الملاحظة • فكانت رواية داود سـلوم عهد مضى (١٩٥٨) وأفول وشروق لخالد الدرة (١٩٥٣) وقصة من الجنوب لمرتضى الشيخ حسين (١٩٥٣) واناهيد لعبدالله نيازي (١٩٥٣) ، ونادية لليلى عبد

القادر (١٩٥٧) ، وشيخ القبيلة لحمدي علي (١٩٥٢) بين روايات هذه المرحلة التي لم تستأثر باهتمام خاص ، رغم ما كتبه احمد زكي في تقديمه لرواية أناهيد . ولعل أغلب كتاب تلك المرحلة كانوا شأن عبدالملك ، يشعرون بما تحتاج اليه الرواية من (نفس طويل) و (مثابرة) ، برغم ان (كتابة رواية أسهل بكثير من كتابة اقصوصة ناجحة) ، كما يقول في رسالة له الى فؤاد في ١٩٥٢/٢/٤ .

ولهذا كان الحل الوسط الذي بدا بيناً في الخمسينات ، هو اعتماد القصة الطويلة ، التي لا تكتفي بأصطياد لحظة ، أو تجميد موقف او اقتطاع شريحة ، بل تتوسع في ميدان أرحب ، في سلسلة متقابلة من شخوص محددين في موقف محدد ، يتعامل معهم القاص بمركزية عالية : ولهذا كان جبرا ابراهيم جبرا ينشر (صراخ في ليل طويل ـ ١٩٥٥) ، بينما كانت رسائل ايوب المنسية اكثر اعرابا عن ارتداده على ذلك النفس الطويل الذي زاوله في روايتيه السابقتين ، في حين قدم خصباك (عهد جديد) و (حياة قاسية) بين قصصه القصيرة ، وأتى شاكر جابر بـ (الايام المضيئة) ، ونزار سليم بـ (اللحن الاخير) ، لتكون (الوجه الاخر) لفؤاد التكرلي أبرز هذه القصص الطويلة احكاما ، وتجسيدا لمحنة شخصيتها الرئيسة ، وسيطرة على زاوية النظرة التي أتاحت للقاريء مراقبة الشخوص في مواقف معينة قدمت ضمناً صورة بارعة عن مجتمع عاش فيه شخصها الرئيس محمد جعفر .

أي ان الادب القصصي العراقي المعاصر في رحلة الابتداء منذ مطلع القرن ، شهد علاقة محكمة بين فنونه وتيارات نقده ، تجسدت في تبني القاصين انفسهم لمهمات التطبيق النقدي ، بينما كان آخرون من المعنيين يراقبون ساحة الثقافة بتؤدة وتأمل واضحين ، لتكون الحصيلة بمثابة رصيد

غزير من النتاجات الابداعية ، والكتابات النقدية المتباينة ، التي توجتها روح التجرد الموضوعي ، والهم المخلص للتعبير عن تراب الوطن ، في نتاج عراقي طامح الى التقـــــدم •

– – – –

المراجـــع

— باسم عبدالحميد حمودي ، رحلة مع القصة العراقية (بغداد : دار الحريه ١٩٨٠) •

— جون توماس هامل ، جعفر الخليلي والقصة العراقية الحديثة (بغداد : الدار العربية ١٩٧٦) •

— ذو النون ايوب ، الاثار الكاملة (بغداد : دار الرشيد ١٩٧٨) •

— د • سهيل ادريس (القصة العراقية الحديثــة) ثلاث مقالات ، الاداب ، اعداد شباط ، اذار ، نيسان ١٩٥٣ •

— عبدالجبار عباس ، في النقد القصصي (بغداد : دار الرشيد ١٩٨٠)•

— د • عبدالاله احمد ، الادب القصــصي في العراق منذ الحرب العالميـــــة الثانية (بغداد : وزارة الاعلام ١٩٧٧) •

— د • عبدالاله أحمد ، نشأة القصة وتطورها في العراق ١٩٠٨ ـ ١٩٣٩ (بغداد : مطبعة شفيق ١٩٦٩) •

— د • عبدالاله أحمد ، فهرست القصــــة العراقية (بغـــداد : دار الحرية ، ١٩٧٣) •

— علي جــواد الطاهر ، في القصــص العراقي المعاصر ، (بيروت : المكتبــة العصرية ، ١٩٦٧) •

— عمر الطالب ، القصة القصيرة الحديثة في العراق (الموصل : جامعـــــة الموصل ، ١٩٧٩) •

— محمود أحمد السيد ، المجموعة الكاملة ، اعداد وتقديم علي جواد الطاهر وعبدالاله أحمد (بغداد : دار الرشيد ١٩٧٨) •

البحث الثالث
فن العمارة

زهير العطية

خبير دار التراث الشعبي – بغداد

لم تكن العمارة يوما مجرد ملجأ للفرد أو المؤسسات الاجتماعية في عصر من العصور ، وانما كانت ظاهرة ذات صفة متكاملة وانعكاسا لمظاهر الحضارة المختلفة في عصر معين ضمن إطار مجتمع خاص او على صعيد حضاري شامل .

فالعمارة تمثل حصيلة القيم الفكرية والاخلاقية والفلسفية وما يتبعها من قواعد سياسية وادارية في عصر معين ، كما انها تعبر عن مضمون جمالي سائد ، حتى في عصور ما قبل التاريخ حيث كان الانسان يأوى الى الكهوف وحافاتها ، فقد اشارت الاكتشافات الى وجود رسوم ولوحات تزيينية ذات مدلولات واستدراكات متميزة ضمن الكهف الواحد .

والملاحظ أن انسان ما قبل التاريخ قد صمم مسكنه ومعبده وفق نواميس استخدامية او روحانية تلبي متطلبات الجسد والروح في آن واحد.

وفي العهد العربي الاسلامي استجابت العمارة لقيم الدين الاسلامي الحنيف ولخصائص الخلق العربي .

ان العمارة بمفهومها الواسع هي الرداء الصالح الذي يكسو الصيغة الانسانية الحضارية المعينة ، بل هي البيئة المصغرة التي تتجاوب مع متطلبات الوجود الانساني وتساعده على التسامي والعلو .

وكما هي الحال في عهود الكهوف من حيث تلازمها للفنون التشكيلية فهي كذلك عبر العصور اللاحقة حتى وقتنا هذا ، تتوافق في مسيرتها مع ابداعات النحت والرسم من ناحية تكوينها العام ، ومن ناحية استخدام هذه الفنون ضمن تفاصيلها الزخرفية .

ان الغرض من بحثنا هذا هو ايضاح اهمية العمارة في العراق في الدور المعاصر من حيث كونها انعكاسا للصيغة الحضارية السائدة في هذا العهد ومن حيث كونها تتوافق مع التطور والتصاعد الحضارى الذي ألمّ بهذا القطر خلال هذه الحقبة . وقد اتبعنا في هذا الخصوص الاسلوب التالي :

استعراض خصائص العمارة التقليدية في العراق خلال العهد الاسلامي واستمرار هذه الخصائص الى فترات لاحقة ، وذلك بتناول العناصر الجمالية والعناصر البنائية الاستخدامية ، ثم تناولنا العوامل المؤثرة في تطور العمارة في العراق المعاصر ونقصد بذلك خلال الفترة ما بين ١٩١٤ و ١٩٥٨ بما فيها التحولات السياسية والاجتماعية والفنية (التكنولوجية) والاقتصادية وطرق المواصلات ، ثم خصصنا قسما لمرحلة الانتقال من العهود التقليدية الى العهود الاولية في فترة البحث ، ويلي ذلك البحث في تطور العمارة خلال العقود اللاحقة لنهاية الخمسينيات .

اننا ببحثنا هذا نأمل ان نوضح امرين ، اولهما ان العمارة السكنية في العراق قد بقيت امينة الى مرحلة كبيرة في الوصل بين قواعد بناء المساكن في

العهد السومري وبين المرحلة الانتقالية الاولى ضمن اطار فترة بحثنا هذا ... من حيث كون الدار تتكون من طابقين يحومان حول ساحة وسطية ، وثانيهما التفتح على التجربة العالمية المعاصرة المتجاوبة مع التطور في مختلف مناحي الحياة العراقية المواكبة للتطور العالمي سواء كان ذلك من ناحية الاستخدام الوظيفي للبناء او من الناحية الجمالية .

خصائص العمارة التقليدية في العراق

اتسمت العمارة التقليدية في العراق خلال العهد الاسلامي وما تلاه من حقبات الاحتلال بالتركيز على الجوامع كميدان اساسي لعكس المظاهر المعمارية وقد شابهت الابنية الاخرى هذه الجوامع من ناحية الجوانب الجمالية وحذت حذوها قدر الامكان في ابراز عناصرها المعمارية . لذلك كان الصحن الكبير محورا للفعالية الاجتماعية كما برزت المآذن على اختلاف طرزها . وكانت هناك انواع متعددة من العقود ابتداء من شبه المدبب الى كامل التدبب الى نصف الدائري . ثم ظهر المقرنص وهي حليات معمارية تشبه خلايا النحل استعملت في المساجد في طبقات مرصوفة وهي ذات غرضين بنائي وزخرفي في آن واحد .

كما استخدم العمود بتيجانه المزخرفة كعنصر بنائي وزخرفي . وتميز العمود الاسلامي برشاقته قياسا للاعمدة الاغريقية الرومانية بتيجانها ذات الرقبة الطويلة والصفحة المربعة المشغولة بالمقرنصات احيانا او بعصابة مربعة محلاة بالزخارف الهندسية البديعة الصنع ، مع اشكال الاربسك التي ترتكز فوقها العقود العربية .

ومن خصائص العمارة العراقية التقليدية استخدام القباب التي كثر استعمالها في المساجد والاضرحة ، وقد كانت القباب في العهد الاول وحتى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي صغيرة ، اقتصر استعمالها على تغطية

الامكنة امام المحراب ثم انتشر استعمالها للاضرحة واستعين اول الامر لهذا بعمل عقود زاوية لتيسير الانتقال من المربع الى المثمن ، ثم ظهرت المقرنصات لمعالجة هذه الناحية في العهد السلجوقي في العراق .

اما العناصر الزخرفية للعمارة التقليدية فتتركز بما يلي :

١ ـ العناصر الزخرفية : ان الزخـارف النباتيـة هي من ابرز المظاهر التي توضح ابتعاد الفنان العربي الاسلامي عن محاكاة الطبيعة ونقلها نقـلا حرفيا . فهي تتميز باغلب الاحيان بالتجريد ، فلا تكاد تتبين في الفروع والاوراق الا خطوطا منحنية او ملتفة يتصل بعضها ببعض .

٢ ـ العناصر الهندسية : واتخذت الزخارف الهندسية أهمية خاصة فـي العمارة الاسلامية العربية عموما وتمتعت بشخصية فريدة لا نظير لها في الحضارات الاخرى فاصبحت في كثير من الاحيان العنصر الاساسي الذي يغطي مساحات كبيرة . وكان الهدف من ذلك ابتكار تكوينات جديدة بتشكيلات هندسية متقاطعة لتحقيق المزيد من الجمال الـذي يتوافق مع الوجود غير المحدود .

٣ ـ الشـخوص : بالرغم من رغبة الفنان المسلم في الابتعاد عن محاكاة الخالق الا انه اتجه الى الاستعانة برسوم الشخوص في تحقيق الجوانب الزخرفية ، كما انه لم يكن يرسمها لذاتها وانما كان يتخذ منها عناصر زخرفية يكيفها ويحورها ضمن الاطار المعماري المطلوب .

٤ ـ العناصر الكتابية : لقد اعتمد الخط كعنصر زخرفي هام لما يتصف بـه من خصائص تجعله عنصرا زخرفيا طيعا يحقق الاهداف الفنية ، وقـد عززت نهايات الخط العربي احيانا بالتفرعات النباتية .

واذ تشابهت العمارة التقليدية في العراق بعناصرهـا الزخرفية ، فقد اختلفت في عناصرها الاستخدامية . فبالاضافة الى الجامع كانت هناك اماكن عامة عديدة، منها الخان والحمام والمدرسة والمستشفى والقصر الكبير ودوائر الدولة والربط والاصطبلات وساحات السباق والبرك ، اضافة الى العديد من المساكن الاهلية . لقد تبلور النمط العراقي في العمارة في العهد العباسي واستمر بخصائصه الرئيسية خلال العهد العثماني . وقد يصح القول بـان الجذور الاساسية للمعالم الحضارية في العراق تعود مرتكزاتها الى حضارات وادي الرافدين القديمة ، الا انه من الجلي أن الفترة العباسية تشكل مرحلة التبلور الرئيسية لهويتنا وخصائصنا القومية بصيغة اشد ماتكون عليه من الحيوية عند بحث مقومات التطلع نحو هوية حضارية معاصرة متميزة .

العوامل المؤدية الى تطور العمارة في العراق المعاصر

تتطور العمارة بتطور مظاهر الحياة الحضاريـة ، ونود ان نذكر بان الفيلسوف العربي ابن خلدون كان يستخدم كلمـة العمران للدلالة عـلى الحضارة وهذا خير مؤشر على اهمية الحركة العمرانية في السياق الحضارى، فالعمارة بمثابة وعاء يتفاعل فيه العديد من المؤثرات الحضارية وقد وجدت من الاهمية ان نركز على ابرز العوامل الحضارية المؤثرة في تطور العمارة في الدور المعاصر من خلال تناول ابواب التحـول السياسي والتحـول الاجتمـاعي وتنامي التكنولوجيا والنمو الاقتصادي وتطور المواصلات التي طرأت ابتداء مـن عـام ١٩١٤ لغاية ١٩٥٨ . فقد كان للجهود العراقية الخالصة وتفاعلها مـع المعطيات الحديثة دور هام في تحقيق خطوات هامة من التطور خلال تلـك الحقبة ، بالرغم من وجود سمات النفوذ الاجنبي في البلاد .

١ ـ التحول السياسي

في عام ١٩١٤ احتل البريطانيون البصرة وبعدها في عام ١٩١٧ تم احتلال

بغداد وبعدها احتلت الموصل ، فتم الاحتلال البريطاني الشامل لجميع انحاء العـراق بعد ان كان تحـت السيطرة العثمانيـة • وفي ٢٣ آب ١٩٢١ اعلن تتويج فيصل الاول ملكا على العراق وبعد مضي فتـرة الانتداب البريطاني اصبح العراق من الناحية الرسمية دولة ملكية مستقلة حتى ثورة ١٤ تمـوز ١٩٥٨ •

وقد تناول هذا الكتاب العديد من مظاهر النشاط السياسي والابعـاد الجوهرية التي طرأت خلال هذه الفترة ، الا ان الذي يهمنا في معرض البحث عن تطور العمارة في العراق فيما يخص التحول السياسي ما يلي :

* تحقق العاصمة المركزية بغداد بدلا من مراكز الاقاليم المتعددة سـابقا ضمن الاطار العثماني كولاية البصرة وولايـة بغداد وغيرها قد تبـع ذلك مع الوقت تحقق وحدة في الذوق والنمط المعمارى وتقلص الفوارق القائمة بين هذه الولايات •
* انشاء وحدة المناهج التعليمية في مجال الهندسة المعمارية ، خاصة بعد تأسيس كلية الهندسة في بغداد ، مما ساعد على توحيد التطلع نحـو صيغ معاصرة تتجاوب ومتطلبات المجتمع العراقي ككل • وقد ظهر ذلك تباعا حتى فترة الخمسينيات حيث اصبح للمكاتب الهندسية الاستشارية العراقية دور هام في اضفاء طابع موحد للذوق العراقي •
* في خلق وحدة مركزية للبرامج الاعمارية في العراق ، انطلاقا من مخططات المسح والدراسة وتصميم المدن • وقد تم التركيز على زيادة وتطوير ابنية الخدمات الحكومية كالمستشفيات ومحطات القطار ودوائر الدولة ومشاريع الاسكان •

٢ ـ التحول الاجتماعي

لقد تم في هذه الفترة طرح مفهوم المجتمع الحديث ، اي انتشار مفهوم

العدالة الاجتماعية والتحرر على حساب الطبقية في المدينة والعشائرية في الريف مما ساعد على :

* المزيد من تكافؤ الفرص بدلا من الفارق الكبير في امكانيات البناء بين ذوي الموارد الكبيرة وذوي الدخول المحدودة ، الامر الذي ادى الى الحد من الفارق بين طبيعة المساكن في العراق والتقليل من وجود الدور المؤقتة (الطينية وما اشبه) .

* ظهور طابع العائلة الصغيرة بدلا من العائلة المركبة من الاب وعوائل ابنائه التي تشغل دارا كبيرا واحدة ، كذلك انحسار نمط الدور المركبة من قسم الضيوف والحرم ودار المطبخ .

* تعزيز موقع المرأة في المجتمع ومفهوم العلاقات الاجتماعية الحديثة المتكافئة ، مما ادى الى انحسار نظام الدار المتوجهة حول الساحة الوسطية . وظهور نمط الدار ذات الحديقة الخارجية اضافة الى ظهور العمارات العالية لاغراض السكن .

* إدراك قيمة الفرد والحاجة الى ابنية الخدمات الصحية والثقافية ودور اللهو والعناية بأبنية السياحة والفندقة .

٣ ـ استيعاب التكنولوجيا الحديثة

كان الدور الاساسي في البداية للمعماريين الذين واكبوا الحكم البريطاني في العراق . ثم بدأ دور البعثات العراقية الى الخارج لغرض التخصص في مختلف مجالات العمارة والانشاء . وكانت تلك الخطوة مرافقة لتأسيس كلية الهندسة في بغداد التي قامت باعداد المختصين في هذا المجال للمساهمة في معالجة القضايا المعمارية ضمن متطلبات البيئة المحلية ووفق مراحل التطور والنمو التي مرت بها البلاد .

كما تمت الاستفادة من مواد الانشاء الحديثة كالكونكريت والسمنت عن طريق استيراده من الخارج ، ثم عن طريق انشاء صناعا تحديثة محلية الطابوق والجص والاسمنت والازبست وكان استخدام العوارض الحديدية للتسقيف (الشيلمان) في البداية خلال عهد الانتداب بالرغم ان حالات قديمة اقترنت باستخدام العوارض الحديدية المستخدمة كقضبان للسكك الحديدية قبل ذلك في تسقيف بعض الابنية .

وقد ظهر اثر استخدام هذه المواد في مجالات تم فيها :

* تحقيق مستوى اعلى من المتانة في البناء مما ادى الى الارتفاع في عدد الطوابق .
* التدرج في استخدام مادة الجص في زخرفة واجهات الدور والابنية العامة بعد ان كان الاعتماد على الزخارف الآجرية ، ثم تلا ذلك استخدام السمنت في الزخرفة والتجميل .
* تعميم استخدام المصابيح الكهربائية سواء في داخل الابنية او في الشوارع .
* استخدام انماط جديدة من المواد الصحية والبلاط واجهزة التبريد والمصاعد .
* تحقيق نشاط في تصميم المدن وكانت اول محاولة لتصميم مدينة بغداد في بداية العشرينات حيث اعد المهندس البريطاني (ويلسون) أول مخطط اساسي للمدينة بهدف اعادة تنظيم شبكة الشوارع الرئيسية واقامة مناطق سكنية في العلوية والسعدون والهنيدي (معسكر الرشيد)، علما بأنه كان قد قام باعداد نظام لبناء الطرق في عام ١٩١٩ ، وشكلت لاول مرة (لجنة تخطيط المدينة) الا انه لم يكتب لهـا ان تحقق اي نجاح . وتلتها مشاريع لتصميم المدن سنأتي على ذكرها لاحقا .

مرحلة الانتقال المعماري الاولى

لقد اتسمت العمارة العراقية منذ اواسط العقد الاول من القرن العشرين حتى نهاية العقد الثاني ، بصفات أكثر ما تكون اتصالا بالعهود السابقة وتختلف الى حد هام عن فترة الثلاثينات وما تلاها ، لذا فهي تعدّ بحق القاعدة التي بني عليها تطور العمارة العراقية المعاصرة . كما ان اهمية دراسة هذه المرحلة تتجلى اكثر عند السعي لبحث سبل الاستفادة من التراث في خلق عمارة عراقية اصيلة تجمع بين روح التراث ومتطلبات العصر الحديث .

يمكن تقسيم انماط العمارة العراقية لهذه الفترة الى ثلاثة اقسام رئيسية هي نمط شمال العراق ، ونمط الاعمال الجصية في حوض شمال الفرات ، ونمط العمارة البغدادية ويشمل وسط وجنوب العراق .

١ ـ العمارة في شمال العراق

ان عمارة شمال العراق لهذه الفترة تعدّ استمرارا للطراز الحيرى للعمارة الذي ظهر في العراق قبل الاسلام . وصفته : (ايوان مع مجنبتين) اي وجود ايوان مسقف مفتوح الواجهة تحيط به من الجانبين غرفتان . وبالامكان توسيع البناء بحيث يحوى مجموعتين او ثلاثة من هذه الاواوين وملحقاتها حول ساحة وسطية .

ان نمط عمارة شمال العراق يتمثل بالعمارة القائمة في مدن الموصل وكركوك واربيل على وجه الخصوص . وبمتد ليشمل المنطقة الشمالية بأسرها . مع الاشارة الى ان النمط القائم في قلعتي اربيل وكركوك قد تفاعل بشكل اكبر مع التأثيرات الواردة خلال العهد العثماني ، وعلى سبيل المثال استخدام الكوى الصغيرة ، و المساحات اللونية الكبيرة في الزخرفة .

وتجدر الاشارة هنا الى ان شمال العراق ينفرد بثروة معمارية تتمثل

بالتنوع الكبير في تصميم وزخرفة الاديرة والكنائس في حين ان الطابع العام للجوامع في شمال العراق يكاد يكون موحدا .

وسنتناول فيما يلي الخصائص الجمالية لعمارة شمال العراق مبتدئين بالمظهر الخارجي . يتميز المظهر الخارجي للدار بالكتلة البنائية الصلبة التي يسببها استخدام الحجر . ان مادة البناء الاساسية هي الحجر والمرمر ويستخدم الخشب في السقوف والابواب ، والحديد في الشبابيك والاسيجة. وللبناء ساحة وسطية هي محور الحياة الاجتماعية ويرتفع مستوى بناء الطابق الارضي عنها قليلا ، على عكس ما هو متعارف عليه في النمط البغدادي . ويكتفى في كثير من الحالات بتشييد البناء على جانبين من جوانب الساحة بينما يحرص على الاستفادة من ثلاثة جوانب في النمط البغدادي ويترك الرابع لاغرض السلالم والمرافق الصحية .

وفيما يخص الشرفات فيقتصر استخدام الاواوين على الطابق الارضي في كثير من الحالات . عدا الموصل حيث تشابه الى حد كبير النمط البغدادي الذي يتصف بوجود شرفات في الطابق الثاني ايضا .

ولا توجد شبابيك بارزة في الواجهات الخارجية للطابق الثاني والذي يمكن ملاحظته هو وجود ما يشبه شناشيل النمط البغدادي الملحوظ في الموصل حيث تستخدم صفائح المعدن لاحاطة الشرفات المطلة على الطريق الخارجي . ويكثر استخدام السرداب في الموصل وكركوك وينعدم استخدامه في اربيل احيانا . ويستعان في تقبية سقوفه من الداخل ببعض اشكال المقرنصات. وفي حين يعم استخدام القوس العباسي المدبب في النمط البغدادي واننا نرى في نمط شمال العراق عناية خاصة بالقوس نصف الدائري ، واحيانا يظهر القوس المدبب في نفس المبنى وحتى في الايوان نفسه ، وتزخرف حاشية القوس الدائري بحيث تبرز منها سلسلة من الاوراق النباتية على امتداد فتحة القوس .

تلك هي الجوانب البنائية والتصميمية اما الجوانب الزخرفية فنوردها ضمن المواد المنفذة عليها او بواسطتها ، اننا نلاحظ الزخارف النباتية والهندسية على الواجهات المرمرية المحيطة بالساحة الوسطية حيث تأخذ الزخرفة مكانها فوق فتحات الابواب والشبابيك ، وقد حصل في بعض الدور في الموصل ان ظهرت لوحات مرمرية منحوتة تعلو الباب الخارجي وقد نحتت عليها شخوص بشرية .

كما نفذت الزخارف ايضا على الاعمدة الحجرية ، وصممت بعض الجدران المرمرية لتكون نوافذ على شكل زخارف هندسية تماثل ما ينفذ في الاعمال الخشبية الغليظة في النمط البغدادي .

ونظرا للتعرض الكبير الى الامطار (قياسا لوسط وجنوب العراق) وللكتلة الثقيلة للبناء الحجرى فقد استخدمت قضبان الحديد الملتوية في تنفيذ الشبابيك اضافة الى استخدامها في أسيجة الشرفات .

وتشترك ابنية المنطقة الشمالية باستخدام المشربيات وهي بروزات خارجة في الطابق العلوى مصنوعة من المعدن الرقيق تستخدم لوضع قوارير الماء الفخارية (الاكواز) بهدف تبريد مائها . كما يستخدم الحديد الملوى لصناعة اسيجة الشرفات المحيطة بالساحة الوسطية وفي الشرفات المطلة على الخارج . ان الطابع العام لسقوف غرف الدور الشمالية ، هو الاستدارة او التدبب او السقوف المسطحة احيانا ، وفي هذه الحالة يلاحظ عليها التفنن في الاعمال الزخرفية الهندسية كما يلاحظ توفر الاعمدة الخشبية على غرار النمط البغدادي ولكن بمستوى فني ابسط . ولكن مرصعة بالمسامير الحديدية الكبيرة .

ويلاحظ افتقار المنطقة الشمالية الى استخدام الزجاج الملون ، قياسا لما هو متعارف عليه في النمط البغدادى ويبرر ذلك امران : الاول ان حدة اشعة الشمس اقل مما هي عليه في وسط وجنوب العراق ، والثاني ان

الطبيعة المحيطة تمتاز بمزيد من الخضرة وتموج بقاعها مما يشجع المشاهد على التطلع اليها من خلال الزجاج الشفاف •

ومن الخصائص المميزة للزخرفة في شمال العراق ، استخدام الاصباغ في تنفيذ الزخارف البنائية والهندسة وكتابة العبارات بشكل لا نظير له في النمط البغدادي • وتستخدم هذه الاصباغ في غرف الضيافة والاواوين ويطغى عليها اللون النيلي واحيانا القرمزي •

واستفادت المنطقة الشمالية من غنى الاعمال الجصية التي عمّت منطقة سامراء وتكريت منذ القدم واستوحت منها اشكال الكوى المستخدمة بكثرة في تزيين الغرف •

ب ـ النمط البغدادي

ظلت بغداد عهودا طويلة مركزا للاشعاع الحضاري للعديد من الاقاليم وخاصة في العهد العباسي • ونظرا الى ان المنطقة الجنوبية كانت الى فترة طويلة تحت هذا التأثير بالاضافة الى وحدة الظروف المناخية بينها وبين بغداد فقد حذت حذو بغداد الى حد كبير في نمط عمارتها مما جعل عمارة نمط بغداد تستمر حتى البصرة •

وسنقسم دراسة النمط البغدادي الى قسمين : الناحية الوظيفية والناحية الجماليـة •

وفيما يخص الناحية الوظيفية نجد ان المعمار العراقي عندما شيد الدار راعى الظروف المناخية • خاصة وان اغلب ايام السنة مشمسة ذات شعاع ساطع فضّيق في طرق المدينة ، وجعل شبابيك دورها الخارجية قليلة الفتحات ومقاربة لشبابيك الجانب الاخر من الدور وجعل الفسحات المكشوفة منجهة لوسط الدار ليوفر بذلك جوا مظللا مستورا قدر الامكان مراعاة للظروف الاجتماعية السائدة حينذاك ، كما قسم الدار الى اقسام خصص كل منها لموسم

من مواسم السنة او فترة من فترات اليوم وجعل الدار مكونة من طابقين تسهيلا لهذه المهمة وأكثر من استخدام الخشب للحد من نقلب ان درجة الحرارة في داخل الدار . واستخدم الزجاج المتعدد الالوان لتلطيف اشعة الشمس الوافدة عند مرورها الى داخل الغرف . كما جعل قسما من الداخل مخصصا للضيوف واخر لافراد العائلة واحيانا قسما للمطبخ وآخر للاصطبل .

وتجدر الاشارة الى ان عمارة البصرة امتازت عن عمارة بغداد بسبب عوامل الاستخدام بما يلي :

* وجود كثافة اكبر في استخدام الخشب في الواجهات ووجود مظلات خشبية اضافية عليها للوقاية من حرارة الشمس . واقترن ذلك احيانا بضعف في مستوى الزخرفة الخشبية قياسا لدور بغداد .
* انخفاض في نسبة استخدام الزجاج الملون في الشبابيك قياسا لبغداد وجاء ذلك نتيجة طبيعية لتقلص الفسحات غير المغطاة من الواجهات والشبابيك الخشبية .
* قلة استخدام السرداب لاسباب تتعلق بارتفاع مستوى المياه الجوفيه .

وفيما يخص النواحي الجمالية الاستخدامية فبالامكان تناول الموضوع من خلال المواد المستخدمة لاظهار الجانب الجمالي وهي الزجاج والآجر والاعمال الخشبية والجصية والمعدنية .

لقد استخدم الزجاج في حالات عدة اهمها ما يجمع بين الناحيتين الوظيفية والجمالية وهو الشبابيك الخارجية والداخلية للدار وكان ذلك على ثلاثة اشكال رئيسية : الزجاج الشفاف غير الملون ، وقد استخدم لتحشية الفتحات الخشبية للشباك ضمن تشكيلات هندسية معتمدة كما استخدم الزجاج الملون لتحشية الفتحات الخشبية سواء الهندسية الشكل منها او

الاشكال النباتية وفيها بوزع الزجاج الملـون بمواقع تحقق التجانس بـين الالـوان .

وتجمع بعض الشبابيك بين الزجـاج الملون ذى الطابع الهندسي وبين الزجاج الشفاف بحيث تكون الاقسام الملونة الاطار المحيط بالزجاج الشفاف.

ثم هناك الرسم على الزجاج . والمواضع الاساسية للرسم هي النباتيـة بما فيها الزهور والاغصان والثمار .

ولم يقتصر استخدام الزجاج بصفته ممرراً للنور فحسب وانما استخدم ايضا بصفته عنصرا تلوينيا فكان مادة جيدة لتطعيم الجص وتكسية الجدران والسقوف . فقد استعمل الزجاج الملون في تطعيم الجص الذي يكسو جدران بعض الغرف لتكوين اشكال هندسية او حيوانية او نباتية كمـا استخدم في اكساء بعض اقسام الجدران وبصورة خاصة التي عززت بالاقواس والحنايا وبأشكال المحاريب . واستخدم في تغليف سقوف الغرف والشرفات عن طريق ملء المساحات المنتظمة التي يتركها الاطـار والتشـكيلات الخشبية المرتبطة بالسقف خالية . هذا وقد استخدم الزجاج الشفاف في السقوف كقاعدة لرسم الاشكال النباتية والهندسية كما استخدم الزجاج والمرايا في استكمال هـذه الزخـارف .

ان الزجاج الملون عنصر اساسي في البيت البغـدادى ، فمن الناحيـة الاجتماعية يساعد على احاطة المرأة باطار من الخصوصية والعزلة عن العـالم الرجالي . وقد ساعد استخدام الزجاج الملون ضمن الاطارات الصغيرة فـي النوافذ على افساح المجال للمرأة بان تكون على تماس بالحياة العامة التـي تحيط بها دون ان تتعرض لمشاهدة الرجل لها .

والمادة الثانية المستخدمة في دور النمط البغدادى هي الطابوق ولـه اهمية بنائية اساسية لانعدام توفر الحجر في المنطقـة وتلاحظ التشـكيلات

الجمالية في واجهة البناء من خلال الاعمدة نصف المدورة المعززة بالزخارف البارزة عن مستوى الواجهة ، كما في دار السبتي في البصرة • كما تستخدم وحدات الطابوق لتكوين اشكال دائرية في تقبية المداخل وتستخدم كذلك في تكوين اشكال جمالية متداخلة في سقوف الشرفات والمظلات وعلى بعض الجدران المطلة على الساحة الوسطية للدار واعالي شبابيك الطابق الارضي المطلة على الشارع • كما يستخدم في بلورة اشكال الكوى الداخلية •

ويستخدم الآجر في صياغة انواع من العقود فمنها المستدير ومنها العباسي المدبب سواء كان ذلك في الاقسام العليا من البناء أم في السرداب • وقد ساعد الطابوق على تطور المقرنصات التي نجد تشكيلاتها ذات ارتباطات انشائية لا تقف عند حد الزخرفة التكعيبية الظاهرة بل تتعداها الى ما يمكن اعتباره من جملة الابداعات المعمارية التي ظلت تحتفظ بخصائص فنية جمالية بجانب تحقيقها للوظائف الانشائية الصرفة •

يعتبر الخشب من المواد البنائية الاساسية لاستخدامه كاعمدة وجسور للسقوف وبالاضافة الى الناحية الانشائية فانه يؤدي اغراضا جمالية عديدة، اذ يستخدم في الواجهات الخارجية في البصرة بشكل اكثر كثافة من وسط وشمال العراق لمجابهة ازدياد الحرارة كما تعزز الواجهة بمظلات علوية ، وبهذا فان هذا النمط يكاد يقارب الاسلوب المعتمد في عمارة الجزيرة العربية •

اما الاقواس التي تتوج الشبابيك فانها منوعة على غرار التنوع الموجود في اقواس اعمال الطابوق •

وقد حافظ العمود والزخارف الخشبية المعززة بالرسوم والتزيين بالزجاج احيانا على دوره التقليدي في اضفاء الجو الشاعري • رغم ان عمارة البصرة غنية بالشناشيل الخارجية الا انها دون مستوى بغداد من ناحية الشبابيك الداخلية (الارسي) • واروع ما تمتاز به محافظة البصرة من الاعمال الخشبية ما نلاحظه

من روعة في تصسيم وزخرفة الابواب الخشبية الرئيسية ونخص بالذكر مدينة الزبير •

يستخدم الجص لاغراض تكسية الجدران عادة الا انه يستخدم كذلك ليؤدى اشكالا جمالية • ومن ابرز استخداماته ما موجود في دار أغا جعفر في البصرة حيث استخدم للزخرفة البارزة على الجدران باشكال متأثرة بفترة الركوكو الاوروبية كذلك استخدم الجص فيهذه الدار لعدد هائل من الرسوم لمواضيع معمارية وطبيعية وشخوص ، كما رسمت الاشجار بحجمها الطبيعي لتغطي مجمل جدران احدى الغرف •

وللاعمال المعدنية دور يتجلى من خلال استخدام المطارق والمسامير المعدنية في تزيين الابواب الخشبية والزيادة في مناعتها • كما تستخدم المعادن في صنع الاسيجة الحديدة للشرفات الداخلية وبعض الشرفات الخارجية • ان وحدات هذه الاسيجة تكون احيانا أكبر وأكثر تفصيلا في البصرة من مثيلاتها في بغداد • وعلى الصعيد العربي تشكل عمارة البصرة نقطة الالتقاء بين عمارة وسط وشمال العراق من ناحية وعمارة الجنوب العربي من ناحية اخرى ، اما على الصعيد الشرقي فتعتبر البصرة مختبرا ميدانيا لالتقاء العوامل الحضارية المعمارية المختلفة ومنها محاولة اضفاء الطابع الاوروبي على العمارة المحلية بالاضافة الى التأثر بالطابع الخليجي •

ج ــ نمط حوض شمال الفرات

امتاز حوض شمال الفرات بالتركيز على استخدام الجص في اعمال البناء والزخرفة وهو بصورة عامة اعتمد في التصميم الداخلي للبناء مزيجا في النمط السائد في شمال العراق والنمط البغدادى الا انه امتاز في مجال النواحي الجمالية باستخدام الابواب الخشبية الضخمة والجميلة وكذلك باستخدام الشبابيك المزخرفة بمادة الجص والمعززة احيانا بالزجاج الملون وقد افتقر

نسبيا الى العناصر الزخرفية على الجدران والسقوف • اضافة الى ان الشواخص المعمارية الرئيسية فيه تعود الى ما قبل فترة هذا البحث •

وفي ختام استعراض انماط العمارة في المرحلة الانتقالية الاولى لابد من الاشارة الى ان التطور السياسي والاقتصادى والاجتماعي للمجتمع العراقي فيما بعد قد استتبع طرح احتياجات ووظائف تختلف عن تلك التي كانت سائدة في هذه المرحلة وقد كانت مرحلة الثلاثينيات وما تلاها بمثابة طفرة معمارية هامة في العراق • لقد عانى البيت العراقي في المرحلة الانتقالية الاولى الكثير في ايام الشتاء الباردة وكان الفرد مستعدا للتضحية براحته خلال فترة البرد القصيرة من اجل الراحة في فترات الصيف الطويلة • كما نلاحظ ان هذا البيت حتى في سنيه الاخيرة لم يحظ بوسائل الراحة اللازمة المتوفرة حاليا • فباتت الحاجة ماسة الى بيت يزهو بشاعريته ويطمن متطلبات الظروف الجديدة •

العمارة العراقية
من نهاية العشرينات لنهاية الخمسينات

تناول القسم السابق مرحلة الانتقال المعمارى خلال فترة الاحتلال البريطاني لاواسط العشرينات وهي مرحلة وثيقة الصلة بالعمارة الاسلامية العربية القديمة ، الا ان بعض الاعتبارات الحديثة قد طرأت في نفس فترة العشرينات نذكر منها :

* استخدام المدخل المختصر الى قلب الدار بدلا من المدخل الطويل الملتوى •
* استخدام الشبابيك في الطابق الارضي للدار •
* استخدام حديد الشيلمان كنظام انشائي للتسقيف •
* اعتماد النمط الحديث في تخطيط المحلة بحيث تتعامد الشوارع مع

بعضها • وبذلك بدأ افول عهد الازقة الصغيرة • ويشير تقويم العراق لسنة ١٩٢٣ الى ان بمدينة بغداد ٢٦٨ فندقا ومقهى وخمس سينمات هي الرويال والسنترال والعراقي والوطني واولمبيا وثلاثة مراقص و٢٥ صيدليه و ٢٧٥ عربة للركوب و ٩٢ دراجة (موتور سايكل) و ٩٠٠ عربة حمل و ٥١٥ سيارة ركوب و ٢٩ سيارة نقل •

ان هذا يعطي فكرة عامة عن بدء حاجة المدينة المتزايده الى التصميم الحديث • ومن الابنية الهامة في هذه الفترة جامعة آل البيت قرب المقبرة الملكية ومطارا بغداد والبصرة ومستشفى مود في البصرة ونادى العلوية وكنيسة سان جورج في بغداد اضافة الى عدد من الابنية الحكومية التي يعود أغلبها للبلديات •

وفي نهاية العشرينات شيدت محلة السنك التي مثلت نمطا انتقاليا بين النمط البغدادى القديم والنمط الذى ساد فيما بعد • كما ظهرت مؤخرا ايضا سينما الرشيد والحمراء وعلاءالدين في بغداد واستمر كذلك استخدام الخانات للاغراض التجارية حيث شيد عدد منها في شارع المستنصر ببغداد •

وكان للمهندسين الانكليز في مديرية الاشغال العامة وخاصة الميجر ولسن وميسون دور مهم في تصميم العديد من الابنية • كما تقدم واسون باول مقترح لتخطيط احياء من مدينة بغداد •

اما فيما يتعلق بالزخرفة فانها برزت بشكل واضح في شارع الرشيد ببغداد خلال فترة ما بين العشرينات ونهاية الثلاثينات حيث تجد الطرز الزخرفية لواجهات الابنية هجينة (عراقية اوربية) انتقلت من الزخرفة المحلية الى ما يشبه (الركوكو) (والآرت نوڤو) وذلك نتيجة التأثر بالانماط التي كانت سائدة حينذاك في اوروبا •

وخلال تلك الفترة كانت المادة الاساسية المستخدمة للزخرفة هي الجص

وفي العشرينات كانت هناك اعمدة آجرية ذات تيجان مقرنصة على الطريقة التراثية ثم بدأ التحول الى اعمدة ذات اصول اوروبية فيما بعد (الدكتور احسان فتحي : مقالته في مجلة الرواق) .

فترة الثلاثينات

اتسم هذا العقد بصلته بالقسم الاخير من فترة العشرينات وبتبلور المعطيات التي كانت في بداياتها آنذاك ومن جملة ذلك .

* الاستمرار في الغاء التسلسل القديم في مراحل الدخول للدار بهدف الاستفادة من استخدام المساحات بشكل اكثر انسجاما مع الصيغ الاجتماعية الجديدة واصبحت حديقة الدار متجهة الى الخلف بعد ان كانت عبارة عن بضعة شجيرات في وسط الدار .
* تمت تغطية الساحة الوسطية وتحولت الى باحة مغلقة الا انها استمرت مركزا للفعالية الاجتماعية للعائلة .
* طرأ تفاعل اكبر مع النمط الاوروبي في زخرفة الواجهات خاصة في شارع الرشيد وشارع ابي نواس ببغداد وتم التأكيد على استخدام الاقواس الشبيهة بحدوة الحصان في ابنية بغداد والبصرة وغيرهما .
* بدأ استخدام الكونكريت في تكوين الاعمال الجمالية المعمارية كالاعمدة والنقوش فوق المداخل الخارجية وأحواض الحدائق .
* استخدم الطابوق السودائي (نورة ورمل) ابتداء من نهاية الثلاثينات .
* بدأ توسيع مساحة الشبابيك وافساح مجال اوسع لدخول الضوء بعد ان الغيت الساحة الوسطية المكشوفة وما كانت تؤديه من دور .

ومن اهم ابنية هذه الفترة في بغداد اقسام من وزارة الدفاع ومدرسة راهبات التقدمة وجامع عبدالاله مجاور الكلية الطبية وجامع نوري فتاح

في الكاظمية وجامع السيد سلطان علي وكنيسة سنتا تريزا في السنك ثم المدرسة الثانوية في البصرة .

وفي عام ١٩٣٣ صممت المقبرة الملكية من قبل مهندس انكليزي وهي تعتبر صرحا هاما تطلب اعادة التخطيط لمنطقة واسعة في محلة الاعظمية . كما ان قصر الزهور قد صمم في عام ١٩٣٣ من قبل المهندس الانكليزي ميسون وخصص لسكن افراد العائلة المالكة . كما صمم المهندس كوبر عام ١٩٣٦ مبنى كلية الهندسة وكان للمهندسين الانكليز دور في تخطيط احياء منها الوزيرية والسعدون والبتاويين والصالحية (دور ودوائر السكك) .

وفي عام ١٩٣٦ اعد مهندسان المانيان تصميما اساسيا لمدينة بغداد ، وكان مما اقترحاه فتح شارع غازي (الكفاح حاليا) وشارع الشيخ عمر الذي نفذ مباشرة .

وتعتبر الثلاثينات بداية عودة مهندسين معماريين عراقيين الى العراق بعد انتهاء دراستهم في الخارج . ومنهم احمد مختار ابراهيم (١٩٣٥) وحازم نامق (١٩٣٦) وسامي قيردار (١٩٣٩) ، ثم اعقبهم في الاربعينات جعفر علاوي (١٩٤٠) ومدحت علي مظلوم (١٩٤١) وعبدالله احسان كامل (١٩٤٣) ومحمد مكية (١٩٤٦) .

فترة الاربعينات

بدأ في الاربعينيات التخلص التدريجي من التأثر بالنمط الاوروبي وبدأ التوجه الى خصائص محلية بالرغم من ان هناك معالم شائعة اوربية من الآرت ديكور في الواجهات وهي تتمثل باعتماد الخطوط المستقيمة في صياغة الواجهة، الا انها عززت بايحاءات محلية مثل استدارة بعض الشبابيك والجدران .وقد الغي الحوش الداخلي واصبح غرفة مثل بقية الغرف تتسم بالسعة . واصبحت حديقة الدار في القسم الخلفي على الاغلب .

وامتازت هذه الفترة ببداية ظهور نمط العمارات العالية • فبعد ان كان اعلى مبنى يتألف من ثلاثة طوابق ، ظهـرت لاول مرة عمارة باربعة طوابـق شيدت عام (٤٦ ـ ١٩٤٧) وهي عمـارة سوفير قرب ساحة الغريري بشارع الرشيد صممها مدحت علي مظلوم وهو الذي صمم سينما الارضروملى عـام (٤٦ ـ ١٩٤٧) ومسبح الامانة في منطقة المسبح عام ١٩٤٧ • ثم تلتها عمارة حسـو بشـارع الرشيد وبعدها عمارة الدامرجي (٤٨ ـ ١٩٤٩) في شارع السموأل وهي ذات سبعة طوابق نفذها المهندس يازى فتو • اما جعفر علاوي فقد صمم المدرسة الجعفرية عام ١٩٤٦ ومبنى سامي سـعد الدين في سـاحة الرصافي عام ١٩٤٩ •

امـا بالنسبة للمواد المستخدمـة فقد بـدأ في نهاية الفترة استخدام الكونكريت في تشييد السقوف في حالات قليلة وبدأ استيراد السمنت لهذا الغرض •

ومن الابنية العامـة التي تعود لهذه الفترة قاعة الملك فيصل (قاعـة الشعب حاليا) وبهو الامانـة والنادي الاولمبي وجامع حنان بالكرخ كما ان جامع الشهيد القائم حاليا في العلوية ببغداد كانت تصاميمه قد وضعت في تلك الفترة • كما شيدت عدة سينمات منها ريكس وروكسي في شارع الرشيد والارضروملي وسينما ريجنت في الصالحية •

هذا وقد زاد استخدام الطابوق السودائي خلال هـذه الفترة الا ان استخدامه انتهى بانتهاء الفترة نفسها •

فترة الخمسينيات

تعتبر فترة الخمسينيات من اهم الفترات التي مربها العراق على مختلف الاصعدة سواء الاقتصادية او الاجتماعية او الثقافية وقد ساعد ذلك ارتفاع مستوى الموارد المخصصة للمشاريع المختلفة اثر تأسيس مجلس الاعمار عام

١٩٥٠ وتخصيص جميع واردات النفط لهذه الاغراض • وبالنظر الى ضخامة هذه الواردات فقد تقرر ان يخصص سبعون في المائة من هذه الواردات لهذه المشاريع اعتبارا من عام ١٩٥٢ •

في عام ١٩٥٣ شكلت وزارة الاعمار وتضمنت خمس هيئات فنية وقد جاء في محاضرة للدكتور خالد السلطاني في دورة عمارة الخمسينات التي عقدت في كلية الهندسة (جامعة بغداد) في ايار ١٩٨٤ عدة نقاط حول هذا المجلس وحول عمارة الخمسينيات نورد بعضاً منها :

فقد كلف مجلس الاعمار خيرة المعماريين العالميين لتصميم عدة منشآت• فقد كلف لي كوربوزييه بتصميم المدينة الرياضية في الكرخ في نفس موقع قصر المؤتمرات الان • وفرانك لويد رايت لتصميم مبنى الاوبرا في جزيرة أم الخنازير • كما كلف المعماري الهولندي دودوك لتصميم مباني وزارة العدلية في المركز المدني •

وكلف الفار التو بتصميم معرض ومتحف الفنون الجميلة ، وفالتر كروبيس لاعداد تصاميم جامعة بغداد • وقبل ذلك (في سنة ١٩٥٣) كان كوبر قد كلف باعداد تصاميم مباني القصر الجمهوري والمجلس الوطني •

وبالرغم من ان اكثر المشاريع المعدة من قبل المعماريين هؤلاء لم تنفذ في فترة الخمسينات فان وجودهم قد عزز من شيوع الثقافة المعمارية وتوطيدها من خلال سلسلة المحاضرات المعمارية التي نظموها في بغداد وكذلك نتيجة النقاش المهني المباشر مع المعماريين العراقيين •

اتصفت عمارة الخمسينيات بازدياد عدد العمارات العالية المنفذة • فقد نفذت في هذه المرحلة (سنة ١٩٥٣) عمارة الدفتردار المصممة من قبل الشركة الالمانية اتتر كونتيننتال التي ساهم في توجيه تصميمها عبدالله احسان كامل •

وفي هذه الفترة طرأ تحول في اساليب معالجة واجهات المباني اذ توطدت

ظاهره اكساء الواجهات بمواد مختلفة سميت بعدئذ (باللبخ) وقد امتازت مباني المصارف بظاهرة الاكساء بالمواد الطبيعية او الصناعية مثل مبنى مصرف الرافدين (المرحلة النانية) الذي صممه المهندس الانكليزي فيليب هيرست • ومبنى بغداد للمعماري ربتجي وجبرائيل خمو (سنة ١٩٥٧) والبنك العثماني (سنة ١٩٥٦) للمعمارى فيليب هيرست والبنك العربي (للمعمارى كوبر) •

وشهدت الخمسينات مرحلة توظيف الخدمات الهندسية في المباني فادخلت لاول مرد وعلى نطاق كبير منظومات التبريد والتدفئة المركزيتين • اضافة الى استخدام المصاعد •

كما نسهدت الخمسينات ظاهرة تغليف المباني بستائر وشاشات مختلفه المواد والاشكال من منظومات كاسرات الشمس التي ادت دورا استخداميا الى جانب خصائصها الجمالية • وبهذه المناسبة نذكر البنك المركزي العراقي الذي بوشـر بتصميمه عـام (٥٦ ــ ١٩٥٧) من قبل المهندس السويسري البروفسر دونكل وقد فاز بمسابقة عالمية ويعتبر فندق بغـداد اول سابق بمستوى دولي يقام في العراق وقد بوشر بتصميمه عام ١٩٥٦ من قبل المهندس السويسري هانز مولر بالتعاون مع المهندس نيازى فنو وقد افتتح بعد ثورة ١٤ تموز •

بالاضافة الى ماتقدم فان هناك ابنية قد نركز فيها دور المعمارى العراقي نذكر منها مبنى خان الباشا في شارع السموأل ببغداد الذي صممه عبدالله احسان كامل عام ١٩٥٦ حيث استخدم شناشة كبيرة للواجهة وهي عبارة عن تكرار لاشكال هندسية مخرمة • كما شارك بتصميم بناية مصرف الرهـون (وزارة المالية حاليا) سنة ١٩٥٧ • اما جعفر علاوى فقد صمم عمارة درجان (٥٣ــ ١٩٥٤) في الباب الشرقي وثانوية الحريري بالاعظمية (١٩٥٣) كما قام بتصميم دار المعلمات (وزارة التربية حاليا) والاقسام الداخلية لها عــام ١٩٥٧ والتي نفذت في وقت لاحق •

وقام رفعة الجادرجي بتصميم سوق الجوربجي في منطقة الشيخ عمر عام ١٩٥٤ وهو يتألف من ثلاثة طوابق وكذلــك دار كتخــدا سنة ١٩٥٥ في العلوية مقابل فندق شيراتون حاليا •

كما قام قحطان عوني بتصميم مبنى مستشفى الفردوس في العلويه عــام ١٩٥٦ امــا قحطان المدفعي فقد قام عام ١٩٥٣ بتصميم دور سكنية لحساب شركة نفط الدورة وبعض دور شركــة المنصور المساهمة كما صمم الجناح العراقي في معرض دمشق الدولي عام ١٩٥٨ •

لقد شهدت هذه الفترة نشاطا على صعيد تصميم المدن فقد اجرت مؤسسة Minoprio, Macfarlan and Spenceley التصميم الاساسي لمدينة بغداد وتم تنفيذ العديد من مقترحاتها في الفترة التي تلت الخمسينات •

كما بدأت مؤسسة دوكسيادس باجــراء مسح شامل للاسكان بالعراق بالاضافه الى دراسات تخطيطية للمدن وكانت هذه المؤسسة قد اقترحت قناة الجيش ومدينة الثورة واسكان غربي بغداد في الوشاش • وشهدت هذهالفترة نساطا على صعيد الشركات الاهلية لاقامة الاحياء وتشييد الابنية منها شركة المنصور المساهمة وشركة بغداد الجديدة المساهمة وقد قامت كل منهما بتشييد حلبة لسباق الخيل ومنها ايضا جمعيــات اسكان عامة لبعض الدوائر • لقد بلغ عدد المهندسين المعماريين في الخمسينات ما يزيد عن عشرين مهندسا عراقيا من خريجي الجامعات الانكليزيةوالامريكيةبالدرجةالاولىوفي عام١٩٥٨كانعدد المكاتب الاستشارية الهندسية لا يقل عن سبعة مكاتب :

١ ــ مكتب جعفر علاوى

٢ ــ مكتب محمد مكية

٣ ــ مكتب الاستشارى العراقي (عبدالله احسان كامل ورفعة الجادرجي واحسان شيرزاد)

٤ ــ اتحاد الاستشاريين (مدحت على مظلوم ومشاركوه)

٥ ــ مكتب قحطان عوني

٦ ــ مكتب هشام منير ومشاركوه

٧ ــ مكتب مهدي الحسني

ومن الناحيـــة البنائيـــة حصلت تطورات هامـــة باســـتخدام المـــو - والنواحي التقنية • فقد شاع استخدام الكونكريت المسلح في اقامة السقوف وبدأ استخدام السمنت للطلاء الخارجي لمعالجة تدهور حرفة سقل الطابوق الخارجي كما بدأ استخدام المبردات•واستخدمت كتلة الزجاج الملون للمماشي الخارجية لانارة الطابق تحت الارضي كما هو الحال في عمارة الذكير بشارع الرشيد • وتم التوجه الى استخدام الشبابيك الكبيرة الواسعة المصنوعة من الحديد محليا • وقد استخدم الموزاييك الزجاجي لتغطية الواجهات الخارجية وفي الداخل كذلك •

وعلى صعيد المنظور الجمالي الفني لعمارة الخمبسينات يمكن توضيح معالم العمارة العراقية من خلال ثلاث نقاط هي الكتلة والزخرفة واللون •

ومن الناحية البنائيـــة فقد حصلت تطورات هامـــة باستخدام المـــواد ارتفاع الابنية ضمن الاطار العام للمدينة نتيجة ظهور العمارات المرتفعـــة • كما نلاحظ الانتقال من الكتلة المتراصة لبناء الدور السكنية الذي كان سائداً في الثلاثينات والاربعينات الى نمط البناء المتعدد الكتل •

ومن ناحية الزخرفة فبالمقارنة الى العمارة السابقة تحقق في الخمسينات الحد الاقصى مـــن البساطة في واجهات المساكن نتيجة التأثر بالنمط العالمي السائد وتدهور صناعة الطابوق ودخول اللبخ • كذلك تم انتشار التصميم الجمالي ذي الوحدات المتكررة على امتداد واجهات الابنية الكبيرة كما في شارع البنوك ، وذلك بالمقارنة مع طابع التناظر الذي ساد في عمارة الثلاثينات

على وجه الخصوص . كما شاع استخدام المساحات اللونية في واجهات الابنية العامة نتيجة انحسار الاثر الجمالي للطابوق والزخارف التقليدية وقد تم ذلك على اسلوبين الاول باستخدام مادة الموزاييك الزجاجي كما في مصرف الرهون ومستشفى الحيدرى والبنك التجارى والاسلوب الثاني من خلال الاصباغ الملونة الاعتيادية كما في عمارة منير عباس وفندق بغداد . هـذا وقد شاعت كذلك عادة صبغ الجدران الداخلية للغرفة الواحدة في الدور بألوان مختلفة لكل جدار .

تقييم المرحلة المعاصرة

مما تقدم يلاحظ ان تطورات هامة قد طرأت على العمارة العراقية خلال مرحلتها المعاصر فقد كانت في البداية تتسم بصورة عامة بحالتين ، الاولى طغيان الطابع التراثي في العمارة والثانية تقديـم اعمال لمعماريين انكليز حاولـوا الاستعانة بالطابع التراثي ثم ظهور التأثر الواضح بأنماط من الفن الاوروبي كانت سائدة آنذاك وقبلها بفترة وجيزة كما هو الحال في مرحلة الثلاثينات والاربعينات ثم حدث ابتعاد كلي عن المعطيات التراثية سواء خلال الثلاثينات والاربعينات وبصورة خاصة في الخمسينات بحيث تلاشت كليا مسألة الزخرفة الكثيفة سواء في الواجهات او الشبابيك او السقوف الداخلية ثم ان سمـة استخدام الطابوق في الواجهات بدأت تنحسر شيئاً فشيئاً وبدأ طلاء الواجهات بالسمنت وصبغها كما بدأ صب السقوف بالكونكريت بـدلا من الحديـد والطابوق (العقادة) . كذلك بدأ دور الخشب بالأنحسار خاصة في المجال البنائي كأستخدام الأعمدة الخشبية لاسناد البناء فان مااقترن به الكونكريت من متانة دعا الى الاستغناء عن المواد الخشبية في الأعمدة والركائز . كذلك قل استعمالها في الشبابيك وحل محلها الحديد ، وزال استخدام المقرنصات كليا .

وعلى صعيد التصميم بدأ تكييف البناء للاغراض الاستخدامية وفق الصيغ الاقتصادية والاجتماعية التي بدأت تتبلور شيئا فشيئا .

كما بدأت الاجهزة الحديثة والانارة والتأسيسات المائية تدخل في العمارة العراقية محققة استخداما اكثر انسجاما مع راحة الفرد وكذلك اكثر اقتصادية قياسا للمزايا التي تحققها .

لذا يمكن القول ان تحولا اساسيا قد حصل في العمارة العراقية الا ان هذا التحول قد تجاوز في بعض الحالات حدوده وخاصه في الابتعاد عن الهوية العراقية الصميمة للعمارة . فلم تظهر محاولات للجمع بين التراث والمعاصرة في التصميم او النواحي الجمالية .

الا ان العراق لم يكن وحده في هذه الصفة فقد ساد العالم اتجاه معماري يدعو الى النمط الدولي في العمارة لذا نشاهد ان العديد من مدن العالم بدأت العمارة فيها تتشابه وكانت العمارة العراقية تقترب لتشابه ابنية حوض البحر المتوسط .

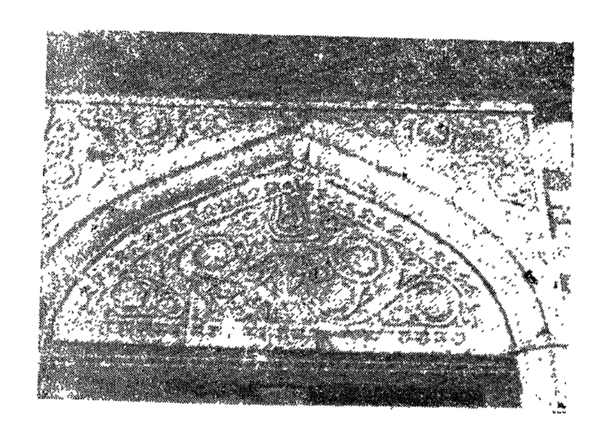
لقد حققت الخمسينات اكبر الطفرات في هذه المرحلة ومن سماتها ايضا بدأ الحوار بين المعماريين العراقيين حول ضرورة العناية بالتراث المعماري العراقي والاستفادة منه في صيغ معمارية معاصرة وكان من رواد هذا الاتجاه المهندسون محمد مكية وقحطان عوني ورفعة الجادرجي . وكانت الدراسات والتجارب الاولية ، في هذا الصدد ، لها الاثر الكبير في طرح هذه القضية بشكلها المتطور في الفترة اللاحقة للخمسينات والتي امتد اثرها حتى يومنا هذا . اذ اصبح للتراث والاستيحاء منه موقع هام على صعيد التنظير المعماري والتنفيذ .

وعلى صعيد الاستخدام فقد برزت عبر فترة البحث هذه ظاهرة التخصص في استخدام المبنى فبعد ان كان الخان مكانا مشتركا لتجارة وخزن البضائع

وايواء المسافرين ودوابهم المستخدمـة للنقل ، توزعت الاستخدامات على الفنادق ومراكز البريد والمحلات التجارية ومخازن البضائع . كما تم الفصل في المؤسسات الصحية فكان منها المستشفى وكان منها المستوصف . كذلك الحال في موضوع المقاهي التي كانت تجمع كافـة وسائل اللهو والشراب والطعام والغناء فتوزعت المنشآت ليكون لكل منها بناء مستقل . وتكررت هذه الظاهرة في مواطن اخرى فبعد ان كان المسجد مكانا للصلاة والدراسة عن طريق رجال الدين او الملالي . فقد فصل بـين اماكن العبادة والمدارس والمعاهد العلمية .

كما شهدت المرحلة تطورا في دور المعمارى العراقي والمعاهد الهندسية العراقية واصبح عـدد المعماريين ومستواهـم عاليا بحيث اصبحت المبادرة الرئيسية بيدهم ولاشك أن لذلـك دورا هاما في تأسيس نقابة المهندسين في الستينات والى تبلور مكاتب هندسية استشارية عريقة وكبيرة فيما بعد .

وشهدت المرحلة كذلك نشاطا على صعيد تصميم المدن فبعد محدودية الجهود المبذولة في هـذا المجال خلال العشرينات والثلاثينات وجهت جهود كبيرة خلال الخمسينات لتصميم كافة المدن العراقية الرئيسية ووجدت مجالا للتنفيذ سواء خلال الخمسينات او بعد ذلك .



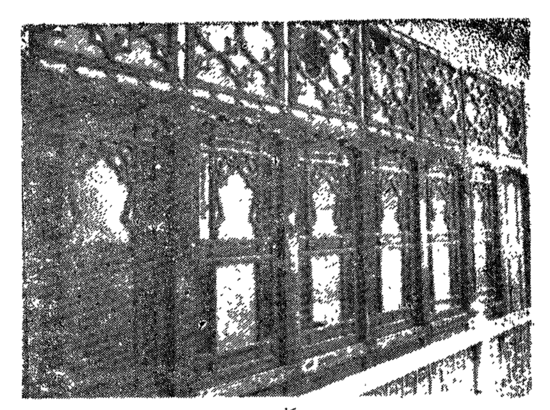
شـــكل ــ ١

كتيبة آجرية لمدخل دار ببغداد من مطلع العشرينيات

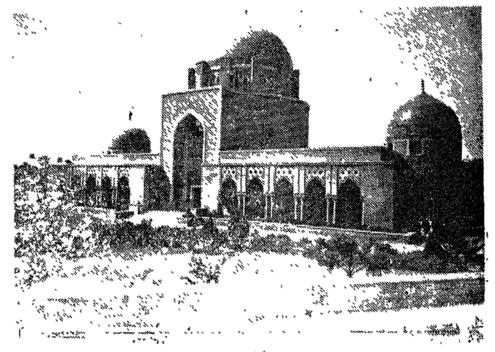


شكل [illegible]

زخرفه آجريه في دار [illegible]



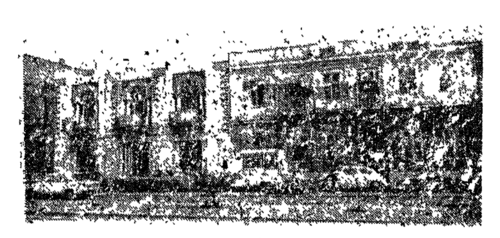
شـــكل ـ ٣
زخارف خشبية لواجهة داخلية لدار في بغداد من العترسياب



شـــكل ـ ٤
المقبرة الملكية في الاعظمية ببغداد



شكل ـ ٥
المدرسة الثانوية في البصرة



شكل ـ ٦
عمارة الثلاثينات في شارع أبي نؤاس ببغداد



شـــكل ــ ٧
دار في الاعظمية ببغداد من مطلع الاربعينيات



شكل ــ ٨
عمارة الاربعينيات في شارع ابي نؤاس ببغــداد

المراجـــع

١ ـ تقويم العراق لسنة ١٩٢٣ ، دائره معارف عامه تصدرها (اداره العراق ، ـ بغداد ١٩٢٣ .

٢ ـ دليل العراق لسنة ١٩٣٦ ، وزاره الداخلية بغداد ، ١٩٣٦ .

٣ ـ توفيق حميد عبدالجواد ـ تاريخ العماره ـ مكتبه الانكلو المصريـه ـ القاهرة ١٩٦٩ .

٤ ـ ابو صالح الالفي ـ الفن الاسلامي ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٩ .

٥ ـ شريف يوسف ـ تاريخ فن العماره العراقية في مختلف العصور بغداد ١٩٨٢ .

٦ ـ بغداد ، عرض تاريخي مصور ـ نقابه المهندسين العراقيه بغداد ١٩٦٩ .

٧ ـ زهير العطية ـ الاعمال الجصية في حوض شمال الفرات ـ مجله آفاق عربية ، العدد ٣ تشرين الثاني ١٩٧٥ بغداد .

٨ ـ زهير العطيه ـ المعالم الفنيه في البيت البغدادي ـ مجلـه افاق عربيه العدد ٤ كانون الاول ١٩٧٥ ـ بغداد .

٩ ـ زهير العطيه ـ العمارة الدائية في محافظه البصره ـ مجلة آفاق عربية العدد ١ تشرين الثاني ١٧٩ ـ بغداد .

١٠ـ زهير العطية ـ المعالم الجمالية في بيت شمال العراق ـ مجله الرواق ـ العدد ٤ ، ايلول ـ تشرين الاول ١٩٧٨ ، بغداد .

١١ـ الدكتور خالد السلطاني ـ دراسة فيعمارة العراق مابينالحربين،مجلة آفاق عربية العدد ١٠ حزيران ١٩٨٠ بغداد .

١٢ـ رفعة الجادرجي ـ موقع التراث في العماره المعاصره في العراق مجلة فنون عربية العدد ٣ ـ ١٩٨٣ بغداد .

١٣ـ سعدى التميمي ـ فيالخصائص المشتركة لعمارة دولالعالمالثالث،مجلة فنون عربية ـ العدد ٦ ١٩٨٢ ـ لندن .

١٤ـ الدكتور احسان فتحي ـ شارع الرشيد حكايه معمارية مثيرة مجلـة الرواق ـ العدد ١٤ سنة ١٩٨٣ ـ بغداد .

المبحث الرابع

الفن التشكيلي

شاكر حسن آل سعيد

دائرة الفنون التشكيلية ـ بغداد

يبدأ تاريخ الفن التشكيلي المعاصر في العراق بسطلع القرن العشرين ، فمنذ الغزو المغولي لبغداد عام ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م وماتلا ذلك من ظروف اصبح فيها العراق خاضعا للسيطرة الاجنبية خلال القرون التالية انعكس من الناحية الثقافية على المجتمع العراقي . وهذه الفترة التي ضمنت اهتمامه ببعض الفنون التقليدية كفن الزخرفة والخط العربي .

وحتى الثلث الاخير من القرن التاسع عشر كانت الثقافة الرسمية المحلية ولا ريب ، تلك التي يمثلها فئة الموظفين ، صورة لثقافة المجتمع العثماني نفسه . وهو الذي كان آخذا وقتئذ (بعناصر التجديد اقتداء بالفكر الاوربي حيث حاولت الدولة العثمانية ادخال اصلاحات جديدة) ، تبلورت في اصلاحات والي بغداد مدحت باشا ، فكانت الثقافة السائدة لا تزال تعكس لنا طبيعة البنية الثقافية التشكيلية على هيئة اهتمام فطري بالفنون الشعبية ،

الحرفية وهي حينئذ مزيج تقني واسلوبي للرسوم المصغرة Miniature والرسوم الجدارية ذات النزعة الواقعية على أغلب الظن ، وشغف بالزخرفة والخط العربي هو ما كان نقطة التقاء بين الثقافة الرسمية والثقافة الشعبية والمحلية ، والتي نوعت مصادرها بتنوع الثقافات المجاورة التي اثرت فيها . اما الثقافة الرسمية الجديدة والتي كانت تمثل مدى اهتمام الدولة العثمانية وسلطتها في العراق بذوق الفئة التي تؤيدها ، وهي فئة الموظفين ، فلم تكن ذات شأن يذكر . والواقع اننا منذ نهاية القرن التاسع عشر نجابه تاريخا ثقافيا تشكيليا وشعبيا ، ربما كان من الاجدر ان نصفه بكونه تاريخا للفكر العراقي الآسيوي الى حدّ ما . اما التاريخ الثقافي الرسمي فلم يكن يستطيع الجمع بين الفكر الاسلامي العثماني وتحوله الاوربي الجديد الا وهو في صورته البدائية .

وهكذا فان الامثلة الوحيدة التي يمكن الاشارة اليها بهذا الخصوص هي تلك الرسوم المصغرة في بعض المخطوطات من الكتب الدينية والادبية ، كرسوم دلائل الخيرات . والتي تضمنت مناظر طبيعية لمديني مكة المكرمة والمدينة المنورة والصور المطبوعة حول بعض الاساطير الدينية وما تذكره بعض المصادر عن وجود نقاشين في بغداد اذ يبدو ان كلمة نقاش هي كلمة عامة تجمع ما بين الزخرفة والرسم . ثم ما يمكن ان نحدسه عن وجود رسوم جدارية او رسوم ما تحت الزجاج (وهي عموما قابلة للتلف بسهولة) أي مما كان يرافق عادة الفن المعماري المتأخر في أيام الدولة العثمانية والفنون الحرفية . هذه المظاهر المموهة من الفن التشكيلي هي التي عرفها بعض المنظرين العرب المعاصرين بأنها (الفن الشعبي الاصيل .. الفن المباده العفوي" ، الذي

يصدر عن الرغبة بالتعبير عن الجمـال بصيغ بسيطة غير معقدة ولا علمية) •
وهكذا فنحن نشهد منذ أواخر القرن التاسع عشر بداية لانقسام الثقافـه التشكيلية في العراق الى تيارين ، الاول وهو التيار الرسمي ، الممثل للسلطة الحاكمة والذي يستقى اصوله الجديده من الفكر الاوربي والذي اريد له ان يدعم الكيان العثماني ، ذلك الذي كان يحاول ان يوفق ما بين الثقافه الاسلامية التي يحكمون باسمها والثقافة الممثلة للتقدم العلمي الاوربي ضمن حركة الاصلاح . والثاني (وهو ما سـبق ان نوهنا عنه) وذلك لاحتفاظه بالرصيد اللاشعوري للثقافة الاسلامية والاسيوية المختلطة في وادي الرافدين التي لابد انها كانت بمثابة تحصيل حاصل في ظروف تعرضت فيها البلاد الى المؤثرات الاجنبية المجاورة • ولكن مما لا ريب فيه ايضا ان الفنون التشكيلية الشعبية والحرفية كانت تحتفظ باصولها والانتماء الى ما تأتلف فيه المدينة مـن (وحدات اجتماعيـة ، وهي الاصـناف والحرف والمهن حيث تحتفظ التنظيمات في المدن بنوع من الكيان الذاتي لسـكانها وشيء من الاعتداد بالشخصية الفردية والعامة) • اي انها اي الفنـون التشـكيلية تلك كانت لها شخصيتها المحلية المناهضـة لما ارادت السلطة الحاكمـة ان تفرضـه على الاذواق •

وما ان انتهت الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨) حتى أصبح العراق خاضـعا للاسـتعمار البريطاني ومن هنا فان الكيان الثقافي الجديد للثقافة في وادي الرافدين اصبح من الان فصاعدا معرضا لعملية صهر وتوجيه نحو الثقافة الاوربية وكان لابد للسلطة الحاكمـة ان تهتم به كوسيلـة من وسائل الحكم أي لدعم كيانها • اذن فقد اصبحت الثقافة التشكيلية ، شيئا فشيئا اكثر اقترابا من التيار الرسمي في البلاد بل ممثلة له وقد ساعدت على ذلك تلك التغيرات الادارية والاقتصادية والاجتماعية التي لجأ اليها المحتلون في اول امرهم ومع ان الحكم البريطاني المباشر للعراق لم يستمر طويلا اذ

انهى عام ١٩٢٢ وبعد ثورة العشرين ممخضاً عن سلم فيصل الأول لعرش العراق وكذلك الامر بالنسبة للحكم غير المباشر ، اي عهد الانتداب الذي انتهى بدخول العراق في عصبة الامم كدولة مستقلة في عام ١٩٣٢ فان علاقة من الوصاية والصداقـة بين بريطانيا والعراق اسـتمرت في توجيه الحكم الداخلي في العراق وسياسته الخارجية فكان من شأن ذلك جميعا ان يترك اثارا عميقة في هوية التاريخ الثقافي التشـكيلي في العراق او النسق الذي يحمل ، منذ غزو المغول لبغداد عام ١٢٥٨ م وحتى ثورة ١٤ تموز عام ١٩٥٨ ، اثار التدخل الاجنبي في البلاد على رصيد هائل وقاعدة راسخة الجذور من الفكر المحلي والعربي واللذين توحدا وبلغا شكلهما المثالي في الاسلام .

ان تاريخ الثورة العربية بوجه السيطرة التركية خلال الحـرب العالمية الاولى ومحالفة العرب الانجليز اصبح الان منسجما مع نظام الحكم الجديد الحكم الملكي وسيتمرحل فيما بعد بشكل اخر يختلف تمام الاختلاف . لكنه في هـــده الفتـرة حتـى عـــام ١٩٥٨ فـأن عمليـــة الانصهـــار الثقافي المحلي بالفكر الاوربي اولا فالعالمي ثانيـا طبقت بشـكل خطوات اسرعت بظهور ثقافة الاختصاص في الفنون التشكيلية (١٩٣٠)أي بارسال المبعوثين الى خارج العراق لضمان تخصصهم الرسمي ، (على غرار ارسال المبعوثين للتخصص في أيام الدولة العثمانيه) . ومع ان التوجه للثقافة الفنية الاوربية كان قد بدىء بـه منذ ايام العثمانيين وهو ما تمثلـه قابليات بعض العراقيين الذي انخرطوا في الجيش العثماني ودرسوا في الاستانة (وكان مما درسوه فن الرسم) فعادوا وهم يتقنون هذا الفن فان العقد العشريني (١٩٢٠ ــ ١٩٣٠) يمثل ازدهار التيار الثقافي الرسمي ، هذا التيار الذي

اشتد ساعده باستمرار مسندا من قبل السلطة الحاكمة بعكس ما كان يتعرض له التيار التقليدي من اهمال شبه مقصـــود •

وكان نيازي مولوي بغدادي في أواخـر القرن التاسـع عشر الرسام والمزخرف والخطاط معا هو الممثل التقليدي الذي اسطعنا الوقوف على سيرته وفنه دون سواه في آيام العثمابيين، ان فنه في الواقع وفي العراق على الاقل يمثل حلقة الوصل ما بين فن الرسوم المصغرة أو ـ الاسلوب المعروف في تزويق المخطوطات وفن الرســم المسندي وهــو ما عرف به عبدالقادر الرسام والضباط العراقيون الرسامون ممن كانوا في الجيش العثماني فما ان سرحوا بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى حتى انصرفوا الى تزجية اوقاتهم بالرسم او احترافــه أما هــذا الاســلوب الجديد الذي تميزت سحنته في مطلع القرن العشرين ثم اشتد ساعده شيئا فشيئا في اعقاب تلك الحلقـــة التوفيقية التي كان يمثلها جيل نيازي مولوي بغدادي فهو امر جديد • لقد كان الاسلوب السابق يجمع بين ما امتازت بـه الرســوم المصــغرة من تعابير تدور في ذهن الرسام وانطباعات هي أقرب الى مفهوم الرسم على أساس المعرفة وليس وفقا للاحساس البصري لما هو مرئي • وهي انطباعات طالما اعتمدت على مشاهدات مرئية محورة او خيال جامح من اجل تكوين صورة تشخيصية او منظر طبيعي وربما اقتربت في بعض الاحيان كما آل اليها الامر اخيرا في أواخر القرن التاســع عشر في العراق الى ما هو مرئي فعلا • وفي مكتبة المخطوطات في المتحف العراقي ببغداد ، اليوم نماذج لتخطيطات من من هذا القبيل مرسومة بالحبر الصيني منها ما يمثل شــخصا جالسا وهو ينهمك بالرسم على ورقة يضعها على ركبتيه فالمتأمل لهذا التخطيط يشعرنــا حقا بأن الرسام الذي يتقن العمل باسلوب تشخيصي لا يعتمد على الخيال بل على الرؤية البصرية فعلا وذلك لأتقانه للنسب والمنظور والضوء او الظل وما الى ذلك من عناصر التشكيل في فن الرسم في حين ان المنجزات التامة لنفس

الفنان تبدو مرسومة باسلوب الرسوم المصغرة في بعض المخطوطات من عمله .

ان هذا النوع من التقنية في التوفيق ما بين الرسم باسلوب الرسوم المصغرة التقليدي والرسم باسلوب الرؤية البصرية (الرسم المسندي) هو الذي تطور فيما بعد وعرف في العشرينات لدى الرسامين العراقيين المخضرمين أي الذين عاصروا ايام الدولة العثمانية ومرحلة الاحتلال فالانتداب فالاستقلال في القرن العشرين ، فكان ان جاء اسلوبهم كخطوة متممة لما سبقتها اي التطبع بالرؤية التشخيصية (figuration) او التمثيلية (Representation) على غرار اسلوب عصر النهضة الاوربية (Re-Naissance) ومع ذلك فان آثار التقنية السالفة لم تختف بالمرة اذ اصبحت الآن معتمدة على محاكاة الصور او الرسوم الاخرى وليس الاعتماد على الطبيعة لوحدها . فهي مرحلة متطورة نحو الاسلوب المنقطع للرسم على الطبيعة . وقد سادت هذه الطريقة في وسائل التعليم في المدارس وهي ما تسمى عادة (باسلوب الامشق) في حين بقيت آثارها عالقة في رسوم عبدالقادر الرسام واقرانه حتى بعد ان تحقق لديهم استقلالية اللوحة المرسومة على القماش او الخشب او الجدار . ويضم متحف الرواد في بغداد اليوم العديد من أعمال هؤلاء الفنانين الاوائل مثل عبدالقادر الرسام والحاج محمد سليم وعاصم عبدالحافظ وحسن سامي ومحمد صالح زكي وكذلك عبدالكريم محمود أما شوكت الخفاف وناصر عوني فليس في المتحف المذكور شيء من اعمالهما (هذا فضلا عن اعمال فنية اخرى لرسامين في المحافظات لم نحط علما بهم يحتمل انهم رسموا بأساليب متطورة ولم تشملهم الدراسات الفنية بعد) .

ان جل هذه الاعمال تعكس مدى تأمل الفنان العراقي العسريني للمنظر

الطبيعي في العراق ، وتكشف عن الجمال الفطري الكامن فيه ، وهي مرسومة بنزعة تستبطن الشعور الداخلي بحب الوطن والتغنى بمآثره وجماله ، وستستمر بشكل او بآخر لدى الاجيال التالية استمرار التطور الاسلوبي . وعن مدى تطبعّ هؤلاء الرسامين بالاسلوب الجديد يذكر عطا صبري ، وهو رسام من جيل المؤسسين في الاربعينات ان اباه حسن سامي كان دقيقا في التعبير عن ملامح الاشخاص وتفاصيل المناظر الطبيعية (Landscape) والاشكال الثابتة . ويضيف : (ان مشاهداتي المبكرة لوالدي وهو يرسم لوحاته وصور الاصباغ المائية والزيتية كانت اول معرفتي بهذا الفن) . أما بالنسبة لعبدالقادر الرسام ، وكان يعتبر شيخ الفنانين بلا منازع فقد تواترت الاراء لدى معاصريه من الرسامين او ابنائهم انه كان يستثمر رسم الغمامات والاشجار على الواقع المرئي ، أو على بعض الصور المطبوعة ثم يضيفها الى لوحاته الزيتية التي يحرص ان يرسمها ايضا على الطبيعة . وهكذا كان لانصراف جيل المخضرمين من الرسامين الى مثل هذه التقنية مغزاها في توطد التيار الرسمي في العراق.هذا من جهة ومن جهة اخرى فقد اضحى اهتمام وزارة المعارف في العشرينات بتدريس مادة الرسم والنحت ، وربما الاشغال اليدوية في المدارس اثره في ترسيخ قواعد الرسم التشخيصي ، هكذا استمر جيل اخر من مدرسي الرسم في ضخ الثقافة الفنية الحديثة . وكان من المشهود لهم بالقدرة شوكت الخفاف وناصر عوني وفتحي صفوة الذي اشتهر بكونه نحاتا . يذكر ذلك عبدالكريم محمود نفسه وكان قد اشترك منذ أيام تلمذته بمعرض مهرجان سوق عكاظ عام ١٩٢٢ بقوله (ان من الذين درسوه في المدرسة الثانوية ببغداد عام ١٩٢١ - ١٩٢٢ شوكت الخفاف ويلقب ايضا بالرسام وكنت انئذ ارسم بمهارة وعرضت رسومي في مهرجان سوق عكاظ وعرض ايضا شوكت

الرسام وكانت رسومه زيتية وبالباستيل • وأذكر ان احدى لوحاته كانت تمثل (طفلة) وهي احدى بناته ، كما وعرضت في هذا المعرض ايضا اعمال يدوية نحاسية) • وكان المعرض الذي نضمن مهرجان سوق عكاظ السعري والادبي هذا قد اعتبر مدخلا او مؤشرا على القابليات الفنية التشكيليه كما يفهم من اراء المس بيل في مذكراتها ، فهي تذكر ان من جملة ماتضمنه المهرجان (خيمة ملأى بالصور رسمها فنانون محليون وكانت المواضيع منتخبة ومجازية في الغالب تمثل روحية العراق) • ثم تضيف (ويمكنني ان احكم من هذا باننا سنحتاج الى وقت طويل قبل ان نستطيع انجاب اناس مثل ميخائيل انجيلو) ، ولم يكن هذا الوقت الطويل سوى جيلين أو ثلاثة حتى نشهد من كذب ظنها فنان مثل جواد سليم • ومن الجدير بالذكر ان النهضة الفنية التشكيلية في العشرينات كانت قد فهمت ايضا من قبل بعض المعنيين ممن تمخضت عنهم الروح الوطنية على أنها نهضة ثقافية جذرية لا تنفصم عن معنى الكفاح القومي من اجل الاستقلال الشامل • ونستطيع ان نتتبع هذا الخيط في عائلة (الحاج محمد سليم) فقد كان محمد سليم نفسه رساما ، ومن اصدقاء عبدالقادر الرسام • تعلم عليه عبدالكريم محمود اصول الرسم ولابد ان جوّا ثقافيا في العائلة حققه محمد سليم نفسهليتمخض أخيرا عن قابليات فنية متعددة تحققت في سعاد سليم وجواد سليم ونزار سليم ونزيهة سليم الابناء • يضيف سعاد سليم على ذكريات عبدالكريم محمود مايلي :

(جئنا الى العراق من تركيا اي بعد أن هاجر الاب الى هناك هربا من بطش الانكليز عند انتهاء الحرب العظمى) عام ١٩٢٥ وكنت آنئذٍ صبيا • وان المواضيع التي كان يتخذها مدرسو الرسم هي النحوت البارزة والمزهريات لكنني كنت ارسم منذ ان كنا في تركيا) • ونحن لو تأملنا الواقع التشكيلي آنئذٍ (لا لفيناه متعدد الشبكات حضاريا فهو من ناحية يمثل مدى انصهار الثقافة في التيار الجديد بعد نشأة الحكم الذاتي ، وهو كذلك يطرح لنا

استمرارية التطبع بأسلوب الرسم الاوربي • كما انه في نفس الوقت يحمل في صلبه بذرة الشـــخصية الحضـــارية العراقية بل العربية . والتي كانت كامنه في الشخصية الثقافية لبعض من المثقفين ثقافة عصرية تجاوزت بهم حد الانبهار بالثقافة الاوربية ، او في التيار التقليدي الذي يحرص على الدفاع عن نفسه وبتزمت ضد المظاهر (الخادعة ، احيانا) للتجديد ، ولكن بدافع غريزي ايضا ، أي ما كان يبدو في شتى الفنون الشعبية والحرفية (الفلكلور) المنبه بـ (المنظور الروحي للفن العربي) على حد تعبير د• عفيف بهنسي • وان من الذكريات المدونة المألوفة عن هذه الاعمال ما (نسميه باصطلاحنا فنون تشكيلية كالعمارة الشعبية والرسم والحفر والتطريز واشغال الزجاج والنجار وغيرهـــا فلاشك بوجودها بطابعهـــا الشـــعبي) اذ لابد ان هـــذه الفنون في العشرينات كما هو الحال في مراحل تالية كانت (تمثل الصور التي توجد على واجهات جدران البيوت القديمة واكثرها يتخذ من اوراد الجوري والجنيد المحبوبة لابن الشعب او صور غزالة او حمامة . والصورتان تحملان رمزا لاسطورة بغدادية•ومعآن هذه الصورة الجدارية تجاوزا توجد كصورة مرسومة على اوراق كبيرة يسمونها ورق المعشر ملونه بالوان فاتحة اكثرها الازرق والاصفر والاخضر وتستحضر من اعشاب خاصة وهي تصور اشخاصا تاريخية او مناقب وخوارق الاولياء والشيوخ مثالها ، لقاء الامام علي مع عمرو بن ود العامري وكيف ان سيف الامام شق ابن ود العامري من خوذته حتى حصانه •• والى هذا فان المصور البغدادي الشعبي بعد شيوع الزجاج قبل الحرب الاولى وبعدهـــا أخذ يجســـم الصـــوره على الزجاج والى جانب كل ما ذكر فانه كثيرا ما يصور المشاهد المقدسة في بغداد وكربلاء والنجف كما يرســـم ملامح المناظر المحيلة من نخيـــل او نهر او حيـــوان محلي) • وباختصار فان الفنون التشكيلية التي تمثل النزعـــة التقليديـــة كانت ولابد تشتمل على اعمال عديدة كالطرق على النحاس (مثلما هو معروف

اليوم) والسجاد المحلي (الذي تتوارث وحداته الزخرفية منذ ايام السومريين بدلالة الاشكال المثلثة والمربعة) وأعمال الخوص المصبغة والمصوغات وغيرها •

على أنه في بداية القرن العشرين لم يكن ثمة جمهور فني كما هو معروف اليوم ، فربما كان القلائل المعدودون من بعض المثقفين يقتنون الاعمال وقد يحصلون عليها غالبا أما عن طريق الاهداء وأما بالشراء ، فلعله كان مقتصرا على الاجانب من بعض الاجانب الذين كانوا من الموجودين في العراق •

كان العمل الفني وحتى الفولكلور (الا بالنسبة للطبقات الشعبية فان له قيمته الوظيفية بالطبع) يعتبر من قبيل الترف او وسيلة لامتاع النفس وليس لقيمته الثقافية • كما لم يكن ثمة دور مقصود للعناية بالجمهور الفني في المؤسسات الثقافية كالمدارس والمتاحف فان الامر كما يبدو كان مقتصرا على تنمية القابليات الفنية بعد اكتشافها بل ان الثقافة الفنية المتخصصة لم يكن لها وجود بالمرة (أسس معهد الفنون الجميلة عام ١٩٣٦ وافتتح فيه فرع الرسم ثم النحت عام ١٩٣٩ ــ ١٩٤١) وكل هذا يعلل خلو الصحف المحلية من الجرائد والمجلات في حينها من الاخبار الفنية او النقد الفني ، الا ماينشر لاسباب رسمية او سياسية، كما حدث بالنسبة لمهرجان سوق عكاظ •

وعلى كل حال فان تزامن كل من التيارين الرسمي الثقافي والتقليدي الشعبي في العشرينات كان يخفى في طياته وبصورة غير مباشرة الاهتمام بالثقافة الحديثة الوثيقة الصلة بالحياة اليومية ، وعلى حساب اعتبار الفنون التقليدية فنونا ذات هوية وظيفية متحجرة ، فهي تعكس لنا تخلف المواطن في عاداته وذوقه • ومن هنا فان اهتمامات المثقفين الذين لم يألفوا الفن

التشكيلي تماما ظلت تعتبر هذا الفن ضربا من الترف في حين اعتبروا الادب العربي والشعر اكثر المجالات تعبيرا عن الشخصية الحضارية • ولكن في صميم هذا النسق المموه بحب" الاندفاع في صميم الحياة المعاصرة انبرى المربي الكبير ساطع الحصري في مهمته التربوية في العشرينات مؤكدا الدور الذي يمكن ان يؤديه المثقف العراقي بالنهضة الثقافية وهي التي افصح عنها فيما بعد عقد من الزمان في تأييده المطبق لحركة استقلالية وطنية هي حركة مايس (١٩٤١) وتزعمه لحركة احياء فنية وحضارية في الفن التشكيلي تبدأ من المتحف العراقي لتقتفي خطى يحيى الواسطي والنحات العراقي في العصور القديمة وهو ما سوف نأتي على ذكره فيما بعـــد •

باختصار فأن مرحلـة العشرينات شـهدت نوعا من الاهتمام بالفن التشخيصي على أساس الرسم المسندي وكان يرافق ذلك انتشـــار الثقافة الحديثة في أوربا لما بعد الانقلاب الصناعي في كل الدول المتقدمة في العالم • في حين لم يكن ليصيب العراق منه الا جذوره منذ عصر النهضة الاوربية • وسنرى كيف ان الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) اسرعت في انضاج هذه الثقافة الاوربية في العراق وايصالها الى ملامحها المتطورة في أوربا كما هي في مطلع القرن العشرين • أما فنوننا الشعبية فقد كانت في نفس الفترة لا تزال تحث" السير ببطء •

٢ ـ ومنذ مطلع المرحلة الثلاثينية اتضح ان التيار الرسمي كان سائرا في مساره الصحيح والمحدد • ففي عام ١٩٣٢ تكرر انجاز المعرض الصناعي الزراعي الذي سبق ان تحقق بصورة هامشية في مهرجان سوق عكاظ الادبي والشعري فأصبح الان مستقلا لذاته•ومعنى هذا ان مصاحبة الفن التشكيلي للفعاليات الصناعية والزراعية في هذا المعرض كانت تنتظر استقلالها بدورها في المستقبل • والواقع ان هذا التطور يكاد ان يكون انعكاسا لتطور سياسي معروف وهو استقلال العراق ودخوله كعضو في عصبة الامم في عام ١٩٣٢ ،

ايضا • مهما يكن من أمر فان الاعمال الفنية التشكيلية كانت تتضمن اللوحات الزيتية والتخطيطات اضافة الى المنحوتات والملصقات الاعلامية • وحسبما ينص عليه دليل المعرض فانها تتضمن (الاشغال اليدوية المختلفة من النقش والتصوير وما له علاقة بالفنون الجميلة كاشغال المعادن المتنوعة ومنها اشغال الصياغة الفضية والجلود المدبوغة على الطريقتين القديمة والحديثة) لكننا نعلم ايضا ان اكرم شكري المبعوث العراقي الاول للدراسة الفنية خارج القطر وفي انكلترا بالذات ارسل خصيصا لهذا المعرض لوحتين من عمله في لندن احداهما لوحته المسماة (ضباب لندن) وهي اليوم من معروضات متحف الرواد ، كما عرض فيه ايضا فائق حسن وكان لا يزال تلميذا في المدرسة الابتدائية ، وحافظ الدروبي وكان يدرس في الثانوية ، وجواد سليم وكان لا يزال صبيا ، هذا بالاضافة الى عبدالقادر الرسام وفتحي صفوت وآخرين • فكانت هذه المعروضات بمثابة تظاهرة لنهضة صناعية ـ فنية معا في العراق واستعراض للقابليات الفنية الفتية • وقد اتضح ان هذه القابليات كانت تنتظر العناية وهكذا فسرعان ما تسابق شباب الفنانين لتحقيق طموحهم للدراسة خارج العراق اسوة باكرم شكري حيث درس قاسم ناجي في اكاديمية برلين لمدة سنة واحدة عاد بعدها عام ١٩٣٨ • وكان فائق حسن قد سافر الى فرنسا للدراسة في معهد البوزار ، (١٩٣٥ ـ ١٩٣٨) وتبعه حافظ الدروبي وعطا صبري للدراسة في ايطاليا عام ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨ ليعودا الى الوطن بسبب نشوب الحرب العالمية الثانية دون ان يتما دراستيهما، وكذلك كان شأن جواد سليم أيضا • في حين كان عاصم حافظ قد درس وحده عام ١٩٢٨ ، الفن في باريس ولمدة اربع سنوات وبهجت عبوش الذي حصل على دبلوم فنون الاكاديمية الملكية في روما عام ١٩٣٩ • فكأنما كان ارسال المبعوثين ودراسة من شاء على حسابه يمثل الخطوة التاليه لارساء التيار الثقافي الرسمي للفن التشكيلي على اسس موضوعية • ومع

ذلك فقد اشتهر ممن لم يكمل دراسته خارج العراق رسامون منهم محمد خضر وهادي سلمان ، يذكرهم حافظ الدروبي في بعض مذكراته • ومما لا ريب فيه ان الموصل والبصرة وبعض المدن العراقية الاخرى لم تخل من رسامين ذوي قابليات في هـذه المرحلـة ، أما في بغداد فقد برز فيها قبيل الاربعينات سعاد سليم وعيسى حنا في فترة غياب فائق حسن وحتى حركة مايس عام ١٩٤١ • كان سعاد سليم وهو الاخ الاكبر لجواد سليم رساما متعدد القابليات معتدا بقابليته الشخصية فلم يفكر بالدراسة في لندن او باريس واستطاع أن يكون له شهرة بالرسم الكاريكاتوري والعمل الصحفي قبيل حركة مايس توازي شهرته بالرسوم الزيتية ، أما عيسى حنا فقد زامل جواد سليم قبل سفرته في البعثة الفنية وفائق حسن بعد عودته من الدراسه ، وهـو ايضـا متعـدد القابليات كرسـام ومصـور فوتوغرافي ومصمم للملصقات • وعندما تتأمـل اهتمـام الرسامـين العراقيـين في الثلاثينات للرسوم الطبيعية حتى بالنسبة لمن درس خارج العراق وعاد نجد نفس الشوق الذي ابداه جيل العشرينات ماثلاً حتى لكأن فائق حسن في نزعته الاختزالية التشخيصية والتي زينت له تأسيس جماعة البدائيين .S.P قبيل الاربعينات كان يتابع نزعة عبدالقادر الرسام نفسه • وعلى كل حال فان ما تحقق في مرحلة الثلاثينات كان من ناحيةٍ ما يؤكد استفحال أمر التيار الثقافي الرسمي وتمحوره في صميم الحياة الثقافية الفنية ولكنه من ناحية اخرى ايضا اضحى ممثلا لازدهار النزعة الوظيفيـة في العمل الفني والتي بدأت بالرسوم الكاريكاتورية ثم اصبحت نزعة تعبيرية ايضا • وقد ساعد على ذلك كما بينا اهتمام الصحافة باستخدام الطباعة (الزنكغراف) منذ ظهور جريدتي (ابو حمد) و (حبزبوز) الى الوجود وازدهار الجو السياسي وحرية الفكر ، التي أستثمر فيها العمل الفني • والواقع ان تفاقم الوعي السياسي والاجتماعي في العراق في هذه المرحلة وانعكاسه في الفن التشكيلي من الناحية الوظيفية

السالفة الذكر تعود جذوره الى العشرينات حيث اتخذ المحتوى الوطني اساسا لبعض الرسوم . لكن تحول ذلـك الى حركة أحياء حضاريه هـو ما تحقق الآن . فيما بعد عودة حافظ الدروبي وعطا صبري وجواد سليم ، وهم فلم يكملوا بعد دراساتهم في اوربا عام ١٩٣٩ ، لم يكن ثمة مفر من أن يوظف ساطع الحصري قابلياتهم في المتحف العراقي وكان وقتئذ مديرا له وهكذا تألفت اول نواة للبدء بنهضة فنية تشكيلية في المتحف العراقي مؤلفة من أكرم شكري وكان يضطلع في المتحف نفسه بوظيفة مدير المختبر ثم الفنانين الثلاثة الذين نحن بصددهم ، وكذلك عيسى حنا وخالد الرحال وكانوا يعملون بالاجور اليوميـة وبين الحين والحين كان يزورهم جميل حمودي وحميد المحل أيضا . ومن هنا تتضح قيمة الموقف الجديد لشباب الفنانين ، الذي دفع البعض منهم بارشاد من ساطع الحصري نفسه الى تكبير بعض رسوم يحيى الواسطي بقصد دراسة اسلوبه ، والواسطي كما هو معروف اشهر رسام في اواخر أيام العباسـيين . في حين انصرف الاخرون لاعداد رسوم عن العراقيين القدماء او تصليح المنحوتات الاثرية . وقد مثل الحصري مثلا اعلى في حرصه على حضارة وطنه حينما أصر على احتفاظ المتحف بالقيثارة الذهبية السومرية المعروفة وكانت قـد اكتشفت حديثا واتجهت النية لاهدائها الى ملكة بريطانيا ، لكن اصراره حال دون ذلك . وتمدنـا بعض الصحف الثلاثينية في مطلعه بانطباع مهم عن مدى تطور العمل الفني التشكيلي ، فما عدا الرسوم الكاريكاتورية التي بدأت باستثمارها لحسابها في حينه ابرزت اسماء بعض الرسامين الذيـن تجلت قابلياتهم في التخطيط ومنهم عطا صبري الذي برزت كما يبدو رسومه قابليته لاتمام دراسته خارج العراق في حين ذكر قبل ذلك نوري ثابت (حبزبوز) في جريدته خبرا فنيا يمكن ان نسـتدل به على مدى تثمين الاعمال الفنية بعد الحكم عليها من قبل لجنة من الذواقة في ذلك الوقت ، والخبر المذكور يقول : (نحتاج الى

صورة مناسبة تطبع بالالوان الطبيعية على الغلاف (يقصد غلاف الجريدة)، بصورة دائمية لذلك وضعنا جائزة قدرها خمسون روبية لاحسن صورة مناسبة) ثم يذكر أسماء اللجنة وهم ساطع الحصري وطه الهاشمي وفهمي المدرس والدكتور سامي شوكت .

من المؤكد ان هذا العقد كان يوضح لنا مدى تطور الفكر العراقي التشكيلي في سياق العناية بالمهارة الفنية تقنيا واسلوبيا ثم ابداعيا . فأبتدأ بمهمة صقل المهارات على أساس التخصص بعد مجيء اكرم شكري وفائق حسن وقاسم ناجي ، ثم تابع ذلك بارسال عطا صبري وحافظ الدروبي وجواد سليم ثم كان افتتاح فرع الرسم والنحت في معهد الفنون الجميلة عام ١٩٣٩ حيث اختيرت له بناية في شارع أبي نواس استبدلت بمكان اخر فيما بعد . ولم يحدث ان تعرف الفنانون العراقيون وقتئذ على ما كان يدور في العالم من تطور فقد كانوا لا يزالون مؤمنين بالاسلوب الاكاديمي أو المدرسي ومع ذلك فقد بدا وقتئذ انهم كانوا منقسمين الى جناحين فائق حسن واصدقاؤه وتلاميذه في جانب كممثل للاسلوب المدرسي المتخصص ، واكرم شكري في جانب آخر . وكان نوع من الصراع كما يبدو آخذاً في الظهور سيكون مسؤولا عن سعى اكرم شكري لتأسيس جمعية للفنانين تضم من هم خارج معهد الفنون الجميلة ، وكانت هذه الجمعية التي تأسست عام ١٩٤١ هي جمعية اصدقاء الفن . وفي أواخر الثلاثينات ايضا كما يبدو تكونت لفائق حسن فكرته في تأليف جماعة فنية تمثله وهذا ما سيتضح في مرحلة الاربعينات . ومن هنا فأن هوية هذا العقد كانت لا تزال تمثل الفنان العراقي في موقف ثقافي تعليمي أي انه كان يعني باستكمال معرفته الفنية التشكيلية ، ولم يلتفت لا الفنان ولا الجمهور (وكان في بداية تكونه) الى القيمة الجوهرية للفكر التشكيلي وللفنون الشعبية ابدا ويبدو ان التيار التقليدي الفني كان يلوح كانعكاس للموقف الذي نشأ لدى رجال السياسة

في تفسير معنى الديمقراطية في استثمار الأدب الشعبي والفكاهة كواجهة اعلامية وهو ما عبر عنه في الشعر العامي للكرخي بهجائه الفاضح ونكات الجرائد الهزلية مثل جريدة (أبو حمد) و (حبزبوز) • وهكذا فقد استهجن هذا التيار كما يبدو ولم يعترف به كفن تشكيلي وهو بالاساس لم يكن يستطيع أن يلعب لعبة الادب الشعبي فلم يلتفت الفنان الى الرسوم الجدارية ورسوم ما تحت الزجاج التي كانت ولا بد تزين بعض المقاهي والبيوت الشعبية • وظلت هذه الفنون مألوفة في البيئات الشعبية فحسب ، ومن ذلك الاعمال الحرفية على الخشب والتي يقبل على اقتنائها الفلاحون والقرويون ، والسجاد المحلي كالفججج والازر وما الى ذلك • أما اعمال الخزف او الفخار فكانت مألوفة قبل ان يدخل التصنيع الحديث حياة المواطن وكذلك المصنوعات النحاسية والمصوغات فهي تقتنى كأدوات وأثاث من قبل جميع الفئات وليس كأعمال فنية ، كما انفردت المساجد وأماكن العبادة بتقاليدها الفنية ، كالخطوط العربية والقاشاني وأعمال الخردكار والزجاج الملون وما الى ذلك وباختصار فان هذه التقاليد الثقافية غير الرسمية ظلت دون مستوى الذوق الثقافي الجديد ، فلم يكن قد القى عليها الضوء بأعتبارها اعمالا جديرة بالاقتناء بمعنى العاديات (التحفيات) • بقي ان نشير الى ظاهرة مهمة ظلت تبدو (كمؤشر) على مدى (القطيعة) التي يمكن ان يحققها المثقف التشكيلي فنانا كان أم جمهورا مع ماضيه واعني بها فن النحت ففي الثلاثينات كانت ثلاثة أعمال فنية تنتصب في بغداد هي تمثال الجنرال مود وتمثال الملك فيصل الاول وتمثال عبدالمحسن السعدون • وهي جميعاً تؤخذ مأخذ الشواهد التي تذكر الاحياء بالعظماء الاحياء منهم او الاموات • وهذا ما يتنافى و الروح المتفانية التي جلاها الفكر الاسلامي عن اصولها العربية البدوية • أنها مؤشر من مؤشرات الحضارات المستقرة في المدن •

ومن هنا صلتها الفنية بالتماثيل المستقرة في المتاحف والمناطق الاثرية ٠

وكان من الخطورة ان يحيذ فن النحت بصيغته الفنية وحينئذ يصبح عاملا من عوامل نهضة فنية محلية ابان الاحتلال الاجنبي او البريطاني للعراق ٠ لكن الذي تحقق في نهاية الثلاثينات هو هذا المحظور بالذات وسرعان ما ظهر جواد سليم بعد امثلة اولية منها فتحي صفوة ٠ من هنا فان التماثيل التي كانت تزين الساحات البغدادية الاولى ظلت محتفظة بقيمها الجمالية لنفسها ولم يتحسس بها الجمهور بتاتا فقد كانت تبدو وكأنها (التشكل الكاذب) الذي تنعت به الحضارة الهلنستية التي طغت على حضارات الوطن العربي المحلية قبل الاسلام ، ولهذا السبب فسرعان ما اقتلع تمثالا الجنرال مود والملك فيصل الاول ولم يبق سوى تمثال السياسي عبدالمحسن السعدون ، ان مأساة الوعي الفني المتلبس بفن النحت يخفى النزعة التشويهية للذوق الوطني الذي كان يراد له خدمة السلطة لا الحضارة او العقيدة وهو ما لم يجد في الفنون الاخرى مجالا مماثلا لانها كانت اكثر اقترابا من الموقف الانساني المحلي والفكر العربي من هنا فان بوادر الاهتمام بالتطور الحديث لفن الرسم سرعان ماظهرت بمجرد دعوة المبعوثين الاوائل في الثلاثينات ، أما بالنسبة لفن النحت فقد تأخرت الى ما بعد جيل وبفضل استلهام التراث ، أي الى مرحلة الخمسينات ٠

٣ ـ ثم حلت مرحلة الاربعينات حيث استهلت هذه المرحلة بحدثين هامين كانا يعبران عن ترسيخ الاسس المدرسية للثقافة التشكيلية واولهما تأسيس معهد الفنون الجميلة ليكون اول مدرسة لتخريج المتخصصين في الرسم والنحت ثم الفخار بالاضافة الى الفنون المسرحية والموسيقية وثانيهما تأسيس جمعية أصدقاء الفن ١٩٤١ ٠

وقد كان تأسيس معهد الفنون الجميلة مرتبطا بتطبيق منهج واضح في بناء الثقافة الجديدة فقد اضحى بعد تأسيسه نقطة اشعاع في نعبئة التقافة التسكيلية لشباب الفنانين مما اسرع في تطورهم الثقافي في السنوات التالية لانه جعل من خريجي هذا المعهد القاعدة الاساسية لثقافة رصينة تجمع ما بين (التقنية) و (الاسلوب) أما الموقف الفني فقد ترك الحرية للفنان او تخصصه الحرفي وهو بالطبع موقف ليبرالي لا يصطدم مع طبيعة المنهج الذي تتبناه الدولة وقتئذ بينما اضحى تأسيس (جمعية اصدقاء الفن) بمثابة الحضانة للفكر الفني ما بعد ـ المدرسي وهو ما بدأ بشكل عدم التمييز لما بين (الاحتراف) و (الهواية) في العمل الفني ، وسنرى كيف ان هذين التيارين اللذين تفرعا عن التيار الرسمي نفسه سيمثلان الحركة الجدلية لتطور الفن العراقي من الان فصاعدا في المراحل التالية .

وقد عمل كل من معهد الفنون الجميلة وجمعية اصدقاء الفن كل بصيغته الممكنة على تطوير العمل الفني ، الاول بالتأكيد على جانب الاسلوب و (الحرفة) والثاني على جانب الموقف و (الابداع) لكن هذا لا يعني ان كلا منهما لم يتضمن بشكل او باخر (هوية) الاخر . فقد صادف مثلا ان ظهر في معهد الفنون مبدأ الاخذ بالاسلوب الانطباعي الحديث في صلب قواعده التعليمية بعد أن تأثر فائق حسن باراء الفنانين البولنديين عام ١٩٤٣ وبالمقابل فأن تجربة المرسم الحر أو الرسم على الموديل الحي أصبحت من تقاليد جمعية اصدقاء الفن في عام ١٩٤٢ بعد ان تخلى حافظ الدروبي عن مرسمه للجمعية . لكن مما لا نشك فيه ان كليهما لم يفطن الى اهمية التيار الشعبي الذي كان سائرا في طريقه ببطء وان فطن له بعض الفنانين بدافع ذاتي . ولعل ابعد مثال على ذلك هما موضوعان رسمهما جواد سليم عام ١٩٤٣ متأثرا بحياة الطبقة المسحوقة وتقنيات الرسوم الجدارية او رسوم ما تحت الزجاج ثم جاءت تأثيرات الحرب العالمية الثانية وتأثيرها

الثقافي والنفسي والاقتصادي وربما الاجتماعي ايضا كعامل جديد اسرع في ايصال مفهوم الفن المدرسي الى مواقع جديدة قريبة من مفهوم الفن الحديث أي الى حل وسط يلتقي فيه الاسلوب بالموقف وكان هذا المفهوم الاخير مرتبطا ايضا بمجيء الفنانين البولنديين في العراق (١٩٤٢ - ١٩٤٣) .

وحتى عام ١٩٤٣ اثمرت جهود معهد الفنون الجميلة عمليا في ظهور فائق حسن كمؤسس حقيقي لفن الرسم في العراق وفق اسس ثابتة وسرعان ما التف حوله من الاصدقاء الهواة والطلاب ما برر له تكوين جماعة يتزعمها هي (الجماعة البدائية) (Société premitive) وهذا ما رفع من رصيده الفني الى درجة جعلت منه الفنان الاول في العراق ، وفي نفس الوقت كان جواد سليم يعمل بصمت في شأن فن النحت والثقافة النظرية فقد اضطلع بتدريس مادة تاريخ الفن وفن النحت وهو بعد لم يكمل دراسته في التخصص الفني بسبب الحرب العالمية الثانية . كما أن عيسى حنا اصبح بدوره طالبا في معهد الفنون الجميلة ليكون قريبا من فائق حسن أما حافظ الدروبي فقد اقبل على مغامرة فنية جديدة حاول فيها ان يجمع مابين حريته الفردية في العمل واخلاصه للنزعة المدرسية ، وذلك بافتتاح مرسمه الحر (١٩٤١) وكان يحاول ان يستخدمه كما يبدو في رسم الموديل العاري كمجال لمتابعة الدراسة التي نالها في ايطاليا . وسرعان ما تبنت جمعية أصدقاء الفن فكرة الدروبي ثم بدأت ايضا بالعناية بالثقافة الفنية فنظمت لها موسما ثقافيا يجمع ما بين تاريخ الفن والخط العربي والتشريح وما سواه ، أي بصورة تحاول فيها ان تنشر الوعي الثقافي للفنان بين الهواة والمحترفين على السواء وربما كانت تدور بين اونة واخرى نقاشات حول المدرسة العراقية وهي التي ثبتها اكرم شكري في بعض مذكراته التي يقول فيها (في العراق اليوم حركة فنية نشيطة جدا ولكنني لا اعتقد ان هناك مدرسة عراقية او طابع عراقي فالطابع في الفن او الشخصية للحركة الفنية

لا تتكامل الا اذا تعاملت شخصية المجتمع وبديهي ان شخصية المجتمع العراقي في بداية التبلور كالفن العراقي) ، والمهم ان جواً من معاملة الفن التشكيلي بكونه اكثر من مجرد التعبير عن المهارة بالرسم او النحت هو الذي بدأ يسود الان . وقد استطاعت الجمعية التي آزرتها ايضا كوادر المعهد من اساتذة وطلاب ان تنظم لها معارض فنية سنوية منذ عام ١٩٤١ اعقبتها بمعارض شخصية في انحاء القطر منها معرض مدينة الديوانية ، ثم ساهمت اخيرا في معرض القاهرة عام ١٩٤٧ باسم العراق وهو المعرض الدولي للفنون الجميلة . على ان عام ١٩٤٣ يمثل الى حد ما بداية انهماك الجمعية باعتبارات ثقافية واسلوبية معا وكان يبدو ان ممارسة الاسلوب الحديث لم تعد تعنى فقط بالاسلوب بل تعنى ايضا بالميزة الثقافية المتميزة عن الاسلوب الاكاديمي ايضا . ولعل هذا ما صرفهم في اول الامر عن المحتوى الاجتماعي في الفن اذ (لم يكن لديهم ما يشير الى النزعات المتقدمة في رفض الاغتراب عن مشاكل وقضايا الشعب على الرغم من وقوع احداث اقتصادية وسياسية خطرة في الوطن العربي والعراق بالذات). واكب الرسامون العراقيون مدرسة الفن الحديث واستطاعوا ان يستوعبوا بسهولة اهمية الفن الانطباعي الجديد او الانطباعية الحديثة في الفن العراقي المعاصر حتى ان فائق حسن في غمرة حماسه لهذا الاسلوب حاول اعتماده في تدريسه لطلابه فظهر تأثيره لدى العديد منهم وقتئذ مثل فاروق عبدالعزيز وفاضل عباس ، كما رسم هو رسوماً بهذا الاسلوب وكذلك فعل اكرم شكري وجواد سليم وأتخذ الفنانون العراقيون (كافيه سويس) وهو مشرب يطل على شارع الرشيد ملتقى لهم يرتادونه في اوقات الفراغ حيث يحتدم النقاش في مجال الفن الحديث . وبسرعة ظهرت اتجاهات فنية عبرت عن التربية الوطنية والقومية الجديدة قادها كل من عطا صبري وحافظ الدروبي أما عطا صبري فقد تحصن وراء اهتماماته الجديدة التي غرسها فيه ساطع الحصري فراح يرسم المناظر الطبيعية على غرار تلك التي رسمها في سفرته الى شمال العراق

عام ١٩٤٢ واما حافظ الدروبي فقد استمر في تغنيه بالمناظر الطبيعية لمدينة بغداد والمواضيع التراثية • وقد تبلورت هذه الاتجاهات بعد فشل حركة مايس ١٩٤١ حينما أخذ الانكليز يبذلون جهودهم لاستمالة الفنانين العراقيين ، غير ان تلك الجهود باءت بالفشل واستمرت المدرسة العراقية الوطنية والقومية الاتجاهات على مختلف اهتماماتها تتطور مواكبة المرحلة التي يعيشها المجتمع معبرة عن همومه •

أما من ناحية تبلور التاريخ الثقافي الفني في هذه المرحلة فان ظهور الحوار ما بين الاسلوب الذي يمثله معهد الفنون الجميلة و (الموقف) الذي يمثله اصدقاء الفن كان بمثابة مؤثر جديد لاستمرار الابداع الفني • وبنفس هذا المعنى تقريبا (يصبح ما يمثل هذه الفترة هو ما توصل اليه الفنانون العراقيون من اكتشاف الشكل الجديد للعالم وهو اكتشاف جوهري كان يقف في وضع مواجه للرسم الطبيعي الذي يشبه عقيدة مقدسة تحتل قلوب المتعلمين آنذاك) أي ان الهدف القديم من تعلم الفنان العراقي واتقانه للاسلوب الفني اصبح الآن محاولة لاتقان التقنية الحديثة وفق المدارس المتطورة انطلاقا من المدرسة الانطباعية ، وبصدد هذا الوضع الجديد في مجال الابداع الفني فان القلائل من الفنانين هم الذين انتبهوا بجدية الى مصير النهضة الحضارية التشكيلية في الاربعينات والتي لم تجد لها المتنفس الحقيقي في رسم المواضيع وليس استلهام التقنيات والاساليب فحسب ، انما في التعمق بدراسة الواقع العربي الاسلامي للفن العراقي المحلي كما انه لم يغن رسم المواضيع الاخرى داخل المدينة او في شمال العراق في شيء انما الذي اغنى هو ان يعكف جواد سليم في بعض اعماله على استلهام الفن الشعبي وهذا يعني ان التعبير الاجتماعي في الفن اصبح عنصرا جديدا من عناصر التعبير الفني في مرحلة

الاربعينات ، وفي صلب الاسلوب الفني الحديث ذلك ان التفكير بواقع الطبقة الشعبية هو الذي سينبه الى أهمية الفن الشعبي وكان هذا التيار الشعبي والحرفي الذي ظل بطيء التطور في المراحل السابقة محتفظا بمستواه كفن حرفي ينحسر عن حيث قيمته الوظيفية في طبيعة الحياة اليومية بمقدار ما يشتد ساعد التصنيع • وكانت الحرب قد شلت في حينها من التطور الصناعي العالمي أي للمجهود السلمي أما بعد ان خمدت فقد عادت الصناعة الاوربية الى مركزها السابق بل بدأت بالنمو بتسارع ومن هنا فان ما ادى الى نضوج التيار الشعبي وذلك لرفد ذوق الطبقة العامة في المدن وبغداد خاصة بسبب الهجرة من الريف الى المدينة كان ما له صلة بالموسيقى والغناء اما ما يتعلق بفن الرسم والفخار وما الى ذلك فانه لم ينم او يتطور ، بصورة كافية • وعلى كل حال فان في غضون التحول الجديد للثقافة التشكيلية لعب التنظير والنقد الفني اذ هو في بداية ظهوره دورا مهما ساهم الى حد بعيد في توعية الجمهور والفنانين على السواء فقد كان من انبثاق مجلة الفكر الحديث في منتصف الاربعينات كمجلة متخصصة في الفن التشكيلي اهميته لاسيما وان رئيس تحريرها وقتئذ وهو السيد جميل حمودي كان لا يزال طالبا في معهد الفنون الجميلة وقد رسخت هذه المجلة الكثير من المصطلحات الفنية والقيم الجمالية في الاذهان مثل الفن السوريالي او الانطباعي والانطباعية الجديدة الخ •• وكانت في عام ١٩٤٦ تحتوي على حقول ثابتة من ذلك باب (في الارجاء) الذي كان مشتملا على اخبار فنية تشكيلية وادبية في الوطن العربي والعالم هذا ما عدا المقالات الاخرى المترجمة او المؤلفة •

مهما يكن من الامر فان المناخ الثقافي في نهاية الاربعينات بما فيه من عناصر ثورية في مجال الابداع الفني والتعبير الاجتماعي في الفن كان يبدو منصرفا الى استكمال جوانبه

في استقطاب اهتمام الفنان بالفن الحديث باعتبار ان هذا هو المآل الطبيعي للثقافة المعاصرة وفي وقت نست فيه منذ الثلاثينات هــذه النزعة الاخيرة في العراق والتي نمحت في اوارها الحرب العالمية الثانية حيث كان الوضع الداخلي في العراق بتفاقم حتى كانت الوثبة ومعركة الجسر (١٩٤٨) • والى هذا الحد لم تكن وجهة النظر المادية (الواقعية الاشتراكية) قد استلهمت في الفن العراقي بقضها وقضيضها ، وكل ما في الامر ان بعض الرسامين مثل رشناد حاتم والذي كان قد درس فن الرسم في ايطاليا اصبح منذ اواخر الاربعينات في عداد المسجونين السياسيين لكــن رســومه كانت لا تتعــدى الاسلوب الانطبــاعي وهكــــذا فان الثقـــافة التشـــــكيلية في الاربعينـات لم تتشرب بوجهة النظر الاشتراكية ، لكن تبنــي النزعة الحديثة كما يبدو اضحى بمثابة صمام الأمن للفكر المناوىء للاســتعمار لما يمثله من موقف تقدمي عام ، وفي تلك السنوات القليلة والحاسمة والتي سبقت المرحلــة الخمسينية (١٩٥٠ ـ ١٩٥٨) اصبح تأسيس الجماعات الفنية اسلوبا مشروعا في تعبئة الفكــر الفني فقــد قطعت جماعــة البدائيين (S.P.) شوطا بعيدا ففرضت اسلوبها على الاخرين كما تأسست (جماعة الوقت الضائع) من بعض الادباء والرسامين فهي جماعة ادبية ولكنها تضم اليها رساما وموسيقيا ايضا واستطاعت ان تصدر عدة مطبوعات منهــا (ديوان خفقــة الطــين) للشاعر بلند الحيدري (١٩٤٦) و (أشياء تافهة) وهي مجموعة قصصية للرسام نزار سليم ، كما انها اصدرت نشرة تضمنت بعض اراء جواد سليم وصور مطبوعة لاعمال فنية لخالد الرحال وتأســست ايضا جماعة اخــرى للرسم تتألف من بعض خريجي معهد الفنون الجميلة وطلابه ، منهم محمد الحسني وفاضل عباس وعادل كينه ونوري الشماع • ولم يبلغ فن النحت مبلغ فن الرسم وقتئذ اذ يبدو ان الثقافة التشكيلية اخذت تتكل على دور اللوحة الفنية في الطرح والتعبير وفي استقطاب اهتمام الجمهور في حين انفرد فن

النحت في التعبير عن وظيفته الاحتفالية والاعلامية من خلال القيمة (الانصابية) فحسب • ونحن نعرف كيف ظهرت التماثيل الاولى في بغداد من اجل تخليد بعض الشخصيات العسكرية والسياسية أما تلك البداية المتواضعة لاعمال فتحي صفوة في بداية الثلاثينات فقد استأنفها جواد سليم الان في الاربعينات بعد ان اكتسب الخبرة من المتحف العراقي وابان سفرته القصيرة الى ايطاليا وفرنسا للدراسة قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية • وفي عام ١٩٤٤ كانت باكورة أعمال جواد سليم النحتية بمعناها الثقافي قد تحققت بمهارة في منحوتته الرائعة (البناء) • (على مقدار ما نما ونضج في بحر سنوات قلائل ومقدار ما استوعب من مؤثرات المتحف العراقي والفنون القديمة) استطاع اذ يحقق هذا النحت البارز والحديث وعلى غرار الفن الاشوري الفرعوني من نفس الوقت بل وبأدخال مؤثرات اخرى من الفن الاسلامي هو القوس المدبب ولم يكن خلال هذه الاعوام قد ظهر أي نحات آخر يضارعه فكان هو النحات الاول من العراق بلا منازع •

يتضح لنا ان مرحلة الاربعينات كانت منعطفا اساسيا في ثقافة الفنان العراقي وضميره معا بعد ان عصفت به سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية وبرهنت له على اهمية احتفاظه بتوازنه ما بين الجدلية المشروعة لكل من النزعة الثقافية التقدمية في التعبير عن الحداثة والمعاصرة في الفن والكشف عن الشخصية الحضارية في التراث وهذا ما سينعكس بدوره على معطيات مرحلة الخمسينات بأسرها • ولعل خير ما يلخص لنا المجهود الذي بذله الفنان العراقي وقتئذ ما صرح به جواد سليم حينما قال (خلال هذه السنين الاربع التي وقفت فيها باريس واوربا عن العمل الجميل (ويقصد بذلك الحرب العالمية الثانية) لم تقف بغداد • كانت تعمل ببطء وصمت وكانت فقيرة جاهلة لكنها كانت تشتغل فانشيء اول معهد للفنون وافتتح اول متحف حكومي للرسم والنحت وابتدأت اول حركة قوية ومباركة في مضمار المسرح

المسرح والموسيقى الكلاسيكية والوطنية كانوا قلائل تحدق بهم المصاعب من كل جانب في عملهم الابداعي وتهيئة الجمهور للفهم والتذوق) • •

٤ ـ استهلت مرحلة الخمسينات بتعديل اساس على جماعه البدائيين (S.P.) جماعة فائق حسن فقد وضعت لها تسمية جديدة هي (الرواد) وكأنها جعلت من نفسها جماعة فنية صرفة معلنة عن دورها الريادي في تطور الفن العراقي • وفي عام ١٩٥٠ نظمت نهـا معرضا فنيا في دار الدكتور خالد القصاب (وهو واحد من اهم اعضائها) مقدمة للجمهور العراقي لنتاجها الجديد لكن هذه المهمة في تاريخ الفن العراقي لم يصنع لها (رؤية فنية) مدونة ، واكتفت بممارسة (حيويتها البدائية) في الفن فحسب وسرعان ما خرجت عنها الى التعبير الاجتماعي من خلال الاساليب الوحشية والتعبيرية والتكعيبية وهكذا كانت صورة واضحة لمدى تمثل الرسام العراقي للاساليب الحديثة المتطورة في اوربا في بداية القرن العشرين • وكان تاريخ جماعة الرواد في الخمسينات سلسلة من نمو اساليب فردية اتسم قسم منها بالنزعة البدائية والاختزالية خاصة مثل اسلوب فائق حسن نفسه وزيد محمد صالح أما باقي الاساليب فكان اهم ما فيها هو استمرار خالد القصاب على اسلوبه الانطباعي والانطباعي الجديد ثم اسلوب محمود صبري التعبيري واسماعيل الشيخلي التكعيبي ثم الانطباعي التجريدي فيما بعد • وعموما فان (موقف) جماعة الرواد كان موقفا تقدميا معبرا عن الثقافة الحديثة للفنان المحلي المتطلع الى المستوى الثقافي العالمي • والواقع أن التحول الجديد لهذه الجماعة من كونها جماعة ذات منظور بدائي واختزالي في الشكل الفني الى كونها جماعة ذات منظور اجتماعي كان بمثابة تحصيل حاصل لواقع جديد يمر به العراق • واصبح المنظور الفلسفي الان هو ما اوضحه محمود صبري في فنه ومقالاته التي نشرها في الصحف المحلية والمجلات ومفاده الفصل بين المحتوى والشكل ، وان يكون الشكل هو

الواسطة لحمل المحتوى • وقد استمر الرواد على نفس تقاليد الجماعة البدائية في الاجتماع بدار فائق حسن والذهاب في سفرات جماعية الى الضواحي ، وقد انضم اخيرا اليهم قتيبة الشيخ نوري وآخرون •

وبعد عام واحد من هذا التغير في مسيرة الجماعة البدائية او ما عانته من تطور بسبب تغير الظروف برزت جماعة بغداد للفن الحديث الى الوجود ، اي في عام ١٩٥١ وقد اخذت هذه الجماعة الاخرى تنادي رأسا بمطلبين اساسيين في الفن العراقي الحديث هما اولا استلهام الحضارات المحلية او التراث الفني العراقي في العمل الفني بالاضافة الى الاستمرار على الرسم بالاسلوب الاوربي الحديث (او مجموعة المدارس الفنية المتطورة) وثانيا (وهو تحصيل حاصل للمطلب الاول) استقطاب جمهور فني محلي لا يسير وراء الفكر الاوربي بل يتفهم فن بلاده ويتذوقه بحق • ونحن لو رجعنا الى تلك الظروف التي تطور فيها الفن العراقي منذ نشأته المعاصرة في بداية القرن العشرين لوجدنا ان الثقافة الفنية كانت سائرة نحو مصيرها بخطوات راسخة فكان لابد للرسام العراقي ان يتخلى عن ثقافته الذاتية المحددة المعتمدة على قابلياته الشخصية والظروف التي تصادفه في حياته الدراسية الى ثقافة موضوعية ترتبط بمعاهد متخصصة في المعرفة التشكيلية • وكان يسافر من اجل ذلك المبعوثون للدراسة في ايطاليا او فرنسا ثم في انكلترا (في الثلاثينات والاربعينات) • ثم كان ظهور معهد الفنون الجميلة كمعهد فني وحيد متخصص في تخرج الفنانين في البلاد وضمان حد ادنى لثقافتهم الاكاديمية وهو ما يعدهم للحصول على الثقافة الحديثة فيما بعد كصورة من صور التطور في الفن الاوربي • وأخيرا جاء دور مرحلة الخمسينات كمختبر هائل للبحث الفني ذي الاصالة الاجتماعية على الاقل . فلقد اججت هذه المرحلة كما هو معروف اوار الوعي الاجتماعي والسياسي وكان لها تأثير عظيم على العمل الفني • وهكذا فان ما حققته جماعة بغداد للفن الحديث بضوء هذا

التطور ياتي بمثابة نقطة تحول في موقف الفنان من كونـه اهتماما باتقان الاسلوب الاكاديمي والحديث للعمل الفني التشكيلي ومن ثم اتخاذه وسيلة للتعبير الاجتماعي الى كونه محاولة لاخضاع تجربة الرسم او النحت بالاساليب الاوربية الى الفنان العراقي وجعلها معرفة محلية لها طابعها المتميز ، فكأنها عبرت عن فحوى المنهج القويم الذي يحقق الهوية (المحلية ـ العالمية) معا في العمل الفني وهو ما نطق به البيان الاول المكتوب للجماعة .

على ان هذه المرحلـة في جميع الاحوال تظل ثمرة حركـة احياء الفن العـراقي تلك التي بدأها سـاطع الحصري في المتحف العراقي منذ بدايـة الاربعينات وآمن بها جواد سليم وبعض الفنانين الاخرين ، والتي ظهرت الآن كمحور ثقافي جديد يعبر عن وعي الفنان بظروفه الاجتماعية وايمانه واعتزازه بحضارته ونزعته القومية معا . ومن دراستنا لموقف الجمهور العراقي من العمل الفني وخاصة عند ظهور جماعة بغداد للفن الحديث يتضح لنا حجم رد الفعل الذي بدأ يعانيه في مجال تقبل الثقافة الاوربية اولا ، ثم المحلية الهادفة الى اكتساب طابع متميز يميزها عن الاساليب الاوربية ثانيا . من هنا نستطيع ان نعزى لهذه المرحلة اهمية البدء بمفارقة التخلف الثقافي الفني من مجال التذوق (ما يخص المشاهد بالذات) وما يعتور ذلك في مشاكل . وتمدنا الصحف المحلية بشرائح واضحة عن هذا الامر . أما الاراء النقدية (بل شبه النقدية) للادباء والشعراء في هذا المجال فتمنحنا وتشهد على مدى التوتر الذي كان يعانيه الجمهور من هذا التحول الثقافي الجوهري في مجال الفن التشكيلي ، وهو ما كان يعانيه الشعر ايضـا في الانتقال من الشـعر العمودي الى الشعر الحر . ففي عام ١٩٥١ يصب شاعر معروف غضبـه على جماعة بغداد ويغرقها بسيل من الشتائم لانها خرجت على المألوف في العمل الفني وفي الاعوام التالية صرح كثير من الادباء بسخطهم على الفن الحديث وكانوا يسمونه خطأ (بالسوريالزم) وهي تسمية تخص احدى المدارس

الفنية الحديثة . بل ان بعضهم نشر مقالا حول الفن التشكيلي بعنوان (الجنون فنون) بالمقابل فان البعض الاخر كان متريثا في مهاجمة الفن العراقي التشكيلي ايضا بحجة ان ما لا يستطاع فهمه لا يمكن ان يرفض ابدا ولابد ان يتسنى فهمه فيما بعد . وفي غمرة هذا الاحتدام تسنى لبعض الفنانين الكتابة في مجال الاعلام والنقد الفني مساهمين في تثقيف الجمهور واطلاعهم على جهودهم ، فما عدا ما ساهم به محمود صبري وجبرا ابراهيم جبرا وسواهما كانت بعض الصحف المحلية تخصص حقولا خاصة لها عن اخبار الفن المحلي والعالمي ، ومن ذلك ما عرفت به جريدة الزمان مثلا أما جمعية الفنانين العراقيين (التشكيليين العراقيين فيما بعد) فقد اصبحت منذ عام ١٩٥٦ مجالا للالتقاء ما بين ثقافة الفنان والجمهور وبصورة اكثر تطورا مما انجزته قبلها جمعية اصدقاء الفن . وفي هذه المرحلة ازداد عدد المعارض الفنية الشخصية منها والجماعية وكان حافظ الدروبي وسعاد سليم قد حققا معرضيهما الشخصيين منذ مرحلة الثلاثينات أما الان فكان كل طالب مبعوث للدراسة يعود الى الوطن يحقق معرضه الشخصي حال رجوعه ومن ذلك معرض اسماعيل الشيخلي (١٩٥٢) ومعرض جواد سليم (١٩٥٣) ومعرض شاكر حسن آل سعيد الشخصي (١٩٥٤) أما بعد ان تأسست جمعية التشكيليين العراقيين فقد كان من مفردات منهجها السنوي لعام ١٩٥٦ المعارض الشخصية لكل من محمد صالح زكي (١٩٥٦/٤/٦) وأكرم شكري (١٩٥٦/٤/٢٢) وعبدالقادر الرسام (١٩٥٦/٥/٤) ونزار سليم . وأما بالنسبة للمعارض الجماعية فقد واظبت الجماعات الفنية كجماعة الرواد وجماعة بغداد للفن الحديث على انجاز معارضها السنوية . وفي عام ١٩٥٤ - ١٩٥٥ تشكلت جماعة الانطباعيين العراقيين وحققت معرضها في بغداد والبصرة فى حين اعتادت جمعية الفنانين العراقيين على تنظيم معرض عام لاعمال اعضائها يقام سنويا منذ عام ١٩٥٦ . وقد ازدهرت كذلك في مدن اخرى غير بغداد

ظاهرة الجماعات والمعارض الفنية ففي عام ١٩٥٦ تأسست جماعة فناني كركوك وانجزت معرضها وبنفس المعنى تطور الفن العراقي في الموصل والبصرة . وفي عـام ١٩٥٢ وبمناسـبة المهرجان الذي اقيم احياء لذكرى الفيلسـوف الاسلامي ابن سينا حقق الفنانون العراقيون معرضا ضم العديد من اعمالهم واشترك منهم عبدالقادر الرسام وعبدالكريم محمود ومحمد صالح زكي ، من الرسامين الاوائل ، كما عرضت فيه مديحة عمر لاول مرة لوحات استلهمت فيها الحرف العربي ، ماعدا باقي الفنانين المعروفين ورسامين اخريـن كانوا لا يزالون طلابا في معهد الفنون الجميلة . وكان هذا المعرض بمثابة تظاهرة عامة للفن العراقي . ان المعرض العراقي بمناسبة ذكرى ابن سينا هذا يعتبر البديل لمعارض جمعية اصـدقاء الفن التي يبدو انهـا لم تعد على حيويتهـا وقتئذ . وفي العام التالي عرض الفنانون الهنود معرضا نموذجيا لاعمالهم في بغداد مما شجع الفنانين العراقيين على انجاز اول معرض لهم في الهند اي بالمقابل ، وهكـذا لم تعد المعارض الفنيـة لتقتصر على العـراق او بعض الاقطار العربية بل تجاوزت ذلك الى باقي انحاء العالم .

كما اشتد ساعد (نادي المنصور) على اجتـذاب الفنانين العراقيـين تحت وطأة تعاظم الحركة الفنية وازدهارها واقبل العديد من ذوي اليسار والذوق الفني على شراء الاعمال الفنية لتكوين مجموعات شخصية لهم ، وكان في ذلك دليل اخر على ظهور جمهور عراقي يستطيع ان يرى في ما يبدعه الفنانون العراقيون ما يوازي الاعمال الفنية الاجنبية . لكن ابرز شيء في السـاحة الفنية منذ مطلع هذه المرحلة التاريخية هو ظهـور الجمـاعات الفنية كجماعة الرواد (١٩٥٠) ثم جماعة بغداد للفن الحديث (١٩٥١) ثم جماعة الانطباعيين العراقيين (١٩٥٤ ــ ١٩٥٥) وقد راينا كيف ظهرت الجماعتان الاوليتان أما الجماعة الثالثة والتي اسسها حافظ الدروبي فكانت بمثابـة التأكيد على مبدأ الحرية الفردية لعضو الجماعة في الاعتزاز برؤية فنية يغذيها

اشراف عام لمؤسسها دون ان يحدد من فردية الاخرين • ومن هنا فان اسم الجماعة نفسه لم يكن سوى عنوان يكاد ان يخلو من اية رؤية فنية جماعية • ففي جماعة الانطباعيين العراقيين مثلا لم يكن منهم من كان انطباعيا في رسومه حقا سوى حافظ الدروبي نفسه وحياة جميل حافظ أما الاخرون فقد كانوا غير ذلك • كان بعضهم ما بعد تكعيبي والآخر مستلهما للتراث والاخر متيافيزيقيا • وباختصار فان ظاهرة الجماعة الفنية اضحت بمثابة (الحضانة) المشروعة للفنان قبل ان يتأثر بشتى المؤثرات والبيئة التي تضمن تنظيم افكاره وثقافته الفنية كما تضمن امكانية انجازه لمعرض شخصي مع بعض الاخرين وهذا ما شجع جيل الستينات فيما بعد على تأسيس بعض الجماعات الفنية دونما رؤية وكأن الهدف من الجماعة هو مجرد انجاز المعرض الفني الذي يعجز الرسام او النحات لوحده على انجازه ، ولم تعد النزعة الرسيمة للفن العراقي الان لتمثل الموقف الرسمي للدولة اذ يبدو ان التطور الفني لم يبق لها من خيار ذلك فالفنان بعد ان ادرك انه ليس معنيا بالاسلوب الاوربي بل هو ما يخصه هو بالذات وان يكون نتيجة مجهود شخصي يبذله نابع من ثقافته وبحثه في مجال الاسلوب والتراث راح يمتلك حريته في الابداع متحملا مسؤوليته في جودة التعبير وهو يشعر ان جمهورا من المشاهدين والمتذوقين لاعماله سيحاسبونه على كل صغيرة وكبيرة ومؤثره الرئيسي هو القيمة الشرائية للوحة ، اذ لم تكن الدولة وقتئذ قد التزمت رعاية الفنان والعمل الفني كما حدث ذلك فيما بعد •

وفي هذه المرحلة ايضا التفت الفنان الآن الى القيم الجمالية في الفنون الشعبية والحرفية (في الفلكلور) وجاء ذلك لديه بحثا عن مصادر جديدة محلية في مجال التقنية والاسلوب • وهذا ما بدأ بالظهور في اعمال فائق حسن وجواد سليم والاخرين بصورة طبيعية ثم تبلور في أعمال اخرى لشاكر حسن

وكاظم حيدر وضياء العزاوي لانه اخذ ينصب على بعض القيم التقنية بالذات ، لكن من أهم العوامل التي حببت للفنان العراقي الاهتمام بالنزعة التقليدية هو تبلور الوعي الاجتماعي لديه وشعوره بانه انما يمثل الطبقات والفئات العامة في الوطن وهكذا اتضح ان (الحرف العربي) الذي اولعت به مديحة عمر كان من الممكن اعتماده في الرسوم ولو بشكل كتابات معينة وهذا ما حققه جواد سليم ايضا في بعض رسومه المائية والزيتية منذ هذا التاريخ وفي هذه المرحلة كذلك حقق فن النحت حضورا جديا ولم يعد يقتصر على اعمال جواد سليم فقد اتضح ان (لخالد الرحال ولمحمد غني وخليل الورد وعبد الرحمن الكيلاني وسواهم) رؤياتهم الفنية المتأثرة بالتراث والاساليب العالمية معا كما حقق فن الفخار ايضا حضوره . وباختصار فان دائرة التعبير الفني لم تعد ضيقة كما كانت وتأكد تماما ان الوعي الفني لم يعد ملك نزعة معينة ثقافية رسمية كانت ام تقليدية لكن مسؤولية التطور هي التي اخذ يتحملها الفنان المثقف قبل سواه وهكذا اصبح لمنحنى الثقافة التشكيلية ذروته . فقد بدا واضحا للفنان انما هو يعبر عن (موقف) يجاري فيه الفنان الاوربي في مهاراته واصبح معتقدا ان ما وراء عمله الفني رصيد او خلفية ذات ابعاد حضارية واجتماعية بل وسياسية ايضا . لقد اضحى (مشخصا) لانجازه تماما ، في عام ١٩٥٣ فاز جواد سليم في مسابقة السجين السياسي المجهول بجائزة قيمة ، كما ظهر جمهور عراقي فعلي بعد ان كان الامر يقتصر على الاوربيين أما الصحافة نفسها فقد بدأت تخصص لبعض الكتاب حقولا خاصة بالفن التشكيلي بل لقد ظهرت مجلات فنية في اعقاب مجلة (الفكر الحديث) منها مجلة (الفنان) و (الفن الحديث) ومجلات ادبية او فكرية خصصت حقولا خاصة للفن التشكيلي كمجلة (الثقافة العربية) . والواقع ان هذا الاهتمام يمثل استقلال الفن التشكيلي تماما عن المصنوعات الحرفية لا كما حدث في (المعرض الصناعي الزراعي) (١٩٣٢) حيث عرضتا

معاً ، وعن التظاهرات الفنية العامة كما حدث في مهرجان سوق عكاظ (١٩٣٢)
انه الان ملاذ المثقفين في البحث عن الوعي الحضاري والاجتماعي ومآل السلطة
الحاكمة والقوى المتنازعة لاجتذاب الفنانين الى صفوفهم . لكن استغلال الفكر
التشكيلي ووضوح أهمية الموقف بالنسبة للاسلوب (كما سوف يستشري
فيما بعد في السبعينات) في ضمير الفنان من خلال بحثه عن الشخصية
الحضارية في التراث هو ما اصبح (النسق) المهم في هذه المرحلة . ثم كانت
السنوات الثلاث الاخيرة قبل ثورة ١٤ تموز فاصلة في تثبيت كيانه : كيان
الفن والفنان معا فقد اصبح فيها حقا متمرسا بوظيفته الثقافية والاعلاميه
في نفس الوقت وكانت قد تأسست جمعية الفنانين العراقيين الان في عام
١٩٥٦ بمبادرة من خالد الجادر ، وهو دكتور في تاريخ الفن من جامعة
مونبليه ، في فرنسا وسرعان ما اخذت (تضم جميع الجماعات الفنية كافراد
وسواهم و هنا وبعد عودة المبعوثين حيث شاهد تاريخ الفن العراقي خروجا
من شرنقته المحلية نحو العالم وبنظرة اوسع من ذي قبل) . وكانت اول
لجنة للنشر والعلاقات الفنية في الجمعية تتألف من جبرا ابراهيم جبرا ويوسف
داود عبدالقادر ونزار سليم ونوري الراوي وخالد القصاب (طبيب متخصص
ورسام) . كما جاء في توضيح لمهمتها انها (تعمل على رفع مستوى الفن في
العراق وذلك بتنظيم المعارض والمحاضرات والحفلات واجراء المسابقات
بين الفنانين واصدار النشرات التثقيفية) وأنها تقبل لعضويتها (كل من
تتوفر فيه الشروط اللازمة للانتماء على ان يكون من الهواة او من المحترفين
لاحد فنون الرسم ، النحت ، الهندسة المعمارية ، الفخار ، السيراميك) .
والواقع ان الجمعية ظاهريا كانت على غرار جمعية اصدقاء الفن قبلها تجمع
ما بين المحترفين والهواة مع انها اضحت تمثل المحترفين فحسب وهذا ما اثبتت
صحته الظروف فيما بعد لكن المهمة الثقافية والاعلامية (والوظيفية) للعمل
الفني هي التي بررت برأيي هذا الكيان . اضف الى ذلك ان عدد الفنانين

المحترفين القليل نسبيا ، قد يقف عارضا في اضطلاع الجمعية بمهمتها وهي في اول نشأتها • والواقع ان الجمعية اضطلعت اديبا بمهمة النقابة ايضا أي انها كانت تراعي مصالح الفنانين ومن هنا معنى انها كانت جمعية لمحترفي العمل الفني بالذات وسيكون النصف الثاني من العقد الخمسيني الذي ظهرت به هذه الجمعية ساحة صراع ما بينها وبين (نادي المنصور) و (المركز الثقافي البريطاني) وهي ثلاث قوى متميزة الاولى تمثل مصلحه المواطن أما الثانيـة فتمثل نظام الحكم (لان النادي كان يتألف من فئـة المتنفذين في الدولة) وأما الثالثة فتمثل بريطانيا •

وقد ظهر اول الامر كما لو ان نادي المنصـور كان متفقا مع جمعيـة الفنانين العراقيين (بتسميتها الاولى) على شيء لكن واقـع الحال كان قد ملك للفنانين انفسهم زمام امرهم فاستطاعوا ان يوظفوا نادي المنصور لصالحهم واضحت الهيئة الادارية للجمعية لهذا العام (١٩٥٨) تتألف من (د• محمد مكيه رئيس الجمعية ومحمود صبري السكرتير وفرج عبو المحاسب) وفي نفس هذا العام نظم نادي المنصور معرضا عاما للفنانين العراقيين وكانت هيئة التحكيم قد تركت لبعض الفنانين وعلى رأسهم د • خالد الجادر لكن الاعمال المرفوضة كانت كثيرة ومعظمها لشباب الفنانين وهكذا ثار ثائرهم فنشروا في الصحف المحلية منددين بالامر وحينئذ اسـتطاع نوري الراوي (وكان يحاول تأسيس جماعة فنية جديدة هو وكاظم حيدر باسم جماعة الفن المعاصر وهما حديثا عهد بالتخرج من معهد الفنون الجميلة مع شـباب الفنانين من الدعوة لمعرض يقام باسم معرض المرفوضـات على غرار المعرض الشـهير للمرفوضات وهو ما نظمه فنانون فرنسيون رفضت اعمالهم في عام ١٨٦٣ (وكانت تربو على ٤٠٠٠ لوحـــة من بينها لوحات لهويسـلر وسـيزان وبيسارو) ، ويدلنا هذا الامر ايضا علـى بروز دور الفنانين الشباب الان مما سيتحقق بشكل اكثر اثرا في معارض ما بعد ثورة ١٤ تموز عام ١٩٥٨ ، هذا فيما يتعلق بنشاط جمعية الفنانين ونادي المنصور اما بالنسبة لنشاط

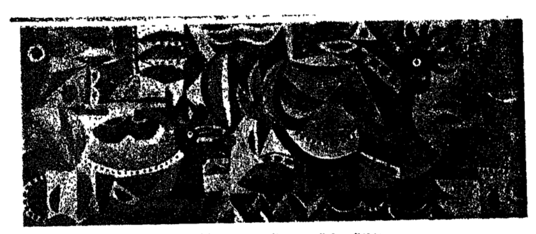
المركز الثقافي البريطاني فقد استطاع ان يعد سلسلة من المعارض منذ عـام ١٩٥٦ كان اهمها معرض عام ١٩٥٨ الذي كرس فيه دليل المعرض لعرض وجهات نظر تنظيرية لكل من جواد سليم وعطا صبري واكرم شكري وجبرا ابراهيم جبرا ومحمود صبري وكانوا جميعا قد درسوا في انكلترا .

وهكذا لم تغن عناية نادي المنصـور ولا المركز الثقـافي البريطاني في تفاقم النزعة الرسمية بشكل اصبحت فيه ممثلة الفكر الفني العام في العراق الرسمي والتقليدي معا ، وبصورة اصبح فيه الفنان ممثلا للفكر التقدمي وليس الرجعي في الوطن . وفي غضون ذلك ظلت النزعة التقليدية كطروح فنية غير محسوسة..ظلت احتياطيا هائلا لأي استثمار للتراث فيالمستقبل .

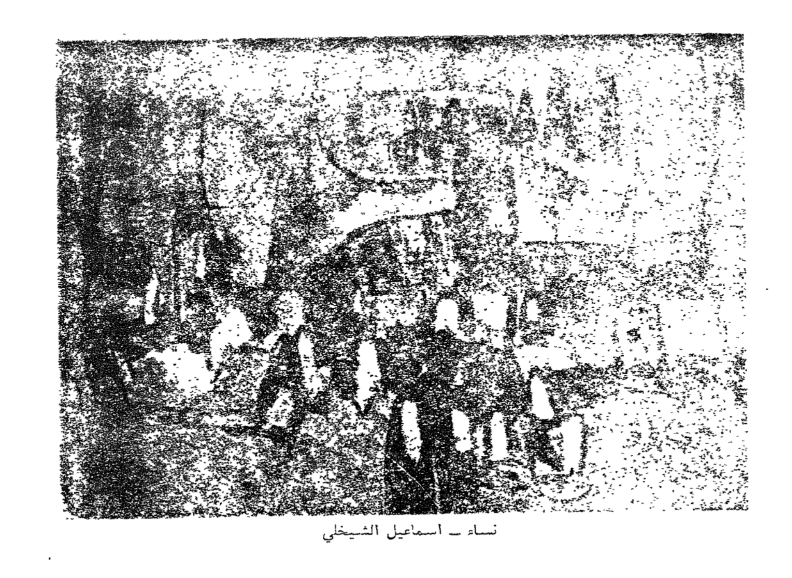
اذن ظل التاريخ الثقافي للفـن التشـكيلي المعاصر في العـراق حافلا بالمعطيات متطورا من مرحلة الى مرحلة وفي غضون ذلك كانت الثقافة الرسميه في معهد الفنون الجميلة آخذة بالازدهار وتوالت البعثات الفنية للخريجين للدراسة خارج العراق وكانت باكورة الذين اكملوا تحصيلهم في فرنسا وحدها هم اسماعيل الشيخلي ونزيهة سليم وسلمان داود الخلف وجميل حمودي وحميد المحل وخالد الجادر وصالح القرغولي وكاتب هذه السطور حتى عـام ١٩٥٨ وقس على ذلك من درس في غـير فرنسـا .
لكن ما تمخض عنه الواقـع الخمسـيني كان هـو اسـتقلال الفنان عـن النزعة الرسمية وتعاظم ثقته بنفسه كعنصر مستقل في رفد الثقافة العامة للبلاد وقد ازداد شعور الفنانين الشباب بهذا الامر الى حد كبير بدأوا يشعرون معه بانهم يستطيعون التأثير في الحركة الفنية وكل هذا يدل على ان (طبيعة) الثقافة الفنية في العراق بشتى مراحلها كانت سائرة مسارها الصحيح . وأنها كانت متفاعلة مع الواقع الفكري والاجتماعي والحضاري كل التفاعل . ثم حدث في المراحل التالية ما حقق هوية هذا النسـق بشروطها الجديدة اي بالانفتاح على الفن العالمي تقنيـا واسلوبيا بل رؤيوياً وبشكل يختلف فيـه عن المراحل التي نحن بصددها .



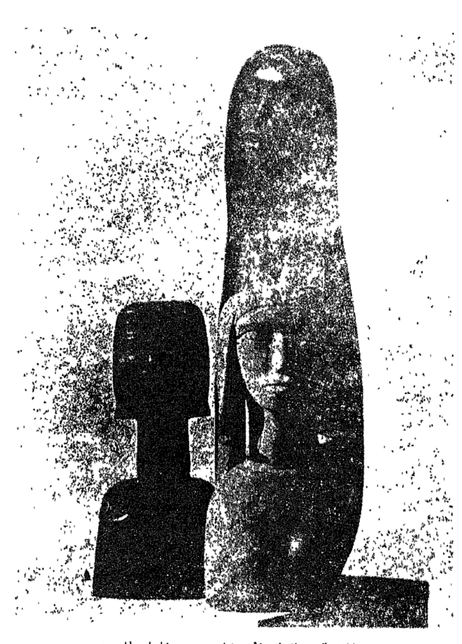
الزوجـان ــ جواد سليم



ثلاثة ديكة ــ شاكر حسن آل سعيد



نساء ـ اسماعيل الشيخلي



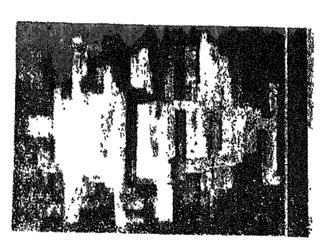
ثلاثـة تماثيل لأشخاص ـ خليل الورد



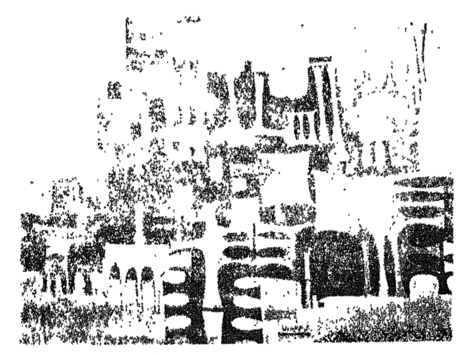
صورة امـــراة ـ نزيهة سليم



ثلاثة أشخاص – سعد الطائي



موضوع (زيت على قماش) — فرج عبو



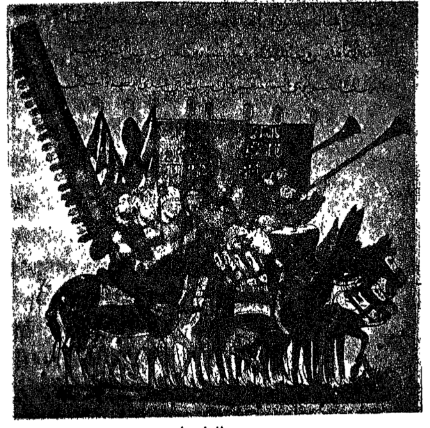
موضوع (زيت على قماش) - كاظم حيدر



سوق في بغداد ــ فاضل عباس



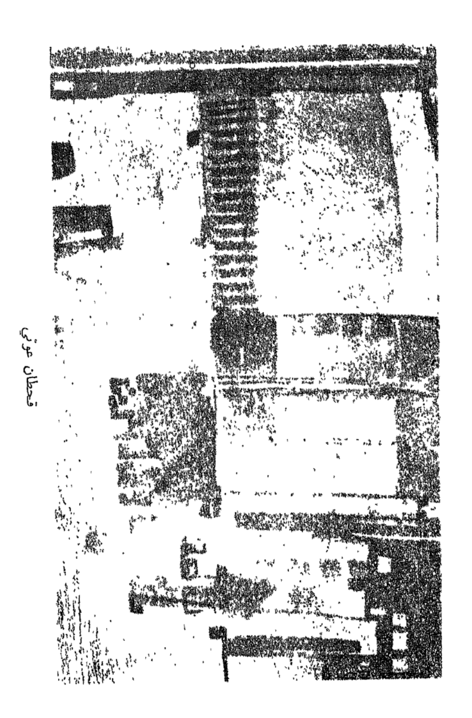
خالد الرحال



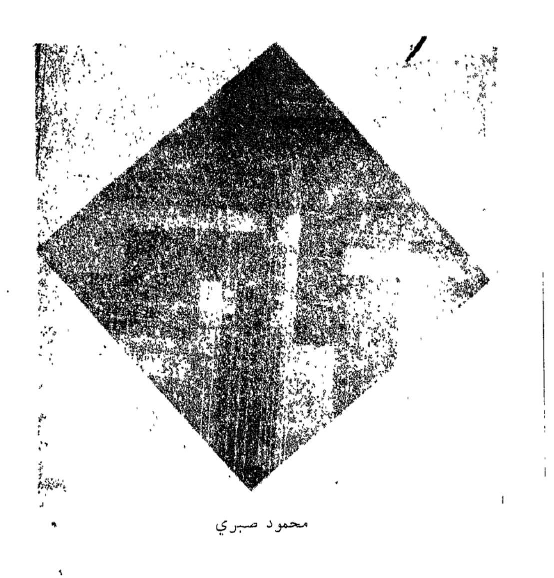
يحيى الواسطي



نســـاء ـــ رسول علوان



قحطان عوني



محمود صبري



نزيهـة سليم



خالد الرحال

المصادر والمراجع

١ ـ اكرم شكري ، ملف اصدقاء الفن (محضر الجلسة العاشرة) دائرة الفنون التشكيلية
٢ ـ الدجيلي ، كاظم : جريدة دجلة لسنة ١٩٢٢
٣ ـ الربيعي ، شوكت : جريدة الثورة ١٩٧٤
٤ ـ العبطة ، محمود : الفولكلور في بغداد ١٩٦٣
٥ ـ الجادر ، خالد (الدكتور) : مجلة علوم اللبنانية ١٩٧٣
٦ ـ الاسدي ، مشكور : جريدة الاخبار ١٩٥٣ جريدة الزمان ١٩٤٢
٧ ـ آل سعيد : شاكر حسن : فصـــول من تاريخ الحركة التشـــكيلية في العراق ١٩٨٤ والبيانات الفنية في العراق ١٩٧٣
٨ ـ الدوري ، عبدالعزيز (الدكتور) : مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي
٩ ـ المس بيل : العراق في رسائل المس بيل (ترجمة وتعليق جعفر خياط)
١٠ـ المفوضية العراقية في القاهرة (تقرير) ملف الحركة التشكيلية في العراق لسنة ١٩٥٨
١١ـ المفرجي ، أحمد فياض : جمعية التشكيليين العراقيين
١٢ـ بلند الحيدري : حديث شخصي ١٩٨٠
١٣ـ بهنسى ، عفيف (الدكتور) : الفن الحديث في البلاد العربية
١٤ـ جبرا ابراهيم جبرا : جواد سليم ونصب الحرية
١٥ـ جميل حمودي : مجلة الفكر الحديث ١٩٤٦
١٦ـ جريدة ابو حمد لسنة ١٩٣٤
١٧ـ جريدة حبزبوز : لسنة ١٩٣٤
١٨ـ حافظ الدروبي : تسجيل صوتي ١٩٧٦ ، دائرة الفنون التشكيلية
١٩ـ دليل متحف الرواد : (اعداد عباس جاور)
٢٠ـ زيد محمد صـالح « ملحق رقم (٦) » كتاب فصـول من تاريخ الحركـة التشكيلية في العراق لشاكر حسن آل سعيد
٢١ـ دليل المعرض الصناعي الزراعي : ١٩٣٢
٢٢ـ سعاد سليم (الحاج) : حديث شخصي ١٩٨٤
٢٣ـ عطا صبري : مجلة فنون (ع ١١) ١٩٧٩
٢٤ ـ فوزي : عبدالوهاب / جريدة الشعب ١٩٥٣
٢٥ـ عبدالكريم محمود : حديث في دار الحاج سعاد سليم ١٩٨٤
٢٦ـ مكتبة المخطوطات : (المتحف العراقي) المخطوطات والرسوم
٢٧ـ نزار سليم : حوار مسجل / ١٩٨٠
٢٨ـ نيوماير : ساره : قصة الفن الحديث (ترجمة رمسيس يونان)

البحث الخامس

الموسيقى والغناء

اسعد محمد علي

حسين قدوري

باحثان في دائرة الفنون الموسيقية ـ بغداد

مدخـــل

نشأت الانواع الموسيقية والالحان الغنائية في الاقطار العربية ضـــمن معطيات وامكانيات الظروف البيئية والاجتماعية وتأثرت بها مباشرة واثرت بما حولها من اصناف الفنون الاخرى •

لقد كانت الموسيقى في العراق ، وفي الاقطار العربية الاخرى وثيقة الصلة بالشعر بانواعه ••• فلم يظهر النغم الا مرافقا للمعنى الشعري ، ولم يجد الغناء له مكانا منذ العصر الجاهلي الا حيث برز الشعر الذي كان بحـــق ديوان العرب • لهذا غلب فن الغناء على غيره من فنون الموسيقى في الوطـــن العربي •• فكانت الاغاني اداة التعبير الموسيقية الاولى التي اضفت علـــى الشعر الملحن المزيد من عناصر الجذب والمتعة •

ولقد مرت الاغنية العربية بمراحل تاريخية كثيرة بدءا من الحداء في

العصر الجاهلي الى المقامات باعتبارها احدث الصيغ الغنائية التي ما تـزال تؤثر في وجدان الشعب وتجد لها صدى في النفوس رغم ما طرأ على وسائل العيش وطرق الاتصال في المدينة والممارسات الفنية من تطور دفع بالموسيقى والغناء نحو ميادين في غاية الجدة والاهمية • ففي المدينة تنشأ الاشكال والصيغ الفنية وتنشأ وتتطور الادوات الموسيقية ، والصـيغ اللحنية التي تستمر عبر الاجيال وتحافظ على عناصـرها الفنية الاولى رغـم المتغيرات فتسمى تلك الصيغ بالموسيقى « التقليديه » •

ومن ابرز هذه الصيغ في القطر العراقي هي المقامات العراقية في مجال الغناء ، والتقاسيم في مجال الموسيقى الالية ••

ولكلتا الصيغتين علاقات تعود جذورها الـى قـرون قليلة ماضـية وتشتركان في العديد من الخصائص اهمها اعتمادها على الارتجال في الاداء ، ومرونتهما في تقبل الاضافات والزخارف والايقاعات الانية أثناء الاداء ، وقدرتهما على الصـمود ازاء المتغيرات التي حدثت في الفنون الموسـيقية وغيرها • من هنا سميت بالصيغ « التقليدية » بعد ان استطاعت ان تثبت نوعا من تقليد بات مصدرا من مصادر الممارسة الحاية في مجـال اللحـن والموسيقى •

والفنون التقليدية تنشأ وتدوم عادةفي المدينة وتتصف بخصائص الفنون الاخرى ، فلا يمكن ممارسة هذه الفنون الا من خلال الدراسة والتلقين والمتابعة ، لهذا كان ثمة « طرائق » لاداء فن المقام العراقي ، واساليب لاداء فن التقاسيم ، وقد نشأت تلك الطرائق ورسخت بفعل عوامل الاتصال بين بلدان المنطقة ، وكان الدين اهم تلك العوامل التي أثرت في ظهور الالوان المقامية في العديد من البلدان الاسلامية كالعراق وايران وتركيا واذربيجان ، اضف الى ذلك عوامل الاتصال والسيطرة وما الى ذلك من عوامل ساعدت على تأثر الفنون ببعضها وهي ربما كانت سببا في اختفاء البعض الاخر من

الفنون ، ألا أن الفنون التي تظل تعايش عبر الازمان ، رغم المتغيرات ، هي الفنون الاكثر اصالة وتستحق ان تكون تراث الشعب • وقد كانت المقامات العراقية والتقاسيم من هذه الفنون التي ما تزال تؤثر في وجدان الشعب فهي تراثه الاصيل ومنبع النشوء الفني الاول في تاريخه الحديث ••

هذا ما يخص التراث النغمي في المدينة ، وثمة تراث نغمي آخر لا يقل غنى وخصوبة عن الاول ، هو التراث الشعبي أو الفولكلوري الذي ينشأ ويدوم في القرى والارياف والصحارى •

ولكل شعب موسيقاه واغانيه الفولكلورية التي تعبر عن طابعه الخاص وبيئته وتاريخه ، وقد ظلت هذ الموسيقى والاغاني ترافق الشعب من جيل الى آخر في مناسباته وافراحه وطقوسه • والموسيقى الفولكلورية في القطر العراقي ـ وهذا ينسحب على اغلب الاقطار العربية الاخرى ـ تتمثل في الاغاني والآلات الموسيقية والاوزان وما يخصها من تقاليد خاصة وعامة تكونت عبر الاجيال والعصور • ولما كانت جغرافية القطر العراقي ، شأنها شأن جغرافية العديد من الاقطار العربية ، تتكون من المدينة والقرية والريف والبادية ، لهذا نشأ للغناء الفولكلوري عندنا نوعان من الالحان : الريفية والبدوية • ولكلا النوعين عناصر جوهرية اثرت في عناصر النوع الاخر بحكم البيئة والمرحلة التاريخية التي ظهرت فيها •

ولا بد لنا هنا أن نذكر اهم الانواع الغنائية في الريف والبادية :

اولا ـ اغاني الريف :

الابوذية ، العتابة ، السويحلي ، النايل ، اغاني الاعراس والعمل والمناسبات الدنيوية والدينية والرقص وحركاته بأنواعه واوزانه وادواته ، ولعب واغاني الاطفال الشعبية •

ثانيا ــ اغاني البادية :

الحداء ، الگصيد ، الهجينة ، ولعب واغاني الاطفال الشعبية .

ولما كانت المدينة هي مصدر التغير والنطـور في حياة أي شعب ، فان موسيقى المدينة تكون هي المقصودة هنا لما لها من دور في عكس بعض ابعاد المتغيرات . وما الموسيقى الا انعكاس لواقع حي متواصل ، تتأثر وتؤثر في غيرهـا من الصيغ والاشكال ، وعلى هـذا كان تواصل التأثر والتأثير في المنطقةعاملاً فيظهور الصيغ المقاميةوالتقاسيموالبستاتالتياصبحتعبر الاجيال جزءا من التراث التقليدي النغمي ، ولقد انتشرت المقامات في القطر العراقي بدءا من مرحلة ظهورها وحتى وقتنا الحاضر . واصبحت مفرداتها والوانها الكثيرة تؤثر في مختلف طبقات المجتمع حتى باتت المقامات العراقية ذات قيمة اجتماعية بارزة في مجتمع المدينة . اضافة الى قيمتها الفنية العالية .

يشير الواقـع في المدينة ان الاغاني والموسيقى بدورها تنقسم الـى اتجاهين بارزين : الاتجـاه الديني والاتجاه الدنيوي . وكـلا الاتجاهـين يؤثر الواحد في الاخر ، خاصة الاتجاه الديني فهو اقدم الاتجاهين ، بفعل التراث والتقاليد وما تفرزه من تراتيل والحان تؤثر في الانسان خلال اقامة الطقوس الدينية ، فتنتقل بعض مفردات التراث الديني الى المجتمع وتنتشـر بين الناس وتؤثر في العاملين في نطاق موسيقى المدينة الذين يقتبسون من التراتيل والاوزان الدينية ما يخدم ممارستهم في مختلف ضروب النغـم . ولقد كان للتراتيل في الموالد النبوية والذكر الاسلامي وكذلك في المواكب الحسينية في عاشوراء الاثر الكبير في اغناء الممارسات الغنائية للعديد من الملحنين العراقيـين .

وعلى هذا كانت مظاهر العبادة من جهة ومجالس الادب والشعر من جهة ثانية مصدرا رئيسيا من مصادر نشوء وتطور الفنون وفي مقدمتها الاغاني لما لها من علاقة بالتراتيل التي كانت البداية الاولى لنشوء الاغنية في

البلاد الاسلامية، ولان الاغنية ارتبطت بالشعر عند العرب، فكان النشيد او الانشاد قرين الشعر منذ العصر الجاهلي وملازما له ، أو أن الشعر ذاته كان ينشد انشادا ، ثم تحول الانشاد الى ترتيل في العصر الاسلامي ثم اتسع عالم النغم فظهرت للاغنية منذ العصر الاموي اتجاهات جديدة متأثرة بفنون الشعوب المجاورة حتى اذا كان العصر العباسي احتل الغناء مرتبة كبيرة في قصور ومحافل بغداد فظهر رجال معروفون بالفن والعلم الفوا الكتب القيمة ووضعوا الالحان التي تناسب قيمة الشعر الذي اعتمدت الاغنية عليه بدءا من المغني (سائب خاثر) في العصر الاموي وحتى (ابراهيم الموصلي) و (اسحق الموصلي) في العصر العباسي و (زرياب) في الاندلس ، وحتى (صفي الدين الارموي) ابان سقوط بغداد .

ولما كان السعر اساس الاغنية منذ اقدم العصور ، فان الاوزان الشعرية كانت احدى وسائل التأثير في نوع أوزان الغناء، ولم يقتصر ارتباط الغناء بالشعر في استفادته من الأوزان انما الارتباط كان وسيلة تكثيف المعنى وايصال القصد عبر الايقاع والنغم والاداء والالة الموسيقية ، فصار لكل ذلك وقع مؤثر وجديد في نفس السامع ، فكان اغلب المغنين والملحنين ، شعراء وادباء يؤمون المجالس والقصور ويقدمون ما عندهم من أغان والحان الى جانب ما يقدمونه مـن قصائد .

واذا كانت الطقوس العديسة قد زال بعضها بفعل متغيرات الحياة ، فأن محافل الاذكار ومجالس الادب والاعيان من جهة ، وطقوس العبادة وحلقات الدرس من جهة ثانية ، استمرت تؤثر في المجتمع فساعدت على استمرار روح الموسيقى الى جانب روح الابداع الشعري والادبي لما كان لهما من دور في بث الحب الصوفي والنشوة الخالصـة في النفوس .. ولقد استمرت طقوس الادب والفن حتى مطلع القرن العشرين في العراق ، وفي البلدان المجاورة ، فكان ذاور اديب او منزل مدعاة فخر واعتزاز ومصدر متعـة

خالصة في حياة خلت انذاك من المتع والمسرات . وقد كان اعظم من ظهر في هذا الميدان في تاريخنا الحديث ، هو الملا عثمان الموصلي الذي برز نجمه اديباً موسيقيا شاعرا متصوفا وذلك في اواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين . لقد استطاع هذا المعلم الرائد ان ينشر فنون الغناء والموسيقى الالية (العزف) في ربوع العراق وربوع المنطقة خاصة تركيا التي تأثرت بالموشحات التي نقلها اليها الملا عثمان الموصلي حتى ان بعض الحانه ما تزال مسجلة في الاذاعة التركية حتى الوقت الحاضر ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فقد اثر الملا عثمان كثيرا في مسار الغناء العربي عبر سفراته الى الشام ومصر ، واثر توافد طلاب الفن عليه الذين نقلوا عنه اصول التلحين وبعض أعماله التي اثرت في رائد الغناء الحديث سيد درويش . وما زالت الحان الملا عثمان الموصلي تتداول في العراق والاقطار العربية الاخرى بعد ان حولت كلماتها الاصلية الى كلمات اخرى مع المحافظة على اللحن ، فباتت اعمال هذا الرائد اغاني شعبية يتغنى بها الناس ، ومن ابرز تلك الاغاني :

طلعت يا محله نورها، زوروني بالسنة مرة، وغيرهما وهما في الاصل من موشحات الملا عثمان الموصلي ..

لقد كان الملا عثمان الموصلي علما من الاعلام الكبيرة الخالدة في عالم الفن والادب والتصوف ، امتد تأثيره من التلحين في مجال الموشح والغناء الى تدريس الموسيقى في المدارس الحكومية التي نشأت في زمانه ، اضافة الى تعليمه عددا كبيرا من أوائل مقرئي المقام في العراق منهم : محمد علي خيوكه المتوفى عام ١٩٠٨ ، وحسين علي الصفوي المتوفى عام ١٩١١ ، وعبد الرزاق القبانجي المتوفى عام ١٩٣١ ، والحافظ ملا مهدي وغيرهم كثيرون .

ولقد اهتم الملا عثمان الموصلي بالموشحات رغم انه كان من مقرئي المقام المجيدين ، فقد نشأ هذا الاهتمام جراء سفرات الملا عثمان الى تركيا ومصر

والشام باعتبار ان الموشحات لون جديد في الغناء العربي ابتكره زرياب في الاندلس واستمر تأثيره فكان الملا عثمان احد رواده في العصر الحديث ساعد على انتشاره الى جانب المقامات ، وكلا النوعين من الغناء له خصائصه الايقاعية واللحنية وامكاناته الادائية المختلفة عن الاخرى ، لكن كلا النوعين يعتبر من اهم الانواع الغنائية التي ظهرت في المدينة وما تزال تؤثر في جوهر التراث الغنائي عند العرب .

قبل الملا عثمان كان في بغداد المغني شلتاغ وفي كركوك المغني الحاج عبدالله الكركوكلي المعروفان بمهارتهما بقراءة المقام العراقي في القرن التاسع عشر .

وقد درس الملا عثمان الموصلي هذا الفن الذي استمر تأثيره واضحا في القطر العراقي حتى يومنا هذا ، فظهر له رواد معاصرون حملوا اصوله ومفرداته من جيل الى آخر ، حتى كانت المقامات سمة التراث الديني في فن الغناء الى جانب الموشحات والانواع الغنائية الاخرى التي سنتطرق اليها خلال هذا المبحث .

الانواع الغنائية والموسيقية

قبل ان نواصل الموضوع نوضح ان الغناء هو السمة البارزة في الممارسات النغمية في القطر العراقي ، سواء في المدينة أو القرية أو البادية ، أما الموسيقى « البحتة » أي الالية فهي قلما ظهرت في اعمال ونتاجات الاوائل والمحدثين ، ذلك لان الغناء ارتبط ، كما قلنا ، في البدء ، بالشعر . ولما كان الشعر ديوان العرب وسمة بارزة في حياتنا عبر المراحل التاريخية، فقد اثر الشعر على الموسيقى التي اصبحت في العصور الاسلامية (الاموية والعباسية) وسيلة من وسائل ايصال وتجسيد الشعر ، فلم يكن للموسيقى الالية الا

دور حسيل في مسار النغم العربي ، ليس في العراق فحسب ، بل في بلدان المنطقة دون استثناء ...

ولما كانت المدينة مصدر الممارسات الغنائية ومنبعا رئيسيا لظهور الفعاليات الابداعية في حياة الانسان ، فيجدر ان نبدأ بالمدينة وآفاق العطاء الفني ومصادره الرئيسية التي اثرت في مسار الغناء والموسيقى عموما .

وفي المدينة تتنوع مصادر العطاء وتتطور بمرور الوقت ، غير ان ما ظل وفيا لجذوره الاولى هو المقام العراقي الذي حافظ على صيغته وطابعه رغم المتغيرات التي ظهرت في المدينة ورغم الواجهات الفنية والممارسات والامكانات التقنية المستحدثة التي اثرت في طبيعة النتاجات الفنية عموما .

فالمقامات ظلت تحافظ على ينابيعها الاولى رغم انها استفادت من التغيير والتطور في حدود معينة بما جعلها تتلاءم وآفاق الحياة الاجتماعية الجديدة دون ان تفقد اصالتها الاولى الرائدة . فثمة في المدينة ما يلي من انواع غنائيـة :

المقامات ، الموشحات ، المربع ، البستة ، المنولوج والاغاني القديمة الشائعة (الشعبية) ، ولعب واغاني الاطفال الشعبية والاغاني الحديثة التي ظهرت منذ الخمسينيات .

وثمة في المدينة ايضا وسائل انتاج الفنون ومصادر توصيلها والفرق والواجهات التي اثرت في مجمل النشاط الفني في المدينة ويمكن حصرها فيما يلي :

الجالغي ، الفرق العسكرية ، فرق الكشافة المدرسية والاناشيد ، معهد الفنون الجميلة ، المنتديات والمراقص ، مصلحو الالات الموسيقية ، الاذاعة العراقية ، الفونوغراف وشركات التسجيل ، الصحافة ودورها في الوعي الفنـي .

ولا شك ان المقام العراقي يتبوأ مكان الصدارة في مجمل التراث النغمي في العراق فيجدر البدء به ...

المقام العراقي

المقام صيغة من صيغ الغناء في القطر العراقي ، لها من الاصول الثابتة المتوارثة ما يؤهلها لان تدخل ضمن ما يسمى بالموسيقى (التقليدية) .. وقد عرف غناء المقام في مدن العراق الرئيسية : بغداد ، الموصل وكركوك . ومورس المقام في مدن اخرى مثل كربلاء والحلة لكن في حدود ضيقة وليس في مثل الافاق الواسعة التي عرف بها المقام في بغداد التي كانت مصدر نشأته وغناه وتطوره عبر الاجيال ..

ورغم ثبات جذور واصول المقام فان اداءه اختلف من مدينة الى اخرى ومن مؤد الى آخر وحتى من طقس الى آخر ..

ان كلمة « المقام » عرفت في العراق في أوائل القرن الثامن الهجري حيث وردت الكلمة في المخطوطات الموسيقية العربية ولم تظهر كلمة «المقام» قبل ذلك التاريخ حسبما يبدو ، وعدم توفر المصادر يؤكد ذلك . أما المخطوطات المتوفرة فبعضها يشير الى وجود خصائص في اساليب الغناء البغدادي الراهن انحدرت من الصيغ المقامية الاولى ، التي قد يعود تاريخ نشوئها الى العصر العباسي ، أما كون المقام منسوبا للعراق « المقام العراقي » دون الاقطار العربية الاخرى فمرده الى كون المقام قد انتشر في العراق كلون غنائي بارز دون غيره من الاقطار العربية الاخرى ، لهذا ارتأى حكام العراق الاتراك ان يسموه بالمقام العراقي . علما بأن بعض المقامات كانت ابان السيطرة العثمانية تغنى باللغة التركية كمقام التفليس ومقام البشيري ومقام الباجلان الى جانب مقامات اخرى كانت تغنى باللغة الفارسية مثل مقام البيات ومقام الرست وكذلك مقام السيگاه ومقام العريبون ..

لقد تأثر المقام ، شأنه شأن الفنون الاخرى بخصائص الاقوام الاخرى التي اتصلت بالشعب العراقي عبر التاريخ ، وكان تبلور الصيغ المقامية احد النتائج التاريخية التي ظهرت في العراق خلال الفترة التي تفصل بين جيلنا وبين العصر العباسي. وما ظاهرة التأثير والتأثر بين الانجازات الفنية والثقافية الا مرحلة من مراحل التاريخ لها خصوصيتها وابعادها التي تفرز ، فيما بعـد ، نتائج في غاية الضرورة عبر مفهوم الاخذ والعطاء في حياة الانسان ، ذلك المفهوم الذي يمهد ـ وها هو يمهد الآن ـ الى فهم آفاق المرحلية والتطور التي رافقت مسار الفن في العراق ، مما يساعد على تحقيق دراسات وبحوث ترفد الحاضر والمستقبل بمصادر جديـة ، عبر معرفة الجذور والفـروع والتطورات التي سيكون لها شأن في تحديد وتجسيد الهوية الموسيقية ودور الممارسات الفنية كافة عبر التطور العـام ..

ولقد كان هذا شأن المقام العراقي ، فهو ما زال يتمتع بتأثيره الواسع في الحياة الموسيقية ويعكس الطابع الخاص للغناء التراثي في العراق، هذا رغم ما يثار بين حين وآخر من آراء خاطئة تنسب المقام الى اقوام اخرى بحجـة احتوائه على مفردات اعجمية او احتوائه على « وصلات » نغمية موجودة لـدى الشـعوب الاخرى المحيطة بالعـراق والتي كان لهـا اتصال مباشر بالعـراق . والحقيقة تقال ان ظهور بعض الكلمات التركيـة والفارسية في قسم من المقامات كان دافعه الحاجة الى كلمات معينة تتلاءم ومسار النغمة المقامية والقفلة الموسيقية من جهة ، وضرورتها ، من جهة ثانية ، في التأثير على مسامع الحكام الاتراك الذين اعجبوا بهذا الفن ، فاحتوت بدايات بعض المقامات كالرست على كلمات تركية مثل « نيار » أي « حبيب » لتحقيـق التأثير المطلوب لاغـير .

فالمقام فن من فنون المدينة العراقية ، نشأ أو هو ترعرع وتطور في ظل ظروف نشوء الفنون في بدايات مراحلها نزولا عند حاجة المجتمع وتجاوبه مع الفنون التي تظهر تباعا على مدى الاجيال ، تلك الفنون التي تصـبح

بالتدريج علامة من علامات المجتمع المتميزة تسمها بطابعها الخاص الذي يعكس لون وماهية ذلك المجتمع ، وقد حصل ذلك بالنسبة الى المقام العراقي باعتاره تراثا يعكس ماهية وطابع الحس الاجتماعي في العراق ...

والمقام في تفسيره الفني هو : صيغة ارتجالية متميزة في المسار النغمي في العراق ، يعتمد في شكله عموما على عاملين اساسيين هما :

الحيز (النغم) والزمن (الايقاع) الداخلي للمسار المقامي . وكما يؤثـر الوزن في بنية المقام وتنظيمه العام فان الحيز النغمي يكون له التأثير الاعظم في ظاهرة المسار اللحني للمقام على ان العامل الزمني « الايقاع » يكون ذا مرونة خاصة تضفي الطواعية واللاتحديد على ماهية المقام من الداخل . على هذا يمكن تحديد مفهوم المقام فنيا على انه الصيغ اللحنية التي لا تنتظم عبر قوانين شكلية ايقاعية ثابتة بقدر انتظامها عبر مسار الاداء الآني المعتمد اصولا نغمية لا يحيد عنها أي مقرىء ، لكنه بالتأكيد يحاول اضفاء شخصيته واسلوبه الخاص على تلك الاصول وصولا الـى تمايـز في العرض والاداء اللذين يختص بهما مقرىء هذا المقام أو ذاك في محاولة منه لاضفاء عنصـر التنويع الادائي على المقام وهو مايتصف به هذا الجنس التراثي في الغنـاء العراقـي ...

الجالغي البغدادي

« الجالغي » كلمـة تركية تعنـي جماعة الملهـى أو الطرب أو طاقـم الموسيقى ، ويبدو ان لفظة جالغي في نظر البغداديين كانت ذات مفهومين :

المفهوم الاول

وهو حفلة غنائية تقام في الاماسي وخلال مناسبات الافراح والاعراس والختان وغيرها . وغالبا ما تدار كؤوس الخمرة في تلك المناسبات ، وقـد اعتاد اصحاب تلك المناسبات دعوة مقرئي المقـام العراقي وتخصيص مكـان

خاص بهم وجماعتهم اعضاء الجالغي من الذين يبثون المتعة والراحة في نفوس المدعوين ومحبي هذا اللون من الغناء الذي رافقته فرقـة الجالغي ليلا في المقاهي القديمة ، حيث كانت العادة ان يخصص صاحب المقهى « تختـين » (والتخت في اللغة التركية تعني قطعة خشب تعلو قليلا عن الارض) ويرصف فوق التختين كراسي فيكون اشبه بمسرح بسيط يجلس عليه مقرىء المقـام وعازفو الجالغي لاداء ما عندهم مـن مقامات وبستات ووصلات غنائيـة . والمعروف ان طقوس الجالغي في المقاهي كانت تتم بعيدا عن الخمرة ، فرواد تلك المقاهي كانوا ممن يحضرون لسماع المقام وطلبا للراحة والمتعة الخالصة. فكانت المقاهي بديلا لقاعات اليوم ، وكان التخت بديلا للمسرح ، وكان للمقام وقع خاص واثر في نفوس العراقيين ، وكان لقراء المقام محبوهم ممن يتابعون نشاطهم الغنائي ، فكان ابرز من ظهر من قراء المقام حتى أواخر الثلاثينيات من هذا القرن هم القراء الذين سنذكر اسماءهم في القسم الخاص بمدارس المقـام .

غير ان متغيرات الحياة وبوادر التطور التي بدأت تتحقق في العراق منذ الاربعينيات ، وظهور الوان غنائية ووسائل لهو « جديدة » قـد ادى بالتدريج الى توزع اهتمامات العراقيين « والمغنين انفسهم » بفنون الغناء والموسيقى مما ادى الى تقلص حجم المناسبات والاماكن التي كانت تؤدى فيها المقامات ، حتى اقتصرت المناسبات على ايام شهر رمضان المبارك فكان مقهى الشابندر « مقابل مدخل سوق السراي من جهة المحاكم » آخر مقهى شهد طقوس المقام فكان المرحوم رشـيد القندرجي آخـر المقرئين في هذا المجـال ..

المفهوم الثاني

الجالغي البغدادي هو الفرقة الموسيقية الصغيرة التي كانت وما تزال ترافق قراء المقام في مناسبات معينة . وهذه الفرقة تتألف من عازفي الالات الموسـيقية التاليـة :

السنطور والجوزة (وتسمى الكمنجة احيانا) والطبلة والرق (الدف الزنجاري) والنقارة . ويفترض بعازفي الجالغي ان يلموا بطريقة اداء الاتهم ويعرفوا تقنيتها الخاصة في حدود الاداء الملائم لابعاد المقام والبستات والمقطوعات البسيطة التي كانت تؤدى كوصلات خلال طقوس المقاهي والمجالس . وكان يشترط بعازفي الالات الجالغي ان يكونوا ممن يتمتعون بجمال الصوت لان مهمتهم كانت تتعدى العزف الى ترديد البستات التي كانت تغنى في ختام المقامات .

ولقد اشتهر عدد كبير من عازفي الالات في فرق الجالغي وذلك بين ١٩٢٠ م ـ ١٩٥١ م ، وكان اغلب هؤلاء العازفين من اليهود ، غير ان الشيخ جلال الحنفي ذكر في كتابه (المغنون البغداديون والمقام العراقي) ما نصه :

« مما لاحظته ايضا من امر المواسقة والالاتية في بغداد الذين عرفوا واشتهروا بالعزف على الجالغي البغدادي في القرن الماضي انهم كانوا من المسلمين جميعا ثم تراجعوا عن ذلك الى اليهود » .

فان حوگي پتو المولود في بغداد ١٨٤٨ م اخذ صناعة العزف على السنطور من محمد صالح السنطورجي وكذلك اخذ عنه حسقيل بن شمولي. وكان ناحوم بن يونه وهو من مشاهير العازفين على الكمان (الجوزة) قد اخذ صناعته من نسيم بن كحيلة وهذا اخذها من لطفي بن رزيج وهذا تلقاها من بكرة الكردي ... » .

والتاريخ يعيد نفسه مرة اخرى ، حيث اصبحت مهنة العزف على الات فرقة الجالغي البغدادي ما بعد عام ١٩٥١ بيد المسلمين حيث برز منهم العديد ممن اصبحت آلاتهم الموسيقية تقترن باسمائهم ومنهم شعوبي ابراهيم عازف

الجوزة والحاج هاشم الرجب عازف السنطور وحمودي الوردي عازف السنطور أما المرحوم حسين عبد الله ، عازف الايقاع فقد كان رائدا في العزف على هذه الالة منذ العشرينيات من هذا القرن حتى وفاته عام ١٩٨٢ .

وقد تتلمذ على ايدي هؤلاء فيما بعد العديد من الطلاب المبدعين .

هذه هي صيغ الجالغي البغدادي والالات الموسيقية الاساسية التي ترافق قراء المقام العراقي . وليس هناك مصادر خاصة ببدايات نشوء الجالغي البغدادي .

بعد افتتاح معهد الموسيقى الرسمي التابع لوزارة المعارف في تشرين الاول ١٩٣٦ (الذي اصبح فيما بعد معهد الفنون الجميلة) ادخلت العديد من الالات الموسيقية العربية وغير العربية في منهاج التدريس وكان منها العود والناي والقانون والكمان والجلو وغيرها .

وبعد افتتاح دار الاذاعة اللاسلكية واذاعة قصر الزهور عام ١٩٣٦م، امبحت الفرصة لظهور طلاب معهد الفنون الجميلة حيث مارسوا نشاطهم الموسيقي عبر الاذاعتين . وتدريجيا بدأت صيغة فرقة الجالغي البغدادي تتحول الى تشكيل آخر ضم الات موسيقية جديدة الى جانب الالات التي كانت مستعملة من قبل ومن الالات الجديدة ، العود والناي والقانون والكمان والجلو ...

وفي اعتقادنا كان الاستاذ محمد القبانجي هو الرائد في فكرة الدمج بين هذه الالات وآلات الجالغي البغدادي ، (علما بانه اصطحب عازف عود مع فرقة الجالغي عندما حضر مؤتمر الموسيقى العربية في القاهرة عام ١٩٣٢) .. وبالفعل اصبحت كل نتاجاته الغنائية فيما بعد تعتمد هذه الصيغة الالية الجديدة ، وقد تبعه في ذلك كل قراء المقام العراقي الذين جاءوا من بعده منذ نهاية الاربعينيات وحتى الان .

وقد كان الدافع لتوسيع حجم الجالغي وتحويله الى فرقة موسيقية هو الحاجة الجديدة الى تضخيم الصوت الالي وايصاله الى الجمهور الذي اصبح يرتاد حفلات الغناء المقامي (والغناء المؤلف فيما بعد) في قاعة كبيرة تتطلب ذلك التوسيع ، بعد ان كان المقام مقتصرا ـ مكانيا ـ على المقاهي والمجالس الخاصة . وقد حدث التغير المذكور تدريجيا ونتيجة الاستجابة لمستجدات العصر دون ان يؤثر ، في رأينا ، على طابع المقام ما دام المقام فنا تقليديا ذا اصول وطرائق غناءرئيسية معلومة تنتقل عبر الاجيال من خلال الدرس والتلقين والمتابعة .

مدارس المقام العراقي

عند التطرق الى اساليب او مدارس قراء المقام العراقي ، لابد من الرجوع الى ما قبل عام ١٩٢١ ، أي الى أواخر القرن التاسع عشر على اقل تقدير ، حيث تعددت المدارس الغنائية لقراءة المقام العراقي ، فكان لكل مرحلة اساتذة متميزون في طرق ادائهم الفنية . علما بان قارىء المقام كان لابد له ان يتلقي عند نشأته انماطا غنائية في هذا الباب من اكثر من مدرسة حتى يكون لنفسه اسلوبا خاصابه ، رغم ان هذه الحالة لا تنسحب على الجميع لانها تختلف باختلاف القدرات الابداعية لقارىء المقام نفسه .

وقد نشأت لهجات في المقام العراقي انتمت في مجموعها الى اكثر من مدرسة ، ولكن القلة من هذه المدارس تميزت واستمرت عبر الاجيال .

ومن ابرز هذه المدارس (أو الطرق حسبما متعارف عليه بين قراء المقام العراقي) كانت طريقة رحمة الله شلتاغ (١٧٩٣ ـ ١٨٧١ م) الذي يعود اليه الكثير من المحسنات النغمية في الغناء ، واليه تنسب طائفة من الاساليب والاصول المبتكرة في قراءة المقام . كما انه هو الذي ابتكر مقام التفليس الذي استنبطه من مقام السيگاه .

ومن ابرز الطرق التي اثرت في العديد من كبار قراء المقام العراقي ، كانت طريقة الحاج حميد النيار (١٨١٣ م – ١٨٨١ م) ثم طريقة حمد بن جاسم (ابو حميد) (١٨١٧ م – ١٨٨٠ م) ٠

وفي بداية القرن العشرين ، ظهرت مدارس عديدة ولكن كان من ابرزها تلك التي اثرت في مسيرة المقام العراقي وهي طريقة خليل رباز (١٨٢٤ م – ١٩٠٤) ثم طريقة احمد زيدان (١٨٣٢ م – ١٩١٢ م) ٠

ثم ظهرت فيما بعد طريقة قدوري العيشة (١٨٦١ – ١٩٢٦ م) والتي كان محمد القبانجي في بدايته العامل الاول على نقلها واشاعتها ٠

ثم ظهرت طريقة رشيد القندرجي (١٨٨٦ م – ١٩٤٥ م) وبعد ذلك بـرزت طريقة محمد القبانجي (١٩٠١ – ٠٠٠) بعـد ان اصبح لـه اسلوبه المميز من خلال استفادته من طريقة قدوري العيشه وطرق اخرى ٠٠٠

لقد لاحظنـا بعـد دراسـة هـذا الجانـب ، ونعنـي المـدارس المتميزة لقراءة المقام العراقي ، انه لم تظهر اية مدرسة اخرى بعد مدرسـة محمد القبانجي ٠ وكان كل من جاء بعده اما مقلدا لاسلوبه أو مقلدا لاحد الاسـاليب القديمة ٠

ويمكن حصر ما حققه القبانجي في هذا المجال في امرين :

الاول : توسيع حجم التخت البغدادي والجالغي وجعله فرقة موسيقية تحوي آلات متنوعة اضافة الى الات الجالغي منها العود والقانون والناي والكمان والجلـو ٠

الثاني : نقل طقوس اداء المقام من المقاهي والمجالس الخاصة الى قاعـات كبيرة بدأ يؤمها رواد ومحبو المقام والموسيقى وذلـك منذ نهايـة الاربعينيات ٠

اضافة الى مساهماته الفعالة في احياء حفلات المقام العراقي في الاذاعة العراقية منذ تأسيسها •

اما الجانب الفني لممارسة القبانجي المقام فقد كان له الدور الاول في ادخال بعض نغمات الحجاز والبيات في مقام الاورفه ، مع احتفاظه بالطابع البغدادي في الاداء والتزامه بقواعد اللفظ والتعبير الـى جانب قدرتـه في التصرف ببعض المقامات بشكل لم يكن مقبولا لدى البغداديين في اربعينيات هـذا القـرن •

مجالس المقام العراقي

يعتقد عامة الناس بان المقام العراقي كان يمارس قديما ضمن الاطر التي تمارس ضمنها اليوم • ولو رجعنا تاريخيا الى الصيغ التي كان المقام يمارس عبرها لوجدناها عديدة وقد ظلت هذه الصيغ فاعلة حتى وقت متأخر من تاريخنا المعاصـــر •

ويهمنا هنا ان المقام كان يقرأ بين ١٩٢٠ ـــ ١٩٥٨ م ضمن الاطر التالية :

اولا ـــ المقامات العراقية والمولد النبوي

ان لقراءة الموالد النبوية اصولا نغمية وفصولا خاصة لابد من التزامها الاصل النغمي بالاضافة الى « اشغال » المولود وهي اناشيد تنظم وتلحن مثل البستات التي تأتي عادة بعد قراءة المقام •

ان المولود النبوي يتألف، من اربعة فصول ، وكل فصل يحتوي علـى جملة من المقامات تقرأ بطريقة خاصة تختلف عن طريقة الجالغي البغدادي ، حيث لا تستعمل في المولود الات الجالغي البغدادي بل تستعمل في بعض الاحيان الدفوف الكبيرة وهذا كان متبعاً في فرقة الملا عثمان الموصلي ••

كان المولد النبوي يؤدى من قبل قـارىء معين يمتاز بحسـن الاداء

والصوت ومعرفة تامة بكافة المقامات العراقية ترافقه جماعته التي تسمى الشغالة .

اما فصول المولد النبوي فهي اربعة :

الفصل الاول ومقاماته سبعة هي : العشيران والاورفه والعجم أو النهاوند والحجاز كاركرد والجبوري والحديدي والمثنوي والسفيان .

الفصل الثاني ومقاماته اربعة هي : السيگاه والرست والبيات والعراق .

الفصل الثالث ومقاماته ثلاثة هي الصبا والماهور والعشيران عجم .

الفصل الرابع ومقاماته ثلاثة هي : الصبا والجمال والمخالف .

وقاريء المولد النبوي يمتاز بحسن الاداء وجمال الصوت ، ومعروف انه كان يجلس في صدر المكان على كرسي دون بقية جماعته .

يبدأ القاريء بتلاوة المنقبة النبوية مقسمة على فصول . وبين حين وآخر يترك الامر الى جماعته (الشغالة) حيث يرددون اشغالهم المولدية التي هي بمثابة اناشيد ملحنة على مقتضى النسق النغمي المقرر لفصول المولد .

وقد اشتهر العديد من جماعات قراء المولد النبوي منهم :

الملا عثمان الموصلي والملا مهدي الحافظ والملا خماس والملا عبدالستار البدري والسيد عبدالمنعم والملا بدر ابو السعد والملا طه الشيخلي والحاج محيي الشيخلي .

وكثيرا ما كان محمد القبانجي يشترك في المولد النبوي حيث يقرأ شيئا من المقام العراقي .

وكانت الابوذية تقرأ في المولد النبوي ايضا ومن اشهر قرائها نوري عبد الله النجار وعبد الفتاح معروف .

ثانيا ـ المقامات العراقية في الأذكار وهي اربعة :

الذكر المصـري
الذكر الرفاعـي
الذكر القـادري
الذكر البغـدادي

وفي كل منها مادة واسـعة من المقام العراقي .

ففي حلقات الذكر كان للمقام مكان بارز فالحلقات تتألف من فصول يختص كل فصل منها بعدد من المقامات العراقية .

ومثل ذلك يقال في التهليلات حيث ان قارئيها يعتمدون في ادائها على اصول وفصول المقام العراقي .

ثالثا ـ المقامات العراقية الخاصة بالتمجيد على المنابر .

كان للنغمة مكانها البارز في مساجد المسلمين حيث كان على الخطباء ان يتلوا خطبهم المنبرية على مختلف المقامات . وكـان الناس في حينه لايدخلون مسجدا ولا يستضيفون خطيبا ما لم يكن ذا صوت جميل وعارفا باسلوب الخطابة والتمجيد .

يبدأ الممجد بقراءة الفاتحة اولا . ثم يتناول الفاظا مخصصة للتسبيح والتمجيد يؤديها على مقام السيگاه أو الحجاز ديوان . وبعد الانتهـاء من التسبيحات يأخذ بقراءة شيء من الشعر بما فيه الغزل والمديح والتصوف والرجاء وغير ذلك فكان ينشد ذلك على مختلف المقامات العربيـة كالاوج والمخالف وغيرهـا ..

وفي تمجيد ليلـة العيد المبارك يختصـون بمقام الجهاركاه لتأديـة التمجيـدة .

ومما تجدر الاشارة اليه ان المساجد كان لها فضل كبير على العديد من قراء المقام العراقي الذين كانوا يصعدون المآذن ليرفعوا صوتهم عاليا مؤدين المقامات كل حسب قدرته وكان في ذلك فائدتان لهم :

الاولى : انهم اكتسبوا الخبرة وطوروا امكاناتهم الادائية •

والثانية : ان الناس تعرفوا عليهم فأصبحوا من ذوي الشهرة •

أما تلاوة القرآن الكريم فتتطلب مجموعة من الانغام ليس شرطا ان تكون ذات المجموعة النغمية والمسارات اللحنية التي يلتزم بها مقريء المقام •

المقام والزورخانه

لقد تعددت مجالس واماكن قراءة المقام ، لان المقام كان الفن الرئيسي الذي استحوذ على اعجاب العراقيين فلم تقتصر ممارسته في المقاهي والمجالس والموالد النبوية والاذكار ، بل اصبح المقام المادة الغنائية الاولى التي استطاعت ان تبعث الحماس في رواد الزورخانة « الذين كانوا يمارسون ضروب الالعاب والرياضة ضمن جو احتفالي رفيع » •

والزورخانه كلمة تركية ــ فارسية وتعني مكان القوة ، والزورخانات اماكن قديمة نشأت فيها اولى أنواع الرياضة والمصارعة ، فكانت بمثابة اندية العصور الماضية تعرض فيها قوى المتصارعين والمتبارين تحت اشراف شخص يسمى (المرشد) يضبط حركات المصارعين على ايقاع خاص بهم تؤديه آلة الطبلة التي يحملها في يده ويغني في الوقت نفسه لهم ما يلائم المصارعة واللعب من انغام تبث النشاط في نفوس المتبارين • وكان في بعض الاحيان يرافق المغني عازف خاص على الطبلة • وكان يتضمن الغناء قراءة بعض المقامات التي تعبر عن الحماس والاعجاب • وعليه كان من ابرز ما يغنيه المرشد في الزورخانه هو مقام البنجكاه ومقام الدشتي ••

مما تقدم يتضح ان المقامات كانت الصيغ الغنائيـــة الاكثر انتشارا في العراق حتى اربعينات هذا القرن حيث بدأت تظهر الوان غنائية جديـــدة وانشطة موسيقية مستحدثة فرافق ظهورها بداية التحـــولات الاجتماعيـــة والسياسية الحديثة التي طرأت في العراق • وتجدر الاشارة الى ان أهـــم صيغة غنائية رافقت المقام العراقي عبر مراحله كانت الموشح•ويعود الاهتمام بالموشح الى عهد الملا عثمان الموصلي الذي اعتبر ظهوره بمثابة انعاش لهذا الفن الذي نشأ على يد زرياب في الاندلس • وقد انتشرت الموشحات أيام الملا عثمان واثرت في الاجيال الموسيقية حتى اربعينيات القرن العشرين حيث اقتصر أداء الموشحات في دور الاذاعة والفرق الموسيقية المشكلة خصيصا للموسيقى العربية الجدية سواء في مصر أوسوريا أو العراق وكذلك تواصل اداء الموشحات في بعض المعاهد الموسيقية في سوريا ومصر والعراق والمغرب العربي وكان من ابرز المعلمين في هذا الفن المرحوم الشيخ علي الدرويش ، وتلميذه الاستاذ روحي الخماش الذي مازال يعتبر علما في هذا المجال ••

وكان للشيخ علي الدرويش الريادة في تأسيس اول فرقة موشحات في الاذاعة العراقية تضم مجموعة من المغنين والعازفين المعروفين وذلك في سنة ١٩٤٧ • واستمر نشاط هذه الفرقة حتى سفر الشيخ علي الدرويش الـــى بلده سورية عام ١٩٥١ فتسلم ادارة الفرقة الاستاذ روحي الخماش ، ألا ان الفرقة توقفت اكثر من مرة ، حتى كان عام ١٩٧٠ حيث اعـــاد الاستاذ روحي الخماش تشكيل الفرقةمن عناصر فنية شابة جديدة ••

تعتبر المقامات العراقية والبستات من جهة والموشحات من جهه ثانية أحد مصادر الفن الغنائي التراثي المديني الذي اتسم بالكثير من الخصائص الفنية الرفيعة • وظلت مؤثرة في المجتمع العراقي من جهة وفي الممارسات الغنائية المستجدة من جهة اخرى • فالمقامات والموشحات ، عنصران رئيسيان من عناصر الانجاز الفني الكلاسيكي في تاريخنا الحديث ، ومن الاشكال

والصيغ والممارسات الحديثة الغنائية والموسيقية التي ظهرت في المدينة أواخر الثلاثينيات والتي سنتحدث عنها الا جزء من استجابة المجتمع العراقي الى ممارسة الجديد النافع والنهل من خلاصة الانجازات التي تحققت في عالم الفن والغناء ، فكان ظهور المنتديات والمعهد الموسيقي والاذاعة العراقية والفرق الحديثة فيما بعد ، عاملا من عوامل نهضته استطاعت ان تقدم الكثير من الاعمال والممارسات الموسيقية خلال الاربعين عاما الماضية .

ويمكن هنا ايضاح المؤثرات الفنية والعلمية والنشاطات الموسيقية التي اسهمت في انعاش آفاق الفنون الموسيقية في المدينة حتى نهاية الخمسينيات من هذا القرن .

فرق الجوق العسكري

كان لظهور فرق الجوق العسكري من جهة ؛ وظهور فرق الكشافة وفرق الاناشيد المدرسية من جهة ثانية اثر كبير في بروز آلات موسيقية واناشيد غنائية راحت تبث في النفوس الحانا اداها العازفون على آلات موسيقية تظهر لاول مرة في العراق كالالات الهوائية : المزمار والنفير واليراع اضافة الى الالات الايقاعية كالطبل والصنج ؛ وكان اول جوق في العراق قد تشكل عام ١٩٢٢ في مدينة الموصل وكان المرحوم حنا بطرس قد ساهم في تشكيل ذلك الجوق الذي كان اعضاؤه من بقايا الجيش العثماني. فكان ذلك بمثابة اول فرقة موسيقية تضم آلات موسيقية تستعمل في احدث الفرق العسكرية في الوقت الحاضر . بعد ذلك ظهر جوق عسكري في بغداد ابان تأسيس الحكم الوطني ، ثم تعددت الاجواق وتوسع كادرها فباتت تضم الالات الموسيقية الهوائية بنوعيها : الخشبية وهي الفلوت والكلارنيت والاوبوا والبسون ، والنحاسية وهي : الترومبيت والهورن والترومبون والتيوبا الى جانب الالات الايقاعية كالطبول بانواعها والصناجات .

ومجرد ظهور شخص امام الجوق ليقوده ويشير للعازفين بعلامات التوقيع والاداء كان يعتبر ظاهرة جديدة في الموسيقى • وكان من مهمة الجوق العسكري عزف الاناشيد الوطنية لمختلف الدول وعزف المارشات خلال الاشتراك في المناسبات السياسية والاحتفالات التي كانت تتيح مجال تعرف الناس على هذه التشكيلة الجديدة من عازفي الجوق •

وقبل الاجواق العسكرية ، ظهرت فرق الكشافة عام (١٩١٨) استخدمت فيها الالات القارعة كالطبول والصنوج لبث الحماس في نفوس التلاميذ خلال المسيرات والاحتفالات ••

لقد مر المجتمع العراقي في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن بتحولات اجتماعية وسياسية كبيرة ، رافقها ظهور ممارسات حياتية وفنية ومنظمات ودور ومنتديات مورست فيها فنون لاول مرة ، كما استحدثت مدارس ومعاهد اسهمت في توسيع ذلك المنظور وترسيخ الممارسات الفنية والاعمال الموسيقية الجديدة التي ظهرت آنذاك •••

ففي الوقت الذي اتاحت الاجواق العسكرية وفرق الكشافة الفرصة أمام الشعب العراقي أو قطاعات معينة منه للاطلاع على الالات والادوات الموسيقية وطرق عزفها والمؤلفات الموسيقية التي كانت جديدة على اسماع الناس • وكان لظهور المنتديات والفرق الموسيقية الاهلية من جهة ، وظهور المعهد الموسيقي وافتتاح دار الاذاعة اللاسلكية من جهة اخرى ، أثر كبير في انتشار الاغاني وايصال الموسيقى الى قطاعات الشعب في المدينة بعد ان كانت محصورة في المجالس والمقاهي وبيوت النخبة من الوجهاء والمتنفذين •

على هذا يصح القول ان تلك الواجهات والمؤسسات والكيانات الفنية الموسيقية والتربوية اثرت كثيرا في تحقيق تطور نسبي في فنون الموسيقى وممارساتها المتنوعة وادواتها وطرق ايصالها وادائها ويمكن هنا توضيح ابعاد

النوعية التي حصلت آنذاك والتي كانت ضرورة كبيرة ادت فيما بعد الى نهضـــة فنية شـــاملة .

ولكي نكون دقيقين في تشخيصنا لاهمية الممارسات والاعمال والمعاهد والمنتديات التي ظهرت تباعا منذ مطلع هذا القرن ، لابد من القاء الضوء على الجانب العلمي من تلك الممارســـات وتوضيح الابعاد الفنية والمجـالات الموسيقية والالات والاعمال التي قدمت ، بادئين بالملاهي باعتبارها اقدم الواجهات التي اثرت في الحركة الموسيقية الحديثة في العراق .

المنتديات

وفيها ظهرت الفرق الموسيقية الحديثة الى جانب الوان الفن المحلي : فظهرت اسماء مغنيات عراقيات لاول مرة فتتعرف عليها رواد الملاهي ، ثـم كان لدار الاذاعة الاثر الاكبر في انتشار وشيوع اسماء المغنيات والمغنين . غير ان الملاهي كانت المصدر الاول منذ ١٩٠٠ لظهور المغنيات وظهور نوع جديد من ممارسات موسيقية آلية لم تكن معروفة من قبل . اضافة الى ان الملاهي كانت وسيلة مهمة من وســائل المنافسة بين المغنيات وبـين الفرق الموسيقية فساعد ذلك على تطوير القابليات الفنية وتحسين اوضاع الفـرق الموسيقية . ولعل الملاهي آنذاك كانت قريبة الشبه بمسارح اليوم . وكان اول مسرح صيفي في بغداد هو المسرح الذي شيد على سطح مقهى (سبع) في الميدان فاستقبل عددا من المغنيات والراقصات اللواتي قدمن من بعض الاقطـار العربيـة .

في عام ١٩١٣ ارتأت بلدية بغداد تشييد مسرح للرقص والغناء في مكان قريب من محطة سكة كركوك القديمة ، فغنى فيه عدد من المغنيات امثال بديعة لاطي وخانم لاطي . واستمر العمل فيه بضعة شهور ثم توقف حين نشبت الحرب العالمية الاولى .

في بداية احتلال بغداد انشيء ملهى « ماجستك » الذي سمي فيما بعد بالهلال وكان في الميدان ، ثم أنشيء ملهى آخر في سوق الشورجة •

وبعد اعلان الدستور العثماني وصل الى بغداد عدد كبير من المغنيات والراقصات وتم تشييد عدد من الملاهي الاخرى مثل الملهى الذي اقامه عبدالجبار سبع وفتح فيه مسرحا ، تبع ذلك مسرح آخر في مقهى الشط •

وفي عام ١٩١٦ افتتح ملهى في مقهى الشط في جانب الكرخ •

ولما راجت الملاهي في بغداد ابان احتلال بغداد من قبل الانكليز عام ١٩١٧ انطلقت قيان بغداد للعمل بتشجيع من الحكم الانجليزي آنذاك الذي اراد تلهية الشعب عن السياسة فتم انشاء العديد من الملاهي وظهرت المغنيات العراقيات الاوائل منهم « صديقة الملاية » وجايلة ام سامي وبدرية انور وقد لعبت كل واحدة منهن دورا ملحوظا في الحياة الغنائية في العراق •

ظلت هذه الملاهي تعمل في منطقة الميدان حتى عام ١٩٤٠ ، ثم انتقل معظمها الى الباب الشرقي وازداد عددها •

وقدمت المغنيات العراقيات في الملاهي الوانا من الاغاني لم تتعد الغزل واثارة العواطف وبث العتاب وما الى تلك المعاني التي كانت تجد صدى في النفوس • وقد اصبحت تلك الاغاني فيما بعد من اغاني المدينة التي انتقلت من الملهى الى الاذاعة وعبرها الى الجمهور ••

وكان من التقاليد التي كانت متبعة عند اصحاب الملاهي الاعلان عن وصول فنانة جديدة والاعلان عن اشتغالها بواسطة الموسيقى الشعبية (البوق والطبل الكبير) بموافقة المنادي الذي كان يصف جمال الفنانة وفنها • كان هذا الاعلان يقام اما في باب الملهى أو في الشوارع •

وقد جرت العادة في ملاهي ايام زمان تقديم برنامج الملهى من خلال

جلوس المغنيات صفا واحدا على المسرح من خلفهن يجلس الموسيقيون الذين يبدأون بعزف قطعة موسيقية ثم تبدأ التواشيح وقد كان موشح (يا نحيل القوام) المادة الغنائية الاولى التي تقدم لهذا الغرض . ومن هذا يتضح ان المادة الموسيقية والغنائية آنذاك كانت ذات مستوى جيد مما يدعو الناس الى الحضور . غير ان هـذه الظاهرة تلاشت تدريجيا حتى اصبحت البرامج الموسيقية والغنائية التي تقدم في الملاهي ذات طابع يميل الى التهريج اكثر منه الى القيم الفنية .

ومن الواضح ان الفنانين منذ انبثاق اول ملهى كانوا من النساء . ولم يشارك المغني العراقي في هذا الميدان الا في نهاية الاربعينات .

والحق يقال ان الملاهي كانت خير مصدر لنشر الظاهرة الموسيقية في اولى صيغها الفنية بين قطاعات الشعب . فقد تعرف الناس بصورة مباشرة على الوان الغناء ، والطرب والعزف الالي (الالات الموسيقية) الذي اختصت به الفرق الموسيقية الى جانب تخصصها بالغناء كمصدر رئيسي في عملها . فكانت العروض الفنية الغنائية والتشكيلات الموسيقية مصدرا من مصادر المتعة لدى الجمهور وخطوة اولى في نشر الوعي الموسيقي عبر الوسائل المذكورة والوسائل التي كانت في طور التكوين واهمها :

الاذاعة العراقية

تأسست سنة ١٩٣٦ ، وكان لها اثر كبير في توجيه الحركة الموسيقية من خلال البرمجة التي حققت تنويعا في نشر الموسيقى وتكثيف الوعي الاجتماعي العام باهمية الموسيقى والغناء فساعد ذلك على ظهور الاصوات الغنائيـة النسائية والرجالية ، وظهور اولى الفرق الموسيقية التي قدمت نشاطها عبر الاذاعة واسهمت في انعاش آفاق الحركة الموسيقية ، فكان البث الاذاعي مرحلة هامة في حياة السعب العراقي ، ساعد على ايصال الالوان الغنائيـة

والموسيقية والاصوات الرائدة في فنون الغناء الى الجماهير ، حتى ان الاذاعة كانت مصدرا عمليا لنشوء وانتشار العديد من الصيغ الغنائية التي ظهر بعضها في المجتمع لاول مرة ، مثل المربع والمونولوج والبستة .

وسوف تتناول دور الاذاعة في نشر الفنون الموسيقية من خلال سياق هذا المبحث لما لها من اهمية كبرى واستثنائية في هذا المضمار وعلاقة كبيرة بالعديد من الاعمال والممارسات التي استحدثت آنذاك واهمها المعهد الموسيقي الذي صادف تأسيسه في عام افتتاح الاذاعة العراقية ..

معهد الفنون الجميلة

كانت بداية المعهد متواضعة لكنها سجلت سبقا تاريخيا في مضمار الدراسة الفنية في العراق . والمعهد كان الاول من نوعه ليس في الوطن العربي فحسب بل وفي الشرق الاوسط عدا انقرة حيث كان فيها معهد موسيقي آنذاك . أما في القاهرة وبيروت فكانت هناك معاهد موسيقية اهلية لم تخضع لمنهجية الدراسة الجدية انما خضعت الى العامل التجاري والكسب المادي . في حين اعتبر المعهد الموسيقي في العراق اول معهد رسمي في المنطقة ، وكان تابعا لوزارة المعارف ، وذا منهجية خاصة ، ويعود الفضل في تأسيس المعهد الى المرحوم حنا بطرس الذي اسهم في تهيئة المتطلبات الفنية للمعهد كما ساهم في ادارته ، فتم افتتاح المعهد في تشرين الأول ١٩٣٦ ، وبعد اشهر قليلة تولى ادارة المعهد المرحوم الشريف محيي‌الدين حيدر الذي قدم من تركيا، وكان يمتاز بموهبة فنية كبيرة وكان من عازفي العود والجلو المتميزين. أما المرحوم حنا بطرس فقد استمر معاونا للشريف محيي‌الدين حيدر .

آنذاك احتل المعهد جزء من بناية نادي المعلمين في المربعة في شارع الرشيد على نهر دجلة ، فكان طلاب الموسيقى يشغلون البناية فترة ما بعد الظهر بين الساعة الرابعة والسابعة مساء ، عدا ايام العطل الرسمية .

ثم انتقل المعهد الى بناية اخرى في عقد النصارى في شارع الرشيد ولفترة قصيرة عاد بعدها الى مكانه الاول ثم انتقل الى شارع ابي نواس في البتاويين حيث توسعت آفاق الدراسة فيه فقررت الادارة الانتقال الى بناية اخرى افضل فتم ذلك فانتقل المعهد الى بنايته المعروفة في الكسرة مقابل البلاط الملكي .

لقد عمل الاساتذة الاوائل ومعهم طلبة المعهد المتفوقون في نشاطات موسيقية وغنائية متنوعة ، قسم منهم انضم الى النشاط الموسيقي والغنائي في الاذاعة العراقية وعلى الاخص عازفو الالات الموسيقية العربية حيث اغنوا المجاميع المتواجدة هناك بطاقاتهم الفنية . فيما قدم قسم آخر انشطة موسيقية اخرى متنوعة فبرز اول ثلاثي (بيانو ــ كمان ــ جلو) .

وقد قام سعيد جميل بتأسيس اول فرقة موسيقية من اساتذة وطلبة المعهد بقيادته .

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بدأت فكرة تاسيس فرقة سمفونية حيث قدمت اول حفلة لها على مسرح الملك فيصل الثاني (قاعة الشعب حاليا)..

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية أي بعد عام ١٩٤٤ ــ ١٩٤٥ ،توسعت آفاق الدراسة في المعهد حيث ادخلت آلات جديدة في منهاج الدراسة منها آلة القانون ، ثم آلة الفيولا وادخلت في المنهاج مادة الغناء وتربية الصوت في عام ١٩٤٨ .

كان المعهد ، ومنذ تأسيسه معنيا بتدريس الموسيقى العربية وآلاتها الى جانب الموسيقى الغربية وفنونها .

وبعد تخرج الوجبة الاولى من الطلبة صار بألامكان الاعتماد على كادر عراقي لا بأس به للتدريس . وبالفعل تم تعيين بعض الخريجين فكانوا بمثابة الجيل الموسيقي الاول ،حصلوا فيما بعد على بعثات دراسية الى اوربا حيث

اكملوادراساتهم ، فاستطاعوا بعد عودتهم ان يدرسّوا فنون الموسيقى للاجيال الجديدة التي تعاقبت بعدهم •

منذ عام ١٩٥٠ بدأ المعهد بتخريج وجبات ممتازة من الموسيقيين العازفين عملوا في المجالات الموسيقية كافة خاصة في الاذاعة العراقية وفرقة الفلهارموني •

لقد استمر المعهد الموسيقي قائما حتى عام ١٩٤٠ حيث تحول الى معهد الفنون الجميلة اثر عودة بعض الفنانين الذين انهو دراساتهم الفنية في اوربا ومنهم حقي الشبلي (فنون مسرحية).وجواد سليم وفائق حسن (فنون تشكيلية) فاصبح في هذا المعهد ثلاثة اقسام وهي : قسم الفنون الموسيقية وقسم الفنون المسرحية وقسم الفنون التشكيلية •

وفي عام ١٩٥٢ تأسس قسم الموسيقى والانشاد الى جانب اقسام الفنون المسرحية والفنون التشكيلية للدراسة الصباحية • وقد اختصت الدراسة الصباحية في اعداد المعلمين لتدريس هذه الفنون في المدارس الابتدائية وكانت مدة الدراسة الصباحية ثلاث سنوات بعد الدراسة المتوسطة ••

لقد استمرت الدراسة في كلا القسمين الصباحي والمسائي تحت اشراف اساتذة عراقيين وعرب واجانب ••

وكان الفنانون الاوائل الذين عملوا في المعهد الموسيقي بعد ان تحول الى معهد للفنون الجميلة منذ الاربعينيات قد استطاعوا ان يمهدوا الطريق الى بداية نشاط موسيقي جديد في العراق • هذا النشاط الذي يعتبر امتدادا للدراسات الاولى التي حظي بها الدارسون في الثلاثينات • وكان لوجود الاساتذة الاجانب تأثير بارز في تهيئة كادر موسيقي متميز ، هو الجيل الاول ، كما ذكرنا ، الذي تعلم اصول العزف (الاداء) فكان جيلا جريئا راح فيما بعد ينشر فنا جميلا بين الناس ••

أما بالنسبة الى الموسيقى الاوربية فقد تلقى الدارسون الاوائل اصول العزف على ايدي اساتذة اوربيين •

الى جانب معهد الفنون الجميلة برزت هناك معاهد موسيقية اهلية نذكر منها :

* معهد جميل بشير في الموصل سنة ١٩٣٦
* معهد منير بشير في بغداد سنة ١٩٤٧
* معهد منير بشير في بغداد سنة ١٩٥٦
* معهد سعيد شابو في بغداد سنة ١٩٥٧

وقد عملت هذه المعاهد ، الى جانب المعهد الرسمي ، على نشر الموسيقى وفنونها بين الشباب الذين استطاعوا ومنذ منتصف الخمسينات ان يشغلوا العديد من المواقع الفنية في الفرق الموسيقية الاهلية والرسمية مثل فرقة بغداد فلهارموني التي تأسست في معهد الفنون الجميلة سنة ١٩٤٨ حيث عملت على نشر الوان الموسيقى الكلاسيكية الغربية بين الجمهور ، ثم تحولت هذه الفرقة ، تدريجيا ، رغم المعوقات ، الى فرقة سمفونية هي الفرقة السمفونية العراقية الحالية • كذلك عمل الطلاب الخريجون والدارسون في فرق الاذاعة التي تشكلت على اسس فنية جديدة منذ منتصف الستينات •

لقد استمر الدوام في المعهد مساء منذ تأسيسه وحتى عام ١٩٥٢ حيث فتح فيه قسم صباحي ، تخصصت فيه الدراسة لتخريج معلمي موسيقى ونشيد ، فكان ذلك خطوة جديدة في طريق نشر الموسيقى عبر وسائل منهجية (اولية) في المدارس الابتدائية التي عمل فيها الخريجون منذ ذلك التاريخ حتى الان •• الا ان ما نشهده في مجال النشاط العملي للموسيقى فان طلبة المعهد المسائي كانوا حتى منتصف الستينات هم المعول

عليهم في اشغال الاماكن المهمة والحساسة في انشطة الموسيقى كافة سواء الادارية منها او الانتاجية خاصة التلحين وبطرق (جديدة) اثرت على مسار الاغنية البغدادية فتوسع حجم كادر الفرقة الموسيقية المرافقة للاغنية وظهرت بوادر اضافات فنية على ابعاد تلك الاغنية .

ولان البدايات ، خاصة ما يتعلق ببعض الفنون التي اعتبرت غريبة على المجتمع ، تظل تحمل خصوصيتها واثرها في مسار النهضة الفنية ، فأن ثمة من ظهر قبل جيل المعهد الاول وقبل مجيء الاساتذة الاجانب ، عملوا على نشر مفاهيم ونظريات وطرق عزف الالات في اصولها الاولى التي كانت ذات اهمية بارزة في خلق الحركة الموسيقية في القطر ، ونذكر من اولئك :

حنا بطرس ، اكرم رؤوف ، سعيد شابو ، بشير عبد العزيز ، عملوا جميعهم في حقول الموسيقى المختلفة منذ العشرينات وقسم منهم منذ الثلاثينيات فكانوا بحق رواد الحركة الموسيقية في القطر .

ان الموسيقى والغناء يرتبطان دوما بحركة المجتمع وبظهور الانشطة الثقافية والفنية الاخرى ، وما تأسيس المعهد الموسيقي عام ١٩٣٦ الا استجابة واعية لضرورة نشر الدراسة الموسيقية والفنية ونتيجة انتشار النشاط الغنائي الموسيقي في بغداد والمحافظات الرئيسية في العراق وذلك منذ عشرينات هذا القرن، ذلك النشاط الذي كان وجها آخر (متطورا) لانشطة قراء المقام العراقي الذين تأثروا بدورهم وتدريجيا بما استجد في الساحة الفنية من مستلزمات وادوات موسيقية مستفيدين منها في توسيع حجم نشاطهم كما ذكرنا ، الا ان المهم هنا ان نذكر ان النشاط الغنائي الذي بدأ في الملاهي منذ بداية هذا القرن وظهور الفرق الموسيقية كما ذكرنا وظهور الوان عديدة من الغناء في المجتمع العراقي كالمربع والبستة والمونولوج مع ظهور وسائل الاداء والايصال ، قد ادى تدريجيا الى ظهور قناعات بتأسيس

المعهد الموسيقي ، وقـد صادف افتتـاح الاذاعة العراقيـة في العـام نفسه الذي تأسس فيه المعهد ، فكان المعهد والاذاعة معا مصدراً لانعاش الجوانب الرئيسة من حركة الفن الموسيقي في العراق .

فالمعهد عنى بالتدريس ، فيما احتضنت الاذاعة الوجبات الاولى مـن المغنين والمغنيات الذين وجدوا في الاذاعة (بعد عملهم الطويل في الملاهي خاصة المغنيات) خير وسيلة لايصال اغانيهم الى قطاعات واسعة من المجتمع، كذلك كانت الاذاعة وسيلة اولى في دخول الاغنية الفولكلورية الريفيـة والبدوية الى المدينة وانتشارها بين الناس وبين المغنين ، فادى ذلك الـى ظهور لون من الاغنية المدينية ذات الطابع الريفي وذلك على يد كل مـن الرواد : حضيري ابو عزيز ، ناصر حكيم وداخل حسن ، الذين ساهموا في فتح مقاهي حيث مورس فيها الغناء الريفي ، نذكر منها :

مقهى ناصر حكيم في عـلاوي الحلة ، ومقهى حضيري ابـو عزيز في الارضرملي . اضافة الى مقاه اخرى في سوق الهرج واخرى في محلة العوينة ، فكانت هذه المقاهي بمثابة مجالس شهدت الوان الغناء الريفي الخالص ، فكان ان ظهر بمرور الوقت العديد من مغني الريف تباعا : عبدالامير طويرجاوي ، شخير سلطان ، مسعود العمارتلي ، عبود النجفي ، مدلول حريب ، اضافة الى مغني البادية مثل سعيد عگار .

وما يجدر ذكره في هذا الخصوص ، ان مقاهي الغناء الريفي كانت مثل مقاهي المقام العراقي (الاقدم تأريخيا) تقام فيها جلسات اشبه ما تكون بجلسات التعليم والدراسة ، فكان حضيري ابو عزيز وناصر حكيم يجلسان في مكان بارز فيجلس امامها محبو هـذا اللون من الغناء . فيمارسون الغناء بتوجيه الرائدين المذكورين ، لذلك اعتبرت مقاهي الغناء الريفـي والمقام العراقي اولى المدارس الفنية التي نشـرت اصول الغناء بالطـرق

الشعبيه (الشفاهية) التي كان لها دور بارز في مسار الحركة الغنائية في العــراق ..

ومن جانب آخر ، كانت بغداد تشهد آنذاك عروضا غنائية وفنيــة لفرق مصرية قدمت العديد من الانشطة والفعاليا ت نذكر منها :

فرقة منيرة المهدية عام ١٩١٩ ، ومحمد عبدالوهاب عام ١٩٣٠ ، وام كلثوم عام ١٩٣٢ : وفرقة فاطمــة رشدي التي قدمت مسرحيات جــادة وكوميدية ذات عدة فصول تخللها نوع غناء جديد هو (المونولوج) الذي ما لبث ان انتشر بين مغني بغداد الى جانب نوعين آخرين من الاغنية ظهرا آنذاك هما : المربع والبستة .

المونولوج

هو الانشاد الاحادي ، أي الغناء الفردي الذي يؤديه شخص واحد ، وهو نوع من الزجل . وقد ذكر المونولوج في الكتاب الذي صدر عــن مؤتمر الموسيقى العربية الذي انعقد عام ١٩٣٢ في القاهرة ، على انه صيغة غنائية معروفة في مصر ، غير ان هذه الصيغة وافدة اصلا من اوربا ولربما من فرنسا وايطاليا خلال او بعد الحرب العالمية الاولى .

اعتبر المونولوج في البدء صيغة غنائية ترفيهية ثم تحول الى صيغة ذات اهداف اجتماعية وسياسية وتربوية تناولت فيمضامينها الظواهر الاجتماعية، وخاصة السلبية منها . والمونولوج عموما ذو وقع خفيف ومؤثر في النفس ، ويمتاز هذا النوع من الغناء بان نغمته وايقاعه يميلان الى نظام الســلم الموسيقي المعدل (الغربي) . ويكون مغني المونولوج عادة ممن يحسن التمثيل واداء الحركات الموحية والمضحكة احيانا من أجل ادخال المعنى في نفــس الســامع .

انّ الالوان الغنائية التي اخذت اسلوب المونولوج جاءت من القطر المصري وانتشرت في الاقطار العربية الاخرى ومنها العراق حيث وفد المونولوج الينا عبر طريقين :

الاول : بواسطة الاسطوانات التي دخلت الى العراق والتي سجلت على بعضها العديد من المونولوجات وكان ممن غنى هذا اللون عمر الزعني وسلامة الاغواني وكان ذلك في بداية العشرينيات . وعبر الاسطوانات عرفه الناس والمغنون منهم ولكن لم يعرفوا بعد تسميته بالمونولوج ، بل كونه صيغة غنائية وافدة حديثا الى العراق ..

الثاني : عن طريق زيارة الفرق المسرحية المصرية الى العراق لتقديم اعمالها المسرحية وبالذات فرقة فاطمة رشدي في عام ١٩٣٠ ، حيث قدمت هذه الفرقة المونولوج بين الفصول اي بين فصل وآخر حيث يظهر احد الممثلين وهو يغني المونولوج وكان منهم حسن فائق وكانت الغاية منه بالدرجة الاساس الهاء الجمهور لتحضير متطلبات الفصل التالي وفي نفس الوقت ادخال البهجة على الجمهور عبر الحركات التعبيرية المسلية التي يؤديها المغني .

وعلى اثر ذلك انتشر هذا اللون من الغناء والذي لم يعرف بعد باسمه (المونولوج)فكان ممارسة غنائية مسرحية جديدة بالنسبة للفرق المسرحية العراقية وللجمهور ، حيث اقتبسته فرقنا المسرحية في حينه واداه بعض الممثلين المعروفين منهم حقي الشبلي الذي قدم في احدى فصول مسرحياته مونولوج :

« ليل ونهار ونهار وليل   ماكو غير حديث الخيل »

أما محمد القبانجي فقد قدم في حينه اغنية (خليهه صنطه ياخذ له صفطه) على اسلوب المونولوج .

في عام ١٩٣٨ ظهر مغنون في هذا اللون بعد ان عرف باسمه (المونولوج) ومنهم عزيز علي وعلي الدبو وحسين علي فقدموا مونولوجات ذات اهداف اجتماعية عبر برامج الاذاعة وقد استمر علي الدبو وقدم مونولوجات في تلفزيون بغداد حين افتتح عام ١٩٥٦ ، وكان من ابرز الشعراء الذين نظموا قصائد للمونولوج هو عبد الكريم العلاف ..

اضافة الى هؤلاء فقد قدمت المغنيات في الملاهي العراقية العديد من المونولوجات منهن زكية جورج في بدايتها ونزهت الجميلة وعفيفة اسكندر .

في رأينا ان العديد من مغنيات الملاهي في بداية هذا القرن وحتى الاربعينيات كان غناؤهن المونولوجات ، واحيانا كن يمزجن بين هذا اللون وبين البستة .. وقد اصبح بمرور الوقت لكل من الانواع الغنائية المذكورة رصيد في حركة الغناء في العراق ، الى جانب المقام والموشح اللذين يعتبران اقدم الانواع الغنائية قاطبة .

البسته

هي كلمة تركية ، تعني اغنية ذات مقطعين : الاول ويسمى (المذهب) والثاني ويسمى (الغصن) ويسمى حاليا (الكوبلية ـ وهي كلمة فرنسية) .

هناك اعتقاد بان مصادر البستات عديدة اهمها :

١ ـ البستات الملحنة التي تغنى من قبل الشغالة (مرافقو قاريء المقام) بعد قراءة كل مقام حيث كان قاريء المقام يقرأ المقام فقط والشغالة يختمون القراءة بالبستة .

غير ان محمد القبانجي غير هذا الاسلوب وبدأ هو نفسه يغني البستة ، أما الشغالة فيكررون المقطع الاول (المذهب) . كما واصبحت البستة ذات لحنين ، لحن للمذهب ولحن واحد للغصن الذي يتكرر . أما الايقاع فهو واحد .

وللبستات تأثير على الجمهور وقد اصبحت بمرور الوقت تغني مستقلة عن المقام خاصة في الملاهي ثم انتقلت البستة الى الاذاعة اثر افتتاحها ، واصبحت تغنى لوحدها دون المقامات . بذلك انتشرت البستات بين عامة الناس واصبحت من الاغاني المحببة الى نفوس العراقيين ..

٢ ــ هناك بستات وفدت الى العراق من بعض الاقطار العربية مثل مصر وسورية ولبنان ، أما عن طريق الاسطوانات أو عن طريــق المغنيات والراقصات اللواتي جئــن للعمل في الملاهي بعــد الحرب العالميــة الاولــى ..

٣ ــ أما المصدر الثالث ، فهو ان العديد من البستات اقتبست من وسط او جنوب العراق باعتبارها اغنية شعبية ، وفي بغداد غناها المغنون والمغنيات مع الفرق الموسيقية . ولربما اجرى بعضهم تغييرات في شكلها أو بدل بعض مقاطعها الشعرية لكي تصبح ملائمة لذوق المجتمع في بغداد .

٤ ــ بعد افتتاح الاذاعة العراقية عام ١٩٣٦ اختص البعض من الملحنــين والمغنين بتلحين بستات جديدة لتغنى من قبل المغنيات والمغنين فيما بعد. وكان للملاهي دور بارز في نشوء هذا النوع من الغناء .

المربــع

لون مــن الوان الغناء الشعبي الذي ظهر في المدينة ومن المرجح انه ظهر بعد الحرب العالمية الاولى ، وخاصة في بغداد ، ولم تمارسه أي مدينة اخــــرى .

يغنى المربع باللغة العامية وعلى بعض المقامات وايقاعه هو «الجورجينة» وينفرد في غنائه شخص واحد يقوم بحركات تعبيرية وهو واقف أمام جماعته الذين يجلسون على شكل دائرة واحيانا شبه دائرة ويسمونهم (الرادوده)

وقسم منهم يعزف على الطبلة التي تعتبر الالة الموسيقية الوحيدة التي ترافق غناء المربعــات ..

تمارس المربعات في الحفلات وخلال الافراح والاعياد وفي الكسلات وعلى الاخص في السفرات الى سلمان باك .

وقد اشهر في العشرينات من هذا القرن كل من « محمد الحداد » في اداء المربعات في جانب الكرخ ، يناظره « التيلجي » في جانب الرصافة وكثيرا ما كان « علي الدبو » في ايامه الاولى قبل ان يغني المونولوج ، يشارك في غناء المربعات في الرصافة .

وكثيرا ما كانت تحدث المطاردات الغنائية لهــذا اللون بين محمــد والتيلجــي .

وقد ظهر بعدها العديد من مغني المربعات ..

بظهور تلك الصيغ الغنائية والممارسات الجديدة ، ودخول الاسطوانات الى القطر ، ظهرت عند الجمهور نزعة لتملك الوسيلة التي يمكن بواسطتها متابعة الاغاني والاصغاء الى الاصوات الغنائية الرائدة التي ظهرت منــذ العشرينات والثلاثينات . فلم تكن الملاهي ولا برامج الاذاعة كافية لتلبية تلك النزعة ، فكان ان ظهرت الاسطوانات ، وجاءت شركات تسجيل اجنبية لتسجل ما تجود به حناجر المغنين الاوائل وتطبعها وتبيعها في الاسواق . كذلك نشأت آنذاك شركات تسجيل عراقية .

لقــد حققت الحركــة الموسيقية خطــوة جديدة متقدمــة في طــرق نشر الدراسة الفنية بين الشباب الذين كانوا يتطلعون للاسهام في المجــال الموسيقي سواء عــن طريق تشكيل الفرق أو النشاط الخاص ، خاصة وان الفرقة الموسيقية التي كانت تعمل في معهد الفنون الجميلة المســماة ببغداد فلهارموني استطاعت ان تحقق نشاطا متميزا على صعيد الحفلات اضافة الى

فرق طلاب المعهد الذين كانوا السباقين الى احياء حفلات عزفوا فيها الوان الموسيقى الكلاسيكية خاصة في كلية الطب التي ضمت بين طلابها العديد من هواة ودارسي الموسيقى ، كل ذلك اسهم في نشر الوعي الموسيقي عند الشباب ودفعهم الى دراسة الموسيقى في المعاهد الاهلية اضافة الى معهد الفنـــون الجميلة فكان ذلك بداية عصر جديد لانتشار فنون الموسيقى في بغداد الى جانب الفنون الاخــرى .

ولعل ازدياد النشاط الموسيقي في العراق ادى ، في سنوات الاربعينات والخمسينات الى ان تتأثر الاغنية عموما في العراق ، بما ظهر في الساحــة الموسيقية من الات وممارسات ونشاطات اضفت عنصر الجدية على الموسيقى عموما فظهرت الاغنية البغدادية (الحديثة) وكانت امتدادا متطورا للمقام والاغنية الريفية . على هذا امتزج النشاط الغنائي منــذ ونهاية الاربعينات ومطلع الخمسينات بالنشاط الموسيقي الآلي فكان ان بــدأت بوادر نهضــة موسيقية غنائية عراقية كان لمعهد الفنون الجميلة والمعاهد الاهلية والاذاعــة الاثر الكبير في ظهورهــا .

واذا كانت الحركات الفنية تتشعب وتتوسع وتتطور تدريجيا ، فــان الموسيقى استطاعت ان تحقق هذا التشعب والتطور قبل غيرها من الفنون . وكانت هناك عوامل عديدة ساعدت على بلوغ الاتساع الموسيقى ، منها : الرواد العراقيون الذين عملوا بجد ونشاط ، والرواد العرب والاجانب الذين زاروا بغداد فقدموا فعالياتهم وخبراتهم الفنية والاكاديمية ، اضافة الــى ظهور المعاهد واقامة الحفلات ذات البرامج المحددة وظهور مصلحو وصانعو الالات الموسيقية منهم المرحوم بشير عبد العزيز الذي ظهر في الموصل واسهم في النشاط الموسيقيي هناك ، والمرحوم اسطى علي العواد الذي استفاد في الثلاثينات من خبرة الشريف محيي الدين في تقنية آلة العود التي بدأت تزدهر

وتنتشر في بغداد ، ثم ظهر مصلحون وصانعون آخرون عقبوا الاسطى علي في بغداد ، منهم : محمد علي العواد ومحمد فاضل العواد . لقد أسهم صانعو الآلات الموسيقية في تطوير آفاق الحركة الموسيقية فكان لهم الفضل الكبير في ظهور آلات العـود والقانون التي صنعوها والتي كانت ومـا تـزال ذات قيمة حضارية عالية في ميدان الموسيقى المحلية في العراق .

وتشعبت آفاق الحركة الموسيقية وبلغ الموسيقيون مرحلة جديدة مـن العطاء الموسيقي اتسم بالتنويع والتنظيم والبرمجة ، فكـان ان بادر بعض الملحنين والموسيقيين المعروفين بتقديم طلب الى الجهات المسؤولة لتأسيس نقابة للموسيقيين في عام ١٩٥١ غير ان السلطة آنذاك لم تستجب للطلب ، فبادر الموسيقيون انفسهم الى تقديم طلب جديد بتأسيس جمعية للموسيقيين العراقيين فتم ذلك عام ١٩٥١ ونذكر من بين اولئك الموسيقيين : وديع خوندة ، سلمان شكر ، حضيري ابو عزيز ، ناظم الغزالي ، احمد الخليل ، يحيى حمدي ومحمد كريم . وكان من نشاطات الجمعية جمع شمل الموسيقيين واقامة حفلات داخل الجمعية وخارجها ، كذلك تدريس الموسيقى ضمن الامكانيات المتوفرة ، فكان خير ما فعلته الجمعية هو ان اصدرت مجلة فنية ادبية هي مجلة (الفنان) التي صدرت عام ١٩٥٢ . وقد كانت الصحافة العراقية قـد اهتمت قبل ذلك كثيرا بالنشاط الموسيقي والغنائي في العراق وتابعت ما يجري داخل القطر وخارجه ، فظهرت منذ أواخر العشـرينات مقالات في المجلات والصحف تشير الى اهمية الموسيقي ومكانة الغناء في المجتمع . واهم ما يمكن ذكره في هذا المجال هو ما ظهر من مقالات في مجلة لغة العرب منـذ عام ١٩٢٨ حول الملا عثمان الموصلي وغيره من رواد الغناء ؛ وجريدة الاخبار التي واكبت سير وفعاليات الوسط الموسيقي الغنائي فغطت اخبار المؤتمـر الموسيقي الدولي الاول الذي عقد في القاهرة عام ١٩٣٢ كما غطت اخبـار المغنين خاصة مقرئي المقام وحفلاتهم ، فكان ذلك بمثابة خطوة اولى مهمة في

مجال الاعلام الموسيقي والمقالة الموسيقية التي تركت اثرا مهما في التوعية الفنية التي كانت مجلة « الفنان » احدى ثمراتها البارزة في ميدان الثقافة الموسيقية التي ادت ، فيما بعد ، الى ظهور انشطة وفعاليات ثقافية جديدة استجابت للواقع الفني الذي كان آخذا في التطور ملقية الضوء على اهمية التخصص الموسيقي باعتباره وسيله رئيسية ووحيدة لبلوغ النهضة الموسيقية التي ظهرت بوادرها الجديدة منذ نهاية الخمسينات وتجسدت في نهاية الستينات حيث ظهرت المدارس الموسيقية والممارسات والفعاليات الفنية الجديدة المتطورة مستفيدة من التأسيسات التي ظهرت في العقدين الماضيين ، وساهمت في بلوغ مرحلة جديدة من التطور الموسيقي الذي لم يسبق له مثيل في القطر .

المصادر والمراجع

البكـري ، عـادل :

ملا عثمان الموصلي ، بغداد ١٩٦٦ .

الحنفي ، جـلال :

المغنون البغداديون والمقام العراقي ، بغداد ١٩٦٤ .

العـلاف ، عبدالكريم :

ـ قيان بغـداد .

ـ الطرب عنـد العـرب .

علي ، اسعد محمد :

مدخل الى الموسيقى العراقية .

قدوري ، حسـين :

لمحـات في المقـام العراقي

كتاب مؤتمر الموسيقى العربية ، القاهرة ، ١٩٣٢ .

الناصر ، ياس علـي :

مذكراتـي .

المصـادر الشخصية :

ـ منير بشير

ـ وديـع خونـدة

ـ هـلال عاصم

- علي الدبـو
- سـعيد شـابو
- عقيـل عبدالسلام
- جمـال حامـد
- اشرطة المقابلات مع الفنانين والموسيقيين المحفوظة لدى المركز الدولي لدراسات الموسيقى التقليدية التابع لدائرة الفنون الموسيقية في وزارة الثقافـة والاعـلام .

المسرح والسينما

احمد فياض المفرجي

المؤسسة العامة للسينما والمسرح - بغداد

المســرح

تشير المعطيات الموثقة الى ان الحركة المسرحية ، قد ظهرت في العراق ، اثناء الربع الاخير من القرن التاسع عشر الذي شهد عروضا تمثيلية عديدة ، كانت تقدم في أديرة مدينة الموصل ومدارسها ، وان أقدم نص مسرحي طبع في العراق يرجع تاريخه الى عام ١٨٩٣ ، وقد ضم مسرحية بعنوان « لطيف وخوشابا » التي عربها واعدها عن نص فرنسي نعوم فتح‌الله سحار .

وظل النشاط المسرحي في العراق منذ نشأته حتى عام ١٩٢١ مقتصرا على المدارس والنوادي الاجتماعية والجمعيات الثقافية التي كانت قائمة في بغداد والموصل والبصرة .

بعد تأسيس الدولة العراقية الحديثة عند مطلع العشرينات ، تشكلت اول فرقة مسرحية محترفة ، وذلك في اثر صدور اول قانون للجمعيات ، هي

« جمعية التمثيل العربي » التي كونها محمد خالص الملا حمادي لتشكل منعطفا جديدا في هذه المرحلة من تاريخ الحركة المسرحية في العراق ، وعلى الرغم من ضعف الامكانات المالية لهذه الجمعية ، فقد آمنت بالمسرح كرسالة اجتماعية، ودعت الى العناية به وتعميمه •

تبعت « جمعية التمثيل العربي » فرق تمثيليــة عديدة ، ابرزها كانت « الفرقة الوطنية التمثيلية » التي كونها الفنان الراحل حقي الشبلي في نيسان ١٩٢٧ ، وخلال هذه المرحلة زارت العراق فرق عربية واجنبية ، خاصة مــن مصر والشام وتركيا ، نذكر منها فرقة جورج ابيض (١٩٢٦) وفرقة فاطمة رشدي (١٩٢٩) وقامت فرقة يوسف وهبي باكثر من زيارة الى بغداد ، وكان لهذه الفرق الوافدة تأثيرها الايجابي على مجمل النشاط المسرحي في العراق ، من ذلك ان الفرق التمثيلية الناشئة ، قد افادت من النصوص التي عرضتهــا الفرق العربية ، نظرا لضعف التأليف المحلي وغياب الترجمة ، واصبحت هذه النصوص هي المعول عليها في معظم مواسم الثلاثينات •

ومن الفوائد التي اكتسبتها الفرق التمثيلية المحلية عن الفرق العربيــة ذات الخبرة الاوسع والارقى ، اطلاعها على اساليب تنفيذ المستلزمات الفنية المكملة للعروض المسرحية ، كالانارة والمكياج والمناظر والملابس •

وفي هذا السياق ايضا ، يمكن احتساب مرافقة الفنــان حقي الشبلي لفرقة فاطمة رشدي عند عودتها الى مصر ، للاطلاع على النشاط الفني فيها ، والافادة من خبرة فناني ارض الكنانة وتجاربهم • وقد تمتع الشبلي بهــذه الزمالة التي اقترنت بموافقة الملك فيصل الاول ، خلال موسم ١٩٢٩ــ١٩٣٠ •

في عقد الثلاثينات تأسست فرق تمثيلية جديدة ، أوسعها نشاطا ، كانت « الفرقة التمثيلية العربية » التي كونهــا الفنــان يحيى فايق و « فرقة بابل التمثيلية » التي شكلها الفنان محمود شوكت و « جمعيــة انصار التمثيل »،

التي اسسها الفنان عبدالله العزاوي ، وقد تميزت هذه الفترة بأزدهار مسرحي ملحوظ ، تمثل بغزارة العروض وسعة اهتمام الصحافة ، بما تقدمه الفرق التمثيلية .

ان هذا الانتشار المسرحي ، استرعى انتباه الدولة ، فأولته بعض عنايتها وتمثل هذا في ادخال دراسة المسرح ضمن البعثات العلمية ، وكان الفنان حقي الشبلي اول من جرى ايفاده الى فرنسا خلال النصف الثاني من الثلاثينات. وعند عودته الى العراق ، أواخر ١٩٣٩ ، آسس فرع التمثيل في « المعهد الموسيقي » الذي كان قد تأسس عام ١٩٣٦ ، ولما استكمل هذا المعهد فروعه الاخرى كفرع الرسم الذي كونه الفنان الرسام فائق حسن . ابدل اسم « المعهد الموسيقي » بـ « معهد الفنون الجميلة » الذي رسم ظهوره منعطفا اخر . في مسارات الحركة الفنية في العراق ، كانت من معالمه انحسار تلك الاشكال السمجة التي اعتمدتها الفرق التمثيلية ، كفواصل بين الفصول ، لعرض اجتذاب الجمهور ، مثل الرقص والاغاني و « المنلوجات » المبتذلة . وساعدت الاجراءات التي اتخذتها وزارة الشؤون الاجتماعية التي كانت تشرف على الفعاليات الفنية ، في الحد من تلك الاشكال التي نوهنا بها . كما ان الوزارة المذكورة كانت قد اصدرت في ايلول ١٩٤٠ قرارا شكلت بموجبه لجنة خاصة لفحص المسرحيات التي تتقدم بها الفرق لانتاجها ، وتألفت هذه اللجنة من السادة كمال ابراهيم وعبدالملك الامين وحقي الشبلي .

في اواسط الاربعينات تخرجت الدفعات الاولى من طلبة فرع التمثيل بمعهد الفنون الجميلة ، فكان هؤلاء المتخرجون هم الرواد الجدد الذين انتقلوا بالنشاط المسرحي من الهواية الى العلم . ومنذ عام ١٩٤٧ حتى اواخر عام (١٩٥٨) ، كان الفنانون ابراهيم جلال وجعفر السعدي وجاسم العبودي ويوسف العاني وبدري حسون فريد وسامي عبدالحميد .. واخرون هم الذين رسموا ابرز اتجاهات الحركة المسرحية في العراق ، وذلك

من خلال الفرق التمثيلية التي عملوا فيها مثل « الفرقة الشعبية للتمثيـــل » (١٩٤٧م) و« فرقة المسرح الحديث » ـ ١٩٥٢ و « فرقة المسرح الحر » ـ ١٩٥٤ •

عرفت هذه الفترة من تاريخ الحياة المسرحية في العراق ، اسماء عديدة من المؤلفين الذين رفدوا خشبات المسارح بنتاجاتهم النثرية ، ومـــن هؤلاء حنا الرسام وسليمان الصائغ ويحى العبدالواحد وموسى الشابندر وسليم بطي ونديم الاطرقجي وصفاء مصطفى وشـــهاب القصب ويوسف العـــاني وعبدالستار العزاوي وسعدون العبيدي •

وخلال الفترة نفسها التي سبقت ثورة تموز ١٩٥٨ ، ظهرت محاولات محدودة لكتابة المسرحية الشعرية ، اقدمها تلك التي كتبها الدكتور سليمان غزالة ، الذي يعد من قدامى المثقفين العراقيين الذين اتجهوا الى المسرح ، ولا نملك حاليا من المعلومات مايسمح بتحديد الزمن الذي بدأ فيه هذا المؤلف كتابته للمسرح ، ولكن الطبعة الثانية من مسرحيته الشعرية « لهجة الابطال » الصادرة في القسطنطينية والتي يعود تاريخها الى عام ١٩١١ ، يمكن ان تضعه بحق في طليعة رواد المسرح الشعري العربي •

ومن كتاب المسرحية الشعرية في العراق نذكر عبدالحميد الراضي الذي اصدر « ثورة العرب الكبرى » و « ثورة العـــراق الكبرى » ، ومنهم كان خضر الطائي ومحمد الهاشمي • وحققت المسرحية الشعرية تقدما ملحوظا على يدي الشاعر خالد الشواف الذي كتب « شمسو » و « الاسوار » ، وقـــد عالجت كلتاهما قضايا معاصرة في اطار من التاريخ العراقي القديم •

ان ابرز ماميز الحركة المسرحية في العراق ، ومنذ نشأتها ، انها كانت وثيقة الارتباط بالحياة الاجتماعية المتطلعة الى التقدم ، وبالنضالات الوطنية والقومية التي قادتها الجمعيات والنوادي والاحزاب ، التي كانت قائمة قبل

الحكم الاهلي وبعده • ولذلك فأن المسرحيين الوطنيين قد ذاقوا ماعاناه غيرهم من ابناء الشعب من اضطهاد السلطات العميلة ، وكثيرا ما كان يجري ايقاف العروض واعتقال الممثلين او سحب اجازات الفرق المسرحية ، بسبب مناوءتها للمحتلين والنظام السياسي السائد •

ولم يكن المسرح في العراق ، خلال هذه الفترة ، يواجه بطش المحتلين وعنت السلطة العميلة وحدهما ، بل كان يكافح من ناحية اخرى ضد التزمت الاجتماعي والعلاقات المتخلفة التي كانت ترى في النشاط المسرحي ضربا من التهتك والانحلال الخلقي وبسبب من هذه النظرة تعرض عدد من العاملين في الحياة المسرحية الىتجاوزات من أولياء امورهم •

وجراء هذه المفاهيم التي سادت في اوساط عريضة من المجتمع ظلت المرأة العراقية تحجم عن اقتحام معترك العمل المسرحي حتى اواخر النصف الاول من القرن العشرين ، حيث تجرأ عدد من الفنانين على زج نساء من عوائلهم بالفرق التمثيلية التي كانوا يعملون فيها ، واسندوا إليهن الادوار التي كان يؤديها في السابق رجال او نساء ملاهي ذلك الزمن المندثر •

وبذلك خطت الحركة المسرحية في العراق خطوة اخرى ، بأتجاه مرحلة تاليـــة •

الســـــينما

تحقق فن السينما ، بعد ان استوعب العناصر المأخوذة من الفروع المختلفة للمعرفة الانسانية وتجاربها ، والامر الذي صنع السينما كفن هو أنها محصلة تركيب مبدع للكثير من الفنون الاخرى •

وخطا هذا الفن خطوته الاولى الواثقة عندما عرضت اولى أفلامه القصيرة والصامتة ، والتي كانت تدعى بـ « السينما توكراف » ابتداء من ٢٨ كانون

الاول ١٨٨٥ في مقهى كبير بباريس • وقد بات هذه اليوم هو التاريخ الرسمي الذي يحتفى فيه بميلاد فن جديد ، وهو السينما •

ولمزاياه الجذابة والمثيرة ، فقد انتشر هذا الفن في ارجاء مختلفة من العالم : ففي عام ١٨٩٦ شاهد جمهور عربي في مدينة الاسكندرية بمصر مجموعة من افلام « السينما توكراف » وجاءت هذه الافلام الى العراق عام ١٩٠٩ ، حيث جرى عرض عدد منها في دار الشفاء الواقعة في الجانب الغربي من بغداد (الكرخ) وقد انبهرت تلك الجمهرة التي حضرت العرض بما شاهدت من « الالعاب الخيالية » كما دعيت في ذلك الوقت •

ويبدو ان هذا الفن الوافد ، قد راق لبعض تجار ذلك الزمان ، فقرروا اختيار مكان مناسب عام ، يرتاده الاهالي بموجب تذاكر • وقد وفق هؤلاء الى تشييد اول دار للعرض في عام ١٩١١ وسط البستان « الملاصق للعبخانة »، وتقع هذه المنطقة – حاليا – عند منتصف شارع الرشيد ببغداد •

جاء في (صدى بابل) الجريدة العراقية الصادرة في ايلول ١٩١١ «يبتدىء اول تمثيل بالسينما توكراف في يوم الثلاثاء مساء ، منذ الساعة الواحدة ونصف ، في البستان الملاصق بالعبخانة • وهذا التمثيل الاول يكون بالاشكال اللطيفة التهذيبية المبهجة الاتية :

١ – صيد الفهد •
٢ – الرجل الصناعي •
٣ – بحر هائج •
٤ – التفتيش على اللؤلؤة السوداء •
٥ – سباق مناطيد •
٦ – طيور مفترسة في أوكارها •
٧ – خطوط حية •

٨ ـ تشييع جنازة ادوارد السابع ملك انكلترا وهو مشهد نفيس » ٠

توالت هذه العروض خلال الاعوام التالية وشيدت لها دور خاصة . تولى اصحابها وهم من التجــار المعروفين في بغداد استيراد الافلام والاعلان عنها ٠ ولعبت الصحافةدورا واسعا في التبشير بالسينما والدعوةالى مشاهدتها، ومع اتساع هــذه الظاهــرة ، انتعش النشاط المسرحي ، واخــذ الشــبان يهربون من المقاهي الى دور العرض نشبهــا بتلك النخبة من المتنورين التي وجدت في السينما مصدرا جديدا يضاف الى مصادر ثقافتها ، كذلك تقلصت مظاهر اللهو الرخيصة التي شاعت في العراق بعد اعلان دستور ١٩٠٨ ٠

في عقد العشرينات تعمق الوعي بفن السينما ، فأفردت الصحف والمجلات التي ظهرت بعد الحكم الاهلي زوايــا وصفحــات لعرض اخباره والتعريف بنجومه ٠ وخلال هذا العقد ظهرت اولى المحاولات في النقد السينمي ، كذلك قامت بعثات اجنبية بزيارات الى بغداد ، وصورت الاحداث الجارية في العراق، وتولت عرضها للجمهور ٠ مثل مقدم فيصل الاول وتنصيبه ملكا على العراق، الذي صوره مصور بريطاني ، وقام مصور اخر بتصوير حفر بئر لاستخراج النفــط ٠

ومن ذلك ، ان (السينما الوطني) اعلنت في سنة ١٩٢٧ عن عرض اربعة افلام في وقت واحد ، بينها هذان الفلمان :

١ ـ مناظر الحفلة الربيعية للجيش العراقي ٠

٢ ـ تدشين طيارة مدينة بغــداد ٠

ومن المتغيرات ذات الاهمية في هذه الفترة ان السينما ، كأفلام ومكان للعرض ، اصبحت ظاهرة لها ابعادها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، فهذه (السنترال سينما) وهي دار للعرض معروفة ، تقرر تخفيض اسعار الدخول اليها (ليتمكن الجميــع من الاستفادة من الروايات الجميلــة والمفيــدة) ٠

ونشرت جريدة (العراق) مقالا دعت فيـه انـي معاضدة السينما ، وابداء (التسهيلات اللازمة حتى تعيش وترقى وتتقدم) لانها (من الصناعات الوطنية، هذا فضلا عن لزومها لثقافة البلد وتهذيبه وتعليمه؛ وهي احسن معاهد يختلف إليها في ساعات الفراغ) .

في عقد الثلاثينات ، ابتدأت المحاولات الاولى لتأسيس صناعة افلام في العراق ، نذكر منها ، ان وكلاء شركة فوكس العالمية للافلام في بغداد ، قـد فاتحوا الفنان حقي الشبلي عام ١٩٣٤ وقبل سـفره الى باريس لانتاج فلم روائي يضطلع ببطولته . وفي عام ١٩٣٨ قام الاخوان حافظ ومصطفى القاضي بمحاولة مماثلة .. لكـن ايه مـن المحاولين لم توفق في تلمس سبيلها الى التحقق ، غير ان الفشل في هذا المسعى ، لم يمنع نجاح محاولات اخرى ظهرت عبر العقد التالي الذي شهد وقائع الحرب العالمية الثانية .

لابد من القول ، في هذا السياق ، ان القطاع الخاص ، ومنذ عام ١٩٠٩ ولغاية ثورة تموز ١٩٥٨ ظل مستورداً وموزعا للافلام، وقد أثري هذا القطاع جراء تكاثر دوز العرض التي كان يديرها وتعدد الشركات الاجنبية والعربية المنتجة للافلام والموزعة لها ، التي كان يتعامل معها ، كما وفق القائمون على القطاع المذكور في الحصول على التخصيصات المالية التي أعانته في استيراد الافـــلام .

في عام ١٩٤٣ اقدم القطاع الخاص على تأسيس شركته الانتاجية الاولى وهي (شركة افلام بغداد المحدودة) برأسمال قدره خمسة عشر ألف سهم ، طرحت منها للاكتتاب ١٢٫٦٠٠ سهما ، وكان سعر السهم دينارا واحدا فقط .

ومؤسسو هذه الشركة هم مهدي البصام وحسن الحسـني وناصر نعيم. وقد فشل هؤلاء في انتاج اي فلم بعد ان خاب حظهم في شراء اراضي العرموش التي شيدت عليها فيما بعد سينما روكسي وسينما ريكس، المطلتان على شارع الرشيد من جهة الباب الشرقي .

ثم ظهرت شركات اخرى ، وفقت احداهـا وهي (شـركة افلام الرشيد العراقية ـ المصرية) عام ١٩٤٦ في انتـاج الفلم الاول ، وهو « ابن الشرق » الذي اخرجه الفنان المصري نيازي مصطفى ومثل فيه عدد كبير من الفنانين العرب بينهم مديحة يسري ونورهان وبشارة واكيم ، ومن العراق مثل فيه عادل عبدالوهاب وحضيري ابو عزيز ، وعرض فلم « ابن الشرق » خلال ايام عيد الاضحى في اواخر عام ١٩٤٦ .

وفي العام المذكور تم انتاج الفلم الثاني من قبل (شركة اصحاب سينما الحمراء العراقية) و (شركة اتحاد الفنيين المصرية) ، وكان بعنوان (القاهرة ـ بغداد) . وقد كتب قصته يوسف جوهر وحقي الشبلي وقام باخراجه الفنان المصري احمد بدرخان ، ومثل فيه من العراق كل من حقي الشبلي وابراهيم جلال وعفيفة اسكندر و فخري الزبيدي وسلمان الجوهر وعدد من طلبة معهد الفنون الجميلة ببغداد ، وجرى عرضه عام ١٩٤٧ .

ومع الفلمين « ابن الشرق » و « القاهرة ـ بغداد » بوشر بالتحضـير للفلم الثالث « عليا وعصام » الذين اخرجه الفرنسي اندريه شوتان ومثل فيه ابراهيم جلال وسليمة مراد وعزيمة توفيق وعبدالله العزاوي وجعفر السعدي وفوزي محسن الامين ويحيى فايق .

انتج فلم « عليا وعصام » من قبل استديو بغداد ، وجرى عرضه في اذار ١٩٤٩ بسينما روكسي . وقد اثار هذا الفلم المشـاهدين وملأهم بالدهشـة والاعجاب ، كما ان النقاد والكتاب توقفوا عنده طويلا ، وظهرت لهم عنه في الصحف والمجلات كتابات وتعليقات غير قليلة .

بعد نجاح « عليا وعصام » قام ستديو بغداد بأنتاج فلم ثان بعنـوان « ليلى في العراق » الذي اخرجه الفنان المصري احمد كامل مرسي ومثل فيه المطرب اللبناني محمد سلمان ، ومن العراق شارك في « عليا وعصام » الفنانون ابراهيم جلال وعبدالله العزاوي وجعفر السعدي بالاشتراك مع المطربة عفيفة

اسكندر . وقد عرض هذا الفلم خلال شهر كانون الاول من عام ١٩٤٩ ، بسينما روكسي ايضا .

بعد تلك الافلام الاربعة ، التي كانت نتاج الخبرات العربية والاجنبية ، توقفت الشركات التي ظهرت في الاربعينات عن الانتاج . بسبب انسحاب اصحاب رؤوس الاموال الى ميادين اخرى ، أمنت لها ارباحا اوفر .

عند منتصف الخمسينات ، ظهرت شركات ومكاتب عديدة سعت جميعها الى انتاج افلام ، غير ان المقاصد كانت متقاطعة ومختلفة ، بينما كان القليل جادا في حمله وسعيه ، وبما حقق ، ومن ذلك كانت هذه الافلام :

١ ـ فتنة وحسن ـ اخراج : حيدر العمر .
٢ ـ ندم ـ اخراج : عبدالخالق السامرائي .
٣ ـ وردة ـ اخراج : يحيى فايق .
٤ ـ سعيد افندي ـ اخراج : كاميران حسني .
٥ ـ من المسؤول ـ اخراج : عبدالجبار ولي .
٦ ـ ارحموني ـ اخراج : حيدر العمر .
٧ ـ الدكتور حسن ـ اخراج : منير آل ياسين .
٨ ـ نبوخذ نصر ـ اخراج : كامل العزاوي . وتم عرض هذا الفلم بعد ثورة تموز ١٩٥٨ .

في ختام هذا المبحث لابد من الاشارة الى الفلم الوثائقي والاخباري الذي لم ينل الاهتمام اللائق به ، خلال طوال المرحلة التي نؤرخ لها . أما الجهات التي تولت انتاج هذا الشكل السينمي ، فهي الشركات الاجنبية التي كانت تعمل بالعراق ، وكذلك وزارة التربية (وزارة المعارف سابقا) التي حققت مجموعة من الافلام القصيرة التي تصور النشاطات التعليمية وذلك من خلال الوحدة السينمائية الملحقة في مديرية الوسائل التعليمية .

المصادر

١ ــ د. علي الزبيدي (المسرحية العربية فيالعراق) ــ مطبعةالرسالة، القاهرة.
وانظر : أحمد فياض المفرجي (الحياة المسرحية في العراق ١٨٨ــ١٩٢١)
مجلة « سينما ومسرح » ــ العــدد الاول ــ حزيـران ١٩٨٢
الصادرة عن المؤسسة العامة للسينما والمسرح ــ بغداد .

٢ ــ احمد فياض المفرجي (ماهي قصة العثور على أول نص مسرحي يطبـع في العراق) ــ مجلة الاذاعة والتلفزيون ــ العدد ١٨٢ في ١٩٧٦/٣/٢٨ .

٣ ــ احمد فياض المفرجي (مؤسس اول فرقة مسرحية كان صحفيا) ــ مجلة الف باء ــ العدد ٤٠٤ في ١٩٧٦/٦/٦ .

٤ ــ الدليل العراقي لسنة ١٩٣٦ .

٥ ــ احمد فياض المفرجي (الفنان حقي الشبلي رائد المسرح العراقي) ــ مطبعة ثويني ــ بغداد ١٩٨٥ وانظر مجلة « الاذاعات العربية » الصادرة في تونس العــدد الاول لسنة ١٩٨٥ .

٦ ــ احمد فياض المفرجي (الحركة المسرحية في العراق) ــ مطبعة الشعب ، بغداد ١٩٦٥ .

٧ ــ احمد فياض المفرجي « لهجة الابطال » نص مسرحي يسبق احمد شوقي ــ مجلة الف باء ــ العدد ٤٥٥ في ٨ حزيران ١٩٧٧ .
وانظر (المسرح العراقي اليوم) منشورات مركز الابحاث والدراسات في المؤسسة العامة للسينما والمسرح ــ ١٩٧٨ .

٨ ــ أحمد فياض المفرجي (ممثلات المسرح العراقي) مجلة الاذاعة والتلفزون ــ العدد ١٦٣ في ١٩٧٥/١١/٩ .

٩ ــ احمد فياض المفرجي (السينما في العراق) مطبعة دار الصياد ــ بغداد ١٩٨٠ .

١٠ــ احمد فياض المفرجي ــ (السينما التسجيلية في العــراق) ــ بغــداد ١٩٧٩(بالرونيــو) .

المحتوى

تنبيــه

يرجى تصويب ما يأتي :

١ ــ في الجزء (٣) ص (٧) يوضع عنوان (الفخار) تحت عنــوان (الفصل الاول) ويوضع عنــوان (المبحث الاول) فــوق عنــوان (الفخار في عصر ما قبل التاريخ) .

٢ ــ في الجــزء (٤) ص (٧) تستبدل (في) بـ (حتى) في عنــوان المبحث ، وفي الصفحة (٤٠٥) يحل (الفصل الرابع) محل (الفصل الثامن) .

٣ ــ في الجــزء (٥) ص (٤٠٣ ــ ســطر ١١) تصــحح (واحــدة) بـ (واجدة) .

٤ ــ في الجزء (٦) ص (٤) تصحح (١٩٨٤) بـ (١٩٨٥) .

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ـ بغداد
(١٤٩٣) لسنة ١٩٨٥

دار الحرية للطباعة ـ بغداد
١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٥ م

